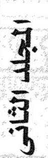
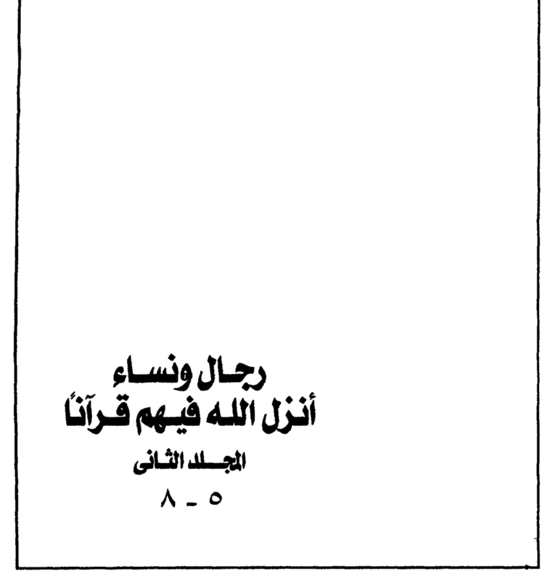
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

د. عبد الرحمن عميرة

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا







رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآنا

المجلد الثانى

٥ - ٨

لوحة الغلاف

اسم العمل : تفاصيل من قبة الصخرة

التقنية : فسيفساء

يقول الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه فنون الإسلام:«من إبداع العمائر فى الشام (قبة الصخرة) فى بيت المقدس، وقد كانت منطقة مقدسة عند الساميين القدماء، وظلت منزلته الدينية عظيمة عند المسلمين. وقد تم بناء هذه القبة سنة ٧٢ هجرية (٦٩١م) على يد عبد الملك بن مروان، وهى بناء حجرى مثمن الشكل، قوامه تثمينة خارجية من الجدران، تليها من الداخل تثمينة أخرى من الأعمدة والأكتاف. داخل هذه التثمينة دائرة من الأعمدة والاكتاف أيضا، وفوق الدائرة قبة مرفوعة على رقبة أو أسطوانة فيها ست عشرة نافذة. والقبة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص، ومن الداخل طبقة من الجص. وضلع المثمن الخارجى طوله نحو عشرين متراً ونصف المتر، وارتفاعه نحو تسعة أمتار ونصف المتر. وفى الجزء العلوى من كل ضلع فى هذا المثمن أربعة أبواب، وفى وسط هذا البناء الصخرى المقدسة، التى يروى أن النبى عليه الصلاة والسلام وضع قدمه عليها ليلة المعراج، ولذا يسمى البناء قبة الصخرة. وإن كان يعرف أحيانا بإسم جامع عمر، لأن عمر بن الخطاب كان قد أقام فى موضعه مصلى من الخشب قبل أن يقيم عبد الملك بن مروان على أنقاضه البناء الحالى»

محمود الهندى

إهــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً

المجلد الثاني

د. عبدالرحمن عميره



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً

المجـلد الثانى

د. عبد الرحمن عميره

الغـلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : محمود الهندى
المشرف العام :
د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان



مقدمة

نحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقنا في ابراز الأجزاء الأربعة من كتابنا «رجال أنزل الله فيهم قرآناً» بهذه الصورة المشرقة التي كان لها أعمق التقدير في الأوساط العلمية والثقافية.

أما هذا الجزء وهو الجزء الخامس فهو خاص بثلاثة من عمالقة الاسلام.

أما أولها: فهو الصديق أبو بكر — الذي ضحى بماله وبكل ما يملك من ثروة في سبيل إعلاء كلمة الحق.

وهو الذي وقف في وجه المرتدين عن الاسلام وقال كلمته المشهورة: والله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم — لحاربتهم عليها.

والثاني: عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — عملاق الاسلام والذي كان يذرف الدموع الغزار خوفاً من الله تعالى وعندما قال له ابنه عبدالله ما الذي يبكيك يا والدي..؟ ولقد أمنت الخائف، وأشبعت الجائع، وكسوت العاري..؟ قال: يا بني أخشى لو عثرت بغلة في طريق العراق لحاسب الله عليها عمر لأنه لم يجهز لها الطريق.

عمر بن الخطاب الذي كان يحاسب الولاة ويطالبهم برد الهدايا التي أعطيت لهم لبيت المال.

وأما الثالث: فهو عثمان بن عفان — رضي الله عنه — الذي جهز جيش العسرة

من ماله الخاص. حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك.».

عثمان الذي وقعت في عهده الفتنة — الفتنة التي أثارها عبدالله بن سبأ، ففرقت الأمة، ومزقت الوحدة، وجعلت بأس المسلمين بينهم شديداً.

فمتى يخرج المسلمون من هذا الليل الطويل الذي يلفّ حياتهم متى يا ربّ..؟

د. عبد الرحمن عميرة

أبو بكر الصّدّيق

رضي الله عنه

الآيات التي نزلت في أبي بكر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾



[سورة الأحقاف آية ١٥]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصدّيق — رضي الله عنه — .

قال ذلك صاحب تفسير البغوي ٦ / ١٣٤ .

وقال رواية أخرى صاحب الدر المنثور ٦ / ٤١ .

وقاله صاحب كتاب أسباب نُزول القرآن الامام الواحدي ص ٤٠١ .

فمن هو أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه؟.

قال رسول الله ﷺ

«ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة.

وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن صاحبكم خليل الله.

وما عرضت الاسلام على أحد إلا كانت له كبوة إلا أبو بكر فإنه لم يتلعثم في قوله».

أخرجه الترمذي

أبو بكر الصدّيق

رضي الله عنه

.. أول من آمن وصدق برسالة الرسول ﷺ من الرجال. ورفيق الرسول في رحلته إلى يثرب.

ومحرر الرقيق والعبيد من مخالب الطغاة المستبدين من صناديد قريش ورافع راية الجهاد ضد المرتدين حتى عادت الجزيرة العربية إلى كتاب ربها.

وأول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول عليه السلام.

ووالد أُم المؤمنين عائشة — زوج النبي — ﷺ.

اسمه: عبدالله بن أبي قحافة.

ولقّب: بالصدّيق.

وسماه رسول الله ﷺ بالعتيق.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«اني لفي بيت رسول الله ﷺ وأصحابه في الفناء وبيني وبينهم الستر إذ أقبل أبو بكر فقال رسول الله:

«من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا[1]».

ووصف بأنه نسابة العرب.

ووهبه الله سبحانه وتعالى عقلاً ألمعياً، وحافظة قوية، تعي ولا تنسى، وتحفظ ولا تترك، من ذلك.

أن رسول الله ﷺ كان يوماً جالساً بين أصحابه يستعيد ذكرى الأيام الأولى قبل بعثته فقال:

«لست أنسى قس بن ساعدة، ممتطياً جملاً أورق في سوق عكاظ وهو يتحدث حديثاً ما أحسبني أحفظه».

فقال أبو بكر: إني أحفظه يا رسول الله، كنت حاضراً ذلك اليوم في سوق عكاظ ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول:

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا: إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت.

إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا.

ومهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور.

ليل داج وسماء ذات أبراج.

يقسم قَسّ، إن لله لديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه».

ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا..؟ أم تركوا فناموا..؟».

ثم أنشد أبو بكر شعر قَس بن ساعدة:

في الـــذاهـــبين الأولين ... من القـرون لنا بصائر

(١) أخرجه الترمذي باب مناقب أبي بكر الصدّيق، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال صاحب جامع الأصول: لكن للحديث شواهد بمعناه يرقى بها ذكر بعضها في مجمع الزوائد.

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

إن الله سبحانه وتعالى رزقه هذه الحافظة الواعية والقلب الذكي لأنه يعده لكبار الأمور ويهيئه ليكون درعاً لرسوله ﷺ عندما يحمل رسالة ربه، ويدعو الناس إلى عبادته وتوحيده.

أما عن أخلاقه وسماحته فكما وصفه الرسول ﷺ بقوله:

«إن الله عزّ وجلّ ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله عزّ وجلّ ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة.

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم قال:
﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[1].
وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال:
﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[2].

إن هذا الشيء يدل على سماحة الخلق ونزاهة القصد، ومحبة خلق الله ومعرفة ما ركب في طبائعهم من ضعف وقصور. وهكذا كان أبو بكر رضوان الله عليه. وأيضاً تدل هذه الأوصاف — على التسليم الكامل لمشيئة الله سبحانه وتعالى والرضى بقدر الله وحكمه.

وهذه إحدى خصائص الإيمان الذي كان يعمّر قلب الصدِّيق ويفيض على من حوله بالخير والرعاية والتوجيه.

---

(١) سورة ابراهيم آية ٣٦.
(٢) سورة المائدة آية ١١٨.

وبهذه الأخلاق العالية، والسلوك الطيب الذي التزمه أبو بكر رضي الله عنه طوال حياته قال الرسول ﷺ كلمته المشهورة:

«إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، غير أن الله قد اتخذ صاحبكم خليلاً يعني نفسه، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[1].

فإذا أردنا أن نتعرف على صفات أبي بكر الجسدية. فإن الرواة يقدمون لنا سجلاً بأوصافه وثبتاً بهيئته وملامحه.

يقول ابن سعد في طبقاته: إن عائشة رضي الله عنها نظرت إلى رجل من العرب ماراً وهي في هودجها فقالت:

«ما رأيت رجلاً أشبه بأبي بكر من هذا فقلنا صفي لنا أبا بكر.؟

فقالت: رجل أبيض نحيف، خفيف العارضين، أجنأ لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقوته، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة عاري الأشاجع»[2].

هذه صفة أبي بكر الصدِّيق — رضي الله عنه —.

لم يكن طوالاً عملاقاً.

ولا ضخم الجسم بديناً.

وليس فيه ما يلفت النظر، أو يسترعي الانتباه.

ومع ذلك وقف التاريخ مبهوراً يسجل أعماله ويحصي أفعاله.. ويتركها للأجيال من بعده نوراً على الدرب ومشعلاً لهداية الحيارى والمتعبين.

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة باب مناقب أبي بكر والترمذي في المناقب.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٨٨.

إسلام أبي بكر رضي الله عنه

لقد كان الصدّيق قبل بعثة الرسول ﷺ يشتغل بالتجارة وكان يشارك في رحلة الشتاء والصيف التي ذكرهما القرآن. وكانت هذه الرحلات وما يحمله فيها من عروض التجارة تدرّ عليه مالاً وفيراً وخيراً كثيراً، وبالإضافة إلى ذلك أعطته خبرة ومعرفة بنفوس الناس وطرق معاملتهم.. ومن أهمها الصبر وحسن الخلق.

وفي إحدى رحلاته للشام وبعد أن هيأ تجارته وقبل أن يعود إلى مكة رأى رؤيا استولت على وعيه، وملأت وقته بالتفكير والتأمل.

فسارع إلى أحد الرهبان الصالحين وكان يعرفه من كثرة تردّده على تلك البلاد وقصّ عليه ما رآه وهو:

«أن القمر قد غادر مكانه في الأفق الأعلى، ونزل على مكة حيث تجزأ إلى قطع وأجزاء تفرقت على جميع منازل مكة وبيوتها، ثم تقاربت هذه الأجزاء مرة أخرى، وعاد القمر إلى كيانه الأول، واستقر في حجر أبي بكر.

فتهلل وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر:

لقد أهلّت أيامه..

وتساءل أبو بكر:

مَن تعني.؟ النبي الذي ننتظر.؟

ويجيبه الراهب:

نعم وستؤمن معه وستكون أسعد الناس به.

ويعود أبو بكر إلى مكة، وتصل إلى أذنيه كلمات قريش التي ترددها بشأن محمد ﷺ.

ويقترب من أبي بكر أحد الرجال ويقول له: أعلمت ما فعل صاحبك.؟

ويجيبه أبو بكر وماذا فعل يا أخا العرب؟

وقال الرجل: ما ندري ذات صباح حتى صعد محمد على الصفا فهتف: يا صباحاه.

فقالوا: من هذا الذي يهتف.؟

قال: محمد.

فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني عبد فلان، يا بني فلان، يا بني فلان يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب.

فاجتمعوا إليه، فقال: أريتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي.؟

قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1].

كان الرجل يقصّ ذلك ـــ وأسارير أبي بكر تنفرج ودقات قلبه تتلاحق حتى انتهى الرجل من أقواله.

فقال أبو بكر كلمته الخالدة:

«إن كان قائله فقد صدق».

وأسرع أبو بكر حيث يجلس الرسول ﷺ وقال له:

يا أبا القاسم ما الذي بلغني عنك.؟

فسأله النبي: وما بلغك عني يا أبا بكر؟

قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

قال: نعم يا أبا بكر إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني دعوة ابراهيم وأرسلني إلى الناس جميعاً.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٦٠.

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذباً وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مُد يدك فإني أبايعك .

وهكذا أصبح الصدِّيق أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيِّه عليه السلام ، دان به سريعاً ، وكتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين في الاسلام وثاني اثنين في غار الهجرة . وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبي في شدة الاسلام ورخائه وفي سرّه وجهره ، وفي شؤون نفسه وشؤون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للاسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه .

ومن الشواهد الدّالة على ذلك أنه أشار على النبي ﷺ أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدّعاء فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والايذاء . وتصدّى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه ، وخفى على الناظر إليه مكان أنفه . وتسامع أهله من بني تيم فأقبلوا يتعادون ويجلون المشركين عنه ، ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته ، وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .. ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب .

فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله .. ؟

فلاموه وعنفوه وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يردّ إليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله .

قالت : والله ما أعلم بصاحبك .

قال : فاذهبي إلى بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عيناً من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله.

فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله.

ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله فوجدته صريعاً دنفاً قد برَّح به الألم فغلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول:

«إن قوماً نالوا منك لأهل فسق وإني لأرجو أن ينتقم الله لك.

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته:

«ما فعل رسول الله». ؟

قالت: وهي لا تزال حذرة من أمه:

«هذه أمك تسمع». ؟؟

قال: لا عين عليك منها.

قالت: سالم صالح.

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه وسألها أين هو. ؟

فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وأحب أن يذهب إليه فأكبرت المرأتان العطوفتان حبه لصديقه ونبيه فأمهلتاه حتى سكن الناس وخليت الطرق وخرجتا به يتكئ عليهما ولا يقدر على حمل نفسه ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحال فانكبّ عليه يقبّله، ورقّ الرسول لصديقه وصفيّه رقة شديدة.

واستمرّ الصديق على حاله تلك من الاستهانة بكل خطر، واسماع الكفار ما يضيقون بسماعه. حتى أذن له الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة.

واستجاب لدعوة رسوله، وحمل متاعه ويمم وجهه شطر الحبشة. وفي الطريق لحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدغنة.

فقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج.

إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك.

وطاف ابن الدغنة في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له: مره فليعبد ربه في داره يصلي فيها ويقرأ ما يشاء ولا يؤذينا ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

إلا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجداً يصلي فيه ويرتل القرآن.

ويخرج صوته الشجي بآيات القرآن إلى من حوله.

ويتجمع حول بيته الشباب والنساء والأطفال.

يصغون ويطيلون الاصغاء.

ثم ينتشرون في دروب مكة وطرقاتها يرددون ما سمعوا، ويجتمع عليهم آخرون.

وتغتاظ قريش، وتصب جام غضبها على الموالي والضعفاء.

وتفزع إلى ابن الدغنة تطلب منه أن ينهي أبا بكر عما يفعل أو يسترد منه ذمته.

ويذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر ويضع بين يديه ما طلبته قريش.

ويرفض الصدّيق أن يستجيب إلى ما طلبوا.

ولم يكتفِ بذلك بل إنه قال لابن الدغنة عندما ألحّ عليه في ذلك:

«فإني أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل»[1].

وأخذ في الدعوة إلى دين الله.

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام، أسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٩٥ والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ١٠٣.

وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم كثير.

وعندما وجد قريشاً تعذب العبيد وتنكل بهم أخذ في شرائهم وتحريرهم. منهم بلال بن رباح مؤذن النبي ﷺ وكان سيده يخرجه في حمارة القيظ فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ويلقي بصخرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد.

فلا يزيد على أن يقول: أحدٌ أحد.

ويردّدها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب، اشتراه أبو بكر بما يساوي خمس أواق ذهباً.

فقيل له: لو أبيت إلا أوقية لبعناك.

فقال: ولو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته؟[1]

ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه، وهو لا يبالي ما يبذل من ماله وجهده في سبيل نصرة الاسلام وأتباعه.

ولكن قريشاً أحست بعد ذلك أنها تخسر جديداً كل يوم.

وأن دعوة محمد يقبل عليها الناس أفواجاً.

وتسامعت قبائل العرب بهذه الدعوة فجاءته الوفود تترى.

إذن لا بدّ من عمل جادّ حاسم يحفظ لها سلطانها ويرد لها عبيدها ويقضي على هذه الدعوة قضاءً لا قيام بعده.

فماذا تفعل.؟ وأي المسالك تسلك.؟ ولم يطل بها التفكير والتدبير واجتمع رجالها في دار الندوة.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٦٦ — ٦٧.

وتداولوا وقلبوا وجوه الرأي.

وانفضوا في النهاية على قرار.

لا بدّ من قتل محمد.؟؟ وتفريق دمه في القبائل. فما موقف أبو بكر من هذا القرار وماذا أعدّ له.؟

الصحبة يا رسول الله..؟

في ساعة من ساعات الهجير التي تلف مكة بوهج من اللظى والحرارة، فتدفع الناس إلى السكون والهمود في داخل منازلهم، خرج رسول الله ﷺ ميمّماً شطر منزل أبي بكر. وما أن وصل إلى هناك وأذن له بالدخول حتى أسرع إلى داخل البيت.

تقول عائشة رضي الله عنها: أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء.

فقال رسول الله ﷺ:

أخرج عني من عندك.

فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي وما ذاك؟. فداك أبي وأمي.

فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.

ثم قال يا نبي الله : «ان هاتين راحلتان كنت قد أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن اريقط يدلهما على الطريق[1] ».

وفي غار حراء استقر بهما المقام بعض الوقت طلباً للراحة وتضليلاً لقريش التي خرجت برجالها ومعداتها تطلب محمداً وصاحبه وتغري الطامعين والمغامرين بالمال وما هو فوق المال إن عادوا بمحمد حياً قبل أن يصل إلى دار العزة والمنعة.

يقول أبو بكر :

قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه.

فقال : يا أبا بكر.

«ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟[2] ».

ووصل موكب المهاجرين إلى المدينة تحدوهما رعاية الله وتحفظهما عنايته.

وفي المدينة آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وبين خارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصاري.

فنزل أبو بكر عليه وتزوج ابنته حبيبة.

وخارجة هذا يعد من كبار الصحابة ، وقُتل يوم أُحد قتله صفوان بن أمية أخذاً بثأر أبيه الذي قتله خارجة ومعاذ بن عفراء.

وهكذا استقر أبو بكر في يثرب بجوار صاحبه ﷺ ولم ينس في هجرته هذه أن يأخذ معه جميع ماله ، لا حرصاً عليه ، ولكن ليكون مورداً للدعوة وسنداً للمهاجرين ونفقه في سبيل الله.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ١٩٦ والكامل لابن الأثير جـ٢ ص ١٠٤ وسيرة ابن هشام جـ٢ ص ٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٩٨ والبداية والنهاية جـ٣ ص ٢٠٠ وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث همام.

تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها لما هاجر رسول الله ﷺ وهاجر أبو بكر معه . احتمل أبو بكر ماله كله ، خمسة آلاف درهم أو ستة . فدخل علينا جدي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، وقال :

«إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه»؟؟

قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبي يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده وقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال :

«لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم».

ولا والله ما ترك لنا شيئاً. ولكني أردت أن أسكن الشيخ[1] .

وعاش مع الرسول ﷺ كما يعيش الجندي يأتمر بأمر قائده يصدر اليه الأمر فلا يتلعثم ولا يجادل بل يقوم بتنفيذه على الفور.

ووضع نفسه وماله وحياته تحت إمرة قائده ورسوله ﷺ حتى تكلم الرسول ﷺ موضحاً دور أبي بكر واخلاصه لدينه ورسوله بقوله :

«ما لأحد عندنا يد ، إلّا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة».

«وما نفعني مال أحد قط ، مثلما نفعني مال أبي بكر».

«وما عرضت الاسلام على أحد إلّا كانت له كبوة عدا أبي بكر فإنه لم يتلعثم[2] ».

إنه رجل من معدن الرجولة.

وإنسان من خلاصة الانسانية.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٢.

(٢) رواه الترمذي في المناقب باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهو كما قال : حسن بشواهده وقد ذكره الحافظ في الفتح.

ومن الصفوة المختارة من رجالات الاسلام.

نعم رجالات الاسلام الذين أجابوا داعي الله.

وملأ الإيمان قلوبهم فكانوا للبشرية نوراً، أنقذها من دياجي الظلمة ومن شباك الضلال...

إنه من رجال مدرسة النبوة أصدق مدرسة عرفها سجل التاريخ.

وفي السنة الخامسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ في جمع من أصحابه قاصدين مكة ليعتمروا.

وعلمت قريش بخروج الرسول اليها وصممت على منعه من دخول مكة.

فأرسل الرسول اليها عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبرها أن الرسول ما جاء لقتال وإنما جاء معتمراً.

ولكنها ركبت رأسها وصممت على المنع.

وانتهت المفاوضات إلى عقد ميثاق يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مرجئين زيارة البيت إلى العام القادم.

وأثارت شروط صلح الحديبية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ورأى أن فيها إجحافاً بحق المسلمين.

فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟.

قال: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟.

قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟.

قال: بلى.

قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟.

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه[1]. فإني أشهد أنه رسول الله.
قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله[2].

هكذا كان موقف أبي بكر من الرسول ﷺ التسليم الكامل لحكمه، والتصديق الشامل بكل ما يأتي وما يدع.

وما كان أبو بكر يكون ذلك لولا الإيمان الغامر الذي يملأ كل ذرة من ذرات جسمه، ويحرك كل خلجة من خلجاته، وكل كلمة من كلماته حتى قال عنه صاحبه وأعرف الناس به:

«لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر».

هذا الإيمان الذي يملأ قلب صاحبه، فيضيء له الطريق، ويوضح له السبل ويكون فرقاناً له بين الحق والباطل، هو إيمان عمر أيضاً ولكن عمر يختلف عن أبي بكر في بطء التلقي. وفي التفتيش عن الحجة الظاهرة والرأي البين يتضح ذلك من محاورته مع رسول الله ﷺ بعد تركه لأبي بكر بقوله:

«يا نبي الله، ألست نبي الله حقاً»؟
وأجابه الرسول:
بلى، يا عمر...
قال: فلم نعط الدنية في ديننا؟.
أجابه الرسول:
يا عمر، إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري.
قال عمر:
أولم تعدنا، يا رسول الله، بأننا سنأتي البيت ونطوف به؟.

(١) غرزه: يريد الزم طريقه ولا تختر لنفسك إلا ما يختاره.
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٥.

قال الرسول : أوقلت هذا العام يا عمر؟.

قال عمر : لا ..

قال النبي : فإنك آتيه ومطوف به.

يقول عمر : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً[1].

هذان هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

شربا من نبع الاسلام حتى فاض على ما حولهما بالري والشبع.

ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ لأصحابه : عندما أقبل أبو بكر وعمر أحدهما آخذ بيد صاحبه :

«من سره أن ينظر إلى سيدي كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين.. فلينظر إلى هذين المقبلين».

ويسأل عمرو بن العاص رسول الله ﷺ بقوله :

يا رسول ، أي الناس أحب اليك؟.

قال : عائشة.

قلت : إنما أعني الرجال.

قال : أبوها.

صدق رسول الله ﷺ فهو جدير بالحب والتقدير وفي الأيام المقبلة ؛ بعد هذا الحديث أثبت أبو بكر أنه جدير بحب الرسول ﷺ.

لقد أدى الرسول الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ونزل قول الله تعالى :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٦ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٩٠.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾[1].

وبلغ الكتاب أجله ومات رسول الله ﷺ، وتسامع المسلمون بالخبر، فطاشت عقولهم، وسلبت ألبابهم، وأوشك أن تعمهم فتنة عمياء.

حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.

والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال زعموا أنه مات.

ألا، لا أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات، إلّا فلقت هامته بسيفي هذا[2]».

هذا هو موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، موقف الرجل الذي أذهلته المفاجأة والفاجعة في أحب الناس اليه، من أن يتحصن بالايمان ويعود إلى ربه يستلهمه الرشد والصواب.

وإذا كان هذا موقف عمر رضي الله عنه، فما موقف أبي بكر؟.

يقول صاحب الطبقات:

«دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ وهو مسجى في ناحية البيت عليه بُرْد حِبَرَه فكشف عن وجهه، ثم قبّله وقال:

«بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً. إن الموتة التي كتبها الله عليك قد متها.

ثم رد الثوب على وجه الرسول ﷺ.

ثم خرج وعمر يكلم الناس فدعاه للسكوت، فأبى عمر إلّا أن يسترسل في قوله:

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٢ وذكره البيهقي عن طريق ابن لهيعة.

فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس يكلمهم . فلما سمعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ..

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لأ يموث .

ثم تلا هذه الآية :

قال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾[1] .

فوالله لكأن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة .

أما عمر فقد وقع على الأرض ، حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقاً[2] .

إنه الفهم الكامل لحقيقة الحياة .

والوعي الناضج لكتاب الله .

والرجل الذي يتقبل الأمور الصعاب بجلد الأقوياء ، وبصبر الأتقياء وبعزاء الأوفياء .

إنه الصديق الذي لم يتلعثم عندما سمع بدعوة الاسلام .

والرجل الذي بذل ماله وحياته لنصرة هذا الدين .

والذي قبل الهجرة مع صاحبه مع ما فيها من مخاطر وصعاب .

فماذا ننتظر منه في هذا الموقف غير هذا ؟ .

لقد فقد فعلاً أعز الناس اليه .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٢ .

فماذا تراه يفعل.. والتبعة ثقيلة، والطريق طويلة، وكلمة التوحيد الخالدة، لا بد أن تصل إلى الأصقاع البعيدة وإلى كل مكان يعمره البشر ويقطنه خلق الله؟.

ولكن قبل هذا وبعده من يتولى أمر المسلمين؟.

من الذي تسند اليه تبعة الخلافة؟.

وهل يتفق المسلمون على أحد أم تراهم يختلفون.. ويتقاتلون؟. هذه هي بعض الأمور التي شغلت بال أبي بكر رضي الله عنه بعد أن وارى جسده الطيب الطاهر وألقى على الرسول ﷺ في قبره نظرة أخيرة.

فمن هو أحق الناس بالخلافة؟.

إذا كان ذلك كذلك، فلنعد بالزمن خطوات قبل وفاة الرسول ﷺ وعلى وجه التحديد في مرضه الأخير.

مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس..

.. تقول عائشة، رضي الله عنها، لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال:

«مروا أبا بكر فليصل بالناس».

قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يُسمع الناس فلو أمرت عمر.

قال: مروا أبا بكر يصلي بالناس.

فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر.

فقالت له حفصة.

فقال: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً[1] .

قالت : فأمروا أبا بكر يصلي بالناس .

فلما دخل أبو بكر في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فقام يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض حتى دخل المسجد فلما سمع أبو بكر حسه ذهب يتأخر فأومأ اليه رسول الله ﷺ قم كما أنت .

قالت : فجاء رسول الله حتى جلس عن يسار أبي بكر فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالساً وأبو بكر قائماً .

يقتدي أبو بكر بصلاة الرسول ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر .

وهنا سؤال يطرح نفسه : ولماذا أبو بكر بالذات ؟ .

ألأنه أول من أسلم من الرجال ؟ .

أم لأنه ثاني اثنين إذ هما في الغار ؟ .

أم لأنه قريب إلى قلب الرسول حبيب إلى نفسه ؟ .

قد يكون لكل هذه الأشياء سبب في هذا الاختيار ، ولكنها ليست هي بالسبب الاساسي التي دفعت الرسول ﷺ الى أن يأمر أبا بكر ليقوم مقامه في إمامة المسلمين . .

ولكن الشيء الذي تستريح اليه النفس ويطمئن اليه القلب . . أن الرسول ﷺ كان أعرف بطبيعة المرحلة ، التي ستمر بها الأمة الاسلامية بعد وفاته — وهو أقدر الناس معرفة بالرجال — وخبرة بطبائعهم ولعله رأى بثاقب فكره . . وشفافية نفسه أن أبا بكر هو أقدر الصحابة على تحمل تلك التبعة والقيام بتلك المهمة .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٧٩ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٢١١ وما بعدها ورواه البخاري في الجماعة باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ومسلم في الصلاة باب استخلاف الامام والترمذي في المناقب والنسائي في الامامة .

ويؤيدنا فيما نذهب اليه ما رواه جبير بن مطعم عن أبيه :

«أن امرأة أتت النبي ﷺ في شيء فقال لها رسول الله :

ارجعي إليّ.

قالت : يا رسول الله فإن لم أجدك — تعني الموت. فإلى من؟

قال : إلى أبي بكر[1] .

فالرسول ﷺ كان يعد أبا بكر ليتولى شؤون المسلمين بعده.

ولعل الكثير من المسلمين كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرونه.

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا ترددت السيدة عائشة في أن يقوم أبو بكر مقام النبي في إمامة المسلمين في الصلاة؟.

يقول صاحب العبقريات :

«كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الايثار في ذلك القلب العظيم».

فهي قد ترددت لتبرىء نفسها من القالة. وتبرىء ذلك الموقف الخطير من المظنة، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء. وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء.

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلي بالناس فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين[2] ».

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٧٨.

(٢) موسوعة عباس محمود العقاد مجلد ٢ ص ١٨٠.

بيعة أبي بكر بالخلافة..

.. اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهاجرين.

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم، وهما الأوس والخزرج وبينهما من الشحناء ما تهون معها كل مشاحنة بين الأنصار والمهاجرين.

فأتاهم أبو بكر وعمر وعبيدة بن الجراح.

فقام حباب بن المنذر وكان بدرياً فقال:

منا أمير ومنكم أمير فإنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليها أو يليه، أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم.

فقال عمر: إن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم».

وقال أبو عبيدة:

«يا معشر الانصار كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر»[1].

وقال أبو بكر:

«إن هذا الأمر إذا تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس. ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتانون بمشورة ولا نقضي دونكم الامور.

ونادى في القوم:

هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوه.

فقال عمر وقال أبو عبيدة:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٧٦.

«لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة .

والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك.

«ابسط يدك نبايعك»[1] .

فبايعه زعيم من الأوس يسمى بشير بن سعد وهو يقول :

«كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم»[2] .

وقال أسيد بن حضير : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً فقوموا بايعوا.

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما. ولم يبق للخزرج الحاضرين عزم خلاف ، فتزاحموا على البيعة ، حتى أوشكوا أن يطأوا زعيمهم المريض. وماتت الفتنة في مهدها لأنها ولدت بعِلّة الموت. تولّى أبو بكر ، رضي الله عنه ، خلافة المسلمين.

فوضع أمام المسلمين منهجه الذي يسير عليه ، والدستور الذي سيأخذ نفسه به قبل أن يأخذهم به أو يطبق عليهم بنوده فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن ، وسنّ النبي ﷺ السنن ، فعلمنا فعلمنا ، اعلموا أن أكيس الكيّس التقوى ، وأن أحمق الحمق الفجور وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه . وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق. أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوموني[3] .

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٨ .

(2) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٢٨.

(3) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٣٢.

إن الحاكم في الاسلام هو رجل منهم ، كلف بحمل تبعة الحكم ، فهو فرد منهم لا يتسلط عليهم برأي ، ولا يستبد دونهم بمشورة.

وليس له مزية على أي فرد منهم إلا بمقدار ما يقدمه من خير لأمته ، أو يفيض قلبه بحب رعيته.

وهذا ما قاله أبو بكر في بداية حكمه ، ثم أخذ نفسه به.

ثم وضح أن خطته في الحكم وسيرته في الرعية ستكون دائماً نابعة من دستور الدساتير الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ﷺ ومهتدية بهدي الرسول وأقواله في السلم والحرب ، وهو من قبل هذا ومن بعده : متبع وليس بمبتدع.

نعم هو متبع ، لا يصدر في أحكامه من عند نفسه ، ولكنه ملتزم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

وما دام الأمر كذلك فليس هناك قوي يستعصي على حكم الله ، وليس هناك ضعيف تهضم حقوقه ، أو يُنال منه.

والجميع أمام شرع الله متساوون ، كلهم لآدم وآدم من تراب.

والحاكم بشر يخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدي ، وعلى الرعية أن تعين هذا الحاكم وتشد من أزره ، تبصّره إذا أخطأ ، وتقف في وجهه إذا جار ، وتعزله إن ركب رأسه ، أو استبد بأقدار الرعية.

ونتساءل هل التزم أبو بكر بما قاله أمام الرعية؟

ونعني بذلك : هل حافظ على أقدار المسلمين ، وعمل على حماية ثغورهم وحدودهم؟

وهل اجتهد في إعانة ضعفائهم ، وصان لهم دينهم وإيمانهم؟ أم كان الأمر غير ذلك؟.

للإجابة على ذلك علينا أن نستقرىء أحكامه ، ونتابعه في أعماله.

.. لقد كان أبو بكر، رضي الله عنه، يحلب للعجائز شياههم، ويعجن الخبز لبعضهم، وتسامعت إحدى الفتيات الصغيرات باختيار حالب الشياه حاكماً عاماً للمسلمين.

فتوجهت لأمها بهذا السؤال:

ومن يحلب لنا منائح دارنا يا أماه؟.

ويسمع الخليفة سؤال الفتاة، أو سمع له.

فقام على الفور وقال:

«بل لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه»[1].

واستمر الخليفة الذي يفيض قلبه بالحب لرعيته والعطف على ضعفائها بما كان فيه سابقاً.

وتذكر كتب التاريخ: أنه كان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي:

«يا جارية أتحبين أن أرغي لك أو أصرح»؟.

فربما قالت: أرغ، وربما قالت: صرح.

فأي ذلك، قالت: فعل.

إن بعض الشعوب في هذا القرن نظرت إلى زعمائها بعين التقديس والتأليه لأن أحدهم تنازل عن حصته من السكر لطفل رضيع.

وآخر مرّ على بعض القواد في الحرب العالمية الثانية، وهو يغط في نوم عميق بعد معركة ضارية وسط الأحراج والمستنقعات.. فما كان من هذا الزعيم إلّا أن اقترب من القائد وخلع حذاءه المبللة بالماء خوفاً عليه أن يصاب بأذى.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٨٦.

وما كاد يذاع هذا ويعلم حتى تناقلت وكالات الأنباء هذين الخبرين وكأنهما من الأشياء النادرة، التي لا تصدر إلا من عظماء الرجال وإذا كان ذلك كذلك فماذا يقول المبهورون والمبهورات بهؤلاء الزعماء عن حاكم عام يحلب الشياه للعجائز؟.

وآخر يحمل على ظهره الدقيق والدهن للنفساء؟.

وثالث: يحمل عن مجهود حمله حتى يبلغه مأمنه؟.

ورابع وخامس من مدرسة الاسلام؟. ثم ماذا؟.

لنترك أبا بكر في أعماله الخاصة لنتابعه في عظائم الأمور وكبريات الحوادث.

أبو بكر وبعثة أسامة بن زيد...

لقد كان أول عمل جابه أبا بكر بعد بيعته بالخلافة، جيش أسامة بن زيد الذي كان الرسول ﷺ أعده لتكون وجهته إلى الشام.

ومات الرسول ﷺ، وهذا الجيش معسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة، لأنه كان يتهيأ للمسير. وأرجأت وفاة الرسول زحفه.

ثم اختلفت الآراء بعد ذلك..

فريق من المسلمين يرى أن بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي أصبحت المدينة نفسها مهددة بغزو المرتدين.

وكان على رأس هذا الفريق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وفريق آخر يرى أنه لا بد من بعث هذا الجيش مهما كانت الظروف ولا يجوز بأي حال من الاحوال أن تحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ.

ويمثل هذا الفريق أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

حتى إنه قال عندما أكثر عليه بعض الصحابة، في أن يتريث في هذا البعث:

«والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة[1] » .

وأيضاً «ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة إلى وجهته ؟» .

وهناك رأي ثالث .. كان يوافق على البعث شريطة أن يتقدم للقيادة من هو أسنّ من أسامة وأخبر بفنون القتال .

ولكن الخليفة أبا بكر رأى رأياً واحداً في هذا الموضوع .. وهو الطاعة التامة في إرسال بعثة أسامة بقيادته في غير هوادة ولا إبطاء .

ثم أمر بتنفيذ ما ارتآه .

وأذعن الصحابة لأمره . عندها وقف وسط الجنود يوصيهم بتقوى الله وبالصبر عند لقاء الأعداء ثم قال :

«لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها اندفعوا باسم الله»[1] .

لقد وضع أبو بكر ، رضي الله عنه ، في هذه الوصية دستوراً للحرب الهادفة وقانوناً للمعارك الشريفة .

إنه يطلب من الجنود الذين خرجوا في سبيل الله ، ورغبة في إعلاء كلمة الحق أن يلتزموا بقواعد الايمان ، ويتأدبوا بأدب الاسلام ، ومعروف أن هذه الآداب تختلف في حقيقتها عن القواعد التي يتبعها قادة الجيوش في القرن العشرين . والتي تخرج للغزو والتسلط .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٣٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٣.

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٣٥ وجـ ٦ ص ٣٤٣.

إن الخليفة الذي تربى في مدرسة الاسلام وتلقى على يد معلمه وصاحبه محمد ﷺ دستور الدساتير يحرم على جنوده، وهم في ميدان القتال، أن يخونوا أعداءهم.

أو أن يغدروا بهم.

لأن قتالهم — في هذا الوقت — لم يكن في سبيل غارة يغيرونها.

ولكن من أجل نفوس يغيرونها.

وقتالهم ليس للتسلط والجبروت وفرض السلطان.

وإنما هم فقط يريدون إعلاء كلمة الله ونشر دينه.

فالحرب إذن لن تشن إلا على هؤلاء الطواغيت والأباطرة الذين يصدون أتباعهم عن قبول دعوة الاسلام.

والأطفال والنساء والشيوخ لا يفعلون ذلك.

من هنا كانت دعوة أبي بكر للجنود بعدم التعرض لهؤلاء.

وما دام المقصود من الحرب في الاسلام، هو دعوة الناس للدخول في دين الله أفواجاً.

فما الداعي إلى الاتلاف والتدمير، وحرق الزرع والنبات، واشاعة الفساد في الأرض، كما تفعل الحروب الحديثة، حيث يعمد أهلها إلى تطبيق قانون الظفر والناب؟.

ويختم أبو بكر وصيته لجنوده:

بعدم التعرض للعبّاد والزهاد، الذين يعيشون في صوامعهم يذكرون ربهم ويتبتلون إلى مولاهم.

هذه خلاصة الوصية التي وضعها الخليفة الأول لجنوده — في أول خرجة يخرجونها بعد وفاة الرسول ﷺ خارج الجزيرة العربية — ولقد استجاب الجنود لأمر قائدهم.

وأخذوا نفوسهم بتعاليم الاسلام.

ووضع كل منهم نصب عينيه إحدى الحسنيين، إما النصر لكلمة الله تعالى وإما الشهادة التي وعدهم بها الله تعالى، ثم ماذا يا خليفة رسول الله؟.

.. ثم شيع جيش أسامة ماشياً على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره فقال أسامة:

«يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن.

فقال: والله لا تنزل، والله لا أركب، وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة.

ثم استأذن أسامة قائلاً:

«إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل. فعاد عمر بإذنه. بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك. حتى على الخليفة، وعلى أكبر الصحابة من بعده.

ثم قال لأسامة:

«اصنع ما أمرك رسول الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله»[1].

ونقول أكان الخليفة الأول على حق في إرسال هذه البعثة؟.

ألم يكن هناك خطر على المدينة عندما خلت من الجيش المحارب؟.

ولماذا لم ينزل الخليفة على أمر المسلمين الذين أشاروا عليه ببقاء هذه البعثة، ولماذا تمسك برأيه؟.

هذه أسئلة كثيرة كانت تحاك في بعض النفوس في حينها.

ولكن بعد أن عادت هذه البعثة أدرك المخالفون لرأي الخليفة أنه كان على حق فيما تمسك به.

وأنه لو فعل غير ذلك لكان احتمال الخطر أكثر من السلامة.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٣٣٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٣٤٤.

.. لقد شاع في الجزيرة العربية خبرها.

وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا. وقالوا فيما بينهم:

«لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء».

.. ومع ذلك أخذت الأخبار تترى إلى المدينة، بارتداد بعض المسلمين عن دينهم.

وامتناع البعض الآخر عن دفع الزكاة التي كانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ.

وظهرت فتنة مسيلمة الكذاب وادعاؤه النبوة.

وأعدت الجيوش وجهزت الكتائب للزحف على مدينة الرسول ﷺ عاصمة الخلافة في ذلك الوقت..

فماذا كان موقف الخليفة الأول؟ وماذا كان رأي جماعة المسلمين.؟

حروب الردة..

توفي رسول الله ﷺ فارتدت أحياء كثيرة من الاعراب، ونجم النفاق بالمدينة، وجعلت الوفود تقدم يقرون بالصلاة، ويمتنعون من أداء الزكاة، ومنهم من امتنع عن دفعها إلى الصدّيق رضي الله عنه واحتجوا بقوله تعالى:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾[1].

قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا.

وأنشد بعضهم:

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا فواعجباً ما بال ملك أبي بكر

(1) سورة التوبة الآية ١٠٣.

وقد تكلم الصحابة مع الصدّيق في أن يتركهم وما هم عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الايمان في قلوبهم، ثم هم بعد ذلك يزكون فامتنع الصدّيق من ذلك وأباه.

وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لأبي بكر:

علامَ نقاتل الناس.؟ وقد قال رسول الله ﷺ:

«أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[1].

فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى الرسول ﷺ لأقاتلنهم على منعها، ان الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة.

قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

ويقول عبدالله بن مسعود، رضي الله عنه:

لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه، ولولا أن الله منّ علينا بأبي بكر أجمعنا على ألّا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأن نأكل قِرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين.

فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضي إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية فأما الخطة المخزية، فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة. وأن يدوا[2] قتلانا، ونغنم ما أخذنا منهم.

وأن ما أخذوا منا مردود علينا. وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.

وهكذا اجتمع أمر المسلمين على رأي واحد وهو القتال.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة والبداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٣٥١.

(٢) يدوا: يدفعوا الدية.

وعقد الخليفة لهذه المهمة الجليلة أحد عشر لواء..

الأول: لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، ومالك بن نويرة.

الثاني: لعكرمة بن أبي جهل وسيره إلى مسيلمة الكذاب.

الثالث: للمهاجر بن أبي أمية المخزومي القرشي وأمره بجنود الأسود العنسي في اليمن.

الرابع: لخالد بن سعيد وبعثه إلى مشارف الشام.

الخامس: لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة ووديعة والحارث.

السادس: لحذيفة بن محض، وبعثه إلى دبا.

السابع: لعرفجة بن هرثمة وأمره بمهره.

الثامن: لشرحبيل بن حسنة وأرسله في إثر عكرمة.

التاسع: لمعن بن حاجز السلمي وأمره ببني سليم.

العاشر: لسويد بن مقرن الحضرمي ووجّهه إلى البحرين.

الحادي عشر: وللعلاء الحضرمي وأمره بالبحرين[1].

لقد استطاع أبو بكر، رضي الله عنه، أن يجمع هذا العدد الكثيف من الجنود ويُعدّ هذه العدّة في فترة وجيزة. وليس ذلك إلا للايمان الخالص الذي يعمر القلوب ويملأ الأفئدة، والعزيمة الصادقة التي لا تكلّ ولا تملّ. والاطمئنان إلى نصر الله تعالى وعونه.

وقبل أن تتحرك هذه الجيوش الجرارة كتب لكل أمير كتاباً قال فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم — من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه، سلام على من اتبع

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٣٥٥ والكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٣٤٦.

الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله. ونقرّ بما جاء به ، ونكفّر من أبى ذلك ونجاهده..

أما بعد.

فإن الله أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الاسلام طوعاً أو كرهاً ، ثم توفي رسول الله وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمته وقضى الذي عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الاسلام في الكتاب الذي أنزل فقال :

﴿ إنك ميت وانهم ميتون ﴾[١] . وقال : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾[٢] .

وقال للمؤمنين :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾[٣] .

فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد حي لا يموت ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه يجزيه ، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم وما جاء به من نبيكم وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى وكل من لم يعنه الله مخذول ، ومن هداه غير الله كان ضالاً . قال الله تعالى :

---

(١) سورة الزمر الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾[1].

ولم يقبل له في الدنيا عمل حتى يقر به، ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالاسلام وعمل به، اغتراراً بالله وجهلاً بأمره وإجابة للشيطان. قال الله تعالى:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾[2].

وقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[3].

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلا الايمان بالله، ولا يقتله حتى يدعوه إلى الله عزّ وجلّ، فإن أجاب وأقرّ وعمل صالحاً قُبل منه وأعانه عليه، وإن أبى حاربه حتى يفيء إلى أمر الله»[4].

ويفهم من هذا الكتاب أنه لن يكون قتال إلا بعد الدعوة إلى الاسلام، ولا يستطيع أمير أن يخالف أمر الخليفة ويهاجم قوماً دون التحقق منهم — ومعرفة ما إذا كانوا على الاسلام أم رجعوا عنه — وبذلك تبطل دعاوى المضللين الذين يدعون أن الاسلام قام على حدّ السيف.

تحرك الجيوش لحروب الردّة..

.. روى الإمام أحمد من طريق وحش بن حرب.. أن أبا بكر الصدّيق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة. قال:

---

(١) سورة الكهف الآية ١٧.

(٢) سورة الكهف الآية ٥٠.

(٣) سورة فاطر الآية ٦.

(٤) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٥٦.

«سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفّار والمنافقين».

ولما توجه خالد من ذي القصحة وفارقه الصدّيق ، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء. وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب.

وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي(١).

وكان طليحة في قومه بني أسد ، وفي غطفان ، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان.

ثم سار خالد حتى التقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له «بزاخة» ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينتظرون على من تكون الدائرة.

وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم ، وحضر معه عيينة بن حصن في سبعمائة من قومه بني فزارة. واصطف الناس ، وجلس طليحة ملتفاً في كساء له يتنبأ لهم وينظر ما يوحى إليه فيما يزعم. وجعل عيينة يقاتل ، حتى إذا ضجر من القتال يجيء إلى طلحة وهو ملتف في كسائه فيقول :

أجاءك جبريل.؟

فيقول : لا.

فيرجع فيقاتل ، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك ويرد عليه مثل الأول ، فلما كان في الثالثة قال له :

هل جاءك جبريل.؟

قال : نعم.

قال : فما قال لك.؟

قال : قال لي : إن لك رحىً كرحاه ، وحديثاً لا تنساه.

---

(١) طليحة الأسدي ارتد عن الاسلام وقام بمؤازرته عيينة بن حصن وقال لقومه : والله لنبي من بني أسد أحبّ إليّ من نبي من بني هاشم وقد مات محمد وهذا طليحة فاتبعوه فوافقه بنو فزارة على ذلك.

فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أنه سيكون لك حديث لا تنساه ثم قال : يا بني فزارة انصرفوا. فانصرفوا فانهزم الناس عن طليحة.

فلما رأى طليحة ذلك ركب على فرس كان قد أعدها له ، وأركب امرأته النوار على بعير له ثم انهزم بها إلى الشام وتفرّق جمعه ، وأسر خالد عيينة بن حصن وبعث به إلى المدينة مجموعة يداه إلى عنقه ، فدخل المدينة وهو كذلك. فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون :

«أي عدو الله ارتددت عن الاسلام» . ؟

فيقول : والله ما كنت آمنت قط[1] .

فلما وقف بين يدي الصدّيق استتابه وحقن دمه ، ثم حسن اسلامه بعد ذلك.

وأما طليحة فإنه راجع الاسلام بعد ذلك أيضاً ، فذهب إلى مكة معتمراً أيام الصدّيق واستحيى أن يواجهه مدة حياته.

وقد رجع فشهد القتال مع خالد وكتب الصدّيق إلى خالد بشأن طليحة :

«أن استشره في الحرب ولا تؤمره».

انتصر الاسلام بقيادة خالد بن الوليد على طليحة وعصابته ، واستطاعت الكتيبة المسلمة أن تفرق شملهم وتبدّد جمعهم ، وتدير الدائرة عليهم إنهم جند الله وحزبه فالله معهم وناصرهم.

وانهزم حزب الشيطان وجمعه.

وعلم الخليفة أبو بكر الصدِّيق بنصر المسلمين فكتب إلى خالد يقول :

« ليزدك ما أنعم الله به خيراً واتق الله في أمرك فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٣٤٨.

محسنون جد في أمرك ولا تلن ، ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به »[1].

وبقي خالد في « بزاخة » شهراً ثم سار في طريقه يحطم الكفر ويزيل الركام المتعفن أمامه من أمثال «أم زمل» سلمى بنت مالك وجيشها ، ومالك بن نويرة وأصحابه ، حتى وصل إلى مسيلمة الكذاب وقومه بني حنيفة باليمامة.

مقتل مسيلمة الكذاب..

حشد مسيلمة جيشاً جراراً وجعل على ميمنة جيشه المحكم بن الطفيل ، وعلى الميسرة نهار الرحال بن عنفوة.

وجاء خالد بن الوليد بجيشه فلما تواجه الجيشان قال مسيلمة لقومه :

« اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »[2].

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يشرف على اليمامة فضرب به عسكره وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس والعرب على راياتها.

واصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة ، وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد.

ثم تذامر الصحابة بينهم وقال ثابت بن قيس بن شماس :

« بئس ما عودتم أقرانكم ، ونادى من كل جانب : أخلصنا يا خالد. فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار. وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يُعهد مثله. وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٣٥٩.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٣٦٢.

«يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم ، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتاً حتى قتل هناك.

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : نخشى أن نؤتى من قبلك ، فقال :

«بئس حامل القرآن أنا إذاً» .

وقال زيد بن الخطاب : أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً وقال : والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحق فقتل شهيداً رضي الله عنه.

وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال ، وحملوا فيهم حتى أبعدوهم وأصيب رضي الله عنه[1] .

وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار إلى مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وقال :

أنا ابن الوليد العود . أنا ابن عامر وزيد . ثم نادى بشعار المسلمين ، يا محمداه — وجعل لا يبرز لهم أحد إلا قتله ، ولا يدنو منه شيء إلا أكله ، ودارت رحى المسلمين ثم اقترب خالد من مسيلمة فعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه ، لا يقبل منه شيئاً ، وكلما أراد مسيلمة يقارب من الأمر — صرفه عنه شيطانه.

فانصرف عنه خالد وقد ميز المهاجرين من الأنصار من الأعراب ، وكل بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها ، حتى يعرف الناس من أين يؤتون.؟

وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله ، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور

(١) البداية والنهاية جـ٦ ص ٢٦٦ — ٢٦٧.

عدوّهم حتى فتح الله عليهم، وولّى الكفار الأدبار فأتبعوهم يضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت.

وقد أشار عليهم المحكم بن طفيل بدخولها، فدخلوها وفيها عدو الله مسيلمة لعنه الله. وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر المحكم فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب فقتله وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط بهم الصحابة. وقال البراء بن مالك:

«يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة»[1].

فاحتملوه حتى ألقوه من فوق سورها.

أي نوع كان هؤلاء الرجال.؟

الذين يقدمون نفوسهم رخيصة إلى هذا الحد.؟

رجل يرى أن السهام مشرعة، والسيوف قائمة تناله من كل جانب وتنهش من جسمه.. ولكنه لا يبالي.. إن جسمه لا يهمه كثيراً ولا يحس به — ولا بوقع السهام التي تنال منه — إن أمامه شيئاً واحداً لا بدّ أن ينجزه قبل موته وقبل أن يلفظ آخر نفس من أنفاسه، وهو أن يفتح باب الحديقة أمام جنود الله حتى يقضوا على عصابة الكفر وهذا ما فعله البراء، ولم يسترح أو يهدأ له بال حتى فتح الباب.. واندلحت فيه جنود الله يقتلون عصابات الكفر أتباع الشيطان حتى خلصوا إلى مسيلمة فتقدم إليه وحشي بن حرب مولى جبير بن مطعم، فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط. فنادت امرأة من القصر: واأمير الوضاءة قتله العبد الأسود.

قتل رأس الكفر مسيلمة الكذاب.

قتل من جمّع الجموع وجيش الجيوش أمام المسلمين.

وبقتله عادت الجزيرة العربية مرة أخرى إلى الاسلام، وإلى دفع الزكاة لبيت المال مرة أخرى، لتعود بالتالي إلى فقرائهم.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٣٦٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص ٣٦٦.

حدث هذا بفضل الله سبحانه وتعالى ، ثم بالعزيمة الصلبة التي امتاز بها أبو بكر الصدّيق ، رضي الله عنه.

عادت الجزيرة العربية إلى الاسلام.

وارتفعت فوق مآذنها كلمة التوحيد.

وأحس أبو بكر ، رضي الله عنه أن المهمة لا زالت طويلة وشاقة أمام المسلمين ، إنهم حملة كتاب الله ، والرسالة الخالدة التي بعثها الله للبشرية قاطبة.

إذن لا بدّ من إبلاغ كلمة التوحيد إلى كل الأصقاع.

ونشر الاسلام في كل مكان.

وهذا ما فعله أبو بكر ، رضي الله عنه ، جيّش الجيوش وجهّز الكتائب ، ودفعهم إلى أرض فارس.. ليخلصوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد الأحد.

وتابعت جيوشه إلى أرض الروم ليخلصوا البشرية أيضاً من طغيان الأباطرة ، وتسلط القياصرة ، ويعيدوا الناس جميعاً إلى آدميتهم ويشيعوا بين جموعهم.. أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد. ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح. وجاءت رسل الجيوش لأبي بكر في المدينة بالنصر المؤزر والفتح المبين واستمر الحال على ذلك حتى جاءه أجله ، الذي أجله الله تعالى وقدره له.

وفاة أبي بكر رضي الله عنه..

جاءت عائشة ، أم المؤمنين — رضي الله عنها — وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه في صدره فقالت :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فنظر اليها كالغضبان ثم قال[1] :

﴿ ليس كذلك يا أم المؤمنين ولكن قولي ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[2] .

ثم قال : إني قد كنت نحلتك حائطاً وإن في نفسي منه شيئاً فرديه إلى الميراث.

قالت : نعم. فردّته.

ثم قال : أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلّا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجَرْد هذه القطيفة.

فإذا مِت فابعثي بهم إلى عمر وابرئي منهم.

ففعلت : فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ويقول :

«رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده.

رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده.

يا غلام ارفعن[3] .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

« سبحان الله تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً وبعيراً ناضحاً وجرد قطيفة ثمن خمسة الدراهم؟.

قال : فما تأمر؟.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ١٩٦.

(٢) سورة ق. الآية ١٩.

(٣) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٧.

قال : تردهن على عياله.

فقال عمر : لا والذي بعث محمداً بالحق ، لا يكون هذا في ولايتي أبداً ، خرج أبو بكر منهن عند الموت وأردهن أنا على عياله.. الموت أقرب من ذلك[1].

.. مرحى لرجال مدرسة القرآن.

أبو بكر يتخلص من آخر شيء يربطه بالدنيا ويرده الى بيت المال.

وعمر يقبل ذلك بصدر رحب ويضيفه إلى أموال المسلمين ويرفض أن يخص به أبناء أقرب الناس اليه وأحبهم إلى قلبه بعد رسول الله ﷺ.

إنهم الرجال الذين تأدبوا بأدب النبوة وأخذوا نفوسهم بمنهج القرآن فكانوا على جبهة التاريخ نوراً يبدد ظلام الليل الحالك ، ويزيل من على الأرض أشواك الحياة وأدران النفوس.

ثم ماذا؟.

ثم قال لأم المؤمنين عائشة : أنظري ملاءتيَّ هاتين فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

ومات رحمه الله ورضي الله عنه مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من هجرة النبي ﷺ فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ.

---

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٩٧ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٢٣.

أسباب نزول الآيات

قال الإمام الخازن في تفسيره المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل : إنها على العموم والأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق — رضي الله تعالى عنه — وذلك أنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ، والنبي ابن عشرين سنة ، في تجارة إلى الشام فنزلوا منزلاً فيه سدرة فقعد النبي ﷺ في ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال الراهب :

من الرجل الذي في ظل السدرة ؟.

فقال : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فقال الراهب : هذا والله نبي وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلّا هذا وهو نبي آخر الزمان[1] .

فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، فكان لا يفارق النبي ﷺ في سفر ولا حضر . فلما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة أكرمه الله بنبوته واختصه برسالته ، فآمن به أبو بكر وصدقه وهو ابن ثمان وثلاثين سنة .

---

(١) تفسير الخازن والبغوي جـ ٦ ص ١٢٤ .

فلما بلغ أربعين سنة دعا ربه عز وجل قال : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ﴾[١] .

وقال علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — في قوله : ووصينا الانسان بوالديه حسناً — في أبي بكر أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره ، وأوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده.

﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾[٢] .

قال ابن عباس أجابه الله تعالى : فأعتق تسعاً من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال ، ولم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه.

﴿ وأصلح لي ذريتي ﴾[٣] .

فأجابه الله تعالى : فلم يكن له ولد إلا آمن ، فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمر ، وابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن أبي عتيق محمد فهؤلاء أربعة أبو بكر وأبوه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه محمد كلهم ، أدركوا النبي ﷺ وأسلموا ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر .

وقال صاحب الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، رضي الله عنهما : قال أنزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه[٤] .

(١) سورة الاحقاف الآية ١٥.

(٢ — ٣) سورة الاحقاف الآية ١٥.

(٤) تفسير الدر المنثور للسيوطي جـ ٦ ص ٤١ وراجع الطبري جـ ٢٦ ص ١٧ والقرطبي جـ ١٦ ص ١٩٥.

تذييل...

لماذا كانت حروب الردة؟.

ولماذا الجهاد في الاسلام؟.

وما الداعي لخروج الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية؟

أخرجوا ليفرضوا دينهم — دين الاسلام — بالقوة وبحد السلاح؟.

واندا حوا في أركان الأرض ليخضعوا البشرية تحت قوة هذا الدين الجديد؟

الحقيقة إن القرآن الكريم يرفض القوة لإجبار الناس على اعتناقه.

ولا يرضى بغير الاقناع العقلي بديلاً لدخول الافراد في هذا الدين. يقول الله تعالى مخاطباً الرسول الكريم، عندما رغب في إيمان بعض أقاربه وألح عليه في ذلك:

﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[1].

ويقول الله سبحانه وتعالى للبشرية عامة:

﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[2].

(1) سورة يونس الآية ٩٩.

(2) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

والدعوة إلى الدين في شرع الاسلام يجب أن تكون بالكلمة الطيبة والاقناع السليم.

يقول الله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1].

وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا خرج المسلمون من جزيرتهم واتجهوا في أركان الأرض الأربعة؟.

أهناك ضرورة دفعتهم إلى ذلك؟.

أم أن رسولهم أمرهم به؟.

الحقيقة أن هذا الخروج كان من أجل نشر دين الله، خرجوا ليبشروا بهذا الدين الجديد.

خرجوا لتكون كلمة الله هي العليا.

هذا هو المبرر الأول للحركة الجهادية في الاسلام، ويؤيد هذا الرأي ما يروى عن الرسول ﷺ عندما سأل عن الرجل يقاتل للشجاعة، والرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليرى مكانه «أي مفاخره».

فأي ذلك في سبيل الله؟.

فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

فليس الجهاد من أجل الاستيلاء على البلاد، وليس الجهاد من أجل الثروة الاقتصادية أو الغلبة، وليس الجهاد من أجل الرغبة في خفض العيش وإيجاد الرخاء في أساليب الحياة على حساب الآخرين.

وإنما العامل الأساسي في ذلك أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الجهاد في سبيل الله، والجهاد دفاعاً عن الأهل هو جهاد في سبيل الله، والجهاد دفاعاً عن

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥.

المال هو جهاد في سبيل الله ، والجهاد دفاعاً عن العرض هو جهاد في سبيل الله ، والجهاد دفاعاً عن الوطن وتحرير الأرض هو جهاد في سبيل الله ، يقول الرسول ﷺ :

«من قُتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»[1] .

ومن هنا وضحت رسالتهم أمام البشرية وكما بيّنها ربعي بن عامر رسول المسلمين إلى (يزدجرد) ملك الفرس بقوله :

«الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الرحمن ، فالأمم جميعها أمام الاسلام سواء والناس أمام شرع ربهم اكفاء والخلق جميعاً لآدم وآدم من تراب» .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

ومن هذا الفهم لطبيعة التقوى في الاسلام نرى صاحب الدعوة الاسلامية محمد ﷺ يوصي قادة الجيوش بقوله :

«أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين» .

ثم يقول :

«اغزوا باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، واذا لقيت عدوك من «الكفار» فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم» .

---

(١) أخرجه الامام البخاري والامام مسلم في صحيحيهما.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

لا بد من التقوى للقائد الذي يتأمر على الجيش ، لأن الرجل التقي يخاف الله ويخشى عقابه ، فيأمر بالعدل ويدعو اليه.

والرجل التقي ، يخشى الخديعة ولا يقع فيها ، ويحذّر الخيانة ولا يأتيها والرجل التقي يؤمن بأن لكل أجل كتاباً ، فلا يخاف ما تأتي به الليالي فيقاتل وهو واثق من احدى الحسنيين ، إما النصر واما الشهادة.

ولا بد أن تكون الحروب باسم الله ، فلن تكون الحروب في شرع الاسلام باسم العصبية ، ولن تقام الحروب في شرع الاسلام باسم الافراد ، ولن تقام الحروب للمغنم والاستعلاء ، ولن تعلن الحروب الا على الكافرين. لن تعلن الحروب الا على الملحدين الجاحدين. أما أهل الكتاب فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. قال تعالى :

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين﴾(١).

وإذا أثيرت المعركة وحمي وطيس القتال. فالمسلم لا يمثل بالقتلى من أعدائه ولا يشوه جثثهم ، والمسلم لا يقتل الأطفال ولا الرضع ، ولا يقتل الشيوخ ولا النساء ولا يتعرض لهن بأذى.

يقول أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — مستمداً قوله من وصايا الرسول الكريم :

«لا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة ولا تعقروا ناقة ولا بقرة ولا شاة إلا لمأكلة».

فلن يقاتل هؤلاء الذين يعبدون الله ، ولن يرفع في وجههم سلاح ، وإنما يقاتل فقط من يحمل السلاح ليصد عن دين الله ويحول بينه وبين الوصول إلى خلق الله.

(١) سورة الممتحنة الآية ٨.

يقاتل فقط من يرفض أن يستجيب لواحدة من ثلاث:

١ — إما الاسلام.

٢ — وإما الجزية.

٣ — وإما القتال.

فإن أجابوا داعي الاسلام فلا حرب ولا قتال قال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾[١].

ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فإن رفضوا الأولى فعليهم الثانية وهي الجزية، والجزية بالنسبة «للذمي» تعادل الزكاة للفرد المسلم.

إن كل فرد في المجتمع الاسلامي لا بد من أن يقدم بعض ماله مساهمة منه في حماية الدولة وتجهيز الجيوش وتأمين الثغور واقامة المرافق العامة ومساعدة العاطلين، والمرضى وأصحاب الحاجات.

وما دام المسلم يدفع الزكاة — وهي فرض عليه — لا يجوز اسقاطه فمن العدل أن يدفع غير المسلم ما يعادلها. ما دام الجميع يعيشون في رحاب وطن واحد يستمتعون بخيراته ويدفنون تحت ترابه، فكانت الجزية لغير المسلم، ولم تكن الزكاة لشفافية الاسلام وعدالة أحكامه.

هذا هو الاسلام في ميدان الحرب..

عدالة مطلقة.. ورعاية لحقوق الآخرين.. فلا اكراه، ولا قسر..

فمتى يفهم هؤلاء الحاقدون الذين يرمون الاسلام بما ليس فيه.. ويتقولون عليه الأقاويل الباطلة؟.

متى يا رب؟.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦١.

عُمَرَ بن الخطَّاب

رَضِيَ اللهُ عَنه

الآيات التي نزلت في أبي بكر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ
اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴾



[سورة الجاثية الآية ١٤ - ١٥]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآيات في عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال ذلك صاحب تفسير القرطبي ١٦/ ١٦١.

وقاله البغوي في تفسيره ٦/ ١٢٧.

وقاله الطبري في تفسيره ٢٤/ ٨٦.

وقاله صاحب كتاب : اسباب نزول القرآن الامام الواحدي ص ٣٩٩.

فمن هو عمر بن الخطاب..؟

قال رسول الله ﷺ

«بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ثم جاء عمر فاستقى فاستحالت غرباً فلم أرَ عبقرياً من الناس يفري فريه، حتى روى الناس وضربوا بعطن».

أخرجه البخاري ومسلم والترمذي

عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

رجل من معدن الرجولة.

عرفه رسول الله ﷺ في أودية مكة ودروبها، فتمنى أن يشرح الله صدره للاسلام، وطلب ذلك من ربه بقوله:

«اللهم أيِّد الاسلام بأحد العمرين»[1].

وشجاع أرهب الصناديد والأبطال، وكان يصارعهم في سوق عكاظ فيصرعهم.

وخاشع لربه متبتّل في محرابه حتى قالت عنه أم أبان عتبة بن ربيعة:

«إنه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر لربه بعينيه».

ذلك هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

درجت طفولته على بطاح مكة وسهولها، فلونت بشرته شمسها المحرقة، وجوها اللّاحف.

---

(١) رواه الترمذي في باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه واسناده حسن ورواه أيضاً أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات والبيهقي في دلائل النبوة وصححه ابن حبان ويشهد له حديث ابن عباس اللهم أعز الاسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب.

وصقلت عوده طبيعتها المكشوفة، وجنادلها الصم.

وبين جبالها الشم، وعلى قممها العالية، تفتح شبابه، وقويت ساعداه، وأجاد ما يتعلمه شباب مكة وفتيانها في ذلك الوقت، من إصابة الهدف، وتسديد الرمح، وخفة الحركة على صهوات الخيل.

وكان والده الخطاب رجلاً فظاً غليظاً لا يعرف من دنياه إلا أصنام مكة وأوثانها يتقدم اليها بالعبادة، ويخصها بمزيد من العناية وتقديم القرابين.

وكم كان غيظه وحنقه على ابن أخيه زيد بن عمر بن نفيل عندما هجر عبادة الأصنام وأجمع الخروج من مكة يطلب الحنيفية دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

فما كان من الخطاب إلّا أن وكل به صفية بنت الحضرمي، لتكون رقيباً عليه، فكلما رأته قد تهيأ للخروج وعزم عليه، ذهبت إلى الخطاب فأخبرته بذلك، فيمنعه ويردعه.

فلما تكرر ذلك منه حبسه في جبال مكة، عند حراء، وبعث اليه بشباب من شباب قريش، وسفهاء من سفهائهم، وأمرهم أن يراقبوه ويمنعوه من السفر، ويمنعوه من دخول مكة ومن الاختلاط بالناس، لئلا يفسد عليهم دينهم وحياتهم (١).

ومن إخوة عمر — رضي الله عنه — زيد بن الخطاب.

شهد بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقُتل باليمامة شهيداً.

وحزن على أخيه حزناً شديداً حتى كان يقول:

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٩.

«ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيد، لقد سبقني بالحسنيين أسلم قبلي واستشهد قبلي»[1].

وعن عمران العبدي عن أبيه قال:

صليت الصبح مع عمر بن الخطاب فلما انفتل من صلاته، إذا هو برجل قصير أعور، متنكباً قوسه وبيده عصا فقال: من هذا؟.

فقال: متمم بن نويرة.

فاستنشده قوله في أخيه فأنشده:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال عمر: هذا والله التأبين. يرحم الله زيد بن الخطاب، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك ثم قال له:

ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟.

فقال: كانت عيني هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة، فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجدت بالدمع.

فقال عمر: إن هذا لحزن شديد، ما يحزن هكذا أحد على هالكه.

قال متمم: لو قتل أخي يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيته أبداً.

فصبر عمر وتعزّى عن أخيه وقال:

«ما عزاني أحد عنه بأحسن مما عزيتني»[2].

ومن أبناء عمر: المتبتل العابد عبد الله بن عمر الذي قال عنه رسول الله ﷺ لزوجه حفصة بنت عمر:

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٥٥٣.

(٢) المصدر السابق.

«وإن أخاك عبد الله رجل صالح لو كان يقوم من الليل».

يقال: فما ترك ابن عمر بعدها قيام الليل[1].

وابنته حفصة أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ العابدة القوامة، والتي هي من أهل الجنة كما أخبر جبريل رسول الله ﷺ.

لقد كان عمر لا يعرف من دنياه إلا مكة وما يحيط بها.

وكان مشغولاً برعي الإبل والغنم لأبيه وأهله الأقربين.

وكان صاحب خمر يشربها ويعكف عليها.

وكان يعيش كما يعيش أهل مكة في ذلك الوقت — من الرحيل للتجارة في رحلتي الشتاء والصيف، أو المفاخرة في سوق عكاظ بالكلمة والشعر مرة، وبالمصارعة والمجالدة أخرى.

وكانت دنياهم محصورة، وآمالهم محدودة.

فماذا حدث حتى أصبح عمر بن الخطاب — حديث الدنيا بأسرها في عصره وبعد عصره؟.

كيف دانت الدنيا لجنوده — جند الله — وكيف أصبحت الأرض بأقطارها الأربعة مفتوحة أمام كلمة عمر — التي يستمدها من كتاب الله؟.

ماذا جرى لعمر — حتى أصبح موضع دراسة علماء السياسة والاقتصاد وقواد الجيوش، في كل بقعة وفي كل مكان؟.

إنه الاسلام دين الله الخالد، وخاتم الرسالات السماوية.

ونسأل: كيف اهتدى عمر إلى الاسلام؟.

وأي الطرق سلكها حتى وصل إلى نبعه وعب من زلاله؟.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٩٥١.

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه...

اسلام عمر...

كيف أسلم عمر بن الخطاب..؟

وما هي الدوافع التي جعلته يقترب من الاسلام؟

أتراه وقع تحت مؤثرات قاربت بينه وبين ذلك؟. وإذا كان فما هي؟.

أيكون ذلك عندما استمع الى الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن في جوف الكعبة؟.

أم يكون ذلك عندما رأى بعض — المستضعفين — يخرجون من مكة مهاجرين تاركين الأهل والوطن؟.

أم أنه تأثر عندما رأى الدم ينبثق من وجه أخته — عندما لطمها لطمة شديدة — لقراءتها القرآن هي وزوجها؟.

قد يكون لكل ذلك أثره الكبير في اقترابه من الاسلام، وابتعاده عن معسكر الكفر.

ولنستمع اليه يحدثنا عن ذلك..

إنه يقول:

«كنت للاسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها. وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش.

فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحداً.

فقلت: لو أنني جئت فلاناً الخمار، وخرجت فلم أجده.

قلت: لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي وكان إذا صلى استقبل الشام،

وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكاناً بين الركنين، الركن الأسود والركن اليماني.

فقلت حين رأيته: والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، وقام بنفسي أني لو دنوت أسمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجب خلت تحت ثيابها ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الاسلام»[1].

رقَّ قلب عمر لسماع كلمات الكتاب العزيز، وعمر رجل تطربه بلاغة القول، ويأخذ بلبه الكلام الحسن.

فما بالك إذا استمع الى القرآن، يتلى بصوت الرسول ﷺ؟ إنها لحظات تضيف الى العمر جديداً وتباركه وتزكيه.

ومن قبل عمر كان أساتذة فن القول والكلام في قريش.. إذا استمعوا إلى القرآن خرّوا سجداً وآمنوا وأعلنوا إسلامهم. من ذلك:

.. أن الشاعر لبيد بن ربيعة، الشهير ببلاغة منطقه، وفصاحة لسانه، ورصانة شعره. سمع أن محمداً يتحدّى الناس بكلامه.

فقال بعض الأبيات رداً على ما سمع، وعلقها على باب الكعبة.. وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب. وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة فكتب بعض آيات الكتاب الكريم، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد.

ومرَّ لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي، ولم يكن قد أسلم بعد، فأذهلته الآيات القرآنية.

حتى إنه صرخ من فوره قائلاً:

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٨.

«والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين»[1].

وهناك حادثة أخرى تروى عن عمر رضي الله عنه للتقريب بينه وبين الاسلام من ذلك:

أنه كان يقف في طرقات مكة — وشاهد هؤلاء الضعفاء الذين أعلنوا إسلامهم — فوقفت لهم قريش بالمرصاد، وصبّت عليهم العذاب ألواناً فآثروا الهجرة إلى الحبشة لعلهم يجدون بجوار ملكها الصالح الاطمئنان والأمن.

شاهد عمر هذا المنظر فاقترب من أم عبد الله بنت حنتمة وقال لها إلى أين يا أم عبد الله.؟

قالت: الهجرة، والله لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً.

فتركها تنطلق وهو يدعو لها بالسلامة.

فذكرته بخير.

فسألها عامر بن ربيعة مستغرباً مستبعداً: كأنك قد طمعت في إسلام عمر.؟

قالت: نعم.

قال: إنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.؟[2]

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة. عندما لمحت جانب الرقة في عمر طمعت في إسلامه. وهناك الحادثة الثالثة التي انتهت بذهابه إلى دار الأرقم. حيث أعلن إسلامه، ونطق بالشهادتين أمام رسول الله ﷺ.

عن أنس بن مالك قال:

خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهرة قال:

---

(١) المذاهب المعاصرة وموقف الاسلام منها — د. عبد الرحمن عميرة ص ١٤٦.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٨٤.

أين تعمد يا عمر.؟

فقال: أريد أن أقتل محمداً.

قال: وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟

فقال عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه.

قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر.؟ إن ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه.

فمشى عمر ثائراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خبّاب.

فلما سمع خبّاب حس عمر توارى في البيت، فدخل عليهما فقال:

ما هذه الهيمنة التي سمعتها عندكم.؟ وكانوا يقرأون سورة طه.

فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا.

قال: فلعلكما قد صبوتما.؟

فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك.؟

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأً شديداً، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فضربها بيده ضربة فدمى وجهها.

فقالت وهي غضبى — يا عمر إن كان الحق في غير دينك: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه. وكان عمر يقرأ الكتب.

فقالت أخته: إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فاغتسل أو توضأ.

فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ: طه حتى انتهى إلى قوله: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾[1].

---

(١) سورة طه الآية ١٤.

فقال عمر: دلوني على محمد.

فلما سمع خبّاب قول عمر خرج من البيت فقال:

أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام.

فانطلق عمر حتى أتى الدار التي وصفت له. فوجد على باب الدار حمزة وطلحة وأناساً من أصحاب رسول الله ﷺ.

فلما رأى حمزة وَجَلَ القوم من عمر قال حمزة:

«نعم فهذا عمر. فإن يرد الله بعمر خيراً يسلم ويتبع النبي ﷺ وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيّناً. والنبي عليه السلام، داخل يوحى إليه.

فخرج رسول الله ﷺ، حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال:

«أما أنت فتهيأ يا عمر حتى يُنزل اللهُ بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة، اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب».

فقال عمر: أشهد أنك رسول الله. فأسلم[1].

جاهلي كسبه الاسلام فكسبه العالم الانساني كله إلى آخر الزمان. ونفس ضائعة ردّت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل، ونفع بها أمته وأمماً لا تُحصى، وصنع بها الاسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحار فيها الانسان وهو ريشة في مهب النوازع والأشجان.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ٨٤ وسيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٦٧.

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه، ولا يروي ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق. وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق.

وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمنع الظلم عن الناس، وتدول دولة الباطل بين الناس.

وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم وهو وحده أقوى في المطالبة بهما من ألف غريم[1].

أسلم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وأراد أن يُعْلِم بإسلامه صناديد قريش وطغاتها.

فسأل في أحد أندية قريش: أيّ أهل مكة أنقل للحديث..؟

قيل له: جميل بن يعمر الجمحي. فذهب إليه وصرح له بإسلامه.. وما كاد الرجل يسمع هذه الكلمة من فم عمر حتى انطلق في طرقات مكة وحول الكعبة ينادي بأعلى صوته ويقول:

«يا معشر قريش: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.

وعمر يقول من خلفه: كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ويجتمع عليه صناديد قريش وتنشب المعركة بينه وبين عتبة بن ربيعة فيصرعه عمر القوي.. ويدخل أصبعه في عينيه.

ويقول له: أزيل هذين العينين لأنهما لا يبصران النور».

.. ويتكاثرون عليه، فلا يدنو منهم أحد إلا أخذه.

---

(١) موسوعة العقاد الاسلامية ص ٣٨٥.

حتى فتر من طول الصراع فجلس وهم قائمون يثلبونه وهو يقول لهم :

«افعلوا ما بدا لكم. فوالله لو كنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم»[1].

وعلم خاله بما حلّ به : فقام على الحجر فنادى : ألا إنني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عنه.

فكان لا يزال يرى مسلماً يضرب ولا يضربه أحد، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين. فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس في الحجر وناداه اسمع :

جوارك مردود عليك.

قال خاله :

لا تفعل يا ابن أختي.

فأصرّ على ردّ جواره.

ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال :

يا رسول الله : ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا..؟

فقال عليه السلام :

بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم.

قال : ففيم الاختفاء..؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن.

فما لبث النبي ﷺ أن خرج في صفين، أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة.

ولهما كديد كأنه كديد الطحين.

فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان.

وسماه النبي يومئذ بالفاروق.

---

(1) أسد الغابة جـ ٤ ص ٥٦ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٩ وغيرهما.

.. فاروق : فرق بين الحق والباطل.

وشجاع : روع قريش وملأ قلوب أهلها بالرعب.

يقول عنه صديقه عبدالله بن مسعود — رضي الله عنه — :

«ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر»[1].

وقال صهيب بن سنان :

«لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا وانتصفنا ممن غلظ علينا»[2].

لقد كانوا خائفين فاطمأنوا وقويت شوكتهم بإسلام عمر.

وكانوا مستضعفين فأصبحوا قوة، عملت قريش لها، حسابها.

وكانوا محبوسين في دار الأرقم فتحلقوا حول الكعبة وطافوا بها.

وكان ينال منهم ويبغي عليهم ويجهل على ضعفائهم، ولا يستطيعون لذلك ردّاً فأعزهم الله بتأييد من عنده. وصدق ربي في قوله :

﴿ولينصرنَّ الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز﴾[3].

هجرته..

لقد أذِنَ الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.. فاستجابوا لأمره وخرجوا زرافات ووحدانا تحت جنح الظلام — وفي غفلة من قريش — يسرعون الخطى إلى المدينة..

(١) تاريخ الخلفاء ص٤٥ وطبقات ابن سعد جـ١ ص ١٩٣.

(٢) الرياض ١ : ١٩٥، و٢ : ١٩٨ وتفسير الخازن جـ٢ ص ٢١٤ وشرح المواهب جـ١ : ٣١٧.

(٣) سورة الحج الآية ٤٠.

فماذا يفعل عمر..؟

أيبقى في مكة وحده.؟ وهل في مقدوره ذلك.؟

لقد اعتادت أذناه سماع كلمات الكتاب العزيز، وأصبح واحداً في مجموعة لا يستطيع مخالفتها أو التخلف عنها..

إذن لا بدّ من الهجرة إلى يثرب..

واتفق مع عياش بن ربيعة وهشام بن العاص على أن يترافقوا في سفرهم هذا وتواعدوا أن يجتمعوا في منازل بني غفار على عشرة أميال من مكة.

فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا.

فجاء عمر وعياش وحبس هشام في مكة وفتن عن دينه.

وسار عمر — رضي الله عنه — ومعه رفيقه عياش حتى وصلا إلى يثرب، مدينة العز والمنعة.

المدينة التي جيشت فيها الجيوش، وأعدت الكتائب لنصرة دين الله، وأقيم فيها أول مجتمع اسلامي عرفته البشرية، حيث كان يستمدّ تعاليمه مباشرة من السماء ومن آيات الله التي يتنزل بها جبريل صباح مساء على قلب الرسول ﷺ.

وما كاد المهاجران يستقران في مقرهما الجديد عند رفاعة بن المنذر حتى لحقا بهما أبو جهل وأخوه الحارث فقالا لعياش:

«إن أُمك قد نذرت ألّا يظلها سقف، ولا يمسّ رأسها طيب حتى تراك..!!».

فاستشار عمر، فقال عمر:

«والله ما أراد إلا ردّك عن دينك، فاحذرهما، ولا تذهب، فوالله لو آذى أمك القمل لأدهنت وامتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت».

قال عياش :

«فإن لي بمكة مالاً لعلي آخذه فيكون قوة للمسلمين، وأكون قد بررت قَسَمَ أمي».

قال عمر :

«إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

فأبى إلا أن يخرج معهما.

فلما أبى قال له عمر :

أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها. فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

وذهب عياش معهم واطمأن إليهم — وسار في طريقهم يبغون مكة. حتى إذا وصلوا إلى جبل «صبخان» قال أبو جهل :

والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك..؟

قال : بلى.

فأناخ وأناخا ليتحول عليها. فلما استووا بالأرض أوثقاه رباطاً حتى دخلا به مكة.

فقالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا ثم حبسوه[١].

وروى علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — :

أنه قال : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فإنه لما همَّ بالهجرة، تقلَّد سيفه، وتنكب قوسه وانتضى من يده أسهماً ومضى قِبَل الكعبة — والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكّناً ثم أتى المقام فصلى. ثم وقف على جماعتهم واحدة واحدة فقال لهم :

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص ١٩٤ وسيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٨٨.

«شاهت الوجوه. لا يرغم الله إلا هذه المعاطس. من أراد أن يثكل أمه، أو يوتم ولده، أو يُرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي.

قال علي: فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه»[1].

ولحق بعمر أهله وذووه بالمدينة — واستقر به المقام بجوار حبيبه ورسوله ﷺ فماذا ترى يكون موقفه بالمدينة؟

وهل هناك مهام خاصة أناطه رسول الله بها.؟

للاجابة على ذلك علينا متابعة ورصد أحواله بالمدينة..

عمر في المدينة

.. عاش عمر — رضي الله عنه — في المدينة جندياً من جنود الاسلام يأتمر بأمر رسوله — وينفذ ما يطلب منه — فإن كان في المعارك فهو الفارس المغوار والبطل الذي يجندل المشركين.. ويشجع جنود الله ويدفعهم إلى اكتساح جيوش الباطل ودحر أتباع الشيطان.

فإذا انتهت المعارك أدلى برأيه فيما يعنّ للمسلمين من أمور وفيما يطلبه الرسول ﷺ من رأي أو مشورة، وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يأخذ برأيه في كبريات المسائل، أو ينزل القرآن مطابقاً لما أدلى به في حادثة من الحوادث من ذلك ما يروى أنه:

بعد انتهاء معركة بدر شاور رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر في أمر أسرى قريش.

فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان، فإني أرى أن نأخذ منهم فدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

---

(١) الرياض النضرة وأسد الغابة جـ ٤ ص ٥٨.

فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب؟

قال : لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه حتى يعلم أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار هؤلاء صناديدهم وقادتهم .

فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ولم يهو ما قال عمر[١] .

فسكت رسول الله فلم يجبهم ، ثم دخل فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس يأخذ بقول عمر .

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : إن الله عزّ وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال :

﴿من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾[٢] .

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[٣] .

ومثلك يا عمر مثل نوح قال :

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾[٤] .

ومثلك مثل موسى قال :

---

(١) الطبري جـ٢ ص ٢٩٤ .
(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح الآية ٢٦ .

﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1] .

ثم قال رسول الله ﷺ :

« أنتم اليوم عائلة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق »[2] .

قال عمر : فلما أن كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر وإذا هما يبكيان فقلت :

« يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .

فقال النبي ﷺ : الذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة » وأنزل الله تعالى في ذلك :

﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾[3] .

جاء القرآن كما قال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في هذه الحادثة ، وإذا كان له رأيه هذا في أسرى بدر فإن رأيه في سهيل بن عمرو أسير بدر أيضاً أن ينزل ثنيته فيندلع لسانه فلا يقوم خطيباً في موطن أبداً يكرهه المسلمون .

فقال له رسول الله ﷺ لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً . أو قال : « إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه » .

فلما توفي رسول الله همَّ أهل مكة بالرجوع عن الاسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد — وكان والياً على مكة — فتوارى . فقام سهيل بن عمرو

---

(١) سورة يونس الآية ٨٨ .
(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٩٤ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٧ — ٦٨ .

فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: «إن ذلك لم يزد الاسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه» فتراجع الناس وكفوا عما هموا به. فكان هذا هو المقام الذي أراده رسول الله ﷺ (١).

.. ويريد الرسول ﷺ أن يبايع النساء فيختار من صحابته عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ليشاركه في تلك المهمة.

ويلتقي عليه السلام بمجموعة النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك فلما دنون منه ليبايعنه قال رسول الله ﷺ (٢):

«تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً؟..

فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنعطيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة وما أدري أكان ذلك حلاً لي أم لا؟.

قال أبو سفيان — وكان شاهداً لما تقول — أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة؟

فقالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

قال: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله: وهل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن.

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٧٧.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣.

قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم.
فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب.
قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن.
قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح. ولبعض التجاوز أمثل.
قال: ولا تعصينني في معروف.
قالت: ما جلسنا في هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف.
فقال رسول الله لعمر: بايعهن واستغفر لهن رسول الله ﷺ.

فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرم منه[1].

وقام عمر — رضي الله عنه — بالمهمة خير قيام..

وكان عمر — رضي الله عنه — يطلب من رسول الله بعض ما يراه في صالح الاسلام والمسلمين. وكان الرسول عليه السلام يستمع اليه، وينفذ ما يطلبه منه حيناً وفي البعض الآخر يصده أو يرده.

من ذلك — أنه قال يوماً للرسول ﷺ أحجب نساءك يا رسول الله تقول عائشة — رضي الله عنها — فلم يفعل رسول الله.

وكان أزواج النبي يخرجن ليلاً إلى صعيد أفيح خارج المدينة. فخرجت سودة بنت زمعة، وكانت امرأة طويلة.

فرآها عمر وهو في المجلس فقال: عرفناك يا سودة[2].

فأنزل الله عز وجل آية الحجاب.

---

(1) تاريخ الطبري جـ ٣ ص ١٢١.
(2) البخاري ٦ : ١٢٩ ومسند أحمد ٦ : ٢٢٣.

وفي رواية قال عمر : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البرّ والفاجر فنزلت آية الحجاب[1] .

وعن ابن مسعود قال : أمر عمر نساء النبي أن يحتجبن فقالت له زينب : وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟

فأنزل الله :

﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾[2] .

وواقعة أخرى ...

قال عمر ـــ رضي الله عنه ـــ لما توفي عبد الله بن أبي دُعي رسول الله ﷺ فقام اليه .

فلما وقف علينا يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت :

« يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا : كذا وكذا والقائل يوم كذا ، كذا وكذا أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله ﷺ يبتسم حتى اذا أكثرت عليه قال :

أخر عني يا عمر : اني خيرت فاخترت .. قد قيل لي : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾[3] .

فلو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت . ثم صلّى عليه ، ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه .

فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان الا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان :

---

(١) البخاري ١ : ١٠٥ ومسند أحمد ١ : ٢٤ ، ٣٦.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٣.

(٣) سورة التوبة الآية ٨٠.

﴿ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾[1].

فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل.

انه عمر الذي وصفته امرأة من النساء بقولها:

«إنه رجل كأنه ينظر الى ربه بعينه».

وقال عنه رسول الله ﷺ.

«ان الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[2]..

وقال عنه أيضاً فيما رواه أبو هريرة:

«انه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم ناس محدثون، وانه ان كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب[3]».

وهكذا كان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — مع رسول الله ﷺ حتى قبضه الله اليه..

فكان وزيراً لأبي بكر — رضي الله عنه — يأتمر بأمره، وينفذ ما يطلبه منه حتى قال عن نفسه: كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله: «بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً»، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راضٍ والحمد لله كثيراً على ذلك وأنا به أسعد فلما ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان ممن لا ينكرون دعته وكرمه ولينه فكنت

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٤.

(٢) مسند أحمد ٢: ٥٣ وسنن أبي داود ٣: ١٣٨.

(٣) البخاري ٤: ١٤٩ ومسلم ٧: ١٤٥.

خادمه وعونه أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي[1].

ولكن أيام أبي بكر — رضي الله عنه — كانت قليلة كما أخبر رسول الله ﷺ عندما قال:

«رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً فلم أرَ عبقرياً يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن»[2].

وثقل المرض على أبي بكر — وخاف أن يترك الناس بلا خليفة — فجمع الناس لم يشغله مرضه وألمه عن الاهتمام بأمرهم، فنزع بيعته من أعناقهم، وكلفهم أن ينتخبوا غيره للخلافة وقال لهم:

«إنه قد نزل بي ما ترون ولا أظنني إلا ميتاً لما بي من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم.

فذهبوا فتشاوروا وبحثوا فلم يتفقوا على أحد، فرجعوا اليه فوكلوه أن يختار لهم، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

وبدأ استشارته بكبار الصحابة وأهل الرأي، ودعا عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب.

فقال له: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني.

فقال له: وإن... فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

---

(١) الخراج لأبي يوسف بتصرف ١٤٠.

(٢) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (ص) باب مناقب عمر ورواه مسلم في فضائل الصحابة والترمذي في الرؤيا.

ثم دعا عثمان. فقال له مثل ذلك. فقال: علمي به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله.

فقال له أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوْتك.

ثم شاور سعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار فقال أسيد:

«اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا ويسخط للسخط، ولن يلي هذا الأمر أحد اقوى عليه منه».

فلما بلغ ذلك دعا عثمان — رضي الله عنه — وأملى عليه هذا القرار:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلف عليكم بعدي ...» وأخذته غشية فذهب به قبل أن يسمي أحداً فكتب عثمان «عمر بن الخطاب».

ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ عليّ ما كتبت. فقرأ عليه ذكر عمر فكبر أبو بكر وقال:

أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الاسلام خيراً والله ان كنت لها لأهلاً، ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب:

فاسمعوا له وأطيعوا، واني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً. فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت، ولا أعلم الغيب[١].

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[٢]، والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) أخبار عمر بن الخطاب للشيخ علي الطنطاوي وأخيه ص ٦٠ — ٦١.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

ثم أمره فختم الكتاب ، وخرج به مختوماً ، ومعه عمر ، وأسيد بن الحضير وأسيد ابن سعيد القرظي . فقال عثمان للناس :

أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ .

قالوا : نعم . قال : فإنه عمر .

فأقروا بذلك جميعاً ورضوا به ، ثم بايعوا .

عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين ..

.. لكأننا نتصور عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في مسجد رسول الله ﷺ واقفاً على قدميه باسطاً يده يتلقى مبايعة المسلمين له بالخلافة .

وما كاد يصافح كل من بالمسجد ويأخذ عليهم العهد والميثاق بالبيعة حتى اعتلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ ثم قال :

أيها المؤمنون ثلاث دعوات اذا دعوت بها فأمنوا عليها :

« اللهم اني ضعيف فقوّني .

اللهم اني غليظ فليّني .

اللهم اني بخيل فسخني »[1] .

ثم قال : لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر ، لكان ضرب العنق أحب اليّ من هذه الولاية .

ثم قال : ان الله ابتلاكم بي ، وابتلاني بكم بعد صاحبي ، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني ، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن اليهم ولئن أساءوا لأنكلن بهم[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٦ .

ثم بلغه أن الناس خافوا منه وهابوا شدته ، حتى أنهم تركوا مجالسهم بالأفنية رعباً منه وخوفاً.

فصاح في الناس : الصلاة جامعة . فلما اجتمعوا قام قائماً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلّى على النبي ﷺ وقال :

« بلغني ان الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي.. ثم اني قد وليت أموركم ايها الناس ، فاعلموا ان تلك الشدة قد اضعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست ادع احداً يظلم أحداً او يتعدّى عليه حتى اضع خده على الأرض ، واضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق ، واني بعد شدتي تلك اضع خدي لأهل العفاف وأهل الكفاف ».

ولكم عليَّ ايها الناس خصال اذكرها لكم فخذوني بها لكم عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلّا في حقه ، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسدّ ثغوركم ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم »[1] .

لقد استطاع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أن يضع في هذه الكلمات القليلة دستور الحكم ، والمنهج الذي سيسير عليه ، نعم المنهج الذي استقاه من كتاب الله تعالى ، ومن طول مصاحبته لرسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر من بعده.

إن الكثير من الدول المتحضرة في القرن العشرين — على كثرة ما نادت به من حقوق الانسان ، لم تصل إلى ما وصل اليه عمر — من وضع هذه الحقوق واحترام آدمية الانسان ، ومعتقداته.

لقد ألزم عمر نفسه أمام المسلمين بأمور لا يصبر عليها ، ولا يؤديها إلا عظماء

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٤٠.

الرجال.. ممن حباهم الله سبحانه وتعالى.. قوة في الجسم وبسطة في العلم، وإيماناً يعمر القلوب.

فهل ترى أن عمر التزم بما ألزم به نفسه، وهل قام بما يمليه عليه ربه وقواعد دينه..؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في المنهج..؟؟

عمر واختيار الولاة..

سؤال يتردد في ذهن الباحثين والمؤرخين لسيرة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كيف كان يختار عمر ولاة الأقاليم وقادة الجيش؟.

أكان يلجأ في ذلك إلى معرفته الذاتية بالرجل؟. وخبرته الطويلة بأحواله؟.

أم ترى أنه كان يلجأ في ذلك إلى صحابة رسول الله ﷺ وبالأخص أولئك الذين هاجروا ونصروا؟.

وإذا لم يكن هذا.. فماذا يكون؟.

أكان يتم الاختيار بناء على مواصفات معينة، وقواعد محددة، يتصف بها من يسند اليه عملاً من الأعمال، أو مهمة من المهمات؟.

وإذا كان فما هي المواصفات العمرية التي كان يتطلبها في ولاته؟.

للإجابة على ذلك علينا أن نتابع عمر عند اختياره للولاة والقادة حتى نتمكن من الإجابة على أسئلة المتسائلين التي رددت ولا زالت تردد لماذا يختار عمر رجلاً للولاية ويترك آخر أفضل منه.. في تصورات الآخرين؟.

ويكلف ثان بعمل ما وهناك من هو أكثر منه صلاحاً وتقوى وقرباً من الرسول ﷺ؟

ونقول : لقد كان عمر يلجأ دائماً إلى صحابة رسول الله ﷺ يستشيرهم فيما يريد أن يقدم عليه من أمر ، أو فيمن يختاره ليوليه ولاية أو عند تسيير جيوش من جيش المسلمين ، أو غير ذلك من الأمور.

كان عمر يستشير صحابة رسول الله ، ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويسمعهم ويتوخى في جميع ذلك تمحيص الرأي وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

كانت الشورى عنده مبدأ لا يحيد عنه للأغراض السلمية والحربية على السواء.

من ذلك أن عمر قال لأصحابه دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني ؟.

قالوا : فلان.

قال : لا حاجة لنا فيه.

قالوا : فمن تريد؟.

قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم.

قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي.

قال : صدقتم فولاه[1] .

وكان إذا استعمل رجلاً كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار ، بأنه لا يظلم أحداً في جسده ولا في ماله ، ولا يستغل منصبه لفائدة أو مصلحة له أو لمن يلوذ به ، فكان ذلك بمثابة القسم الذي يوجبه القانون على القضاة والأطباء وأمثالهم قبل مباشرتهم العمل . وكان يقول للعامل بعد ذلك محدداً سلطته ، مبيناً له حقيقة عمله :

«إني لم استعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل.

(١) الاصابة في معرفة الصحابة جـ ١ ص ٥٠٤ ، والعقد الفريد ص ٤٦ .

ثم يشترط عليه أربعة شروط.

١ — ألا يركب برذوناً.

٢ — ولا يلبس ثوباً رقيقاً.

٣ — ولا يأكل نقياً.

٤ — ولا يغلق بابه دون حوائج الناس[1].

وكان إذا بعث عماله قال:

«إني لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم فتظلموهم».

وكتب مرة إلى عماله أن يوافوه جميعاً في موسم الحج فوافوه فقام فقال:

«أيها الناس إني والله ما أبعث اليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه إليّ فوالذي نفسي بيده لأقصنه منه».

فوثب عمرو بن العاص فقال:

«يا أمير المؤمنين. أرأيت ان كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدب بعضهم، إنك تقصّه منه؟.

قال: إي والذي نفسي بيده لأقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه. ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم.

فقام رجل من الناس وقال:

يا أمير المؤمنين عاملك ضربني مائة سوط. فقال عمر: أتضربه مائة سوط؟. قم فاستقدمنه.

---

(١) الخراج لأبي يوسف ١٣٩ وعيون الأخبار جـ ١ ص ٥٣.

فقام اليه عمرو بن العاص فقال:

دعنا إذن فلنرضه.

فقال: دونكم فارضوه. فأرضوه بأن اشتريت منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين[1].

«وقبل أن يضع دستوراً للولاة وضع دستوراً لنفسه قوامه: أن الحكم محنة للحكام ومحنة للمحكومين».

«وأنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية فيها ولين لا وهن فيه».

وأن الخليفة مسؤول عن ولاته واحداً واحداً في كل كبيرة وصغيرة ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار.

قال يوماً لمن حوله: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت ما عليّ؟.

قالوا: نعم.

قال: لا، حتى أنظر في عمله أعمِلَ بما أمرته أم لا[2]؟.

وعاهد الناس فقال:

«لكم عليّ ألا أجتني شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا بحقه ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسدّ ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أحبسكم في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم. فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم».

(١) الخراج ١٣٨ — ١٣٩. وتاريخ الطبري جـ ٥ ص ٢٠.

(٢) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر للشيخ علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ص ١٤٤، والكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٥٦.

هذا هو عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أبو العيال حتى يعود الآباء من الثغور والأب لا يقدم النفقة فقط ، ولا الرعاية فحسب ، ولكنه يقدم نفسه وماله فداء لأولاده وهكذا كان عمر مع أبناء المسلمين.

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله. وأرسل العيون من حوله.. والحوادث على ذلك كثيرة في سيرة عمر — رضي الله عنه —.

لقد استعمل أبا هريرة على البحرين فقدم بعشرة آلاف.

فقال له عمر : استأثرت بهذه الأموال فمن أين هي لك؟.

قال : خيل نتجت ، وأعطية تتابعت ، وخراج رقيق لي.

فنظر فوجدها كما قال.

فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ليستعمله فأبى.

فقال له : تكره العمل وقد طلبه من هو خير منك يوسف عليه السلام.

قال : إن يوسف نبي وابن نبي وأنا أبو هريرة بن أميمة وأخشى ثلاثاً واثنين.

قال عمر : فلا قلت خمساً..؟

قال : أخشى أن أقول بغير علم ، وأقضي بغير حكم ، يضرب ظهري ويشتم عرضي وينزع مالي[1].

ومرّ ببناء يبنى بحجارة وجص فقال : لمن هذه..؟

فذكروا عاملاً له على البحرين فقال :

«أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ، وشاطره ماله».

ثم صعد المنبر وقال :

«يا معشر الأمراء ، إن هذا المال لو رأينا أنه يحلّ لنا لأحللناه لكم فأما إذا لم يحل

---

(١) الاصابة في معرفة الصحابة جـ٤ ص ٣١٠ وعيون الأخبار جـ١ ص٥٣.

لنا وكففنا عنه فكفوا عنه أنفسكم ، فإني والله ما وجدت لكم مثلاً إلا عطشان ورد اللجة ولم ينظر الماتح فلما روي غرق»[1] .

أما شروطه في من يكون قائداً للجيش.. فلقد كان عمر يفضل السابقين الأولين من الصحابة على غيرهم إلا أن يقصر بهم عملهم. فكان يفضل عليهم حينذاك من برز بأعماله.

وكان يفضل أن يكون القائد مكيثاً غير متهور يعرف الفرص وينتهزها ويعرف كيف ومتى يقاتل ومتى يكفّ عن القتال.

قال عمر لسليط : لولا عجلة فيك لوليتك ، ولكن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث»[2] .

وكان يفضل أن يكون القائد قوياً مسيطراً ذا شخصية نافذة ، فإذا وجد رجلاً أقوى من رجل فضل الأقوى على القوي. وقد استعمل معاوية بن أبي سفيان على الشام ، وعزل شرحبيل بن حسنة وقام بعذره في الناس فقال :

«إني لم أعزله عن سخطة ، ولكن أريد رجلاً قوياً»[3] .

وكان يقول : «إني لأتحرج أن أستعمل الرجل القوي وأنا أجد أقوى منه».

وكان يريد القائد شجاعاً رامياً ، فحين وجه سعد بن أبي وقاص إلى العراق قائداً عاماً قال : إنه شجاع رامٍ[4].

هذه هي أهم الشروط التي كان يتطلبها الخليفة عمر ، في الوالي أو القائد فإذا تم الاختيار وتولى الولاة أعمالهم ـــ كان له معهم حسابات وتحقيقات تبدأ بإنزال

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣ : ١٠٤.

(٢) البلاذري ٢٥١.

(٣) ابن الأثير جـ٢ ص ٢١٧.

(٤) الفاروق القائد ـــ اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٩٩.

العقوبة ببعضهم وتنتهي في بعض الأوقات بالعزل. ونحاول بمشيئة الله أن نقدّم في الصفحات التالية صوراً من هذه المراقبات العمرية.

قال أنس: كنا عند عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — إذ جاء رجل من أهل مصر، فقال:

يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك.

قال: وما لك.؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال:

«فرسي ورب الكعبة».

فلما دنا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة.

فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول:

«خذها وأنا ابن الأكرمين».

وبلغ ذلك عمراً أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن، فانفلت منه وهذا حين أتيتك.

فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس.

ثم كتب إلى عمرو:

إذا جاءك كتابي هذا فاقبل، واقبل معك بابنك محمد.

وقال للمصري: أقم حتى يأتيك.

فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً.؟ أجنيت جناية.؟

قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك.؟

فقدم على عمر.

قال أنس : فوالله إنا عند عمر ، إذا نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه فإذا هو خلف أبيه .

فقال : أين المصري . ؟

قال : ها أناذا .

قال : دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين.

فضربه حتى أثخنه ، ونحن نشتهي أن يضربه . فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واستفيت .

وقال : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني .

قال : أما والله لو ضربته ، ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه .

أيا عمرو ! ؟ متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً[1] ؟ .

فجعل يعتذر ويقول : إني لم أشعر بهذا .

ثم التفت عمر إلى المصري فقال : انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ[2] .

إن هذا الحاكم العادل يسهر على أمور الرعية ، ويسوي بينهم في كل شيء ، ويعطي كل صاحب حق حقه .

وينصف المظلوم من الظالم — حتى ولو كان هذا الظالم هو الوالي نفسه .. وهذا هو العدل الذي تقام عليه أعمدة الحكم — ويتطلبه الشعب من الحاكم ..

وأحد أفراد الرعية — يعرف حقوقه كاملة — ويؤدي ما يكون عليه من واجبات

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ وابن الجوزي والعقد الفريد.

(٢) ابن الجوزي والعقد الفريد.

فإذا أجير عليه أو انتقص شيء من حقوقه نراه لا يخنع ولا يستكين ولا يهدأ له بال، حتى يأخذ حقه بالطرق المشروعة والحاكم لا يضنّ عليه بها.

ولو تمسك كل فرد من أفراد الرعية بحقه من الحاكم وطالبه به كما فعل المصري ما تجبر هؤلاء الولاة. ولا أخذوا أكثر مما لهم — وما تحولوا في آخر الأمر إلى أباطرة متسلطين، أو طغاة ظالمين. وهاك مثالاً آخر:

قال خالد بن معدان: استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر الجمحي، فلما قدم عمر حمصاً قال:

يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم.؟

فشكوه إليه.

وكان يقال لأهل حمص الكوفية الصغرى لشكايتهم العمال.

قالوا: نشكو أربعاً، لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال عمر: أعظم بها. وماذا..؟

قالوا: لا يجيب أحداً بليل.

قال: وعظيمة. وماذا.؟

قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا.

قال: عظيمة وماذا.؟

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام «أي يغمى عليه ويغيب عن حسه» فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تفيل رأيي فيه اليوم.

وافتتح المحاكمة فقال لهم أمامه: ما تشكون منه.؟

قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال: ما تقول.؟

قال : والله إن كنت لأكره ذكره : ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم.

فقال : ما تشكون منه . ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال : ما تقول . ؟

قال : إن كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عزّ وجلّ .

قال : وما تشكون؟

قالوا : إن له يوماً في الشهر لا يخرج إلينا فيه .

قال : ما تقول؟

قال : ليس لي خادم يغسل ثيابي ولا لي ثياب أبدلها ، فأجلس حتى تجفّ ثم أدلكها ثم أخرج اليهم من آخر النهار .

قال : ما تشكون منه؟

قالوا : يغْنطُ الغنطة بين الأيام .

قال : ما تقول . ؟

قال : شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة ، وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه على جذعة فقالوا ، أتحب أن ترى محمداً مكانك . .

فقال : والله ما أحب أني في أهلي وولدي وإن محمداً ﷺ شيك بشوكة . . ثم نادى يا محمد فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أن الله عزّ وجلّ لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً فتصيبني تلك الغنطة .

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفل فراستي.

فبعث إليه بألف دينار وقال:

«استعن بها على أمرك ففرقها»[1].

ما أعجب هؤلاء الولاة..

وما أعجب هذه الرعية..

إن الرعية تطلب من الحاكم أن يكون عينها التي تبصر بها، وعقلها الذي تفكر به، وراعيها في الصغيرة والكبيرة.

فإذا رابها من أمره ريب أو عمّيت عليها بعض شؤونه، أسرعت إلى الحاكم الأعلى لينصفها من هذا الوالي.

وخليفة لا يمل من الاستماع إلى الرعية، ويحاول بكل ما يملك من جهد أن يحقق لها ما تريد ـــ ما دام هذا الذي تريده لا يتعارض مع شرع الله أو تعطيل حدّ من حدوده.

ولا يستمع للرعية بعيداً عن الوالي.. ولا يقبل كلمة الوالي. بعيداً عن الرعية لكنه يلجأ إلى المواجهة والمقابلة.. حتى لا يترك مجالاً للتقول أو الادعاء ورمي الأبرياء بالتهم الباطلة، والزجّ بهم في أقبية السجون كما يحدث في عصرنا الراهن.

حيث يعزل الحاكم عن الرعية بمجموعة من الجواسيس والمنتفعين، ومن في قلوبهم مرض..

لقد بُرئ سعيد بن عامر أمام الخليفة، واطمأنت الرعية إلى واليها واستراحت إلى حسن سياسته.. وأخذت تراقبه بعين الإكبار وتحصي أعماله بكل الإعزاز فرأته يعيش كفافاً.. ولا يحصل على قوت يومه إلا بكل مشقة وجهد. فماذا كان من أمر الرعية؟.

---

(1) حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٤٥ وابن عساكر جـ ٦ ص ١٤٧.

لقد أرسلت إلى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — لتعلمه بحاله.

يقول صاحب أسد الغابة:

أرسل عمر إليه بأربعمائة دينار وكتب إليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله فلما قرأ الكتاب اهتم همّاً شديداً حتى تبين ذلك عليه.

فقالت له امرأته: نفسي فداك، ما لي أراك مهتماً، أبلغك موت أمير المؤمنين؟

قال: أعظم من ذلك.

قالت: أبلغك عن ثغور المسلمين شيء؟

قال: أعظم من ذلك.

قالت: وما هو؟.

قال: ابتليت بالدنيا، وقد كنت صحبت رسول الله ﷺ فلم أبتل بها وصحبت أبا بكر فلم أبتل بها، وابتليت بها في صحبة عمر ألا فشرّ أيامي أيام عمر.

قالت: وما ذاك بأبي وأمي؟.

قال: اني أخافك.

قالت: إياي تعني.؟

قال: نعم.

قالت: فأنت آمن من هذا[1].

قال: فإن أمير المؤمنين أرسل إليّ بأربعمائة دينار، وعزم عليّ أن أنفقها عليّ وعليك، وان فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً، ووالله ما أحبّ أن لي النعم وأني أحبس عن الفوج الأول.

قالت: فدونكها فاصنع بها ما شئت.

---

(١) أخبار عمر للاستاذ علي الطنطاوي نقلاً عن أسد الغابة.

فقال : هل من خِرَق.. فأعطته قميصاً لها خَلَقاً فمزقه خِرقاً ثم صرّ فيهما بين أربعة إلى عشرة ثم طرحها في مخلاة، ثم خرج إلى باب المدينة فجعل يعطي الناس صرة صرة، حتى بقيت صرة في المخلاة فدفعها والمخلاة إلى رجل ثم رجع فذهب عنه واستراح[1].

إيه يا أبناء مدرسة الاسلام..

انهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل.

ليست الدنيا أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم.

ولكنهم يعملون لها من أجل رفع كلمة الله — ويجمعون حطامها — إن جمعوه، من أجل أن يبلغوا به إلى أرض الله الواسعة، لينشروا فيها اسم الله. ولهذا كان أثمن شيء يحرص عليه الرجل منهم.

فرساً يجاهد عليه..

ودرعاً يتقي به ضربات الأعداء.

وسيفاً بتّاراً يطيح به الكفر وأهله..

واذا كان الوالي سعيد بن عامر يلتزم أوامر الخليفة، ولا يحيد عن شرع الله، ويفرّ من الدنيا وحطامها الفاني : وينتظر الآخرة بقلب ملهوف ورغبة جامحة..

فإن أميراً آخر يطمع في الدنيا ويحاول التقرب منها تقرّب الخائف الوجل فيبني بيتاً على رابية ويضع لها باباً.

ويسوق الله بعض رعية هذا الأمير الى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فيسألهم : كيف أنتم.. وكيف أميركم؟

قالوا : خيراً يا أمير المؤمنين، إلا أنه قد بنى عُليّة يكون فيها.

وما كاد عمر يسمع منهم هذا حتى كتب كتاباً وأرسل بريداً.. وقال لرسوله : اذا جئت باب عليته فاجمع حطباً واحرق الباب.

---

(١) حلية الأولياء جـ١ ص ٢٤٥ وابن عساكر جـ٦ ص ١٤٧.

وقدم الرسول، وأخذ في تنفيذ أمر الخليفة فجمع حطباً وأحرق باب العُلّية فدخل الناس على الأمير وقالوا له :

«ان ها هنا رجلاً يحرق باب عليتك».

فقال : دعوه فإنه رسول أمير المؤمنين.

ثم دخل عليه فناوله الكتاب — وفيه دعوة من عمر بحضوره — فلم يضع الكتاب من يده حتى ركب إلى الخليفة

فلما رآه عمر — امتنع عن مقابلته — وقال : احبسوه عني في الشمس ثلاثة أيام. ونُفذ أمر الخليفة، حتى إذا كان بعد ثلاث قال :

«يا ابن قرط .. إلحقني إلى الحرّة — وفيها إبل الصدقة وغنمها — حتى إذا جاء الحرة، ألقى عليه جبة وقال :

انزع ثيابك واتّزر بهذه، ثم ناوله الدلو وقال :

«اسقي الابل».

فلم يفرغ حتى تعب.

فقال عمر : يا ابن قرط .. متى كان عهدك بهذا.؟

قال : ملياً .. أي زماناً يا أمير المؤمنين.

قال : فلهذا بنيت العلية، وأشرفت بها على المسلمين، والأرملة واليتيم ارجع إلى عملك ولا تعد[1].

إن هذا الوالي يسير سيراً حسناً بين الرعية، ولم يفعل ما يغضبهم أو ينتقص من حقوقهم.

ولكن الذي فعله — هو بناء بيت على ربوة عالية — لا يرضي عمر ولا يتفق

(١) الرياض النضرة جـ ٢ ص ٥٥ نقلاً عن كتاب أخبار عمر ص ١٥٩.

مع طبيعته التي ترى أن الحاكم — هو فرد من أفراد الرعية — لا يزيد عنهم ، ولا ترتفع قيمته إلا بمقدار ما في قلبه من إيمان ، وبمقدار ما تقدمه يداه من عمل لصالح المسلمين. وما عدا ذلك فهو فرد مثلهم عليه ما عليهم من واجبات .. وله ما لهم من حقوق.

أما أن يبني بيتاً يطلّ به عليهم من حالق.. ويضع عليه الأبواب ويقيم عليه الحجاب.. فهذا لا يجوز.

إن الحاكم يجب أن يكون قريباً من رعيته.

وعليه أن يتفقد شؤونهم ، ويرعى مصالحهم.

ولكن إذا أقام الحجب وغلق الأبواب ، لم تصل إليه شكاية الأمة ، ولم يعرف ما تريد وما تطلب. وهنا تكون القلاقل والفتن ويبدأ السخط والتذمر من الرعية ، ويبدأ التنكيل والتجسس من رجال الحاكم.. حتى تكون الطامة والفتنة العمياء التي لا تبقي ولا تذر. وهذا ما تنزّه عنه حكم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فإذا انحرف بعض الولاة عن ذلك كانت درته حاضرة لترده إلى الصواب وتباعد بينه وبين الانحراف.

وكان عمر — رضي الله عنه — يحرص على أن يلتقي بولاته ويستمع إليهم ويتعرف على أخبارهم.

ولكن هذا عمير بن سعد — أحد الولاة في حكومة عمر — يمر عليه قرابة عام ولم يسمع عمر عنه شيئاً ولم يلتقِ به.

فقال عمر لكاتبه : اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا ، فكتب إليه «إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ، وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا.

ووصل الخطاب إلى عمير — فبادر إلى تنفيذ أمر الخليفة — وأخذ جرابه فجعل فيه زاده وقصعته ، وعلق ادواته وأخذ عنزته «عصاه» ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة.

فقدم وقد شحب لونه ، واغبرَّ وجهه ، وطال شعره ، فدخل على عمر وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال عمر : ما شأنك..؟

فقال عمير : ما ترى من شأني ألست تراني صحيح البدن ، طاهر الدم معي الدنيا أجرّها بقرنها..

قال : وما معك.؟ وظن عمر — رضي الله عنه — أنه قد جاء بمال.

فقال : معي جرابي أجعل فيه زادي ، وقصعتي آكل فيها ، وأغسل فيها رأسي وثيابي وأدواتي أحمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.

قال عمر : فجئت تمشي.؟

قال : نعم.

قال : أما كان لك أحد يتبرع لك بدابّة تركبها.؟

قال : ما فعلوا وما سألتهم ذلك.

فقال عمر : بئس المسلمون خرجت من عندهم.

قال عمر : فأين بعثتك ، وأي شيء صنعت.؟

قال : وما سؤالك يا أمير المؤمنين؟.

فقال عمر : سبحان الله.

فقال عمير : أما لولا أني أخشى أن أغمك ما أخبرتك. بعثني حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم حتى إذا جمعوه ، وضعته مواضعه ولو نالك منه شيء لأتيتك به.

قال : فما جئتنا بشيء؟

قال : لا.

قال : جددوا لعمير عهداً.

قال : إن ذلك لشيء مضى لا عملت لك ولا لأحد من بعدك ، واستأذنه فأذن له ، فرجع منزله ، وبينه وبين المدينة أميال.

فقال عمر حين انصرف عمير : ما أراه إلا قد خاننا فبعث رجلاً يقال له الحارث وأعطاه مائة دينار ، وقال له : انطلق إلى عمير حتى تنزل به كأنك ضيف ، فإن رأيت أثر شيء فأقبل ، وإن رأيت حالة شديدة فادفع إليه هذه المئة الدينار.

فانطلق الحارث فإذا هو بعمير يجلس بجوار الحائط فسلم عليه الرجل.

فقال له عمير : انزل رحمك الله ، فنزل.

ثم سأله : من أين جئت.؟

قال : من المدينة.

قال : فكيف تركت المسلمين؟.

قال : صالحين.

قال : فكيف تركت أمير المؤمنين؟.

قال : صالحاً.

فقال له عمير : اللهم أعن عمر.. فإني لا أعلمه إلا شديداً حبه لك. فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ، ويطوون ، حتى أتاهم الجهد.

فقال له عمير : انك قد أجعتنا ، فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل.

فأخرج الدنانير فدفعها إليه وقال :

بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها.

فصاح وقال : لا حاجة لي فيها ردّها.

فقالت له امرأته : إن احتجت إليها وإلا فضعها مواضعها.

فقال عمير : والله ما لي شيء أجعلها فيه .

فشقت امرأته أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء .

ثم رجع والرسول يظن أنه يعطيه منها شيئاً فقال له عمير : اقرئ مني أمير المؤمنين السلام .

فرجع الحارث إلى عمر .

فقال له : ما رأيت يا حارث؟

قال : رأيت يا أمير المؤمنين حالاً شديداً .

قال : فما صنع بالدنانير؟ .

قال : لا أدري .

فكتب إليه عمر : اذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل .

فأقبل عليه ، فقال له عمر : ما صنعت بالدنانير؟ .

قال : صنعت ما صنعت وما سؤالك عنها؟ .

قال : أنشد عليك لتخبرني ما صنعت بها ..

قال : قدمتها لنفسي ..

قال : رحمك الله . فأمر له بوسق من طعام وثوبين .

فقال : أما الطعام فلا حاجة لي فيه ، قد تركت في المنزل صاعين من شعير إلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله تعالى بالرزق ، ولم يأخذ الطعام ، وأما الثوبان فقال : إن أم فلان عارية ، فأخذهما ورجع الى منزله[1] .

واذا كان هذا الوالي من ولاة عمر .. يفر من الدنيا هكذا ويرفض أن يحوز شيئاً

(1) حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٤٧ — ٢٥٠ .

منها، فيحظى بإكبار عمر وإجلاله.. ويساعده على ما يراه في صالحه في الدنيا والآخرة.

فإن هناك نموذجاً آخر من الولاة.. يتمسك بالدنيا، ويحيط نفسه بمباهجها وزينتها، ويجمع حوله الخدم والحشم، ويتشبه بالأباطرة والدهاقين فماذا كان موقف عمر منه؟.

.. يقول ابن عبد البر: دخل عمر الشام ورأى معاوية بن سفيان في موكب عظيم فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة. فمضى في سبيله ولم يرد عليه سلامه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين فلو كلمته..

فالتفت إذ ذاك الى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذي أرى؟

قال: نعم.

قال: مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك..

قال: نعم.

قال: ولم ويحك؟.

قال: لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتني نقصت، وإن استزدتني زدت، وإن استوقفتني وقفت.

فقال عمر: ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه. إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب لا آمرك ولا أنهاك»[1].

وهكذا كان عمر — رضي الله عنه — يتحرى دائماً مصلحة الرعية، ويقبل من الولاة أعذارهم أو يغضي عنها ما دام يتوقف صلاح الولاية على ذلك.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣.

عمر في أسرته بين أهله وأولاده..

كيف كانت سيرة عمر بن الخطاب بين أهله وأسرته.. أكان فظاً غليظ القلب.؟ يأخذ أهله بالشدة ويعاملهم بالقسوة، أم كان بهم رحيماً عطوفاً يمتلىء قلبه بالحب ويفيض على من حوله؟.

الحقيقة أن عمر بن الخطاب كان رقيقاً في بيته سمحاً بين زوجاته، كريماً في معاملتهم ومن ذلك ما يروى:

«أنه جاء رجل إلى عمر يشكو إليه خلق زوجته، فوقف ببابه ينتظره، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل قائلاً إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالي؟.

فخرج عمر، فرآه مولياً فناداه: ما حاجتك..؟

فقال: يا أمير المؤمنين جئت أشكو اليك خلق زوجتي واستطالتها عليّ فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت:

«إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟.

فقال له عمر: تحملتها لحقوق لها علي»[1].

نعم للمرأة حقوق على زوجها كما جاء بها القرآن ووضحتها السنة قال تعالى: ﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[2].

ويقول الرسول ﷺ:

«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[3].

وعمر أول من يتبع هدى الرسول ﷺ ويلتزم بأوامر ربه وعمر كان مستودعاً

---

(1) نور الأبصار ٥٧.

(2) سورة الروم الآية ٢١.

(3) رواه ابن حبان وابن ماجه.

للحنان والعطف لأبناء المسلمين فكيف بأبنائه وأولاده؟. وكان يشترط فيمن يلي له أمراً أن يكون عطوفاً رحيماً براً بأبنائه وأبناء الآخرين. ومما يروى في ذلك أنه أمر بكتابة عهد لرجل قد ولاه. فبينا الكاتب يكتب جاء صبي فجلس في حُجر عمر فلاطفه.

فقال الرجل: يا أميرَ المؤمنين لي عشرة أولاد مثله ما دنا منهم مني.

قال عمر: فما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ثم قال: مزِّق الكتاب فإنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية»[1].

نعم من نضب قلبه من الحب كيف يتعامل مع الآخرين؟.

ومن لا يرحم أبناءه فكيف به بفلذات أكباد من يكونون تحت سيطرته وسلطانه؟

وكان كلاب بن أمية الكناني في غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم وحزن لغيابه واتصل بنوه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلاباً إلى المدينة فلما عاد ودخل عليه سأله:

«ما بلغ من برّك بأبيك؟.

قال: كنت أكفيه أمره، وكنت اعتمد إذا أردت أن أجلب لبناً إلى ناقة في ابله واسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح في مشيته ضعيفاً بصره، منحنياً ظهره، فسأله: كيف أنت يا كلاب؟.

قال: كما ترى يا أمير المؤمنين.

ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل. وقال وهو يدني الإناء إلى فمه يا أمير المؤمنين إني لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الاناء؟.

---

(١) عبقرية عمر. عباس محمود العقاد.

فقال عمر: هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به فوثب عليه ابنه وطفق الأب الذي لم يكد يراه يضمه ويقبله.

وبكى عمر وأمر كلاباً أن يلزم أبويه ما بقيا، وله عطاؤه كأنه يجاهد في سبيل الله»[1].

هذا هو عمر.. لا يملك نفسه من التأثر، ولا يستطيع أن يحبس عينيه من الدمع — عندما شاهد.. العاطفة الجياشة بين الابن وأبيه، ولا يكتفي عمر بذلك.. بل يأمر الابن أن يبقى مع والديه رعاية لهما — ورحمة بشيخوختهما.. ويترك الجهاد.. وعمر في هذا يقتدي بالرسول ﷺ الذي قال لمن سأله عن أبويه الكبيرين:

«اذهب ففيهما فجاهد».

ومن حنان عمر على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا في لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه.

حدّث سنان بن سلمة قال: إنه كان في صباه يلتقط البلح في أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو في مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين إنما هذا ما ألقت به الريح.

قال: أرني أنظر فإنه لا يخفى عليّ فنظر في حجري ثم قال: صدقت.

إلّا أن الصبي لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته فقال:

«يا أمير المؤمنين أترى هؤلاء الآن.. وأشار الى الصبية الهاربين ثم قال: والله لئن انطلقت لأغاروا عليّ فانتزعوا ما معي.

فمشى معه عمر حتى بلغه بيته..[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عبقرية عمر: عباس محمود العقاد.

.. ومع هذا نجد أن بعض النساء يرفضن الزواج من عمر أما الأولى فوصفته بأنه خشن العيش شديد على النساء.

وأما الثانية فوصفته بأنه رجل شغله أمر آخرته عن دنياه.

وقصة هاتين الرافضتين أن إحداهما أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق — رضي الله عنها — خطبها عمر من أختها عائشة رضي الله عنها ثم سألت عائشة أختها فأبته وقالت: لا حاجة لي فيه. فزجرتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟.

قالت: نعم خشن العيش شديد على النساء.

وأما الثانية: فهي أم أبان بنت عتبة بن ربيعة. قالت في تبرير رفضها الزواج منه:

«انه رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر الى ربه بعينه»[1]. وهذا هو السر فيما كان يشاع من قسوة عمر وغلظته.

لقد كان شديداً في الحق، يخاف ربه ويخشاه.

وكان أيضاً شديد التحرج في مال المسلمين، حريصاً عليه يأخذه بحقه ويدفعه الى أهله.. ولن يستطيع أن يطبق ذلك على المسلمين الا اذا كان هو نفسه مضرب المثل لهم في نفسه وأهل بيته ولهذا كان يجمع أهل بيته ويقول:

«اني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وان الناس ينظرون اليكم كما ينظر الطير الى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وان هبتم هابوا، واني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت عنه الا ضاعفت له العذاب لمكانه مني فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر»[2].

هذا هو عمر — رضي الله عنه — قدوة صالحة لأهله وأقرب الناس اليه، ثم

(١) المصدر السابق.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢٠٧.

بعد ذلك لرعيته.. فإذا أخطأ أحد أهله أو بنيه في حق نفسه أو في حق ربه، كان عمر أقسى ما يكون من القسوة والغلظة حتى يأخذ بحق الله من ذلك المتهاون في حق ربه.

من ذلك ما يروى عن عمرو بن العاص — رضي الله عنه — أنه ذكر عمر فترحم عليه: ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر — رضي الله عنه — أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد.

ثم قال: والله اني لفي منزلي في مصر، اذ أتاني آتٍ، فقال: هذا عبد الرحمن ابن عمر وأبو سروعة، يستأذنان عليك.

فقلت: يدخلان.

فدخلا وهما منكسران فقالا: أقم علينا حد الله.

فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا.

فزجرتهما وطردتهما، فقال عبد الرحمن: ان لم تفعله أخبرت أبي اذا أقدمت عليه.

فعلمت أني ان لم أقم عليهما الحد، غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما الى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل عبد الرحمن بن عمر الى ناحية في الدار فحلق رأسه وكانوا يحلقون مع الحدود، ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر الى العاصي بن العاص، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليّ وخلافة عهدي، فما أراني الا عازلك. تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن ذلك يخالفني؟.

إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق

يجب لله عليه ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع ».

فبعث به كما قال أبوه ، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه أني ضربته في صحن داري ، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم.

وبعث بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه فقال :

«يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟

فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت اليه ، فجعل عبد الرحمن يصيح : إني مريض وأنت قاتلي ، فضربه ثانية وحبسه فمرض ثم مات رحمه الله[1] ».

ويعلق صاحب العبقريات على ذلك بقوله : لم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد ، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حداً وله مندوحة عنه .. وقد كان من دأبه أن يتريث في اقامة الحدود حتى ليؤثر — كما قال — تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.

من ذلك. أنه مرّ بقوم يتبعون رجلاً قد أُخذ في ريبة فقال : لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا ترى في الشر.

وربما غضب على الوالي من كبار الولاة لغلوه في تقاضي الحدود على المعاصي كما فعل في إنذاره الشديد لأبي موسى الأشعري حين جلد شاباً وحلق شعره وسود وجهه ، ونادى في الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكي مائتي درهم وكتب إلى أبي موسى ، لئن عدت لأسودنّ وجهك ولأطوفن بك في الناس وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب ، ويقبل شهادته إن تاب.

---

(١) ابن الجوزي ص ٢٠٧.

وتفقد رجلاً يعرفه فقيل له إنه يتابع الشراب، فكتب اليه:

«إني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو، اليه المصير».

فلم يزل الرجل يرددها ويبكي حتى صحت توبته وأحسن النزع وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه: «هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة، فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه».

وفي قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تحرجه وتحريه، ثم لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف في القسوة عليه، ليقال إنه سوّى بينه وبين غيره.

إن الذي فعله عمر ويمكن أن يفعله — هو أن يحول بين أهله وبين التردي في النار، أو أن يفعلوا شيئاً يخالف أوامر الاسلام، أو أن تكون لهم في المجتمع الاسلامي ميزة تميزهم عن غيرهم، أو أن ينالهم من موارد المسلمين خير لا يعم الأمة كلها، عندها يقف عمر صارماً قوياً لا تلين له قناة، ولا يتساهل مطلقاً في حق من حقوق الله أو حقوق الرعية.

عن عبد الله بن عمر قال:

«اشتريت إبلاً وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سماناً فقال:

لمن هذه؟.

فقيل: لعبد الله بن عمر.

فجعل يقول: يا عبد الله بخ بخ.. ابن أمير المؤمنين.

فجئته أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟.

قال: ما هذه الإبل؟.

قلت : إبل هزيلة اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين.

اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين.

يا عبد الله بن عمر خذ رأس مالك ، واجعل الربح في بيت مال المسلمين[1] ».

وقصة أخرى :

عن اسلم قال : خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر في جيش إلى العراق ، فلما قفلا مرّا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وقال :

« لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت ثم قال : بلى ، ها هنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين وأسلفكماه فتبتاعان به من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح ، ففعلا ، وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال.

فلما قدما على عمر قال :

« أكلَّ الجيش أسلف كما أسلفكما ؟ ».

فقالا : لا.

فقال عمر : أديا المال وربحه.

فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيد الله فقال :

« ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين ، لو هلك المال أو نقص لضمناه.

فقال : أديا المال.

فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله.

فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً « شركة » فقال عمر : قد جعلته قراضاً.

(١) أخبار عمر للشيخ علي الطنطاوي ص ٣١٣ نقلاً عن الرياض النضرة جـ ٢ ص ٤٧.

فأخذ المال ونصف ربحه ، وأخذنا نصف ربحه[1] » .

هذه هي سياسة عمر وشدة تحرجه من مال المسلمين ، ولهذا كان رده على ولديه :

« أكل الجيش أسلف كما أسلفكما ، وما دام ذلك لم يحدث فلِمَ التفاضل والتمايز الأنهما ولدا أمير المؤمنين ؟ لا لن يكون ما دام في عمر عرق ينبض » .

وما فعله مع ابنيه فعله أيضاً مع زوجته .

« لقد جاء بريد الروم إلى عمر — رضي الله عنه — فاستقرضت زوجته ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير ، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم .

فلما أتاه أفرغت زجاجات العطر وملأتهن جواهر وقالت : اذهب به إلى امرأة عمر .

فلما أتاها فرغتهن على البساط فدخل عمر فقال : ما هذا ؟ .

فأخبرته ، فأخذ عمر الجواهر فباعه ودفع إلى امرأته ديناراً ، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين .

لقد جاءت هذه الهدايا باسم زوجة أمير المؤمنين .

ولو كانت زوجة رجل آخر ما قدمت لها هذه الهدايا الثمينة .

وأمير المؤمنين وزوجه لا يملكان شيئاً ، ولا يحق لهما أن ينالا شيئاً لم ينله عامة المسلمين .

إذن لا بد لهذه الهدايا أن تضاف إلى رصيد المسلمين . ولا يأخذ منها عمر ولا زوجه إلا بمقدار ما يأخذ أي فرد من أفراد المسلمين .

وعمر في هذا يقتدي برسول الله ﷺ ويتبع سنته ويسير على نهجه من ذلك عن أبي حميد الساعدي ، قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الازد على صدقات

(١) المصدر السابق ص ٣١٤ .

بني سليم يدعى ابن اللبتية فلما جاء قال : هذا لكم وهذا هدية . فقال رسول الله ﷺ : فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً ، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله ، فيأتي فيقول هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ، والله لا يأخذ أحد منكم منها شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة»[1] .

بل إن عمر ليخاف الله سبحانه وتعالى فيما هو أقل من ذلك . ويراقب أهله وذويه مراقبة اليقظ الذي لا يسهو ولا ينام ، ولا يتساهل في قليل أو كثير .. وكأنه «الديدبان» اليقظ الذي يحول بين أهله وبين التعدي على حق من حقوق المسلمين وهذه الحادثة التي بين أيدينا تعطينا أبلغ التصور عما كان عليه عمر من حرصه على أموال المسلمين من ذلك :

«إنه كان يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين فتبيعه ، وكانت تقوم بتقطيع الطيب بأسنانها فيعلق بعضه بأصابعها فتمسحه بخمارها .

وفي يوم من الأيام دخل عمر ، ووصلت إلى فمه رائحة الطيب .

فقال : ما هذه الريح ؟ .

فأخبرته زوجه بالذي كان ..

قال : طيب المسلمين تأخذينه أنت فتطيبين به ..

ثم قام وانتزع الخمار من على رأسها ، وأخذ جزءاً من ماء فجعل يصبه عليه ثم يدلكه في التراب ويشمه وتكرر ذلك منه حتى ذهب ريحه»[2] .

انه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — كان نسيج وحده من الرجال وكان

(١) رواه الامام مسلم في باب تحريم هدايا العمال من كتاب الأمارة رقم ٢٧ .

(٢) ابن الجوزي ١٣٨ .

مؤمناً يسيطر الايمان على كل ذرة من ذرات جسمه ، وكل خلجة من خلجات فؤاده.. عمر الذي يعرف نفسه ويخافها ويرهبها.

نادى يوماً : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس ! لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل.

فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين.

فقال : ويحك يا ابن عوف. خلوت إلى نفسي فقالت لي :

«أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك» . فأردت أن أعرفها قدرها [1] .

وعمر عاش فترة طويلة — وهو خليفة — يأكل من كسب يده . وكان يشتغل بالتجارة ، فيعامل الناس ويستدين ويوفي ويبيع ويربح .

وقد جهز عيراً مرة إلى الشام ، فبعث الى عبد الرحمن بن عوف ، يستقرضه أربعة آلاف درهم.

فقال للرسول : قل له يأخذها من بيت المال ثم ليردها.

فلما جاءه الرسول وأخبره بما قال : شق ذلك عليه ، فلقيه فقال : أنت القائل ليأخذها من بيت المال ؟. فإن مت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له. وأؤخذ يوم القيامة.. لا. ولكن رأيت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك ، فإن مت أخذها من ميراثي.

واستمر على ذلك حتى فرض له من بيت مال المسلمين — كما حدده علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه بقوله :

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢١٠.

«ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره».

فقال عمر: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة اليتيم، ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت».

انه القوي الأمين كما وصفه عثمان — رضي الله عنه — عندما رآه يسوق إبل الصدقة في يوم صائف، ورفض دعوة عثمان، في أن يقوم غيره مقامه فقال:

«من أحب أن ينظر الى القوي الأمين.. فلينظر الى هذا»..

عمر يسهر على مصالح الرعية

قال عبد الرحمن بن عوف — رضي الله عنه — قدمت رفقة من التجارة فنزلوا المصلى فقال لي عمر:

هل لك أن تحرسهم الليلة من السرقة؟

قلت: نعم.

فأقمنا الليل ساهرين، ونصلي ما شاء الله. وبينما نحن كذلك. اذ سمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقي الله واحسني الى صبيك ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه، فعاد الى أمه فقال:

اتقي الله وأحسني الى صبيك، ثم عاد الى مكانه.

فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال:

«ويحك اني لأراك أم سوء، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟».

قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، اني أدربه على الفطام فيأبى.

قال: ولمَ..

قالت: لأن عمر لا يفرض الا للفطيم.

قال: وكم له؟.

قالت : كذا وكذا شهراً.

قال : ويحك لا تعجليه.

فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلم قال : يا بؤساً لعمر : كم قتل من أولاد المسلمين.

ثم أمر منادياً فنادى :

«أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الاسلام وكتب بذلك إلى الآفاق»[1].

ان بكاء طفل أرق عمر ، وأطار النوم من عينيه ، وعندما عرف بحقيقته أخذته رعدة الخوف والخشية من ربه ، كيف لم يتنبه الى هذا الأمر ، ولماذا التحديد بفطام الطفل حتى يفرض له عطاء؟.

لقد أحس عمر أنه أخطأ التقدير عندما فعل ذلك — وكان لا بد من معالجة الخطأ وهو أن يفرض لكل مولود في الاسلام.. فهل استراح عمر بذلك وقرت بلاله؟. ان وقائع التاريخ تقول غير ذلك ، فلنتابعه في رحلة أخرى عبر ظلام الليل وسكونه المطبق.

عن أسلم مولى عمر قال :

«خرجنا مع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — الى حرة واقم حتى اذا كنا بصرار اذا نار تشعل. قال يا أسلم اني أرى ها هنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا بامرأة معها صبيان ، وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتصايحون فقال عمر :

السلام عليكم يا أهل الضوء.

---

(1) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢١٧.

فقالت : وعليكم السلام.

فقال : أأدنو؟.

فقالت : ادنُ بخير أودع. فدنا منها فقال : ما بالكم؟.

قالت : قصر بنا الليل والبرد.

قال : وما بال هؤلاء الصبية يتصايحون؟.

قالت : الجوع.

قال : وأي شيء في القدر؟.

قالت : ماء أسكنهم فيه حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.

فقال : أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟.

قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا.

فأقبل عليّ فقال : انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عِدلاً من دقيق، وكبة شحم، وقال : احمله عليّ.

قلت : أنا أحمله عنك.

قال : أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك..

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول، فألقى ذلك عندها وأخرج الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها : ذُرّي عليّ وأنا أحُرُّ لك».

وجعل ينفخ تحت القدر فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم ثم أنزلها. وقال : ابغني شيئاً.

فأتته بصحفة فأفرغها فيها فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم «أي أبسطه حتى يبرد».

فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك وقام وقمت معه. فجعلت تقول : جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

فيقول : قولي خيراً : إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله.. انه الراعي الأمين للرعية ، الساهر على شؤونها.

وماذا نتصور أن يكون الحاكم غير هذا.. إن مسؤولية الحكم ثقيلة ولا يصلح لها إلا عظماء الرجال.. الذين حباهم الله سبحانه وتعالى قلباً كبيراً ونفساً رضية ، تسوس الناس ، وترعى مصالحهم وتتفقد شؤونهم.

أما هؤلاء الحكام الذين يجلسون على عروشهم ، ويعيشون لملذاتهم ويهملون أمور رعيتهم.. فهم لصوص ، سطوا على الحكم في غفلة من أهله ، ملأوا خزائنهم. وأشبعوا بطونهم ، بجياع غيرهم.. فما أقسى قلوبهم وأغلظ جبلتهم. ولكن لا بأس.. فالتاريخ يحدثنا دائماً أن حساب الشعوب دائماً يكون أقسى حساب.. ويومئذ يندمون ، ولكن لا ينفع الندم..

ثم ماذا.. أنترك عمر بعد هذا أم نتبعه في رحلة أخرى من رحلات الليل لنرى كيف يكون الحاكم العدل.. نعمة لا تعادلها نعمة. ورحمة الله لعباده على الأرض.

يقول صاحب كتاب العقد الفريد :

« بينما عمر يَعُس ذات ليلة ، إذ مر برحبة من رحاب المدينة ، فإذا هو ببيت شعر لم يكن بالأمس ، فدنا منه فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلاً جالساً فدنا منه فسلم عليه ثم قال : من أنت ؟.

قال : رجل من أهل البادية جئت أمير المؤمنين أصيب من فضله.

قال : ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت ؟.

قال : انطلق رحمك الله لحاجتك.

قال : على ذاك ما هو؟

قال : امرأة تمخض.

قال : هل عندك أحد؟.

قال : لا.

فانطلق حتى أتى منزله ، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي كرم الله وجهه : هل لك في أجر ساقه الله اليك؟.

قالت : وما هو؟.

قال : امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد.

قالت : نعم ، إن شئت.

قال : فخذي معك ما يصلح لولادتها من الخرق والدهن ، وجيئيني بقدر وشحم وحبوب.

فجاءت به فقال : انطلقي ، وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها : ادخلي إلى المرأة.

وجاء حتى قعد إلى الرجل، فقال له : أوقد لي ناراً.

ففعل. فأوقد تحت القدر حتى أنضجها ، وولدت المرأة فقالت أم كلثوم يا أمير المؤمنين: بشر صاحبك بغلام.

فلما سمع الأعرابي بأمير المؤمنين. كأنه هابه ، فجعل يتنحى عنه.

فقال له : مكانك كما أنت.

فحمل القدر فوضعها على الباب.

ثم قال : أشبعيها.

ففعلت ، ثم أخرجت القدر فوضعتها على الباب ، فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرجل وقال : كل ويحك فإنك قد سهرت من الليل. وقال لامرأته اخرجي وقال للرجل: إذا كان غداً فائتنا نأمر لك بما يصلحك[1].

ماذا تطلب الرعية من الحاكم أكثر من هذا؟.

إنه يبحث عن محتاجها..

(١) ابن الجوزي ٧٣ والعقد الفريد ٩٨.

ويراقب أحوالها..

ويجيش الجيوش لحماية ثغورها، ونشر دين الله بين أركانها.

فإذا غادر الجيش المدينة فهو أبو العيال.. حتى يعود الرجال.

.. وهذه حادثة أخرى من حوادثه.. وهو يسهر على شؤون الرعية ويتجول في أزقتها ودروبها لعله يبصر محتاجاً أو يشاهد متلصصاً، أو ينقذ مكروباً.

يقول ابن الجوزي: خرج عمر ذات ليلة يعس بالمدينة إذ مرّ بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهي تقول:

.. تطاول هذا الليل واخضلّ جانبه وأرّقني أن لا خليل ألاعبه
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما بدا قمرٌ في ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه لطيف الحشى لا تجتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا رب غيره لحرّك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصدني وإكرام زوجي أن تنال مراكبه
ولكنني أخشى رقيباً موكلاً بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

ثم تنفست الصُعداء وقالت: لهان على عمر بن الخطاب وحشتي وغيبة زوجي عني..

وعمر واقف يسمع. فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذي يأتي امرأة مغيبة هذه الساعة؟.

فقال: افتحي.

فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك.

فلما رأى عفافها قال: افتحي فأنا أمير المؤمنين.

ففتحت له.

فقال: هيه كيف قلت؟.

فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟.

قالت: في بعث كذا وكذا.

فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرح فلاناً، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال:

«أي بنيه كم تصبر المرأة على زوجها..

قالت: شهراً واثنين وثلاثة وفي الرابع ينفذ الصبر.

فجعل ذلك أجلاً للبعث»[1].

إن أهم ما تحرص عليه الأم المؤمنة — هو عفاف أبنائها وبناتها.. وبمقدار تفشي العفة والفضيلة بين الشعوب.. بمقدار ما يكون رقيها وتقدمها.

وفي صدر الاسلام كانت الجيوش الاسلامية، تقطع آلاف الأميال بوسيلة اتصال بدائية — الأمر الذي يجعل الجنود يقطعون مدداً طويلة في الحروب وهنا تنبه عمر إلى حاجة المرأة لرجلها في فترات متقاربة — وهنا أصدر أمره إلى عماله بألا يتخلف جندي من الجنود في غزوة من الغزوات أكثر من ثلاثة شهور يعود بعدها إلى أهله وذويه — ثم يتابع الغزو مرة أخرى.

وبهذا التدبير والتنظيم، استطاع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أن يحفظ للأسرة المسلمة عفافها وصيانتها.

وهكذا نرى هذا الحاكم.. لا يشغله من أمر المسلمين شأن عن شأن ولا يسمح لغيره أن يقوم بعمل يستطيع أن يقوم هو به.

---

(١) ابن الجوزي ص ٧١ والمحاسن والأضداد ص ١٨٩.

لقد قدم وفد من العراق: فيهم الأحنف بن قيس في يوم صائف شديد الحر وعمر متعمم بعباءة ويداوي بعيراً من إبل الصدقة.

وما كاد عمر يقع بصره على الأحنف بن قيس حتى هتف به: يا أحنف ضع ثيابك، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين.

فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين. فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك..

فقال: وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف؟

ثم قال كلمته الخالدة التي يجب أن تكون دستوراً لكل حاكم يعتز برعيته ويخاف ربه.

قال عمر: انه من ولي أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده في النصيحة وأداء الأمانة»[1].

أين حكام العالم وزعماؤه ليستمعوا إلى هذا القول.. ويتتلمذوا في هذه الجامعة التي خرجت أمثال هؤلاء الرجال؟.

ونقول: ان هؤلاء الحكام لا يسمعون ولا يبغون أن يسمعوا.. لقد شغلتهم ملذات الحياة وشهوات أنفسهم عن كل شيء.

وأصبحوا بالنسبة لشعوبهم — إلا من عصم ربي — قذى في العيون، وغصة في الحلوق — وكابوساً ثقيلاً يود الجميع الخلاص منهم.

ولكن علام العجلة — ولكل سافرة حجاب.. ولكل ليل صباح..

---

(١) ابن الجوزي ص ٦٢.

عمر مع الرعية..

انتقش رجل يقال له معن بن زائدة على خاتم الخلافة فأصاب مالاً من خراج الكوفة على عهد عمر فبلغه ذلك ، فكتب إلى المغيرة بن شعبة : إنه بلغني أن رجلاً يقال له معن بن زائدة انتقش على خاتم فأصاب به مالاً من خراج الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فنفذ أمري وأطع رسولي.

فلما صلى المغيرة العصر وأخذ الناس مجالسهم ، خرج ومعه رسول عمر ، فاشرأب الناس ينظرون اليه حتى وقف على معن. ثم قال للرسول : إن أمير المؤمنين أمرني أن أطيع أمرك فيه فمرني بما شئت.

فقال الرسول : ادع لي بجامعة أعلقها في عنقه. فأتى بجامعة فجعلها في عنقه وجبذها جبذاً شديداً ثم قال للمغيرة :

«احبسه حتى يأتيك فيه أمر أمير المؤمنين».

وكان السجن يومئذ من قصب فتحمل معن للخروج وبعث إلى أهله أن ابعثوا لي بناقتي وجاريتي وعباءتي ففعلوا ، فخرج من الليل وأردف جاريته ، فسار حتى إذا قرب الصبح أناخ ناقته وعقلها ، ثم كمن حتى كف عنه الطلب ، فلما أمسى أعاد على ناقته العباءة وشد عليها وأردف جاريته ، ثم سار حتى قدم على عمر وهو يوقظ المتهجدين لصلاة الصبح ومعه درته.

فجعل ناقته وجاريته ناحية ثم دنا من عمر فقال :

السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال : وعليك. من أنت..؟

قال : معن بن زائدة جئتك تائباً.

قال : أبت فلا يُحيِّكَ الله ، فلما صلى الصبح قال للناس : مكانكم فلما طلعت الشمس قال :

«هذا معن بن زائدة انتقش على خاتم الخلافة فأصاب فيه مالاً من خراج الكوفة فما تقولون فيه»؟.

فقال قائل: اقطع يده.

وقال قائل: أصلبه.

وعليٌ ساكت، فقال له عمر: ماذا تقول يا أبا الحسن؟.

قال: يا أمير المؤمنين: رجل كذب كذبه، فضربه عمر ضرباً شديداً وحبسه. فكان في الحبس ما شاء الله، ثم أرسل إلى صديق له من قريش أن كلّم أمير المؤمنين في تخلية سبيلي، فكلمه القرشي فقال:

«يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، قد أصبته من العقوبة بما كان له أهلاً فإن رأيت أن تخلي سبيله؟.

فقال عمر: ذكرتني وكنت ناسياً، عليَّ بمعن، فضربه ثم أمر به إلى السجن فبعث معن إلى كل صديق له: لا تذكروني لأمير المؤمنين.

فلبث محبوساً ما شاء الله.

ثم إن عمر انتبه فقال: معن.

فأتي به، فقاسمه وخلى سبيله»[1].

رجل من عامة الناس يلجأ إلى حيلة ويستولي بها على بعض الأموال العامة. ويسمع عمر بما حدث. فيطلب من واليه.. أن يحبسه حتى يأتيه أمره، ولكن الرجل يفرّ من سجنه ويذهب الى عمر. ويعتقد أن عمر عندما يسمع بتوبته سيعفو عنه..

ولكن متى كان عمر كذلك؟

وعمر نفسه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

---

(١) فتوح البلدان جـ ٨ ص ٤ والاصابة جـ ٣ ص ٥٢٨.

إن هذا الرجل لم يسرق المال من حرزه وإلا كان الأمر سهلاً في إقامة الحد عليه.

ولم يغتصبه من حامله.. وإلا لكان لعمر معه شأن آخر.

ولكنه لجأ إلى حيلة.. تسلم بها المال ممن يقوم على بيت المال.

ومن هنا كان السجن والتعزير عقوبة له ولأمثاله.

ولم يقبل عمر شفاعة فيه من أحد، بل عندما علم أنه لجأ إلى هذا الطريق ضاعف له العقوبة، حتى إذا اطمأن أن هذا العابث بنظام الدونه — قد استحق عقوبته ونال جزاءه.. قاسمه ماله، حتى يستوفي منه ما أخذه بغير حقه.

وإذا كانت الحادثة الأولى، حادثة اختلاس أموال عامة تخص جميع المسلمين فإن هذه الحادثة الثانية تختلف عن الأولى، بأنها تتعلق بحقوق فرد واحد من أفراد الرعية، فماذا كان موقف عمر منها؟. لنرى..

تتفق كتب السيَر والتاريخ على أنه عندما أسلم جبلة بن الأيهم الغساني وكان من ملوك آل جفنة، كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له عمر فخرج اليه في خمسمائة من أهل بيته من عَكّ وغسان.

حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه. فسر عمر وأمر الناس باستقباله.

فأمر جبلة مائة رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحرير، وركبوا الخيول معقودة أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة. ولبس جبلة تاجه وفيه قرطا مارية وهي جدته ودخل المدينة.

يقال: فلم يبق فيها أحد إلا خرج ينظر اليه وإلى زيه.

فلما انتهى إلى عمر رحب به وألطفه وأدنى مجلسه.

ثم أراد عمر الحج فخرج معه جبلة، فبينا هو يطوف بالبيت وكان مشهوراً بالموسم إذا وطئ إزاره رجل من بني فزارة فانحل فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري!!

فاستعدى عليه عمر، فبعث إلى جبلة فأتاه.

فقال: ما هذا؟.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنه تعمد حل إزاري، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف.

فقال له عمر: قد أقررت فإما أن ترضي الرجل، وإما أن أقيده منك.

قال: وماذا تصنع بي؟.

قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت[1].

قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟.

قال: إن الاسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية.

قال جبلة: قد ظننت يا أمير المؤمنين أني أكون في الاسلام أعز مني في الجاهلية...

قال عمر: دع عنك هذا، فإنك ان لم ترض الرجل أقدته منك.

قال: إذاً أتنصر.

قال: ان تنصرت ضربت عنقك، لأنك قد أسلمت، فإن ارتددت قتلتك.

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه.

فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف، حتى اذا نام الناس وهدأوا تحمل جبلة بخيله ورواحله الى الشام فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع[2].

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل، ليقوّموا به القيم كلها هو: ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[3].

---

(١) كتاب الأغاني جـ ١٤ ص ٤ — ٧ وفتوح البلدان ص ١٤٢ وأخبار عمر للاستاذ علي طنطاوي ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

هذه القيمة هي الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل ، وهي قيمة سماوية بحتة لا علاقة لها بموضوعات الأرض وملابساتها اطلاقاً.

ولكن الناس يعيشون في الأرض ، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم وهم يتعاملون بقيم أخرى ، فيها النسب وفيها القوة وفيها المال . فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض.

ثم يجيء الاسلام فيضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة في حياة الناس ليقول لهم : ﴿ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] .

فليكن جبلة من كبار الملوك والدهاقين.

ولكنه اعتدى على حق من حقوق فرد مسلم.

والاسلام لا يعترف بتلك الفروق. فلا بد من القصاص .. هكذا قال عمر لجبلة إما أن يتنازل المعتدَى عليه عن حقه ، واما أن ينزل القصاص على المعتدي وعمر في هذه القضية وفي غيرها من القضايا لا يستطيع أن يحيد قيد أنملة — وكيف يفعل ان مال وهو كان يسمع قول الرسول ﷺ عندما جاء له جماعة يستشفعون في امرأة من علية القوم سرقت فجابهم بقوله :

«انما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد»[2] .

والذي يعتدي على الآخرين ويتعاظم القصاص ، هو لص .. يسطو على حقوق الآخرين ويتطاول عليهم .

ولكن لا : ان في درة عمر لردعاً لهم ، واخراج سخائم الشيطان من بين أبدانهم .. و إذا كان عمر يفعل ذلك حماية لأموال الناس وحقوقهم ، فإن حرصه على

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

سلامة المجتمع الاسلامي من عوامل التعفن والبوار لا تقل عن اهتمامه بكل العوامل الأخرى مجتمعة.

لقد كان عمر يعسى ليلاً فطرق سمعه صوت امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أو من سبيل إلى نصر بن حجاج
الى فتى ماجد الأعراق مقتبل   سهل المحيا كريم غير مِلجاج
نمته أعراق صدق حين تنسبه   أخي حفاظ عن المكروب فراج (١)

فقالت لها امرأة معها: من نصر؟.

قالت: رجل أود لو كان معي طول ليلة ليس معنا أحد.

وكان نصر هذا من أجمل الناس.

فقال عمر: أما وعمر حي فلا، فدعا به فإذا هو أحسن الناس شعراً وأصبحهم وجهاً، فأمره عمر أن يطمَّ شعره «أن يجزه ويستأصله» ففعل وخرجت جبهته بعد حلق رأسه فعاد أحسن مما كان، فأمره أن يعتم ففعل فازداد حسناً فقال له:

«لا تساكني في بلدة يتمناك النساء بها.

ثم أمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة، وخافت المرأة فكتبت الى عمر رضي الله عنه تسترضيه.

وكان عمر — رضي الله عنه — قد سأل عنها فوصفت له بالعفاف، فأرسل إليها: قد بلغني عنك خير فقري اني لم أخرجه من أجلك ولكن بلغني أنه يدخل على النساء فلست آمنهن. وبكى عمر. وقال: الحمد لله الذي قيد الهوى وقد أقرَّ.

وتشفع نصر الى عمر ألا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر. فقال له: «لقد سمتني قتل نفسي». فقال عمر: كيف؟.

---

(١) المحاسن والأضداد ١٨٩ وروضة المحبين ٤٠٥.

فقال: قال الله تعالى:

﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾[1].

فقرن هذا بهذا، فقال عمر: ما أبعدت، لكن أقول ما قال شعيب عليه السلام: ﴿ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله﴾[2].

ولقد أضعفت عطاءك ليكون ذلك عوضاً لك.

فخرج نصر من المدينة حتى أتى البصرة[3].

ان المجتمعات الاسلامية يجب أن تصان من كل من يحاول أن يخدش حياءها أو ينال من عفة أبنائها وبناتها.

إن تفشي الرجس وانتشار الفواحش، وغيبة الفضيلة — في مجتمع من المجتمعات لدليل على انهيار هذا المجتمع وقرب نهايته...

ان الأمة، أي أمة، يقاس رقيها وحضارتها بمقدار سلوك أفرادها جميعاً والتزام أبنائها بقواعد وقوانين هذا المجتمع.

ولكن ما نلاحظه الآن في كثير من المجتمعات الاسلامية — ويلاحظه كل غيور على دينه، لهو علامة تنذر بالخطر، وبداية لشر مستطير.

ان ما يفعله هؤلاء العابثون والعابثات في مجتمعنا — من استيراد أفكار وعادات غريبة عن تقاليدنا وعاداتنا سيكون له ما بعده.

وعلى ولاة الأمر أن يضربوا بيد من حديد على أيدي هؤلاء الذين لا يردهم خلق أو ضمير.

أو على أقل تقدير أن يفعلوا ما فعله عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في المجتمع

---

(١) سورة النساء الآية ٦٦.

(٢) سورة هود الآية ٨٨.

(٣) ابن الجوزي ص ٧٤ والاصابة جـ ٣ ص ٩٧٥.

الاسلامي الأول .. من نني هؤلاء الذين أحسَّ أن في وجودهم خطراً على المجتمع الذي يعيش فيه.

أم ترى أننا أصبحنا في عصرٍ — يشجع فيه الحكام والولاة شباب هذه الأمة على الانغماس في الملذات حتى أذقانهم — وبذلك لا يفيقون — من غفلتهم فيكتشفون الهوة السحيقة التي يحفرها هؤلاء الحكام لشعوبهم؟.

عمر رضي الله عنه في آخر أيامه...

عن سعيد بن المسيب — رضي الله — عنه — قال:

ان عمر لما أفاض من منى أناخ بالابطح فكوم كومة من بطحاء وطرح عليها طرف ثوبه ثم استلقى عليها ورفع يديه الى السماء وقال:

«اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي فاقبضني اليك غير مضيع ولا مفرط».

فلما قدم المدينة خطب الناس فقال:

«أيها الناس قد فرضت لكم الفرائض وسُنت لكم السنن وتُركتم على الواضحة ثم صفق يمينه على شماله.. إلا أن تضلوا بالناس يميناً وشمالاً»[1].

وعن ابي طلحة اليعمري: أن عمر بن الخطاب خطب الناس في يوم جمعة فذكر نبي الله وذكر أبا بكر فقال:

«إني رأيت أن ديكاً نقرني نقرتين ولا أراه إلا حضور أجلي فإن أقواماً يأمروني استخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته، والذي بعث به نبيه ﷺ فإن عَجِل بي أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي ﷺ وهو عنهم راضٍ.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٣٤.

ثم قال:

«اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا إليّ ما أشكل عليهم من أمرهم، ثم انكم أيها الناس تأكلون من شجرتين لا أراهما الا خبيثتين — البصل والثوم. وقد كنت أرى رسول الله ﷺ اذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر فأخذ بيده فأخرج من المسجد الى البقيع، فمن أكلهما لا بد فليمتهما طبخاً»[1].

وعن سعد الجاري مولى عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أن عمر بن الخطاب دعا أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وكانت تحته فوجدها تبكي.

فقال ما يبكيك؟.

فقالت: يا أمير المؤمنين هذا اليهودي — تعني كعب الأحبار — يقول انك على باب من أبواب جهنم.

فقال عمر: ما شاء الله والله اني لأرجو أن يكون ربي خلقني سعيداً ثم أرسل الى كعب فدعاه فلما جاءه كعب قال:

«يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة.

فقال عمر: أي شيء هذا؟. مرة في الجنة، ومرة في النار؟

فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها، فإذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها الى يوم القيامة»[2].

ثم جاءه مرة أخرى فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام. قال عمر: وما يدريك؟.

---

(١) الرياض النضرة جـ ٢ ص ٧٤ وابن الجوزي ٥٨٤.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢٤٠.

قال: أجده في كتاب الله — التوراة.

فقال عمر: آلله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟.

قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك بأنه قد فني أجلك — وعمر لا يحسن وجعاً ولا ألماً — فلما كان من الغد جاءه كعب فقال:

«يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان».

ثم جاءه من بعد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة هي لك الى صبحها فلما كان الصبح خرج عمر الى الصلاة وطعن[1].

ونتساءل من أين جاء كعب بهذه الأخبار؟.

وهل يوجد في التوراة شيء يدل على صفة عمر وهيئته؟.

اللهم: لا، وليس في التوراة الصحيحة أو المحرفة — والتي توجد بأيديهم شيء يدل على ذلك.

اذن كيف استطاع كعب أن يحدد أجل عمر هذا التحديد الدقيق؟

أيعلم الغيب؟. وهذا شيء اختص الله بعلمه — وليس لنبي أو رسول من ذلك شيء إلا بأمره تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾[2].

والرسول ﷺ يقول:

﴿ لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾[3].

وإذا كان الأمر كذلك كيف توصل كعب — مرة أخرى — إلى قتل عمر؟.

(١) أخبار عمر ص ٤٣٦.

(٢) سورة الجن الآية ٢٧.

(٣) سورة الاعراف الآية ١٨٨.

أتكون هناك مؤامرة مدبرة ومحبوكة الأطراف ـــ وكعب كان يعلم الكثير عن هذه المؤامرة واستطاع بذلك أن يحدد التحديد القاطع..

إننا لا نستبعد ذلك.

ولا ننسى حقد اليهود على الاسلام ـــ ونبي الاسلام ـــ وما دبروه من مؤامرات وكيد لهذه الدعوة.

إن أصابع اليهودية ضليعة في قتل عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ ويتفق كثير من المؤرخين على ذلك.

ولكن كيف استطاع القاتل أن يتسلل إلى المدينة ويعيش فترة بين المسلمين؟

يقول الطبري في تاريخه:

«كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة إلى عمر يستأذنه في غلام صنع يدعى أبا لؤلؤة واسمه «فيروز» لديه أعمال كثيرة فيها منافع للناس: فهو حداد ونقاش ونجار فأذن له عمر.

فأرسل به المغيرة وكان يأخذ منه كل يوم أربعة دراهم، وضرب عليه مائة درهم في كل شهر لأنه كان يصنع الأرحاء.

فجاء الغلام إلى عمر يشتكي اليه ويقول:

«يا أمير المؤمنين إن المغيرة قد أثقل عليّ علتي فكلمه لي ليخفف عني فقال له عمر: ما تحسن من الأعمال؟.

فذكرها له.

فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك. ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه ـــ فانصرف العبد مغضباً، وأضمر قتل عمر، فاصطنع خنجراً له رأسان وسمّه، ثم أتى به الهرمزان فقال: كيف ترى هذا؟.

قال: أرى أنك لا تضرب بهذا أحداً إلا قتلته.

ومرَّ عمر يوماً بأبي لؤلؤة فقال له : ألم أحدث أنك تقول : لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟.

فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر ــ ومع عمر رهط ــ فقال : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس !.

فلما ولى قال عمر للرهط الذي معه : أوعدني العبد آنفاً[1] .

من كان وراء العبد في فعلته تلك ؟.

من المستفيد من قتل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ؟

عمر الذي فتح فارس والروم ووصلت جيوشه إلى مجاهل افريقيا ، وحطمت آخر معاقل الروم على أرض العرب؟.

لا شك أنهم اليهود قديماً وحديثاً كانوا وراء كل نكبة تحل بالعالم أو تصيب البشرية .

ولا يستطيع منصف أن يعفي التجمعات اليهودية والتي طردت من الجزيرة العربية من هذه الفعلة الشنعاء.

وفي كلمات كعب الأحبار دليل قوي على أن لليهود اليد الطولى في قتل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ.

وإذا كان ذلك كذلك.. كيف تمت هذه الجريمة؟. جريمة قتل عمر رضي الله عنه؟.

مقتل عمر ــ رضي الله عنه

... كان رضي الله عنه إذا دخل المسجد ، قام بين الصفوف ثم قال : استووا فإذا استووا تقدم فكبر.

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٤٥ وأسد الغابة جـ ٤ ص ٧٦.

وهكذا كان يفعل في كل صلاة يصليها — حتى إذا كان هذا اليوم الموعود ما كاد يسوي الصفوف ويتقدم للصلاة... ويدخل فيها بالتكبيرة حتى طعنه أبو لؤلؤة.

فأخذ يقول: قتلني الكلب. أو أكلني الكلب.

وطار أبو لؤلؤة في يده خنجر ذات طرفين ما يمر برجل يميناً ولا شمالاً إلا طعنه.

فأصاب ثلاثة عشر رجلاً من المسلمين — فمات منهم تسعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنساً له ليأخذه. فلما ظن أنه مأخوذ نحر نفسه»[1].

إن هذا الشيء الذي فعله أبو لؤلؤة — لا يستطيع أن يفعله بمفرده ولكن هناك جماعة أخرى تخطط له.. وينفذ ما تمليه عليه بدقة.. وإلا لماذا قتل نفسه؟.

وما الدافع إلى ذلك.. إن أي انسان يحرص على أن يبقى في هذه الحياة لحظات — حتى ولو كان أبو لؤلؤة يعتقد أنه سيؤخذ بجريمته — فهناك أمل له في الفرار أو الهرب أو أي علة أخرى يتعلل بها الانسان ويتشبث بها في الحياة.. أما أن يقتل نفسه فهذه أوامر له من خارج نفسه.

حتى لا يقع تحت طائلة العذاب فيضطر إلى كشف حقيقة الآخرين. الذين يشاركونه في هذه الفعلة، ويبغون من وراء ذلك أهدافاً أخرى أقلها ما حدث من قتل عمر.

إن اليهودية لم تقبل أبداً أن تقتل عشرات الافراد من زعماء المسيحية وترج بآلاف منهم في أقبية السجون وتصب على رؤوسهم الزيت المغلي نقول لم تكتفِ اليهودية بذلك حتى خربت الديانة المسيحية — وحولتها من ديانة التوحيد إلى عقيدة التثليث — وهذا قصدته أيضاً بالنسبة للاسلام — وكانت ترى أن عمر هو الجسر الواقي والسد المنيع لحماية مبادىء الاسلام وشرائع الاسلام من باطل المبطلين — وتطلعات المغامرين.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٣٨ والكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٥٠.

ونقل عمر إلى بيته فدعا بنبيذ فشربه فخرج من جُرحه ، ثم دعا بلبن فشربه فخرج من جرحه .

فلما ظن أنه الموت قال : يا عبد الله بن عمر ، انظر كم عليَّ من الدين فحسبه فوجده ستة وثمانين ألف درهم .

قال : يا عبد الله إن وفّى لها مال آل عمر فأدها عني من أموالهم ، وإن لم تف أموالهم فاسأل فيها بني عدي بن كعب ، فإن لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعْدهم إلى غيرهم . ثم قال :

« يا عبد الله اذهب إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمرُ السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم بأمير — يقول تأذنين له أن يُدفن مع صاحبيه ؟ .

فأتاها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكي فسلم عليها ثم قال :

يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ؟

فقالت : قد والله كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي .

فلما جاء قيل هذا عبد الله بن عمر فقال عمر :

« ارفعاني ، فأسنده رجل اليه فقال : ما لديك ؟ .

فقال : أذنت لك .

قال عمر : ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك المضجع يا عبد الله بن عمر انظر إذا أنا مت فاحملني على سريري ثم قف بي على الباب فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فادخلني وإن لم تأذن فادفني في مقابر المسلمين »[١] .

وفاضت روحه إلى بارئها .. ودفن بجوار صاحبيه — رضي الله عنه وعلى صاحبه وصلى الله على سيدنا محمد — خاتم الرسل ، ونبي الاسلام .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٣٨ .

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس في رواية عطاء: عند نزول قوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله..﴾[1] الآية

يريد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — خاصة، وأراد بالذين لا يرجون أيام الله: عبد الله بن أُبي.

وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال لها «المريسيع» فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه فلما أتاه قال له:

ما حبسك؟.

قال: غلام عمر قعد على فم البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِرَب النبي، وقِرَب أبي بكر، وملأ لمولاه.

قال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال الأول:

«سمن كلبك يأكلك».

فبلغ قول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فاشتمل بسيفه يريد التوجه ايه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(١) سورة الجاثية آية ١٤.

لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[1].

قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص:

«احتاج رب محمد. قال: فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه».

فجاء جبريل عليه السلام الى رسول الله ﷺ فقال:

إن ربك يقول لك:

﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[2].

واعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودي. فبعث رسول الله ﷺ في طلبه.

فلما جاء قال:

«يا عمر ضع سيفك».

قال: صدقت يا رسول الله، أشهد أنك أرسلت بالحق، قال: فإن ربك عز وجل يقول:

﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[3].

قال: لا جرَمَ والذي بعثك بالحق لا يرى الغضب في وجهي.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥، وسورة الحديد الآية ١١.

(٢ — ٣) سورة الجاثية آية ١٤.

تذييل...

إن أهم ما يميز حكم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — الرقابة الحازمة منه للرعية والرقابة الملاحة من الرعية للحاكم ومجموع الولاة..

فكان كل فرد من أفراد الرعية يشعر شعوراً دائماً أنه مسؤول مع الحاكم عن أي انحراف في الدولة الاسلامية فهو يراقب نفسه، ويراقب من يحيطون به ويتابع تطبيق الشريعة وتنفيذ أمر الله تعالى. امتثالاً لقول الرسول ﷺ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

ومما يؤيدنا فيما نذهب اليه:

أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — جاءته برود من اليمن فوزعها على المسلمين بالتساوي، وحصل كل مسلم على برد، ثم بعد هذه الواقعة وقف عمر يخطب وهو يلبس ثوباً منها وقال:

أيها الناس اسمعوا واطيعوا.

فقام اليه رجل من المسلمين وقال: لا سمع ولا طاعة..

قال عمر: ولِمَ ذلك يا أخا العرب؟.

قال: لأنك استأثرت علينا قال عمر: بأي شيء؟.

قال: إن «الأبراد» اليمنية لما فرقتها، وحصل كل واحد من المسلمين على برد منها

وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد يكفي الواحد منها ، ونراك قد فصلته ثوباً تاماً وأنت رجل طويل القامة ، فلو لم تكن قد أخذت أكثر منا لما جاءك منه ثوب فالتفت عمر إلى ابنه عبد الله وقال : يا عبد الله أجبه عن كلامه.

فقام عبد الله وقال : إن أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته من بردي ما تممه به.

فقال الرجل : أما الآن فقل : نسمع ونطع[1].

.. إن عين هذا الرجل المسلم لا تغفل عن شيء .. وهو يرقب ما حوله ويقيسه بمقياس الاسلام .. فإذا اختلت الموازين في نظره .. كان كالحارس اليقظ الذي يشعر اللصوص أن عينه لا تغفل ويده على سلاحه يقطع به رقبة كل من تحدثه نفسه بالاقتراب من حماه.

ولم تكن الرقابة خاصة بجماعة الرجال فقط ، ولكن النساء في المجتمع الاسلامي كان لهن دور كذلك.

فها هي خولة بنت ثعلبة تلتقي بعمر بن الخطاب — رضي الله عنهما — فقالت له :

«إيه يا عمر : عهدتك وأنت تسمي «عميراً» وأنت في سوق عكاظ ترعى القيان بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين. فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي الفوت.

فقال الجارود — وكان في رفقة عمر — قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين.

فقال عمر : دعها ، أما تعرفها ؟.

إنها خولة امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات فعمر والله أحق أن يسمعها مشيراً بذلك إلى قول الله تعالى :

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٧٣.

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾[1].

وليست هذه فحسب ولكن غيرها كثير. من ذلك:

أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — خطب يوماً فقال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، وإن كانت بنت ذي القصعة — يعني يزيد بن الحصين — فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال.

فقامت امرأة وقالت معترضة على ذلك: ما ذاك لك.

قال عمر ولِمَ؟.

قالت: لأن الله تعالى قال: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾[2].

فقال عمر: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

وهكذا كانت تشارك المرأة مشاركة فعالة في صدر الاسلام في واجب الرقابة، الرقابة على الحاكم والرقابة على الرعية.

فالأولى تذكر الحاكم بحياته الأولى، وكأنها خشيت على عمر أن يبطره المنصب أو تنال منه زخارف الحياة، فذكرته الموت، وبما هو كائن بعد الموت.. حيث لا ينفع الانسان إلا ما قدم من عمل صالح.

والثانية: أرادت أن تبين للحاكم الخطأ الذي يقع على الرعية من تقييد المهور فردته إلى الصواب وأرشدته الى منهج القرآن في مثل هذه المسألة.

ولم يغضب الحاكم، ولم يشعر مطلقاً أن هذا الشيء ينتقص من هيبته كحاكم أو يقلل من وضعه بين المسلمين.

---

(١) سورة المجادلة الآية ١، ٢.

(٢) سورة النساء الآية ٢٠.

إن التبعة التي يحملها الحاكم، وأعباء الحكم عامة ليست خاصة به وحده ولكن المسلمين جميعاً شركاء في تلك المهمة، فإذا انحرف الحاكم ولم تأخذ الأمة على يده أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده قال تعالى:

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1].

ويحدثنا أبو حامد الغزالي — رحمه الله — حديثاً مستفيضاً عن قيام المسلمين بواجب الرقابة على حكامهم فيضع بين أيدينا هذه الواقعة فيقول:

«روي أن معاوية بن أبي سفيان — رضي الله عنه — حبس عطاء الناس، فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له:

«إنه ليس من كدّك ولا من كدّ أبيك، ولا من كد أمك».

فقال معاوية بعد أن سكن غضبه — صدق أبو مسلم إنه ليس من كدي ولا من كد أبي، فهلموا إلى عطائكم».

وروي أيضاً أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال له:

«اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى إثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علماً لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك ما يلحق بك الطالب، وان ما نحن فيه زائل، وفي الذي نحن اليه صائرون باق، إن خير فخير، وإن شر فشر.

ودخل اعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال تكلم يا اعرابي.

فقال: يا أمير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله وان كرهته — فإن وراءه ما تحب ان قبلته.

فقال: يا اعرابي أنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه..؟

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥.

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين انه قد تكنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك. حرب الآخرة، سلم الدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليهم، فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً، وفي الأمة خسفاً وعسفاً، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا مسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال له سليمان: يا اعرابي أما انك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك.

قال أجل: يا أمير المؤمنين ولكن لا عليك.

ان هذا الرجل وضع الحاكم أمام مسؤولياته، وبصره بعيوب الحاشية وما يقومون به من وراء ظهره، وان كان لا يعلم فلا يعفيه ذلك من المسؤولية، المسؤولية أمام رعيته، والمسؤولية أمام نفسه، والمسؤولية أمام ربه.

ان ما حل بالمسلمين في هذا العصر الذي نعيش فيه.. من انهزامهم في كثير من معاركهم الحربية والسياسية والفكرية — يرجع أولاً وأخيراً الى فقر المجتمعات الاسلامية من أمثال هؤلاء الرجال.. الذين يكون لهم دور في الرقابة على أعمال الحكام.. فمتى يوجد أمثال هؤلاء الرجال؟.

عُثمَان بن عَفَّان

رَضِيَ اللهُ عَنه

الآيات التي نزلت في عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

...لِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ

ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ



[سورة الزمر الآية ٩]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه.

قال ذلك صاحب تفسير البغوي جـ ٦ ص ٥٨.

وقاله الامام القرطبي في تفسيره جـ ١٥ ص ٢٣٩.

وقال صاحب الدر المنثور جـ ٥ ص ٣٢٣.

وقاله الامام الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ٣٨٨.

فمن هو عثمان بن عفان؟..

قال عبد الرحمن بن خباب

رضي الله عنه

«شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حض على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله، عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال:

عليّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل على المنبر، وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه؟.

أخرجه الترمذي

عثمان بن عفان

رضي الله عنه

من المؤمنين الأوائل الذين سارعوا إلى دعوة الاسلام.

وصهر الرسول ﷺ تزوج رقية وولد له منها غلام سماه عبد الله وتكنى به، وبلغ عبد الله ست سنين فنقره ديك على عينيه فمرض ومات.

وماتت رقية. فزوجه الرسول ﷺ أم كلثوم فماتت عنده أيضاً، فقال رسول الله ﷺ لو كانت عندي ثالثة زوجتها عثمان.

وأكثر الناس حياء وأصدقهم.

يقول الرسول ﷺ :

«أصدق الناس حياء عثمان».

وتقول السيدة عائشة —رضي الله عنها—: استأذن أبو بكر يوماً على رسول الله، وكان الرسول مضطجعاً وقد انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه، فأذن لأبي بكر فدخل وأجرى مع الرسول حديثاً ثم انصرف.

وبعد قليل جاء عمر فاستأذن فأذن له، ومكث مع الرسول بعض الوقت ثم مضى. وصادف أن جاء بعدهما عثمان، فاستأذن، وإذا الرسول يتهيأ لمقدمه فيجلس

بعد أن كان مضطجعاً ويسبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ، ويقضي عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف.

وبعد انصرافه — تسأل عائشة الرسول ﷺ قائلة : يا رسول الله لم أرك تهيأت لأبي بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان؟.

فيقول الرسول عليه السلام :

«إن عثمان رجل حيي ، ولو أذنت له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ولرجع دون أن أقضي له الحاجة التي جاء من أجلها. يا عائشة ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟»[1] .

والده : عفان بن أبي العاص بن أمية.. من عظماء الرجال في الجاهلية ، ومن أشرف القبائل في قريش وكانت حرفته التجارة.. وأوشكت هذه الحرفة أن تقضي عليه وكان معه ابنه عثمان. من ذلك :

«أن الفاكه بن المغيرة ، وعوف بن عبد عوف. وعفان بن أبي العاص قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ، ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جذيمة كان هلك باليمن إلى ورثته.

فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت ، فأبوا عليه فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه.

فقتل عوف بن عوف والفاكه بن المغيرة.

ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان[2] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في فضائل الصحابة فضائل عثمان — رضي الله عنه — وذكره صاحب جامع الأصول في أحاديث الرسول جـ ٨ ص ٦٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٦ — ٥٧.

وعاش عثمان — رضي الله عنه — ليكون له هذا الشأن الكبير في دعوة الاسلام.. فإذا كانت الهجرة كان من أوائل المهاجرين.

وإن كان البذل قدم الكثير من نفسه وماله.

وإن كانت المعارك فهو المقاتل الشجاع، والفارس الذي يبحث عن الشهادة ويطلبها.

إنه أحد المبشرين بالجنة، ومن الصفوة المختارة التي صاحبت الرسول ﷺ في حياته. وأحد رجال الشورى الستة.

فإذا بلغ الكتاب أجله وتوفي رسول الله ﷺ أصبح عثمان جندياً من جنود الخليفة، يشاركه المسؤولية ويقدم له الرأي والنصيحة — وبذل الكثير مع الخليفة أبي بكر الصديق — حتى استطاع أن يقضي على الردة وتعود الجزيرة العربية مرة أخرى إلى رحاب الاسلام.

وعندما جاء عمر: لم يتخلف عن صفوف المسلمين.. ولم يبخل بكل ما يملك لتجهيز جيوشهم، وتقديم المساعدة لهم، والعمل معهم لدعوة الاسلام ونصرة دين الله..

هذا هو عثمان بن عفان — رضي الله عنه — ولكن من قبل ذلك ومن بعده كيف عرف الاسلام طريقه الى قلبه؟.

وكيف كانت استجابته لتلك الدعوة؟ هذا ما نجلي حقيقته بإذن الله.

إسلامه رضي الله عنه..

كان في أرض بعيدة على مشارف الشام بغية التجارة وبحثاً عن الرزق، وكان معه في هذه الرحلة رفيقه وصديقه ـ طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه، وكانا يكدحان في تلك البلاد، ويفتشان عن عروض التجارة، وبعد طول الجهد والمشقة في هذا العمل، يعودان إلى بستان من تلك البساتين اليانعة التي كانت تغطي تلك المنطقة في ذلك الحين.

يقول عثمان رضي الله عنه:

«وبينا نحن بين اليقظة والمنام إذا مناد ينادينا أيها النيام هبوا فإن محمداً قد خرج بمكة».

وتكرر لنا هذا النداء. واحتفظ كل منا لنفسه بما سمع.

ولم يحاول أي منا أن يعرض على أخيه هذا السماع خشية ألا يكون قد سمع شيئاً.

وحفرت هذه الكلمات في ذاكرة كل منهما وشغلت نهاره وأرقت ليله، ولم يعد في استطاعتهما البقاء في تلك البلاد.

فأخذا يعدان العدة للرجوع إلى مكة.

وعند كل منهما شوق يريد أن يعرف حقيقة ما سمع.

وما كادا يضعان أقدامهما على أرض مكة ـ ويصلان إلى البيت الآمن حتى وصلت إلى آذانهما همهمات وأحاديث. تؤكد حقيقة ما سمعه كل منهما في تلك المشارف البعيدة.

يقول عثمان ـ رضي الله عنه ـ:

«أخذت بيد طلحة واتجهنا إلى رسول الله ﷺ فعرض علينا الاسلام وقرأ علينا القرآن، وأنبأنا بحقوق الاسلام، ووعدنا الكرامة من الله تعالى»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٥.

فآمنا وصدقنا.

لقد أسلم عثمان — رضي الله عنه — وأعلن عن اسلامه، وتسامعت قريش بمتابعة عثمان لرسول الله ﷺ. فماذا تفعل قريش لعثمان؟.

إن صناديد مكة وطغاتها لن يستطيعوا أن ينالوا من عثمان، وإلّا لورمت من أجله الأنوف، وغضبت له السيوف. ولكن أترضى بنو أمية بما فعله أحد أفرادها.؟ وهي التي تتولى حماية الأصنام وعبادة البهتان؟. ومحاربة محمد وأتباعه..

لا لن تسمح لعثمان بذلك. ولا بد أن يناله ما نال غيره من الصابئين الذين يتابعون محمداً فيما جاء به، من دعوة التوحيد، والنيل من أصنامهم والسخرية من معتقداتهم..

هكذا قرر صناديد مكة في دار الندوة.

وبعد هذا القرار اتجه إلى عثمان عمه الحكم بن أبي العاص فأوثقه رباطاً وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث..

والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين.

فقال عثمان: «والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه»[1].

لقد رأى عثمان النور فكيف يعود إلى الظلام؟. وتكشفت عن عينيه الحجب البغيضة التي كانت تردى بهم إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع..

فهل يعود مرة أخرى إلى العماية؟.

لا، محال أن يكون ذلك — ولتفعل قريش ما بدا لها.

وعندما رأى الحكم صلابته في دينه تركه وشأنه.

لكن قريشاً لم تتركه.. وأخذت تتعقب خطواته، وتحصي أنفاسه وتضيق الخناق عليه ومن معه من المؤمنين.

أين المفر إذن.. وكيف الخلاص من هؤلاء؟.

---

(1) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٥.

أيعلنون الحرب على قريش.. إنهم قلة — حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما تكاثر عليه سفهاء مكة وأرادوا النيل منه ، والله لو كنا أربعمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم»[1].

حتى ولو بلغوا هذا العدد — فالرسول ﷺ لم يأمرهم بقتال ولم ينزل القرآن بذلك.

إذن كيف يفوتون على قريش أغراضها ، ويسلمون من نارها وسياطها ، التي تشوى بها أجسادهم ، وتجلد بها أبشارهم؟

وجاء أمر الرسول ﷺ بالهجرة إلى الحبشة ، الهجرة إلى أرض آمنة يأمن فيها الانسان على عرضه وماله ودينه.

إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد.

إذن هذا هو الطريق ، ولا طريق غيره في هذا الوقت.

وهاجر عثمان إلى أرض الحبشة مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ واطمأنوا في تلك الديار البعيدة ، وأخذوا في تصفية نفوسهم وتطهيرها والتبتل إلى الله تعالى بما معهم من آيات الكتاب العزيز.

وقام النجاشي ملك الحبشة — في ذلك الوقت — بما يفرضه عليه واجب الضيافة واهتم كثيراً بأمرهم ، وحاول التقرب من بعضهم.

واستمر عثمان في تلك البلاد مع زوجته. حتى أشاعت قريش أنها تابعت محمداً فيما يدعوها اليه ، وأسلمت وجهها لله ، فعاد المهاجرون إلى أوطانهم وأوشك المجهد أن يستريح.. ولكن عند عودة عثمان أحس أن قريشاً لا زالت على كفرها وأن صناديدهم ما زالوا على طغيانهم.

فماذا يفعل أيعود مرة أخرى إلى الحبشة؟.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢.

أيبحث عن موطن آخر يأويه وزوجته؟. ولم يطل أمر هذه الفترة فقد أذن الرسول ﷺ بالهجرة الى يثرب.

نعم يثرب أرض الأنصار والأبطال.

يثرب: التي ستجيش الجيوش، وتتربى على ثراها النفوس، ثم تخرج إلى بقاع الأرض الواسعة لنشر دين الله وإعلاء كلمة الحق.

واستقر المقام بعثمان في المدينة بجوار رسول الله ﷺ يستقي من نبع النبوة ويتفقه في دينه.

ويأتي أول حادث للمسلمين ليبرز فيه دور عثمان — رضي الله عنه — كجندي من جنود الدعوة. ومسلم باع نفسه وماله في سبيل الله.

ونقول: لقد كان لليهود في المدينة باع طويل، وكانت لهم مكانة وثروات توصلا اليها بسبب ما كان بين الأوس والخزرج من عداوة وبغضاء، فكان هؤلاء اليهود يحاولون التقرب إلى كل فريق منهم على حدة، ويستغلون ذلك في اعلاء مكانتهم وجمع ثرواتهم.

وكان لأحدهم بئر ماء تدر عليه أرباحاً كثيرة ويحتكر ماءها على المسلمين ويسلب في ذلك أموالهم.

وشكى كثير من المسلمين إلى رسول الله ﷺ جشع هذا اليهودي الذي يبيعهم قطرات الماء بأغلى ما يملكون.

عندها جمع رسول الله ﷺ المسلمين وعرض عليهم هذا الأمر قائلاً لهم من يشتري بئر رومة للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم، وله بها مشرب في الجنة[1]؟.

---

(١) رواه الترمذي من حديث عبد الرحمن السلمي.

فأتى عثمان اليهودي فساومه بها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم. فجعله للمسلمين.

فقال له عثمان — رضي الله عنه — إن شئت جعلت على نصيبي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم.

قال: بل لك يوم ولي يوم.

فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين.

فلما رأى ذلك اليهودي قال:

«أفسدت علي ركيتي فاشتر النصف الآخر»[1].

فاشتراه بثمانية آلاف درهم.

.. فعل عثمان ذلك — واشترى هذه البئر لتكون خالصة للمسلمين — في موطنهم الجديد، إن المال الذي يبذل في سبيل الله وصالح المسلمين لن يضيع هباء، ولكن الله سبحانه وتعالى يضاعف للمنفقين في سبيله ولخير عباده الحسنة بعشرة أمثالها.

قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾[2].

ولم يكن شراء بئر الماء هي كل ما فعله عثمان — رضي الله عنه.

وإنما هناك شيء آخر.. من ذلك أنه عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، كانت من أوائل الأشياء التي شغلت الرسول — هو بناء المسجد، وعرف المسلمون — هذا الأمر فأخذوا جميعاً في العمل على بنائه — وعمل فيه رسول الله

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ترجمة عثمان بن عفان.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦١.

بنفسه ليرغب المسلمين في العمل فيه. فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

فارتجز المسلمون وهم يبنونه، ويقولون:

لا عيش إلا عيش الآخره
اللهم ارحم الأنصار والمهاجره

وارتجز عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال:

لا يستوي من يعمّر المساجد
يدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا[1]

وتم بناء المسجد وأصبح للمسلمين المكان الذي يتفقّه فيه المسلمون، وتقضى فيه الأمور، وتجيش الجيوش. ويخرج الدعاة إلى دين الله تعالى: ولكن هذا المسجد الذي كان يسع المسلمين في بداية هجرتهم. أخذ يضيق بالمسلمين، بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وأحس الرسول ﷺ أن المسلمين يضيق بهم مسجدهم — وبعضهم لا يجد مكاناً يصلي فيه.. فقال عليه السلام:

«من يزيد في مسجدنا»[2].

إنها دعوة للتبرع والبذل في أمر عام يخص جماعة المسلمين. وما كاد عثمان رضي الله عنه يسمع ذلك من رسول الله ﷺ حتى سارع بماله واستجاب لدعوة القائد الأعلى والرسول الكريم واشترى موضع خمس سوار.. قطعة أرض كبيرة ويقدمها

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١١٤ — ١١٥.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٤٠.

لرسول الله — ليوسع بها المسجد فتقبلها منه رسول الله والمسلمون بقبول حسن — وعاش عثمان في المدينة جندياً من جنود الدعوة.

عثمان وبيعة الرضوان..

.. وفي ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد العمرة.

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذين صمموا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، ولتعلم قريش أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له:

وسار رسول الله ﷺ حتى اذا كان «بعُسفان» لقيه بشر بن سفيان الكعبي.

فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العُوذُ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً.

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغنم.

فقال رسول الله ﷺ:

«يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقتهم التي هم بها»؟

فقام رجل من أسلم وقال: أنا يا رسول الله.

فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضوا إلى منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ للناس :

«قولوا نستغفر الله ونتوب اليه».

فقالوا ذلك.

فقال : «والله إنها الحطة التي عرضت على بني اسرائيل فلم يقولوها»(١).

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس : خلأت الناقة.

فقال عليه السلام : ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

ثم قال للناس : انزلوا.

قيل له : يا رسول الله : ما بالوادي ماء ينزل عليه.

فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فخرج بالماء الكثير.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بُديل بن ورقاء في رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟.

فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش فقالوا :

«يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦١ ، والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٠.

فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون. وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب.

ثم تتابعت رسل قريش على رسول الله ﷺ ومنهم عروة بن مسعود الثقفي، الذي عاد لقريش بعد مقابلته رسول الله فقال لهم :

«يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم؟»[1].

ثم إن رسول الله ﷺ دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له.

فقال عمر : يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها مني.

من يكون هذا الرجل الذي هو أعز عند قريش من عمر؟.

من الذي يصلح لهذه السفارة؟.

من ترى يقوم برسالة رسول الله ﷺ؟

ونطق عمر أمام رسول الله باسم من يصلح لهذا كله. قال عمر : هو عثمان بن عفان يا رسول الله.

وأمّن رسول الله على قول عمر. وطلب عثمان.

ولما جاء قال له الرسول عليه السلام اذهب إلى أبي سفيان وأشراف قريش وأخبرهم أنني لم آت لحرب وإنما جئنا زائرين لهذا البيت ومعظمين لحرمته.

واستجاب عثمان لأمر رسول الله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٣ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٢.

واتجه إلى مكة ولما بلغ مشارفها لقيه أبان بن سعيد بن العاص ، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ لأبي سفيان وعظماء قريش فقالوا له حين فرغ من رسالته :

«إن شئت أن تطوف بالبيت فطف».

فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

وانتهت المقابلة عند هذا الحد.

ولكن قريشاً لم تسمح له بالعودة واحتبسته عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

أتقدم قريش على قتل رسول من أرسله رسول الله؟.

ولماذا تركب قريش رأسها إلى هذا الحد مع رجل لا يريد حرباً ولا يبغي قتالاً؟.

وهل يسكت رسول الله على هذا العمل؟. محال أن يكون ذلك إذن لا بد من قتال قريش التي تصد عن بيت الله الحرام والأخذ بثأر عثمان منها ثم قال الرسول لأصحابه :

«لا نبرح حتى نناجز القوم»[1].

.. فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة التي جاء ذكرها في القرآن قال تعالى :

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً وأُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً. سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً. وهو الذي كفّ

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٤ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٣.

أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهديَ معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ولو تزيلوا لعذّبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾[1] .

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [2] .

«وانني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن استشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين ، أحاول أن استشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره القوي وهو يتجاوب جميعه بالقول الالهي الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود ، وأحاول أن استشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم يقول الله عنهم : لقد رضي عنهم ، ويحدد المكان الذي كانوا فيه والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى «إذ يبايعونك تحت الشجرة» يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق على لسان ربه العظيم الجليل.

يالله كيف تلقوا — أولئك السعداء — تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي ، التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه ، ويقول له : «أنت أنت بذاتك يبلغك الله لقد رضي عنك ، وأنت تبايع تحت الشجرة وعلم ما في نفسك فأنزل السكينة عليك»[3] .

---

(١) سورة الفتح : الآيات ١٨ — ٢٥.

(٢) سورة الفتح الآية ١٨ — ٢٥ .

(٣) في ظلال القرآن — المجلد السابع ص ٥٠٤.

ولم يبايع عثمان لأنه كان محبوساً في مكة كما قلنا سابقاً.

ولكن أيحرم من هذه النعمة التي حظي بها أتباع محمد ﷺ في تلك الآونة؟.

إن عثمان استجاب لأمر الرسول وخاطر بنفسه، وتقدم لقريش، وهو يعلم أن في ذلك قد يكون الموت المحقق.

ولكن كم تساوي نفسه في سبيل إعلاء كلمة الله؟.

إن ربح عثمان سيكون كثيراً إذا نجح في حقن الدماء بين الرسول وقريش ثم أقدم على تلك المخاطرة.

ومن هنا كانت مكافأة الرسول ﷺ لعثمان تربو على كل المكافآت. وتعادل بيعته كل بيعة تمت بين الرسول وصاحبها في هذا اليوم. لأن الرسول ﷺ بايع عن عثمان. فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

إن الرسول ﷺ أعرف برجاله الذين يحيطون به.. وعثمان — رضي الله عنه — من الرجال الأفذاذ الذين يستحقون أن يبايع عنهم رسول الله ﷺ.. لأنه لم يمض على بيعة الرضوان ثلاثة أعوام حتى دعا الرسول ﷺ المسلمين للتجهيز لغزو الروم.. وهنا يبرز دور عثمان — رضي الله عنه — في تلك الغزوة.. كنموذج فريد من تلك النماذج التي تربّت على مائدة القرآن.

لقد كان من ظروف تلك الغزوة أن هرقل ملك الروم ومن معه من منتصرة العرب وقد عقدوا العزم على غزو المسلمين في المدينة.

وعلم عليه السلام بذلك فأمر المسلمين بالتجهيز لهذه الغزوة — وكان الحرّ شديداً والبلاد مجدبة، والناس في عسرة — ودعاهم للانفاق في سبيل الله فأنفق أهل الغنى وأنفق أبو بكر جميع ما بقي عنده من ماله.

ثم جاء دور عثمان رضي الله عنه:

يقول عبد الرحمن بن خباب — رضي الله عنه:

شهدت رسول الله ﷺ وهو يحث على تجهيز جيش العسرة فقام عثمان بن عفان فقال :

يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال :

يا رسول الله عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال :

عليّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله.

فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول :

«ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه..؟»[1].

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال :

جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار، فرأيت النبي يقلبها في حجره ويقول :

«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم — مرتين»[2].

واستمر عثمان على ذلك مع رسول الله ﷺ ومع صاحبيه من بعده حتى طعن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فلم يُولِ خليفة بعده ولكنه ترك الأمر شورى بين جماعة من المسلمين رأى أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض.

وكان عثمان أحد رجال الشورى الستة في اختيار خليفة للمسلمين وحدد لهم عمر قبل موته مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام — ومضت الأيام الثلاثة — ووقع الاختيار على عثمان ليكون الخليفة الثالث — رضي الله عنه.

(١) رواه الترمذي في المناقب، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه الترمذي في المناقب ورواه أيضاً أحمد في المسند ٣/ ٦٣ واسناده حسن.

بيعة عثمان رضي الله عنه

.. كيف تمت البيعة لعثمان رضي الله عنه..؟

هل تمت بيعته كما تمت بيعة الخليفة الأول أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه؟.

أم كان ذلك عن طريق التعيين كما حدث لعمر ــ رضي الله عنه؟.

أم أن بيعة عثمان تختلف عن بيعة الخليفتين السابقين.؟

للإجابة على ذلك علينا أن نعود إلى ما قبل البيعة وعلى وجه التحديد في حياة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه.

يقول صاحب كتاب الطبقات:

كان عمر بن الخطاب وهو صحيح أن يُسأل أن يستخلف فيأبى، فصعد يوماً إلى المنبر فتكلم بكلمات وقال:

«إن مت فأمركم إلى هؤلاء الستة الذين فارقوا رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

عليّ بن أبي طالب، ونظيره الزبير بن العوام.

وعبد الرحمن بن عوف، ونظيره عثمان بن عفان.

وطلحة بن عبيد الله ونظيره سعد بن مالك.

ألا وإني أوصيكم بتقوى الله في الحكم، والعدل في القسم»[1].

فلما طعن عمر تحدث إلى المهاجرين فقال:

«يا معشر المهاجرين الأولين: إني نظرت في الناس، فلم أجد شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم. تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة الى ذلك وإلا فاعزم عليكم بالله ألا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٦١ والكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٦٦ ــ ٦٧.

وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التي تشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم ، وأحضروا معكم شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، ويحضر معكم الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، فإن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً ، وليس له من الأمر شيء.

قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً ، فاستخلفه فإنا راضون به ، قال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة.

ليس له من الأمر شيء، ثم قال : يا عبد الله إياك أن تتلبس بها.

ثم قال : إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه ، و إن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما ، وإن استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابني عبد الله ، فلأي الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم ، فإن أبى الثلاثة ذلك فاضربوا أعناقهم.

فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة ، نستدل فيها برأيك ونقتدي به.

فقال : والله ما يمنعني من أن استخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك مع أنك رجل حرب.

وما يمنعني منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة.

وما يمنعني منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا كافر الغضب ، وما يمنعني من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وليها وضع خاتمه في اصبع امرأته.

وما يمنعني منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمنعني منك يا علي إلا حرصك عليها . وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم»[1] .

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٢٣.

هذا ما قاله عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ لهؤلاء النفر الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

ولكن رفض أمير المؤمنين أن يحمل تبعتها حياً أو ميتاً.

ولهذا ترك الأمر بينهم شورى ــ شورى محددة مقيدة ــ شريطة ألا تتجاوز ثلاثة أيام.

وهذه أقصى مدة ــ في نظر عمر بن الخطاب ــ يمكن أن يقضيها المسلمون من غير خليفة..

ثم مات عمر ــ رضي الله عنه ــ.

فماذا كان من مجلس الشورى، وكيف تمت بيعة عثمان ــ رضي الله عنه؟.

مجلس الشورى

اجتمع القوم، جَمعَهُم المقداد بن الأسود في بيت عائشة بإذنها، وجاء عمرو ابن العاص، والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصبهما سعد بن أبي وقاص وأقامهما وقال:

«أتريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى»؟.

ثم تشاوروا ثلاثة أيام، فلم يبرموا فتيلاً، فلما كان اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف أتدرون أي يوم هذا؟. هذا يوم عزم عليكم صاحبكم ألا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم.

قالوا: أجل.

قال: فإني عارض عليكم.

قالوا: وما تعرض؟

قال: أن تولوني أمركم، وأهب لكم نصيبي فيها، وأختار لكم من أنفسكم.

قالوا : قد أعطيناك الذي سألت.

فلما سلم القوم ، قال لهم عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فجعل الزبير أمره إلى عليّ.

وجعل طلحة أمره إلى عثمان.

وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف.

وخرج عبد الرحمن يتلقى الناس في أنقاب المدينة ، متلثماً لا يعرفه أحد فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعاف الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم.

أما أهل الرأي ، فأتاهم مستشيراً ، وتلقى غيرهم سائلاً يقول : من ترى الخليفة بعد عمر؟.

فلم يلق أحداً يستشيره ويسأله إلا ويقول عثمان.

ثم جمع أصحاب الشورى فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق ، لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنّة رسوله ، وسنة صاحبيك من قبلك فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك.

فلما تم له ذلك ، أخذ بيد عثمان فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيك ، وشرط عمر ألا تجعل أحداً من بني أمية على رقاب الناس؟.

فقال عثمان : نعم.

ثم أخذ بيد عليّ فقال له : أبايعك على شرط ألا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس؟.

فقال عليّ : ما لك ولهذا إذا قطعتها في عنقي؟. فإن عليّ الاجتهاد لأمة محمد حيث علمتُ القوة والأمنة استعنت بها ، كان في بني هاشم أو غيرهم.

قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطيني هذا الشرط.

قال عليّ : والله لا أعطيكه أبداً.

فتركه.

وخرج عبد الرحمن بن عوف إلى المسجد، فجمع الناس، ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إني نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان.. فلا تجعل يا علي سبيلاً إلى نفسك، فإنه السيف لا غير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعاً».

وتمت البيعة لعثمان — رضي الله عنه.

واستراح المسلمون لاختيار خليفة لهم — خليفة يعرفون الكثير من طباعه فهو التقي الورع الحيي الخجل، الذي تخجل منه الملائكة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

«أرحم أمتي أبو بكر..

وأشدها في دين الله عمر.

وأشدها حياء عثمان».

فماذا سيفعل ازاء هذه الأعباء الثقيلة التي ألقيت عليه؟.

وماذا تكون سيرته مع المسلمين؟.

وهل سيبقى على العهد الذي أخذه عليه عبد الرحمن بن عوف والذي يتمثل في شرط عمر بن الخطاب —رضي الله عنه — بألا يجعل أحداً من بني أمية على رقاب الناس؟. هذا ما نرى عند حديثنا عن عثمان والفتنة بمشيئة الله.

عثمان — رضي الله عنه — والفتنة

.. من كان وراء الفتنة التي شتت أمر المسلمين وفرقت جماعتهم؟.

أعني الفتنة التي قتل فيها عثمان بن عفان — رضي الله عنه؟.

وقتل فيها علي بن أبي طالب — رضي الله عنه؟.

ولف جماعة المسلمين ليل داج لفترة طويلة، وتحولت فيها خلافتهم إلى ملك عضوض..

أكان ذلك لشيء في طبيعتهم وجبلتهم؟.

محال أن يكون ذلك — لأن الطبيعة التي تقبلت القرآن الكريم وعملت به، وطبقته على حياتها لا يمكن أن يصدر منها ذلك؟.

أكانت الفتنة من خارج بلادهم تعمل بحذر وحكمة للنيل من المسلمين وتوهين ملكهم وإضعاف شوكتهم؟

وبذلك ينشغل هؤلاء الرجال بالجهاد في الداخل عن الفتوحات في الخارج. إن هناك دلائل كثيرة تشير إلى الأيادي الخفية التي كانت تعمل في جنح الظلام بالدس والوقيعة لهذه الأسباب..

أم أن أسباب الفتنة ترجع أولاً وأخيراً إلى هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كانوا يحيطون بعثمان — رضي الله عنه — حتى اقام منهم ولاة ومستشارين ونعني بهم:

مروان بن الحكم.

الوليد بن عقبة.

عبد الله بن أبي سرح.

الحقيقة أن هذه الأسباب مجتمعة كانت من وراء تلك الفتنة وعملت على إشعال لهيبها واضطرام نارها...

ويطيب لنا أولاً أن نلقي بعض الأضواء على كبار الرجال الذين كانوا يحيطون عثمان — رضي الله عنه :

أما أولهم وهو مروان بن الحكم : فإن رسول الله ﷺ كان قد نفى أباه الحكم لى الطائف ومعه ابنه مروان فلم يزل بها حتى ولي عثمان. فرده فقدم المدينة وتوفي فيها استكتب عثمان مروان وكتب له ، فاستولى عليه إلى أن قتل عثمان.

ونظر اليه علي بن أبي طالب يوماً فقال له : «ويلك وويل أمة محمد منك ومن بيك ، وكان مروان يقال له خيط باطل»[1] .

أما الثاني : فهو الوليد بن عقبة من الطلقاء أسلم يوم فتح مكة وقد بعثه النبي ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق ، فعاد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ومنعهم الصدقة فبعث ليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد فوجدهم على الاسلام لم يغيروا شيئاً.

وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[2] .

وفي خلافة عثمان تولى إمارة الكوفة وكان عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — على بيت مال الكوفة ، فاستقرض من بيت المال مالاً.

فأقرضه ابن مسعود إياه.

فلما طالبه ابن مسعود بما اقترضه ، مرة ومرة كتب إلى عثمان يشكو ابن مسعود وإلحاحه في طلب ما اقترض من بيت المال.

فكتب عثمان إلى ابن مسعود : إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذ من المال.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٣٨٧.

(٢) سورة الحجرات الآية ٦.

فطرح ابن مسعود مفتاح بيت المال وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك؟».

وبقي ابن مسعود في الكوفة.

فلم يسترح كثيراً الوليد بن عقبة لوجوده بجواره ، فكتب إلى عثمان : إن ابن مسعود يعيبك ويطعن عليك.

فكتب عثمان إلى الوليد يأمره بإشخاص ابن مسعود إلى المدينة ، فاجتمع أهل الكوفة إلى ابن مسعود وأرادوا أن يمنعوه وقالوا له :

«أقم ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه».

فقال : إن له عليّ حق الطاعة ، ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتن.

ثم خرج ابن مسعود من الكوفة ، فلما قدم المدينة ، دخل المسجد ، وعثمان يخطب على منبر رسول الله ﷺ فلما رآه عثمان قال :

«ألا إنه قدمت عليكم دُوَيبة سوء».

فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان.

وسمعت عائشة هذا القول من عثمان ، فنادت وهي في حجرتها :

«أي عثمان : أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟».

ثم أمر عثمان بابن مسعود فأخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً.

فقال علي : يا عثمان أتفعل هذا بصاحب رسول الله ﷺ بقول الوليد بن عقبة ؟.

فقال عثمان : ما بقول الوليد فعلت هذا ، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكندي إلى الكوفة ، فقال له ابن مسعود :

«إن دم عثمان حلال».

فقال عليّ: أحلت على زبيد.. على غير ثقة؟.

وقام عليّ بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله.

وأقام ابن مسعود بالمدينة لا يأذن له عثمان في الخروج منها إلى ناحية من النواحي، وأراد الغزو فلم يأذن له.

وقال له مروان بن الحكم: إن ابن مسعود أفسد عليك العراق، أفتريد أن يفسد عليك الشام؟

فلم يبرح المدينة حتى توفي قبل مقتل عثمان.

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه أتاه عثمان عائداً فقال:

«ما تشتكي؟».

قال ابن مسعود: ذنوبي.

قال عثمان: فما تشتهي؟.

قال ابن مسعود: رحمة ربي.

قال عثمان: ألا أدعو لك طبيباً؟.

قال ابن مسعود: الطبيب أمرضني..

قال: أفلا آمر بعطائك؟

قال: منعتنيه وأنا محتاج اليه، وتعطينيه وأنا مستغن عنه؟.

قال: يكون لولدك.

قال: رزقهم على الله.

قال عثمان: استغفر لي يا أبا عبد الرحمن.

قال: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقي.

وأوصى ابن مسعود أن يصلي عليه عمّار بن ياسر، وألا يصلي عليه عثمان، فدفن بالبقيع، وعثمان لا يعلم، فلما علم غضب، وقال: سبقتموني به.

فقال عمار بن ياسر: إنه أوصى ألا تصلي عليه..»[1].

إننا لا نميل كثيراً إلى تصديق ما في هذه الروايات.. ونُقبل عليها بتحفظ شديد، وننزّه صحابة رسول الله ﷺ عن كثير من هذه الأشياء..

وحتى مع قبولنا لما فيها.. نجد أن هناك مجموعة من الناس كان يهمها كثيراً أن يصل الأمر إلى ما وصل إليه.

نقول: بأن من كانوا يحيطون بعثمان — رضي الله عنه — كانوا يدسون عليه أشياء كثيرة.

من ذلك ما ذكره الوليد بن عقبة لعثمان: بأن ابن مسعود يعيبه ويطعن عليه.

وما ذكره زبيد بن الصلت: بأن ابن مسعود قال: «دم عثمان حلال» ومحال أن يذكر ابن مسعود ذلك في حق عثمان.

وهو يعلم قول الله تعالى: ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾[2].

وقول الرسول ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله».

وابن مسعود من قبل هذا ومن بعده رجل معلّم كما أخبر بذلك سيد الخلق رسول الله ﷺ.

والثالث: عبد الله بن أبي السرح.

كان من كتّاب الوحي. ثم ارتد مشركاً، وعاد إلى مكة — قبل الفتح — واجتمع إلى قريش يحدثهم الكذب عن رسول الله ﷺ.

وفي عبد الله هذا نزل قول الله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أُوحي إليّ ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾[3].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري جـ ٥ ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة الآية ٣٢.

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٣.

فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه فقال :

«من أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن جنح إلى الكعبة وألقى السلاح فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. غير عدوّ الله بن أبي السرح».

وقد شفع له عثمان عند رسول الله — وجاء به اليه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ثم قال لعثمان :

«نعم».

فلما انصرف عثمان قال النبي لأصحابه : ما صمتّ إلا ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه.

فقالوا : هلا أومأت الينا؟.

فقال : إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة أعين[1].

ثم ولاه عثمان — رضي الله عنه — ولاية مصر.

فسار فيهم على غير ما يأمر به الكتاب والسنة.

فخرج من مصر جماعة واتجهوا نحو المدينة ، يشكون ابن أبي سرح واستمع عثمان إلى شكايتهم.

وكتب اليه كتاباً يهدده فيه ويأمره أن يسير فيهم سيرة حسنة.

وعاد المصريون مرة أخرى إلى مصر يحملون خطاب عثمان. وتقدم به أحدهم إلى ابن أبي سرح.

فأبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان. ولم يكتف بذلك ، بل ضرب وأهان من أتاه بكتاب عثمان حتى قتل.

وتسامع الناس بما حدث من واليهم فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل وساروا إلى المدينة ونزلوا في مسجد الرسول ﷺ.

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٩ ورواه أبو داود والنسائي من حديث أحمد بن الفضل.

وشكوا إلى صحابة رسول الله ما صنع بهم ابن أبي سرح.

فقام طلحة وتناوله بكلام شديد.

وأرسلت عائشة — رضي الله عنها — إلى عثمان تقول له :

« قد تقدم اليك أصحاب رسول الله، وسألوك عزل هذا الرجل فأنصفهم من عاملك ».

ودخل عليه علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وكان متكلم القوم فقال له :

« إنما يسألونك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قِبَله دماً فاعزله عنهم واقض بينهم، فإن وجب لهم عليه حق فانصفهم منه.

فقال عثمان رضي الله عنه :

اختاروا رجلاً أوليه عليهم[1].

فقالوا : استعمل محمد بن أبي بكر.

فكتب عهده، وولاه، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر.

فخرج محمد ومن معه، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير، يخبط البعير كأنه رجل يَطلب أو يُطلب.

فقال له أصحاب محمد : ما قصتك ؟. وما شأنك ؟. كأنك طالب أو هارب.

فقال : أنا غلام أمير المؤمنين، وجهني إلى عامل مصر.

فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا.

قال : ليس هذا أريد.

فأخبر محمد بأمره فبعث فجاء به اليه.

فقال له : غلام من أنت ؟.

(١) الامامة والسياسة جـ ١ ص ٣٦ — ٣٧.

فأقبل مرة يقول : أنا غلام مروان ، ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد : إلى من أرسلك ؟.

قال : إلى عامل مصر.

قال : بماذا ؟. قال : برسالة. قال أما معك كتاب ؟. قال : لا.

ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً.

وكانت معه إداوة قد يبست ، فيها شيء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ثم فُضّ الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه :

«إذا أتاك محمد بن أبي بكر ، وفلان وفلان فاقتلهم وابطل كتابهم وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي !!».

فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ورجعوا الى المدينة. وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه ودفعه إلى رجل منهم ثم قدموا المدينة.

فجمعوا طلحة والزبير ، وعلياً وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبرهم بقصة الغلام ، وأقرأهم الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق على عثمان وقام بعض المخلصين وقام أصحاب النبي فلحقوا بمنازلهم وحصرَ الناس عثمان وأحاطوا به ومنعوه الماء والخروج ومن كان معه[1].

.. من كتب هذا الخطاب إلى عامل مصر ؟.

أيكون عثمان هو الذي فعل ذلك ؟.

محال أن يفعل عثمان هذا ، ويكتب خطاباً إلى عامله في مصر يطلب منه أن يقتل هؤلاء الرجال.

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٦٠ — ١٧٠.

وعثمان رفض أن يُقتل من أجله مسلم واحد أو أن يراق دم انسان.

فعل عثمان ذلك وهو محاصر وممنوع من الصلاة في المسجد، ومحروم من الماء أن يصل اليه. وقال كلمته المشهورة:

«ما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة دم لامرىء مسلم».

وإذا كان ذلك كذلك فهناك يد أخرى فعلت ذلك وكتبت هذا الخطاب وكلفت الغلام حامل الخطاب أن يعترض ركب محمد بن أبي بكر ويتحكك بالناس، وكأنه يريد أن يقول لهم: إن في الأمر شيئاً وإني أحمل سراً خطيراً، عليكم أن تكشفوه وتعرفوه، ألا يدل بفعلاته تلك على أنه موعز إليه بما فعل وأنه مطلوب منه أن يلعب تلك اللعبة، حتى يعرف أمره ويكشف السر الذي بين يديه[1].

أيكون مروان هو الذي فعل ذلك وكتب تلك الرسالة؟.

لا نعجل بالحكم حتى نستمع إلى تلك الرواية التي يذكرها البلاذري بعد أن اجتمع الثائرون بالمدينة وأحاطوا بها.

قال: أتى المغيرة بن شعبة عثمان فقال له: دعني آتي القوم — أي الذين أجلبوا من مصر — فانظر ماذا يريدون؟ فمضى نحوهم. فلما دنا منهم صاحوا به: وراءك لا تتقدم فرجع.

ودعا عثمان عمرو بن العاص فقال: ائت القوم، فادعهم إلى كتاب الله والعتبى مما ساءهم.

فلما دنا منهم سلم. فقالوا: ارجع فلست عندنا بأمين ولا مأمون.

فقال له ابن عمر: ليس لهم إلا علي بن أبي طالب.

فبعث عثمان إلى علي، فلما أتاه قال له:

يا أبا الحسن، ائت القوم فادعهم الى كتاب الله وسنة نبيه.

(1) علي بن أبي طالب: الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

قال نعم. ان أعطيتني عهد الله وميثاقه على أنك تفي لهم ما أضمنه عنك.

قال: نعم.

فأخذ عليه عهد الله وميثاقه على أوكد ما يكون وأغلظه، وخرج الى القوم.

فقالوا: وراءك.

قال: لا، بل أمامي.. تعطون كتاب الله وتعتبون من كل ما سخطتم، فعرض عليهم ما بذل.

فقالوا: أتضمن ذلك عنه؟.

قال: نعم.

قالوا: رضينا وأقبل أشرافهم ووجوههم مع عليّ، حتى دخلوا على عثمان وعاتبوه فأعتبهم من كل شيء.

فقالوا: اكتب كتاباً بهذا.

فكتب.

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله، عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين. إن لكم أن أعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه يعطي المحروم، ويؤمن الخائف، ويرد المنفي، ولا يجمر في البعوث، ويوفر الفيء، وعليّ ابن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين على عثمان بالوفاء بما في الكتاب.

وشهد على الكتاب: الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت وسهل ابن حنيف وغيرهم. وأخذ كل قوم كتاباً فانصرفوا»[1].

ونسأل: هل كان عثمان — رضي الله عنه — يعمل بغير ما في كتاب الله وما في سنة رسوله؟. حتى يجدد للقوم عهداً بذلك. يستأنف به ما انقطع من سيرة الخليفتين السابقين؟.

(١) أنساب الأشراف جـ ٥ ص ١١١.

إننا نشك في هذا الكتاب ، وما نراه إلا إحدى الوثائق المزورة التي أريد بها إقامة الأدلة على انحراف عثمان وإدانته.

ثم يمضي البلاذري فيقول :

ثم خرج عثمان فخطب الخطبة التي قال فيها :

« أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً الا وأنا أعرفه..

وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : من زلّ فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة.. وأنا أول من اتعظ :. استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه ».. الخ.

يقال : فلما نزل عثمان وجد في منزله مروان ونفراً من بني أمية لم يكونوا شهدوا الخطبة ، فلما جلس قال مروان :

« يا أمير المؤمنين.. أتكلم أم أصمت ؟ »[1] .

فقالت نائلة بنت القرافصة ، امرأة عثمان : لا بل اصمت إنه قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها.

فأقبل عليها مروان فقال : ما أنت وذاك ونال منها.

ثم تكلم فقال : يا أمير المؤمنين بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنتُ أول من رضي بها وأعان عليها. ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها ، أجمل من توبة تخوف منها.. الخ.

إن مروان وبطانته ساعدوا في اشعال هذه الفتنة ، ووصولها الى حد لا تقف عنده ومع هذا كان هناك أيضاً مؤامرات خفية يراد بها النيل من الاسلام ووقوف

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٦٤.

جيوشه التي أوشكت أن تطبق على الكرة الأرضية من كل جوانبها. ولهذا كانت الدعوة التي وجهت لقادة الجيش والجنود في ذلك الوقت :

« إنكم إنما خرجتم لتجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد ، فإن دين محمد أفسده من خلفكم وتركه ، فهلموا فأقيموا دين محمد ﷺ »[1] .

إنها دعوة الى الجنود بالتوقف عن الزحف الى خارج البلاد ومطالبتهم ان رغبوا في الجهاد فليكن بينهم.

يقتل بعضهم بعضاً ويسفك بعضهم دماء بعض.

انها دعوة للجنود الذين هم خارج البلاد والذين ساروا وقطعوا تلك الفيافي البعيدة بالعودة الى داخل المدينة.

إنه القعود عن الجهاد.

وإذا كان ذلك كذلك فلمصلحة من يتم هذا؟.

مَن المستفيد الأول من بقاء الاسلام بين أهله وذويه ، وهو الذي أرسل الى الناس كافة؟.

من الذي يهمه ألّا تنتشر هذه الدعوة وألا تصل الى تلك الأصقاع البعيدة؟.

إنهم اليهود ولا شيء غيرهم ! .

وتاريخهم في افساد العقائد وتحريف الكتب السماوية معروف بنص القرآن وحربهم التي شنوها على أتباع المسيح لا زالت في ذاكرة التاريخ لم تمح بعد وما فعله « بولس » الحاخام اليهودي في تحريف الديانة المسيحية ودعوته الى التثليث واطلاقه على عيسى أنه ابن الله لا يجهله انسان.

فماذا يريد اليهود من الاسلام؟.

إن أوثق المصادر تقول :

---

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٥٤ وما بعدها.

«في ذلك الحين وفي ظروف مريبة وفدَ على المدينة من اليمن يهودي اسمه عبد الله ابن سبأ — وكنيته ابن السوداء — حيث انتحل الاسلام ، ثم انتحل الغيرة الشديدة على قيمه وحرماته .

وفي المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبإ .

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح يتتبعه ليجمع من شتاته صحيفة اتهام .

حتى اذا جمع مادته وعرف طريقه وأتم رسم خطته ، شرع على الفور في العمل والانجاز .

وأدرك — ابن سبأ — أنه لكي ينشر الاضطراب في الدولة والأمة عليه أن يوجه مبادرته الأولى الى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكي يتيسر له ذلك لا بد أن يرفع في وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهي الخليفة في جلاله وأسبقيته» .

هنالك بدأ نفثاته المسمومة بهذه العبارة :

«ان لكل نبي وصياً وان علياً «وصي» الرسول ولقد وثب عثمان على أمر هذه الأمة وأخذ الحق من صاحبه» .

وراح يزكي دعوته هذه بطائفة من الأحاديث التي كان الرسول عليه السلام قد أطرى بها «علياً» وزكاه مثل قوله .

«من كنت مولاه فعلي مولاه» .

ومثل دعائه عليه السلام : «اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» .

وعلى الرغم من أن الإمام علياً كرم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة ابن سبأ حتى عنّفه وسفهه وحذّر المسلمين من خبث طويته وسوء تدبيره .

نقول بالرغم من ذلك . فإن ابن سبأ ظل سادراً في خطته وانطلق كالريح

السموم يشعل نيران الفتنة في أقطار الاسلام. فرحل الى البصرة ثم الكوفة، ثم الى الشام، ثم الى مصر التي استقر بها طويلاً.

وخلال رحلاته تلك اصطفى من المفتونين به أنصاراً وحواريين أطلقهم هم الآخرين ليطوحوا بفتنته في الآفاق ورسم لهم منهجهم في هذه الكلمات:

«تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس اليكم وابدأوا بالطعن في أمرائكم وقولوا للناس: ان عثمان قد أخذ الخلافة بغير حق وان علياً وصي رسول الله فانهضوا وردوا الحق الى صاحبه»[1].

ومن عجب أن الفتنة الضارية التي تمادت حتى مقتل عثمان رضي الله عنه سارت وفق هذه الوصايا الثلاث:

فأولاً: لبس المحرضون عليها والمسهمون فيها مُسوح الرهبان، ورفعوا شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وثانياً: راحوا يطعنون في الأمراء والولاة ويجسمون أخطاءهم ويدحضون وجودهم.

وثالثاً: رفعت الفتنة رأسها لتواجه الخليفة مباشرة وتطالبه بضرورة التنحي والاعتزال».

ونجحت دعوة ابن سبأ.

وعمت الفتنة حتى وصلت الى كل مكان.

وخرج من مصر مجموعة من الرجال يقدرون بستمائة رجل رأسهم عبد الرحمن ابن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي.

وخرج من الكوفة مائتان رأسهم مالك بن الأشتر النخعي.

وخرج من البصرة مائة رجل رأسهم حكيم بن جبلة.

---

(١) علي رضي الله عنه: للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

والتقوا في المدينة.. وكانوا يداً واحدة في الشر، وكانوا حثالة من الناس مفتونين»[1].

وقاموا بحصار عثمان — رضي الله عنه — وحالوا بينه وبين الخروج ومنعوا عنه الماء وأن يتصل أحد به.

فماذا كان بعد الحصار؟ وكيف سارت الأمور حول بيت عثمان الخليفة العابد الأواب؟

هذا ما سنجليه بمشيئة الله فيما يأتي من الأقوال.

مقتل عثمان رضي الله عنه

.. قلنا بأن الجموع التي جاءت من خارج المدينة حاصرت عثمان في بيته وحالت بينه وبين الخروج.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«دخلت على عثمان يوم الدار فقلت يا أمير المؤمنين طاب أم ضرب؟.

فقال: يا أبا هريرة. أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي؟.

قلت: لا.

قال: فإنك والله ان قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فرجعت ولم أقاتل.

ثم دخل عليه المغيرة بن شعبة فقال: يا أمير المؤمنين.. ان هؤلاء قد اجتمعوا عليك فإن أحببت فالحق بمكة.

وان أحببت أن نخرق لك باباً من الدار فتلحق بالشام ففيها معاوية وأنصارك.

وإن أبيت فاخرج ونخرج ونحاكم القوم الى الله تعالى.

فقال عثمان:

---

(1) طبقات ابن سعد جـ ٣.

«وأما ما ذكرت من الخروج الى مكة ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُلحد بمكة رجل من قريش ، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن ، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله».

وأما ما ذكرت من الخروج الى الشام فإن المدينة دار هجرتي وجوار قبر النبي ﷺ ، فلا حاجة لي في الخروج من دار هجرتي.

وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى كتاب الله ، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته باهراق الدم.

ثم قال : «إني رأيت أبا بكر وعمر أتياني الليلة فقالا لي : صمْ ، فإنك مفطر عندنا الليلة ، وإني أصبحت صائماً».

وروى عبد الله بن عمر قال : قال لي عثمان وهو محصور في الدار : ما ترى فيما أشار به عليّ المغيرة؟.

قال : قلت : ما أشار به عليك؟.

قال : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي فإن خلعت تركوني وإن لم أخلع قتلوني.

قلت : أرأيت إن خلعت تترك مخلداً في الدنيا؟.

قال : لا.

قال : فهل يملكون الجنة أو النار؟.

قال : لا.

فقلت : أرأيت إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟.

قال : لا.

قلت : فلا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه ، لا تخلع قميصاً قمصكه الله»[1].

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٦٢ — ٦٣.

وعند ذلك قام عثمان فأطل على الجماهير المجتمعة وقال لهم :

«يا قوم.. إن الله رضي لكم السمع والطاعة وحذركم المعصية والفرقة فاقبلوا نصيحة الله واحذروا عقابه.

ثم قال : وإني أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم يدعونني إلى كتاب الله تعالى والحق ،فلما عرض عليهم الحق رغبوا عنه وتركوه ، وطال عليهم عمري واستعجلوا القدر بي ، وهم يخيرونني بين إحدى ثلاث.

إما القود بكل رجل أصبت خطأ أو عمداً.

وإما أن أعتزل عن الأمر فيؤمروا أحداً.

وإما أن يرسلوا الى من طاعهم من الجنود وأهل الأمصار فأرسلوا اليكم فأتيتم لتبتزوني من الذي جعل الله لي عليكم من السمع والطاعة ، فسمعتم منهم وأطعتموهم والطاعة لي عليكم دونهم.

فقلت لهم : أما إقادة من نفسي فقد كان قبلي خلفاء — ومن يتولى السلطان يخطىء ويصيب ، فلم يستقدمنهم أحد.

وإما أن أتبرأ من الأمر ، فإن يصلبوني أحب إليّ من أن أتبرأ من جنة الله تعالى وخلافته بعد قول الرسول ﷺ لي يا عثمان إن الله تعالى سيقمصك قميصاً بعدي ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني..»[1].

.. لم يستجب عثمان — رضي الله عنه — لما طلبه منه هؤلاء المتمردون فكان لا بد من الاضطراب ، ومن اشعال نار الفتنة حتى تبلغ ذروتها وأخذت الجموع الساخطة ، تستمع لرأي فئة من الناس ، لا يهمها كثيراً سلامة المسلمين ووحدتهم.

وأخذت المناوشات تأخذ دورها وتتطايرت السهام وأشرعت السيوف تطالب برأس الخليفة الصابر المؤمن.

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٤٣ — ٤٤.

ثم إن محمد بن أبي بكر تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتاب وسودان بن حمران وعمرو بن الأحمق. فوجدوا عثمان ــ رضي الله عنه ــ عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة. فأخذ بلحية عثمان ــ رضي الله عنه ــ وقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان.

فقال عثمان: يا ابن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه.

فقال محمد: ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك؟.

قال عثمان: لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني، ولساءه مكانك مني؟
فتراخت يده عنه، وقام عنه وخرج. ودخل الرجلان، فوجآه حتى قتلاه»[1].
قتل الخليفة الأواب وتحقق من بعده في المسلمين ما قاله لهم:
يا قوم: وإنكم إن تقتلوني.
لا تصلّوا جميعاً أبداً.
ولا تغزوا جميعاً أبداً.
ولايقسم فيؤكم بينكم»[2].
فهل تحقق ما قاله الخليفة قبل قتله؟.

إن المتتبع لتاريخ المسلمين بعد تلك الفتنة التي لفتهم يرى مصداق ما قال وحقيقة ما نطق به.

أما هو فقد ذهب إلى جنة الخلد التي وعده بها رسول الله ﷺ مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٧٢.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٧١.

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس — رضي الله عنه — نزلت في ابي بكر وعمر.

وعن ابن عمر: أنها نزلت في عثمان — رضي الله عنه — والقانت: هو المقيم على الطاعة.

وقال ابن عمر: القنوت قراءة القرآن وطول القيامة، وقيل القانت القائم بما يجب عليه.

آناء الليل: أي ساعات الليل أوله ووسطه وآخره «ساجداً وقائماً» أي في الصلاة وفيه دليل على ترجيح قيام الليل على النهار وأنه أفضل لأن الليل أستر فيكون أبعد عن الرياء ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء «يحذ» أي يخاف «الآخرة ويرجو رحمة ربه» قيل المغفرة وقيل الجنة وفيه فائدة، وهو أنه قال في مقام الخوف يحذر الآخرة فلم يضف الحذر اليه تعالى وقال في مقام الرجاء ويرجو رحمة ربه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى، ويعضد هذا ما روي عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له:

«كيف تجدك..؟

قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي.

فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما يرجو منه وأمنه مما يخاف»[1].

ويقول الامام القرطبي في تفسيره :

قال النحاس.. أصل القنوط الطاعة : فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عزّ وجل فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لي ابن عم قم فصلّ فقمت أصلي وكان عليّ ثوب خلق فدعاني فقال لي :

أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا؟.

فقلت : كنت أتزين.

قال : فالله أحق أن تتزين له..

واختلف في تعيين القانت ها هنا. فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس[2] في رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وقال ابن عمر : هو عثمان — رضي الله عنه — وقال مقاتل : إنه عمار بن ياسر وقال الكلبي : صهيب وأبو ذر وابن مسعود وعنه أيضاً إنه مرسل فمن كان على هذه الحال. والله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي والخازن جـ ٦ ص ٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٥ ص ٢٢٩.

تذييل...

.. لا يستطيع أي مؤرخ لتاريخ عثمان — رضي الله عنه — أن يعفي حاشيته وما كان يحيط به من أنصار وأصهار من المسؤولية ازاء الفتنة التي حدثت ولفت المسلمين في ليل طويل.

وحاشية الحاكم أو الوالي يكون لها دور كبير في استقرار الحكم وسلامته أو زعزعته واضطرابه ولا يستطيع أي منصف أن يقول غير ذلك. والحادثة التي بين أيدينا تلقي أضواء على الدور الذي يقوم به الأفراد ممن يكون لهم دور في حياة الحاكم أو الاحاطة به.

حدث الفضل بن الربيع قال:

«حج أمير المؤمنين — هارون الرشيد — فأتاني فخرجت مسرعاً.

فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك.

فقال: ويحك قد حال في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله.

فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة.

فقال: امض بنا اليه.

فأتيناه فقرعنا الباب فقال: من ذا؟.

قلت: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً.

فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ لأتيتك.

فقال : خذ لما جئنا له رحمك الله فحدثه ساعة ثم قال له : عليك دين..؟

قال : نعم. قال : أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال : ما أغنى عني صاحبك شيئاً أنظر رجلاً أسأله.

قلت : ههنا عبد الرزاق بن همام.

قال : امض بنا إليه ، فأتيناه فقرعنا الباب فخرج مسرعاً فقال : من هذا؟.

قلت : أجب أمير المؤمنين.

فقال : يا أمير المؤمنين.. لو أرسلت إليّ لأتيتك.

فقال : خذ لما جئنا له فحادثه ساعة ثم قال له : عليك دين؟ قال : .نعم.

قال : أبا عباس.. اقض دينه.

فلما خرجنا قال : ما أغنى عني صاحبك شيئاً انظر لي رجلاً أسأله.

قلت : ههنا الفضيل بن عياض.

قال : امض بنا اليه.

فأتيناه.. فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن ويرددها.

فقال : اقرع الباب.. فقرعت الباب. فقال.. من هذا؟.

قلت : أجب أمير المؤمنين.

قال : ليس لأمير المؤمنين حاجة الينا؟.

قلت : سبحان الله أما له عليك حق الطاعة؟.

ثم نزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا ، فجعلنا نجول بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلي اليه. فقال : يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل.

فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال له : خذ لما جئناك له ، رحمك الله.

فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة .

فقال لهم : إني ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ فعدَّ الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال سالم : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً . فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك .

وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت .

وإني أقول لك : إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزلّ فيه الأقدام فهل معك رحمك الله «حاشية مثل هؤلاء»؟ . أو من يشير عليك بمثل هذا . ؟

فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشي عليه .

فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين .

فقال : يا ابن الربيع .. تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا . ثم أفاق الرشيد .

فقال له : زدني رحمك الله .

فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا اليه فكتب اليه عمر .

يا أخي : أذكرك طول سهر أهل النار ، مع خلود الأبد .

قال : فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك ؟ .

قال : خلعت قلبي بكتابك . لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل .

فبكى الرشيد بكاء شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله.

فقال : يا أمير المؤمنين : إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أمّرني إمارة.

فقال له النبي ﷺ ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألا تكون أميراً فافعل.

فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال له : زدني رحمك الله.

فقال : يا حسن الوجه.. أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة. فإن استطعت أن تقي هذا الوجه النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك. فإن النبي ﷺ قال : من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»[1].

فبكى هارون وقال : عليك دين؟

قال : نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي ان سألني، والويل لي إن ناقشني والويل لي ان لم ألهم حجتي.

قال : انما أعني من دين العباد.

قال : إن ربي لم يأمرني بهذا، انما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره فقال عز وجل : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[2].

فقال له : هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها عبادتك فقال : «سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟. ثلمك الله ووفقك؟».

ثم صمت فلم يكلمنا.. فخرجنا من عنده، فلما صرنا الى الباب قال هارون :

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ورفعه بلفظ : «من غشنا فليس منا».
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦ — ٥٧ — ٥٨.

«إذا دللتني على رجل فدلَّني على مثل هذا..».

هذا سيد المسلمين، فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به؟.

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون هذا الكلام قال:

«ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه.. فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت:

«يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا».

علام تدل هذه الحادثة؟. وما العبرة التي يمكن أن تؤخذ منها؟. حاكم المسلمين يطلب النصيحة ويسعى في طلبها، وهي لا تأتي اليه — حتى لا تكون في مركز الضعف ولكنه يطرق الأبواب اليها ويلتمس الوسيلة للعثور عليها. وتأتي النصيحة اليه عن طريق القدوة والمثل، فهناك حاكم مثله كان يجمع حوله أهل الورع والتقوى وعيون العلماء وخاصة المسلمين. يجمعهم حوله للتذكر إذا نسي، ويجمعهم حوله للنصيحة إذا انحرف. ويجمعهم حوله لاستشارتهم، وحتى لا يقطع أمراً دونهم.

والشورى من قواعد الحكم في الاسلام طلبها الرسول ﷺ بقوله:

«أشيروا علينا أيها الناس»(١).

وأمر الله سبحانه وتعالى بها في قوله:

﴿وشاورهم في الأمر﴾(٢).

ومدح المؤمنين بها في قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

(٣) سورة الشورى الآية ٣٨.

والحاكم هذا لم يفعل ذلك إن حوله حاشية من خلصائه، ويحيط به رجال جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة، ولكنهم لا يدعونه إلى النجاة ولا يرشدونه الى طريق الحق. حتى يصل إلى هذا الرجل الذي تمذهب بمذهب القرآن فيصدع أمامه بكلمة الحق، ويذكره بالدار الآخرة، ويكون التذكير والتخويف بشيء يمس الحاكم ويتأثر به أهذه اليد لك؟. ما ألينها إن نجت غداً من عذاب النار؟.

واختار العالم اليد، يد الحاكم لماذا؟. لأنها ليست كأيدي الآخرين.

يد الحاكم هي التي توقع وتصدر الأحكام، وتعفو عن الناس، وتقسم بينهم أموالهم.

يد الحاكم تشارك مشاركة فعالة في كل شؤون الرعية.

أيمكن أن تنجو غداً من عذاب النار؟.

نعم إن كانت على الجادة، إن ابتعدت عن الجور، وأقامت العدل بين الناس، والحاكم في الاسلام رجل من عامة الناس، يرى أن كبير المؤمنين له أباً، فينزل على رأيه، ويستمع إلى نصحه، وله عليه حق التعظيم والتوقير، وأوسطهم له أخاً قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

وقال الرسول ﷺ:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره. بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2].

وأصغرهم ابناً له عليه حق الرعاية حتى يكبر وله عليه حق التعليم حتى يفقه ولقد قالها حاكم المسلمين عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ قالها لأخوة له مدججين بالسلاح خرجوا من بلادهم وانداحوا في أركان الأرض لنشر دين الله خلف السهوب والبحار. قالها حتى لا يترك في قلوبهم شغلاً بهؤلاء الصغار.

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠.

(٢) رواه الشيخان.

«سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا».

ان هذا العالم يضع أمامه — صورة حاكم مثالي في حكمه، منفذ لتعاليم ربه، خائف من عقابه، مؤمن بأن لكل أجل كتاباً.

ويقول له في النهاية: أعندك مثل هؤلاء؟.

هل اخترت الرجال الذين يحيطون بك..

هل اصطفيت الذين يكونون عيونك بين الناس.. كما فعل الحاكم السابق؟.

ان امارة المسلمين ليست تشريفاً ولكنها تكليف، امارة المسلمين خدمة، امارة المسلمين: رعاية وتنفيذ حكم الله بين العباد فكيف به ان عطله..

والإمارة: إقامة العدل بين الناس فكيف بالحاكم ان ادخل الهمّ على قلوبهم.

والإمارة: حماية لثغور المسلمين من الأعداء. فكيف به إن أهمل الجهاد؟

ولم يجيش الجيوش ولم يعد العدة لذلك، ولم يربّ الرجال على الشهادة والنصر..

ثَبْتٌ بالمراجع

١ . **القرآن الكريم**.

٢ . **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : محمد فؤاد عبد الباقي دار الشعب — مصر.

٣ . **أسباب نزول القرآن للواحدي** : تحقيق الأستاذ أحمد صقر.

٤ . **تفسير القرآن العظيم** : للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير. دار الأندلس — بيروت.

٥ . **تفسير الطبري** : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. دار المعارف — مصر.

٦ . **الجامع لأحكام القرآن** : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧ . **الدر المنثور** : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. المكتبة الاسلامية — طهران.

٨ . **في ظلال القرآن**: سيد قطب، دار احياء التراث العربي : بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩ . **تفسير القرآن العظيم** : لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠ . **تفسير الدر المنثور** : للإمام السيوطي.

١١ . **تفسير الجلالين**: جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢ . **أسباب نزول القرآن** : لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣ . **فتح الباري بشرح البخاري** : للحافظ أبي الفضل العسقلاني : المعروف بابن حجر.

١٤ . **صحيح الإمام مسلم، بشرح النووي** : المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥ . **مسند الإمام أحمد**: شرح أحمد محمد شاكر : دار المعارف بمصر، ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦ . **صحيح الترمذي ، بشرح ابن العربي** : المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م .
١٧ . **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** : أ . ي . ونستك ، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢ م .
١٨ . **الجامع الصغير** : للإمام السيوطي . مطبعة البابي الحلبي — القاهرة .
١٩ . **كشف الخفا ومزيل الالباس** : اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي — حلب .
٢٠ . **تهذيب التهذيب** : لابن حجر العسقلاني ، دار صادر — بيروت .
٢١ . **الكامل في التاريخ** : لابن الأثير ، دار صادر — بيروت ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
٢٢ . **تاريخ الرسل والملوك** : لأبي جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث — بيروت .
٢٣ . **البداية والنهاية** : الحافظ ابن كثير ، مكتبة بيروت — ومكتبة النصر — الرياض .
٢٤ . **الطبقات الكبرى** : ابن سعد ، صيدا — دار بيروت ١٣٧٧ هـ .
٢٥ . **سيرة النبي لابن هشام** : تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية — القاهرة .
٢٦ . **الروض الأنف** : عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة — القاهرة .
٢٧ . **مروج الذهب** : للمسعودي ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٨ . **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** : لابن عبد البر ، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر .
٢٩ . **أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر** : علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر — بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٣ م .
٣٠ . **خلفاء الرسول** : خالد محمد خالد . دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان — الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .
٣١ . **العبقريات** : لعباس محمود العقاد .
٣٢ . **علي بن أبي طالب — بقية النبوة — وخاتم الخلافة** : للاستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .
٣٣ . **هذا هو طريق** : د . عبد الرحمن عميرة . دار التراث مصر — ١٩٧٣ .
٣٤ . **مع الإلحاد وجهاً لوجه** : د . عبد الرحمن عميرة . دار الحلبي — القاهرة .

٣٥ . **أشهر مشاهير الاسلام** : رفيق العظم.
٣٦ . **الاعلام** : للزركلي.
٣٧ . **الأغاني** : للأصفهاني.
٣٨ . **تاريخ الخلفاء** : للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، مصر — ١٣٠٥ هـ.
٣٩ . **تفسير الخازن والبغوي** : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل ، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٤٠ . **تلبيس ابليس** : لابن الجوزي ، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٤١ . **الروض الأنف** : للإمام السهيلي.
٤٢ . **الرياض النضرة في مناقب العشرة** : للمحب الطبري.. مصر
٤٣ . **سنن الترمذي** : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية : المدينة المنورة.
٤٤ . **سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني « ابن ماجه »** ، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار احياء التراث العربي.
٤٥ . **تراث الانسانية** : مجموعة من العلماء ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآناً

الجزء السادس

د. عبدالرحمن عميره

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾



[سورة الفتح آية رقم ٢٩]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

لقد وفقنا الله تعالى في اخراج الجزء «السادس» من «رجال أنزل الله فيهم قرآناً».

ويحتوي هذا الجزء على مجموعة من الرجال الذين عايشوا فجر الاسلام وعبوا من ينابيع الايمان.

منهم الصحابي الجليل «عثمان بن مظعون» رضي الله عنه الذي حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، وعندما سئل عن ذلك قال:

«لا أشرب شراباً يذهب عقلي، ويضحك عليَّ من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي».

فلما حرِّمت الخمر في الاسلام قيل له يا عثمان قد حرمت الخمر قال:

«تباً لها قد كان بصري بها ثاقباً».

وفي هذا الجزء أنس بن النضر الذي قال يوم انكشف المسلمون في غزوة أحد «اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المشركين، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني المسلمين.

ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال:

«أي سعد والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد، واهاً لريح الجنة.

قال سعد: فما عرفت يا رسول الله ما أصنع..؟

يقول أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، قد مثلوا به».

قال: فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه.

وفي هذا الجزء: جابر بن عبد الله — رضي الله عنه. الذي رآه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منطوياً على نفسه فقال له:

«يا جابر ما لي أراك منكسراً مهتماً..؟

فقال: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالاً، وعليه دين..؟؟

قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك..؟

قال: بلى. يا رسول الله.

قال: ان الله أحيا أباك وكلّمه كفاحاً وما كلم أحداً قط إلّا من وراء حجاب.

وقال له: يا عبدي تمنَّ عليَّ أعطك.

قال: يا رب تردني الى الدنيا فأقتل فيها ثانية.

فقال الرب تعالى ذكره: ﴿إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون﴾.

قال: يا رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله تعالى:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

د. عبد الرحمن عميره

عُثمان بن مظعُون

رَضِيَ ٱللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ
اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾
وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾



[سورة المائدة الآية ٨٧ – ٨٨]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والحديث وكتاب السير نزلت هذه الآيات في مجموعة من الصحابة منهم عثمان بن مظعون.

قال ذلك صاحب تفسير الطبري	جـ ١٠ ص ٥٢٠
وقاله صاحب تفسير القرطبي	جـ ٦ ص ٢٦٠
وصاحب الدر المنثور	جـ ٢ ص ٣٠٨
وتفسير البغوي والخازن	جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠
وصحيح الترمذي	جـ ١١ ص ١٧٩
وقاله صاحب كتاب أسباب النزول	ص ١٩٩

فمن هو عثمان بن مظعون..؟

عثمان بن مظعون

رضي الله عنه

والده مظعون بن حبيب الجمحي. يصمت التاريخ عنه فلا يقدم له عملاً أو يحدث له ذكراً.

وزوجه خولة بنت حكيم: التي جاءت لرسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟.

فقال: أجل، كانت أم العيال وربة البيت.

قالت: أفلا أخطب عليك.؟

قال: بلى فإنكن معشر النساء أرفق بذلك، فخطبت عليه سودة بنت زمعة وخطبت عليه عائشة بنت أبي بكر — رضي الله عنهما[١].

وأخواه: عبد الله وقدامة ابنا مظعون أسلما مبكرين وهاجرا الهجرتين وقاتلا في سبيل الله.

كان عثمان قبل الاسلام صاحب عقل وذكاء. أنف من الأصنام وسخر من عبّادها ونفر من عادات الجاهلية، وحرم على نفسه الخمر.

وعندما سئل عن ذلك قال:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٨ ص٥٧.

«لا أشرب شراباً يُذهب عقلي، ويضحك من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي».

فلما حرمت الخمر قيل له: يا عثمان قد حرمت الخمر.

فقال: تباً لها قد كان بصري بها ثاقباً[1].

سمع بدعوة الرسول ﷺ فأسرع لتلبية هذه الدعوة والمكوث بين يدي داعيها. حتى يعرف منه ما عجز عن الوصول اليه بعقله.

يقول ابن سعد في طبقاته:

«انطلق عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الاسلام وانبأهم بشرائعه فأسلموا جميعاً في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها[2].

.. وفي يوم من الأيام ورسول الله ﷺ جالس بفناء بيته بمكة مرّ عثمان بن مظعون فدعاه الرسول للجلوس فجلس وبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ فنظر ساعة الى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغص رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، وشخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى في السماء.

فأقبل على عثمان بجلسته الأولى.

فقال عثمان: يا محمد فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة.

قال: وما رأيتني فعلت؟.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٥٤.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٩٣.

قال : رأيتك تشخص بصرك إلى السماء ثم وضعته عن يمينك فتحرفت اليه . وتركتني ، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك.

قال : أوفطنت لذلك .؟

قال عثمان : نعم.

فقال رسول الله ﷺ : أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس.

قلت : رسول الله؟.

قال : نعم.

قلت : فما قال لك؟.

قال : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[1] .

أحبه الحب الكبير الذي ملأ عليه كل جارحة من جوارحه ، وكل ذرة من ذرات جسمه وكيف لا يكون ذلك؟.

ومحمد ﷺ هو الذي هداهم إلى الطريق ، وبصَّرهم بسبل الهدى ، ونقلهم من ظلمات الجهل إلى نور الايمان.. فأحبوه أكثر من أولادهم وزوجاتهم وأهلهم ووطنهم. حتى إذا اشتد أذى المشركين لهذه الفئة المؤمنة تركت كل شيء وهاجرت بدينها إلى أرض الحبشة وكان عثمان بن مظعون أحد هؤلاء الرجال الذين فروا بدينهم ، واستقر مع أصحابه عند النجاشي فترة طويلة. حتى أذاعت قريش أنها تصالحت مع الدعوة الجديدة وكفت أذاها عن أتباعها.. فانطلق المهاجرون عائدين إلى مكة. ولقد أسقط في أيديهم — عندما شعروا أن ما أذاعته قريش لم يكن إلّا مكيدة رخيصة تستدرج بها هؤلاء الأتباع الذين فروا إلى الحبشة وتركوا أوطانهم. لتعيدهم تحت ضربات السياط وأنواع التعذيب إلى عبادة الأصنام مرة أخرى.. وفي هذا يقول عثمان بن مظعون معاتباً أمية بن خلف الذي كان يؤذيه في إسلامه :

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٧٤ والآية ١٠ من سورة النحل.

أأخرجتني من بطن مكة آمناً وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالاً لا يواتيك ريشها وتبري نبالاً ريشها لك أجمعَ
وحاربت أقواماً كراماً أعزة وأهلكت أقواماً بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوماً ملمة وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع [1]

ومن أجل ذلك اضطر أن يدخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة. وفي حمى هذا الجوار عاش فترة آمناً لا يتوجه اليه أحد بأذى أو يصيبه مكروه. في حين كان أصحابه من المسلمين الذين عادوا من الحبشة ينالون الخسف والهوان.

فعندما رأى ذلك عثمان بن مظعون قال:

والله إن غدوي وروحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي فمشى إلى الوليد بن المغيرة. فقال له:

«يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت اليك جوارك».

قال له: لِمَ يا ابن أخي؟. لعله آذاك أحد من قومي.

قال: لا، ولكن أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.

قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية.

قال: فانطلقا. فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد:

«هذا عثمان قد جاء يرد عليَّ جواري.

قال عثمان: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان»[2].

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦.
(٢) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٠٣.

هكذا فعل عثمان.. حتى يتحقق فيه حديث الرسول ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

فإذا كان أذًى يصيب المسلمين فليكن عليهم جميعاً.. وهذا هو التعاون والألفة التي جعلت من الجيل الأول عمالقة في كل شيء إذا كانوا في الحرب يقدم أحدهم نفسه للسيف لينقذ أخاه.. ويتقدم الصفوف حتى يحمي من خلفه، ويضنّ على نفسه بكسرات من الخبز ليقدمها إلى من هو أكثر منه جوعاً ومسغبة. ولقد صدق الشاعر عندما قال فيهم:

إذا شهدوا الوغى كانوا كماة   يدكون المعاقل والحصونا
وإن جن المساء فلا تراهم   من الاشفاق إلا ساجدينا

رد عثمان جوار الوليد وانطلق في أرجاء مكة ودروبها، وكأنه يتحدى هؤلاء المشركين أن يتقدم إليه أحد بمكروه. حتى وقعت عينه في أثناء سيره على حلقة من الناس يتحلقون حول الشاعر لبيد بن ربيعة وهو ينشدهم شعره — فجلس عثمان يستمع معهم — حتى وصل لبيد إلى قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

قال عثمان: صدقت.

قال لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل.

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذي جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم..؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وتفاقم الشر. فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فأصابها.

فعل الرجل ذلك، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة.

قال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني والله لفي جوار مَن هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال الوليد: هلم يا ابن أخي إن شئت إلى جوارك فعد.

فقال: لا[1].

لا، وألف لا، إنه في رعاية الله سبحانه وتعالى الذي يملك الحياة والموت، ويقدر الرزق والأجل. وأما هؤلاء فلن ولم يملكوا من أمر أنفسهم شيئاً. وصدق الله في قوله:

﴿ يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾[2].

واستمر عثمان في ذلك. يُسمع الكفار ما يغيظهم ويوغر قلوبهم ويجهر أمامهم بكلمات الله — ولا يخشى في الحق لومة لائم — حتى أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

وفي القلعة الجديدة.. التي اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون مقر المسلمين ينطلقون من دروبها في أرجاء الأرض الأربعة يدعون إلى دينه ويقاتلون من أجل رفع كلمته، وينشرون السلام والأمن بين الناس — استقر عثمان بن مظعون بجوار الرسول ﷺ وآخى عليه السلام بينه وبين أبي الهيثم بن التيهان. الذي يقول عنه ابن سعد في طبقاته:

«وكان أبو الهيثم يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفف بها ويقول بالتوحيد وكان

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٩١ — ٣٩٢.

(٢) سورة الحج الآية ٧٣.

أول مَن أسلم من الأنصار بمكة ويجعل في الثمانية النفر الذين آمنوا برسول الله ﷺ فآمنوا قبل قومهم وقدموا المدينة بذلك وأفشوا بها الإسلام»[1].

وكان عثمان حيياً خجولاً. أتى النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله إني لا أحب أن ترى زوجتي عورتي.

قال رسول الله ﷺ: ولِمَ؟

قال: أستحي من ذلك وأكره.

قال: إن الله جعلها لك لباساً وجعلك لها لباساً وأهلي يرون عورتي، وأنا أرى ذلك منهم.

قال: أنت تفعل ذلك يا رسول الله..؟

قال: نعم.

قال: فمن بعدك.

فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «إن ابن مظعون لحيي ستير»[2].

صدق رسول الله ﷺ، والحياء شعبة من الإيمان، ومَن لا حياء فيه لا خير فيه.

وكان ابن مظعون أيضاً من العباد الزهاد الذين يصرفون كل وقتهم في التقرب إلى مولاهم، والعمل على مرضاته — وإن كان هذا العمل مطلوباً، ولكن شريطة ألا يشغل الإنسان عن تعمير الكون والضرب في فجاج الأرض واستخراج كنوزها، وتسخيرها لصالح البشرية كلها. وكل عمل يعمله الإنسان يبغي به وجه الله سبحانه وتعالى فهو عبادة يتقرب بها إلى الله.

عن أبي إسحاق رضي الله عنه قال:

دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأينا سيئة الهيئة فقلن لها:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٤.

ما لك..؟ فما في قريش أغنى من بعلك.

قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم وأما نهاره فصائم.

فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له. فلقيه فقال:

«يا عثمان بن مظعون أما لك بي أسوة»..؟

قال: إني لأفعل.

قال: لا تفعل، إن لعينيك عليك حقاً وإن لجسدك حقاً وإن لأهلك حقاً، فصلّ ونم، وصم وافطر.

قال: فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس.

فقلن لها: مه..؟

قالت: أصابنا ما أصاب الناس[1].

لقد امتثل عثمان بن مظعون لقول الرسول ﷺ — فليس في الإسلام رهبانية — وليس في الإسلام انقطاع للعبادة، ولكن الإسلام هو الدنيا والآخرة، هو للعمل والتعمير، وهو أيضاً لذكر الله وابتغاء مرضاته — وهؤلاء الذين تستغرقهم العبادة ويتركون أولادهم وزوجاتهم يقصرون في حق أنفسهم وفي حق زوجاتهم وفي حق أولادهم، وفي حق إسلامهم.

والمسلم الذي يتبع تعاليم دينه وينفذ شرع ربه لا يدع الجد والعمل يطغي على العبادة والتبتل، ولا يجعل التبتل والعبادة تستغرق كل وقته.. فالدنيا مزرعة للآخرة.. ولن تكون كذلك إلا بالعمل الجاد المثمر والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى في الأوقات الموقوتة التي حددها لعباده وبيّنها في كتابه.

وإذا كان لكل أجل كتاب.. فقد وفاه أجله رضوان الله عليه بعد غزوة بدر.

تقول أم العلاء: ان عثمان بن مظعون اشتكى عندنا فرضناه حتى إذا توفي جعلناه في أثوابه. فأتانا رسول الله ﷺ فقلت:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٥.

«هنيئاً لك أبا السائب الجنة».

فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه..؟

فقلت له: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن..؟

قال: أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وإني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي.

قالت: فمن بأبي وأمي..؟ فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً.

قالت: فأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري.

قالت: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: ذلك عمله[1].

... وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

لما توفي عثمان بن مظعون وفاة عادية ولم يستشهد — هبط من نفسي هبطة ضخمة فقلت: انظروا إلى هذا الذي كان أشدنا تخلياً من الدنيا ثم مات ولم يقتَل، فلم يزل عثمان بتلك المنزلة من نفسي، حتى توفي رسول الله ﷺ فقلت: ويك إن خيارنا يموتون.

ثم توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: ويك إن خيارنا يموتون فرجع عثمان في نفسي إلى المنزلة التي كان بها قبل ذلك[2].

وفي المدينة — كان رسول الله ﷺ يرتاد لأصحابه مقبرة يدفنون فيها — فكان قد جاء نواحي المدينة وأطرافها.. ثم قال:

أمرت بهذا الموضع — يعني البقيع.

فكان أول مَن قُبر هناك عثمان بن مظعون، فوضع رسول الله ﷺ حجراً عند رأسه وقال:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٣٩٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٩.

«هذا فرطنا».

فكان إذا مات الميت بعده قيل: يا رسول الله أين ندفنه..؟

فيقول رسول الله ﷺ: عند فرطنا عثمان بن مظعون.

ولم يمض على وفاة عثمان بن مظعون إلا فترة وجيزة حتى ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ فقال عليه السلام:

«الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون».

قال يزيد بن هارون في حديثه:

فبكت النساء فجعل عمر بن الخطاب يضربهن بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده وقال:

مهلاً يا عمر.

ثم قال: ابكين وإياكن ونعيق الشيطان.

ثم قال: إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله والرحمة. وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان[1].

صدق رسول الله ﷺ...

لا بد للعين أن تدمع على الحبيب المفارق، ولا بد للقلب أن يحزن على المهاجر الذي لا يعود.

إن الإنسان في حقيقته مجموعة من الأحاسيس والعواطف، وهو بطبيعته اجتماعي ومدني، يستريح بالالفة، ويطمئن نفساً بالجماعة.

... والموت نهاية طبيعية لكل حي.. ولكل أجل كتاب.

هذا شيء لا يستطيع أن ينكره أحد.. حتى أولئك الجاحدين الذين طمس الله على قلوبهم، فلم تهتد للحق، ولم تتعرف على نور الإيمان، حتى أولئك لا ينكرون هذه النهاية.

---

(١) المصدر السابق.

ولكن الإنسان السوي هو الذي يتألم لمفارقة الأحباب.. وتدمع عينه لعدم رؤيتهم مرة أخرى في الدنيا.

والإنسان الذي يتجمد قلبه فلا ينبض بشفقة أو حزن، وتجف عينه فلا تهطل بالدمع.. هو بالجماد أشبه، وبالشيطان أقرب.

إن المؤمنين بربهم — والمصدقين بكتبه ورسله — سيتلاقون في الآخرة في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين — ولكن ما أصعب الفراق — وما أبعد السفر — وما أقسى مرارة الهجران.

أسباب نزول الآيات

عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له في ذلك لاختص.

وعن عائشة بنت قدامة بن مظعون عن أبيها عن أخيه عثمان بن مظعون أنه قال : يا رسول الله إني رجل تشق عليَّ هذه العُزْبة في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء فاختص..؟

قال : لا ، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مَجْفَر[١] .

وروى الترمذي وغيره عن ابن عباس : أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله. إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذت شهوتي فحرمت عليَّ اللحم[٢] .

فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾[٣] .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس : أن رجالاً من الصحابة ، منهم عثمان بن مظعون حرموا النساء واللحم على أنفسهم وأخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم ، لكي تنقطع الشهوة عنهم ويتفرغوا للعبادة ، فنزلت[٤] .

---

(١) مجفر: لا يتحرك للشهوة والنساء.

(٢) صحيح الترمذي باب التفسير.

(٣) سورة المائدة آية ٨٧.

(٤) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٩٤

وقال المفسرون : جلس رسول الله ﷺ يوماً فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزدهم على التخويف فرقّ الناس وبكوا ، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان ابن مظعون وهم : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو ، وأبو ذر الغفاري ، وسالم مولى أبي حذيفة ، والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، ومعقل بن مقرن ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفراش ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا الودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض ويترهبوا ويجبوا المذاكير.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجمعهم فقال :

« ألم أنبّأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا »؟

فقالوا : بلى يا رسول الله ، وما أردنا إلا الخير.

فقال لهم : « إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وافطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، ومَن رغب عن سنتي فليس مني ».

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

« ما بال أقوام حرموا النساء والطعام ، والطيب والنوم ، وشهوات الدنيا ..؟ أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ، ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتي الصيام ، ورهبانيتها الجهاد ، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان فإنما أُهلك مَن كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع . فأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة آية ٨٧.

فقالوا : يا رسول الله ، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟ وكانوا حلفوا ما عليه اتفقوا[1] .

فأنزل الله تعالى :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾[2] .

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ١٩٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٩.

تذييل...

يتصور كثير من الناس أن العبادة في الإسلام تنحصر في أداء الصلاة والزكاة وصوم رمضان وأداء فريضة الحج وبعض النوافل والواجبات الأخرى فإذا أدى المسلم هذه الأركان، وقام بما عليه من واجبات، فقد استبرأ لعرضه ودينه.

والحقيقة أن أداء هذه العبادات من أركان الإسلام، ويخرج الإنسان منه إذا أنكر أحدها، أو تعمد عدم القيام بواحدة منها.

ولكن التصور الكامل للعبادة في الإسلام هو أكبر من ذلك وأشمل، فهذا الإنسان خليفة الله في الأرض، هبط من الجنة لتعمير هذا الكون واستمرار حركة الحياة والاحياء فيه، ومطالَب أن يبتغي بكل عمل يعمله، وبكل حرفة يؤديها وجه الله سبحانه وتعالى، فإذا فعل ذلك كان عمله هذا عبادة.

فطلاب العلم الذين يجلسون في مدرجهم، أو معملهم، أو مسجدهم يتدارسون العلم، ويحاولون عن طريق نظرياته وقواعده تعمير الكون، ودفع عجلة الحياة إلى الأمام، هم في عبادة تحفّهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة. يقول الرسول ﷺ:

«ما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتدارسون العلم ويذكرون الله إلا حفّت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

والرجل الذي يستيقظ مبكراً إلى حقله، يتعهده بالرعاية، ويسقي نباته بالماء ويغذي تربته بالسماد، هو في عبادة ومن المقربين إلى الله تعالى. يقول الرسول ﷺ:

«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له به صدقة»[2].

والذي يكدّ في مصنعه يدير آلاته، ويحرك معداته، ويستعمل إنتاجه في إسعاد البشرية وراحتها هو في عبادة — وقائم على مرضاة الله.

وقد روي أن الرسول ﷺ قبّل يداً تورمت من كثرة العمل وقال:

«هذه يد يحبها الله ورسوله».

وقس على ذلك الضرب في فجاج الأرض، والبحث في ملكوت السماء، ورصد النجوم والكواكب، واختراع الأدوية لعلاج المرضى، ورصد الأوبئة والجراثيم واختراع ما يقتلها ويريح البشرية من شرورها — إن كان يبغي به وجه الله سبحانه وتعالى فهو في عبادة.

والمرابط في سبيل الله، والواقف على حدود البلاد يحمي ثغورها ويصد المغيرين عن أرضها ويبطل كيد الغزاة لحماها هو في عبادة وتفتح له الجنة أبوابها.

يقول الرسول ﷺ:

«عينان لا تمسها النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

---

(١) صحيح الترمذي أبواب الدعوات.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحرث والمزارعة.

وإذا كان ذلك كذلك فليس في الإسلام رهبانية، وليس في الإسلام تكاسل عن العمل أو تباطؤ، وإنما هو العمل الجاد المثمر من أجل تعمير الكون وقيام الإنسان بدور الخلافة. ولا يحق لفرد من الأفراد أن يتقرب بأكثر مما فرض عليه من صلاة أو صيام — ما دام ذلك يشغله عن عمله ويباعد بينه وبين أداء الواجبات الأخرى.

ولا يحق له أيضاً أن يحلل ويحرم ويقرر هذا ويمنع ذلك، لأن ذلك من اختصاص الله سبحانه وتعالى.. لأن الله هو الذي يُحلّ الطيبات فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات التي بها صلاحه وصلاح الحياة، فإن بصره بالحياة لن يبلغ بصر الحكيم الخبير الذي أحل هذه الطيبات، ولو كان الله يعلم فيها شراً أو أذى لوقاه عباده، ولو كان يعلم في الحرمان منها خيراً ما جعلها حلالاً.

ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح والتوازن المطلق والتناسق الكامل بين طاقات الحياة البشرية جميعاً، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية، ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان تعمل عملاً سوياً ولا تخرج عن الجادة، ومن ثم حارب الرهبانية، لأنها كبت للفطرة وتعطيل للطاقة وتعويق عن إنماء الحياة التي أراد الله لها النماء، كما نهى عن تحريم الطيبات كلها لأنها من عوامل بناء الحياة ونموها وتجددها.

لقد خلق الله هذه الحياة لتنمو وتتجدد، وترتقي عن طريق النمو والتجدد المحكومين بمنهج الله.

والرهبانية وتحريم الطيبات الأخرى تصطدم مع منهج الله للحياة، لأنها تقف بها عند نقطة معينة بحجة التسامي والارتفاع. والتسامي والارتفاع داخلان في منهج الله للحياة وفق المنهج الميسر المطابق للفطرة كما يعلمها الله.

إن تعمير الكون، وتيسير عجلة الحياة مطلب أساسي من مطالب الإسلام، والرسول ﷺ كان يشارك أصحابه في كثير من الأعمال التي كانوا يقومون بها.

من ذلك مشاركته لهم في حفر الخندق حول المدينة، عندما سمع المسلمون بتحرك الأحزاب نحوهم.

عن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرَّ بطنه، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا.
ولا تصدقنا ولا صلينا.
فانزلن سكينة علينا.
وثبت الأقدام إن لاقينا.
إن الألى قد بغوا علينا.
إن أرادوا فتنة أبينا.

وعن أنس رضي الله عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا على الإسلام ما بقينا أبدا

وكان النبي ﷺ يجيبهم:
إنه لا خير إلا خير الآخره.
فبارك الأنصار والمهاجره.

وعن أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي أسبقهم على فرس.

وقال: وجدناه بحراً (أي واسع الجري).

وهناك شيء يلفت النظر في حياة عثمان بن مظعون، من ذلك أن مظاهر تحريمه الطيبات، وأخذ نفسه بالشدة في الدين، وما يتبع ذلك من صيام نهاره وقيام ليله، قد انعكس أثره على زوجته فانصرفت عن الطيبات وابتعدت عن زينة الدنيا، وأهملت ما يطلبه الرجل من زوجته من التطيب والتجمل، والظهور بالمظهر

الحسن ، والتأنق في اللباس ، حتى تسرّ عين الزوج ويفرح قلبه . ويكون هذا مدعاة لإقباله عليها والاقتراب منها.

نقول : حدث هذا مع زوجة عثمان بن مظعون رضي الله عنه مما لفت نظر زوجات الرسول ﷺ ، فأقبلن عليها يسألنها ويتزلن باللائمة عليها من جراء هذا الإهمال الشديد الذي رأينه عليها في مظهرها وملبسها.

وكان يمكن لهذه الزوجة ، أن تتعلل بعلل كثيرة ، من انشغالها بأعمال المنزل ، ومراعاة الأطفال ، وغير ذلك.. ولكنها وهي المؤمنة الصابرة ألقت أمامهن بالحقيقة وعبرت عما جعلها تهمل زينتها وتترك نفسها بلا رعاية ، فقالت :

«لمن أتزين..؟ وعثمان يصوم النهار ويقوم الليل»؟..

نعم ، لمن يكون التزين إن لم يكن للزوج؟..

وهذا الزوج في شغل شاغل لا يلتفت اليها ولا يهتم بها وقد استغرقت عبادته كل وقته ؟..

وما فعله عثمان من استغراقه في جانب واحد من جوانب الحياة ، ينطبق اليوم على كثير من الأفراد في عصرنا الراهن ، عصر السرعة والانكباب على الحياة المادية والتسابق على جمع المال وكنزه . ويتركون زوجاتهم للإهمال.. ويعتقدون أنهم ما داموا يقدمون لهن المأكل والملبس وبعض لوازم الحياة ، فقد أدوا ما عليهم من واجبات وما في أعناقهم من حقوق إزاء الزوجات.

وهذا الإهمال والانشغال عن الزوجة ، له عواقب وخيمة متعددة ، منها أن تعيش الزوجة لنفسها أو تبحث عن رجل آخر يملأ حياتها ، وهذا ميسر الآن في عصر الاختلاط وضياع القيَم.

وإما أن تهمل نفسها وتتجاهل كيانها وتقبع في بيتها كقطعة من الأثاث لا روح فيها ولا حياة ، وبذلك يفقد البيت المسلم رونقه وجماله.

فمتى يفهم الأزواج ، رجال الأعمال ومَن شغلتهم الحياة ، هذه الحقيقة حتى يعود للعش الآمن سعادته وأفراحه ، وتتجمل كل زوجة لزوجها لا للآخرين ، ونقرأ في عيونها العفة ، وينطق لسانها بكلمة زوجة عثمان بن مظعون عندما أقبل عليها زوجها :

«أصابنا ما أصاب الناس».

أنس بن النضر

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الأحزاب الآية رقم ٢٣]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين: نزلت هذه الآية في: أنس بن النضر رضي الله عنه.

قاله صاحب الدر المنثور ٥/ ١٨١.

وقاله الإمام البغوي والخازن بهامشه ٥/ ٢٠٤.

وذكره ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٧٥.

وذكره القرطبي في تفسيره ١٤/ ١٥٩.

وذكره الطبري في تفسيره ٢١/ ٩٣.

وذكره الترمذي في مسنده ١٢/ ٨٠ — ٨٢.

فمن هو أنس بن النضر؟..

أنَس بن النّضر

رضي الله عنه

عملاق من الرجال الأفذاذ.

وشهيد نال الشهادة وهو على صهوة فرسه.

ومؤمن صدق ما عاهد الله عليه.

ومسلم استقر الإيمان في قلبه.. فشاع على ما حوله نوراً وضياء ومعرفة..

ذلكم هو أنس بن النضر بن ضمضم بن عدي بن النجار الأنصاري.

من الأنصار الذين سمعوا بدعوة محمد ﷺ فركبوا المطايا وقطعوا الفيافي والقفار حتى وصلوا إليه.

وعندما جمعهم مع رسول الله ﷺ مكان، قالوا: يا محمد تكلم، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الاسلام.

ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

«نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر».

فاعترض القول أبو الهيثم بن التَّيهان فقال :

يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالاً وإنّا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .. ؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال :

« بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب مَن حاربتم وأسالم مَن سالمتم »(١) .

وإذا كان هذا هو حال الأنصار في بدء الدعوة الوليدة ، فإن أنس بن النضر يعتبر من خلاصة هؤلاء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ :

« فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »(٢) .

وأخت أنس : الربيع بنت النضر الأنصارية أم حارثة بن سُراقة المستشهد بين يدَي رسول الله ﷺ .

ومن حديثها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله أخبرني عن حارثة ، فإن كان من أهل الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك فسترى ما أصنع .

فقال : يا أم حارثة :

« إنها جنان كثيرة ، وإن حارثة منها في الفردوس الأعلى »(٣) .

وابن أخيه أنس بن مالك — رضي الله عنه — والذي دعا له رسول الله ﷺ فقال :

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٩٩ . والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٧٦ .

(٢) ابن هشام جـ ٤ ص ١٤٨ ورواه أحمد في مسنده وابن كثير في البداية والنهاية جـ ٤ ص ٤٠١ .

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ١٨٣٨ .

«اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له».

قال أنس: «فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً»..

أسلم عندما شاع الإسلام في يثرب، وعندما هاجر الرسول ﷺ كان أنس من الرجال الذين أحاطوا برسول الله، يستمع إليه ويقتدي بهديه.

حتى جاءت غزوة بدر، تلك الغزوة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً على عصابة الشرك والكفر، وامتن الله فيها على المؤمنين بجند من عنده. قال تعالى:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلّا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم﴾(1).

نقول: جاءت غزوة بدر فغاب عنها أنس ولم يحضرها ــ وتألم لذلك ألماً كثيراً.

أيغيب عن أول واقعة تكون في الإسلام مع هؤلاء العصابة التي خرجت من قريش بغياً وعدواناً؟.. إن هذا أمر لا يحتمل.. ولكنه بعد فترة أخذ يعزي نفسه بما يأتي من الصدام والحروب مع هؤلاء الناس.

واستراح لهذه النتيجة، ثم تقدم لرسول الله ﷺ وقال:

«يا رسول الله، غبتُ عن قتال بدر ــ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»(2).

وسارت الأيام بطيئة ثقيلة بالنسبة لأنس ــ إنه يريد معركة ــ إما أن يحظى فيها بالشهادة.. أو أن ينتصر فيها المسلمون.. بعون الله ثم عزيمة الرجال.

---

(1) سورة آل عمران الآيات من ١٢٣ إلى ١٢٦.

(2) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ١ ص ١٠٨.

ولم يمض كبير وقت حتى فكرت قريش أن تأخذ بثأرها من محمد وصحابته.

وسمع رسول الله ﷺ بزحف قريش على المدينة، فجمع المسلمين ثم قال:

«إني رأيت بقراً فأولتها خيراً، ورأيت في ذُباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها»(1).

فقال رجال من المسلمين ممن أُكرم بالشهادة يوم أُحد، منهم أنس بن النضر، وغيره ممن كان فاته بدر:

«يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم وضعفنا».

فقال عبد الله بن أبي بن سلول:

«يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها — يعني المدينة — إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلّا أصبنا منه. فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا»(2).

ولكن هذا القول الذي قاله عبد الله بن أُبي لم يوافق عليه حمزة بن أبي طالب ولم يقبله أنس بن النضر.

وثار في وجه عبد الله بن أُبي عبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير وغيرهم.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك — دخل فلبس لامته وخرج والناس معه إلى القتال.

حتى إذا وصلوا إلى مكان المعركة قال رسول الله ﷺ:

«مَن يأخذ هذا السيف بحقه»؟..

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٧.

(2) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٥٠.

فقام إليه رجال فأمسكه عليهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خَرَشة أخو بني ساعدة، فقال :

وما حقه يا رسول الله؟..

قال : «أن تضرب به العدو حتى ينحني».

قال : «أنا آخذه يا رسول الله بحقه». فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب. فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، ثم جعل يتبختر بين الصفوف.

فقال رسول الله ﷺ :

«إنها لمشية يبغضها الله إلّا في هذا الموطن»[١].

ثم أخذ أبو دجانة يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي
ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول
أضرب بسيف الله والرسول

وجعل لا يلقى أحداً إلا قتله.. وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً من جرحى المسلمين إلا أجهز عليه.

قال الزبير بن العوام : فدعوت الله أن يجمع بين أبي دجانة وهذا الرجل. وما هي إلا لحظات حتى التقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت سيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٢ ورواه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه وابن كثير في البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٨.

يقول أبو دجانة : رأيت إنساناً يثير حمية الناس فصمدت له .. فلما حملت عليه السيف رفع الصوت وقال : يا ويلاه .. فإذا امرأة ، فأكرمتُ سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة(١) .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل ، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي — وهو يظن أنه رسول الله ﷺ .

وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس ابن طلحة كلاهما يشعره سهماً فيأتي أمه سُلافة فيضع رأسه في حجرها ، فتقول : يا بني مَن أصابك ؟ ..

فيقول : سمعت رجلاً — حين رماني — وهو يقول : خذها وأنا ابن أبي الأقلح .

فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر(٢) .

واقتتل الناس قتالاً شديداً وأمعن في التقدم حمزة وعليّ وأبو دُجانة في رجال المسلمين ، وأنزل الله نصره عليهم .. وكانت هزيمة المشركين كبيرة ، وهرب نساؤهم مصعّدات في الجبل ، ودخل المسلمون عسكرهم ينهبون ، فلما نظر بعض الرماة إلى العسكر حين انكشف الكفار عنه أقبلوا يريدون النهب ، وثبت طائفة وقالوا : « نطيع رسول الله ونثبت مكاننا » فأنزل الله تعالى :

﴿ منكم مَن يريد الدنيا ومنكم مَن يريد الآخرة ﴾(٣) .

فلما فارق بعض الرماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قلة مَن بقي من الرماة فحمل عليهم فقتلهم وحمل على أصحاب النبي ﷺ ، ولما رأى المشركون خيلهم تقاتل شدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم .

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٥٢ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ١٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

وانتهى أنس بن النضر إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم.

فقال: ما يحبسكم..؟

قالوا: قد قتل النبي ﷺ.

قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟.. موتوا على ما مات عليه.

وقيل: إن أنس بن النضر سمع نفراً من المسلمين يقولون، لما سمعوا أن النبي ﷺ قتل: ليت لنا مَن يأتي بعبد الله بن أُبي ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا.

فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يُقتَل.

ويقول أنس بن مالك عن عمه أنس بن النضر، يوم انكشف الناس في أُحد، قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء — يعني المشركين — وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني المسلمين».

ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد، واهاً لريح الجنة.

قال سعد: فما عرفت يا رسول الله ما أصنع؟..

قال أنس: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة، من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قد مثلوا به.

قال: فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه[1].

قال أنس: فكنا نقول لما أُنزلت هذه الآية: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[2].

إنها فيه وفي أصحابه.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٢١.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

أسباب نزول الآيات

عن أنس رضي الله عنه قال:

غاب عمي أنس بن النضر — وبه سميت أنساً — عن قتال بدر، فشق عليه لما قدم وقال:

«غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالاً ليرين الله ما أصنع».

فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال:

«اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني المسلمين».

ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فقاتلهم حتى قُتل.

قال أنس: فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة، من بين ضربة بسيف وطعنة برمح، ورمية بسهم، وقد مثلوا به، فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه، ونزلت هذه الآية:

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه».

قال فكنا نقول: أنزلت هذه الآية فيه وفي أصحابه[1].

---

(١) صحيح مسلم ٨٦/ ٤٤ — ٤٥.

وعن ثمامة عن أنس بن مالك قال :

نزلت هذه الآية في أنس بن النضر : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾[1] .

وعن أنس بن مالك : أن عمه غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين.. لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ليرين الله كيف أصنع . فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاءوا به هؤلاء — يعني المشركين — وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعني الصحابة . ثم تقدم فلقيه سعد فقال : يا أخي ما فعلت أنا معك فلم أستطع أن أصنع ما صنع فوجد فيه بضعاً وثمانين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم فكنا نقول فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿ فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر ﴾[2] .

قال يزيد : يعني الآية. هذا حديث حسن صحيح. واسم عمه أنس بن النضر[3] .

---

(١) صحيح البخاري ٦ / ١١٦ ورواه مسلم عن محمد بن حاتم ، ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن المبارك ، وزاد النسائي وأبو داود وحماد بن سلمة ، وقال الترمذي : حسن صحيح. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٦ والآية من سورة الأحزاب رقم ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

(٣) الترمذي باب التفسير سورة الأحزاب.

تذييل...

قال تعالى:

﴿والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صبحاً، فأثرن به نقعاً، فوسطن به جمعاً﴾[1].

أقسم الله سبحانه وتعالى بالخيل وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار، لأنها عدة المحارب، وحصن المقاتل، وخيلاء المنتصر.

وأكد ذلك بقوله تعالى:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[2].

فالأمة التي تعرف صهوات الخيل لن تعرف طعم الهزيمة.

والشعب الذي ينفض غبار الكرى في الأسحار يجيد فن الانقضاض على الأعداء.

يصف ابن عباس رضي الله عنه «استراتيجية» المعارك عند أتباع محمد ﷺ فيقول:

---

(١) سورة العاديات الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠.

«كانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلاً ويأتون العدو صبحاً لأن ذلك وقت غفلة الناس».

ويصف الله سبحانه وتعالى ما حل بهؤلاء الكسالى بقوله :

﴿فساء صباح المنذرين﴾[1].

ساء صباحهم لأنهم لم يتمذهبوا بمذهب الرجال ، ولم يتأدبوا بأدب القرآن ، ولم يتخرجوا في مدرسة النبوة.

أما أتباع محمد ﷺ فيقول أحدهم وهو خالد بن الوليد — رضي الله عنه — في أخريات عمره :

«ما ليلة يهدى إليَّ فيها عروس ، أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام أحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد»[2].

ومن هنا وصفهم ربهم بقوله تعالى :

﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾[3].

إنهم في رباط دائم وصحوة مستمرة.

في رباط مع ربهم لا يغفلون عنه لحظة ، ولا ينشغلون عن أوامره خطرة ، وفي صحوة مستمرة مع أنفسهم.

في صحوة ضد أعداء الدين ، أعداء الوطن.. سمعوا نداء ربهم :

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟.. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

(١) سورة الصافات الآية رقم ١٧٧.

(٢) عبقرية خالد : عباس العقاد.

(٣) سورة الذاريات الآية ١٧.

في جنات عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (1).

سمعوا ذلك النداء فلبوا صوته وآمنوا أن هذا طريق النصر وتلك هي شروطه :

إيمان عميق بالله ورسوله.

وجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

والإيمان العميق لن يأتي إلا عن طريق العقيدة، العقيدة التي حملها أتباع محمد ﷺ، فانفتحت أمامهم الدنيا وانداحوا في أربعة أركان الأرض حتى كأن الأرض كانت تطوى تحت أقدامهم كما يقول بعض المؤرخين.

لقد انتصر الصهاينة في معركتين، وكان النصر يرتكز أولاً وأخيراً على التمسك بعقيدتهم التي تمثلها الديانة اليهودية.

وفي الجيش الاسرائيلي «حاخامات» على رأسهم حاخام الجيش الأكبر وهم يتمتعون بسلطة لا مثيل لها ولا نظير في الجيوش الأخرى.

في جيش إسرائيل تجري مسابقات سنوية في التوراة يكرم فيها المتفوقون أعظم التكريم وينالون أكبر الجوائز.

كما أن في الجيش ضباطاً وضباط صف ومراتب أخرى يقيمون الشعائر الدينية عند حائط المبكي، وأفراد قوات المظلات الإسرائيلية تؤدي يمين الولاء أمام هذا الحائط.. يحملون البندقية بيد، والتوراة في اليد الأخرى.

وحين هرَّب الصهاينة ستة زوارق حربية من ميناء «شربورغ» ووصلت سالمة إلى ميناء حيفا.

قال «ديان» وزير الحربية في ذلك الوقت:

«إن الزوارق الستة أبحرت دون أسلحة، ودون حراسة واستطاعت الترود

(1) سورة الصف الآيات ١٠ — ١٣.

بالوقود في البحر. ذلك لأنها لم تكن مزودة بأربعة محركات فحسب، بل وأيضاً بنعمة إلهية وبروح علوية».

وكلمته هذه تشير إلى ما ذكره الكتاب المقدس عندهم:

«كانت الفوضى تعم الأرض وروح الله تشمل الماء».

والعقيدة كما هو معروف لا تحارب إلا بعقيدة، والفكرة لا تقاوم إلا بفكرة.

من هنا تبرز أهمية القيادة الدينية للمحاربين من العرب والمسلمين.

إن الحرب كريهة وبشعة وهذا حق.

والحرب تأكل الرجال وتقضي على الشيوخ والأطفال، ومن هنا كانت كراهية الحرب وكراهية احتدام القتال[1].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[2].

ونتساءل: ما الدافع أو الحافز الذي يدفع الشباب إلى إلقاء نفوسهم في أتون المعركة؟..

كما فعل أتباع محمد ﷺ من أمثال:

الشهيد مصعب بن عمير.

والشهيد جعفر بن أبي طالب.

والشهيد حمزة بن عبد المطلب.

والشهيد أسامة بن زيد.

والشهيد صهيب الرومي.

---

(١) راجع كتاب: هذا هو الطريق (للمؤلف).

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦.

والشهيد أنس بن النضر.

وما المقابل الذي يجعل الرجل يضحي بحصيلة عمره وثمرة حياته، بل وبكل ما يملك؟..

كما فعل أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — الذي ضحى بكل ما يملك في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين.

وعندما سأله رسول الله ﷺ:

ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟..

فقال الرجل الذي تربى في مدرسة الإسلام:

«تركت لهم الله ورسوله».

وكما فعل عثمان بن عفان — رضي الله عنه — الذي جهز جيش العسرة المسافر لنشر دين الله ورفع كلمة الله، واشترى بئر رومة للمسلمين.

وقال ﷺ:

«ما ضر عثمان ما فعل بعد»(١).

وكما فعل عبد الرحمن بن عوف، وخديجة بنت خويلد، وغيرهم الكثير.

نعم، ما الدافع، وما المقابل؟

إن الدنيا وما فيها لا تساوي نفساً واحداً يفقده الإنسان ويحول بينه وبين لحظة من الحياة.

فالذي يوازن الحياة ويكافئها لا نظير له في عالم الوجود.

وإذا كان ذلك كذلك فهل هو موجود؟..

وأين يوجد؟..

إنه موجود ولا سبيل إلى إنكاره، لأنه الجانب الآخر من شقّي الحياة...

---

(١) رواه الترمذي في مناقب عثمان رضي الله عنه.

إنه الوجود الأخروي.. كما أخبرت به العقيدة وبشرت به الرسل.
إنه الجنة...
هذا هو الشيء الذي يعادل الحياة. ولذلك قال تعالى:
﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[1].
إلى قوله:
﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾[2].

(١) و(٢) سورة التوبة الآية ١١١.

عَيّاش بن أبي ربيعة

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ
مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

صدق الله العظيم

[سورة الزمر الآية ٥٣ - ٥٤]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين: نزلت هذه الآيات في: عياش بن أبي ربيعة.

قال ذلك صاحب تفسير الطبري ٢٤/ ١١.

والإمام البغوي في تفسيره ٦/ ٦٦ — ٦٧.

وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن في كتابه ص ٣٨٩.

فمن هو عياش بن أبي ربيعة؟..

عيّاش بن أبي ربيعة

رضي الله عنه

... يسمى عياش بن أبي ربيعة.

من قبيلة بني مخزوم، إحدى القبائل التي كانت لها أعنة الخيل في قريش وعرف رجالها بالقوة والجلد في رحاب الحرب، وبالخفة والانطلاق على صهوات الخيل، فهم قوم محاربون.

ومن أجل ذلك.. كان أطفالهم يتدربون من الصغر على استعمال الأسلحة وإصابة الهدف وترويض الخيل، واقتحام المخاطر. فإن ثبت الطفل لهذا التدريب العنيف فهو فارس مغوار يضاف إلى قائمة الرجال الذين يُعمَل لهم حساب في الكر والفر، وخوض المعارك.

يكنى عياش أبا عبد الله.

أخوه أبو جهل بن هشام لأمه، أبو جهل قاهر المستضعفين، وعدو المؤمنين بمكة، وفرعون هذه الأمة — كما قال رسول الله ﷺ — وراضخ جسم بلال بالحجارة والسياط والناهي لرسول الله ﷺ عن الصلاة في الكعبة، وأحد المستهزئين بالدعوة وصاحبها، والمتآمرين على قتله في دار الندوة[1].

(١) رجال أنزل الله فيهم قرآناً جـ ٤ ص ٧٨.

.. سمع عياش بدعوة الإسلام فأسلم مبكراً.

أسلم قبل دخول الرسول عليه السلام إلى دار الأرقم.

وكان بخلاف أخيه أبي جهل يدعو إلى الاسلام، ويستمع إلى القرآن ويقدم ماله في سبيل الله.

ولما رأى قريشاً لا تكفّ عن إيذاء المسلمين، استجاب لدعوة الرسول ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة.

هاجر مع بقية المؤمنين الذين ملأ الإيمان قلوبهم.. فصغرت عندهم الدنيا وهانت في سبيل الله نفوسهم.

وكانت معه في هجرته إلى الحبشة زوجه أسماء بنت سلمة التي تكنى أم الجلاس، وروت عن النبي ﷺ.

وفوق تلك الأراضي البعيدة ولدت أسماء عبدالله بن عياش.

وروى عن النبي ﷺ قال:

دخل رسول الله ﷺ بعض بيوت آل ابي ربيعة، إما لعيادة مريض أو لغير ذلك. فقالت له أسماء بنت مخربة: يا رسول الله ألا توصيني؟..

فقال رسول الله ﷺ:

«يا أم الجلاس، اتي إلى أختك ما تحبين أن تأتي إليك»(١).

ثم أتى رسول الله بصبي من ولد عياش فذكرت أم الجلاس لرسول الله ﷺ مرضاً بالصبي، فأخذه رسول الله وجعل يرقيه، ويتفل عليه.

.. وعاد عياش إلى مكة بعد أن أعلنت قريش مصالحتها لمحمد وأصحابه.

وبقي في مكة بجوار الرسول ﷺ حتى أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٩٦١.

فخرج عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة حتى قدما المدينة.

يقول عمر رضي الله عنه: لما عزمنا على الهجرة اتفقت وعياش بن أبي ربيعة وهشام ابن العاص على الهجرة سوياً. وحددنا ميعاداً لذلك... وقلنا نلتقي في الصباح عند غدير بني غفار، وأينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه.

قال: وفي الصباح التقيت وعياشاً وحبس عنها هشام وفتن فافتتن. وسارت بنا المطي حتى دخلنا إلى يثرب. فلما وصلنا نزلنا في دار بني عمرو بن عوف بقباء.

وأحست قريش بفرار عياش بن أبي ربيعة.. وأخذت العيون تتسلط على أبي جهل، رئيس عصابة الكفر.

أيدعي أنه عدو المؤمنين وقاهر المستضعفين، وأقرب الناس إليه يتابع محمداً فيما جاء به، ويفر إلى يثرب؟..

وأخذت الكلمات تنوشه من كل جانب.. إن كان ولا بد أن يقف أبو جهل في وجوه الذين يتابعون محمداً فليقف في وجه أخيه أولاً.

ولم يستطع ابو جهل أن يتحمل أكثر من ذلك. عندها صمم على الذهاب إلى المدينة. وفي جنح الظلام كانت مطية أبي جهل وأخيه الحرث بن هشام تسابق الريح وثباً في اتجاه المدينة.

والتقى الإخوة الثلاثة. وقال أبو جهل:

«يا عياش.. لماذا فعلت ذلك؟.. وخرجت من مكة خلسة؟.. أكنت تخاف أحداً؟.. ومَن هذا الذي يستطيع أن ينال منك؟..

لقد أتينا خلفك لأن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مُشط حتى تراك.. ولا تستظل من شمس حتى تشاهدك».

فرقّ لذلك.. وأثّر في قلبه ما عزمت عليه أمه.

فاستشار عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — رفيقه في الرحلة عماذا يفعل؟..

فقال عمر: يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال عياش: أبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال آخذه.

قال عمر: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

.. فأبى عياش ذلك وقرر أن يخرج معهما[1].

.. ولم يجد ابن الخطاب من وسيلة لمنع عياش من الذهاب إلى مكة، عندها قال له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها. فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

وخرج معهما عائدين إلى مكة.

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل:

والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟..

قال: بلى.

فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

.. واستطاع أبو جهل أن ينجح في سفارته.

وحرص على ألا يدخل مكة إلا في وضح النهار موثقاً أخاه ثم قال: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

.. وعلم عمر بما حدث لصاحبه فكان يقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة. قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام — هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه — للمدينة.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم :

﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[١] .

قال عمر رضي الله عنه :

فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة .

فقال هشام : فلما أتتني جعلت أقرأُها بذي طوى أصعد بها وأصوب ولا أفهمها . حتى قلت : اللهم فهمنيها.

قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أُنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا .

حتى كان يوم والرسول ﷺ بين أصحابه في المدينة. قال :

مَن لي بعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص؟..

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما.

فخرج إلى مكة فقدمها مستخفياً. وبقي فترة يبحث عن مكانهما.. حتى كان يوم التقى فيه بامرأة تحمل طعاماً. فقال لها : أين تريدين يا أمة الله؟..

قالت : أريد هذين المحبوسين — تعني عياشاً وهشاماً — فتبعها حتى عرف موضعها. وكانا محبوسين في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسوّر عليهما ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه ، فقطعها.

ثم حملهما على بعيره وساق بهما حتى قدم بهما على رسول الله ﷺ[٢] .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣ — ٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٧.

جاء عياش وهشام إلى مقر الإيمان.

وفي المدينة انضما إلى قافلة المجاهدين.

وعما قريب ستلتقي تلك الوجوه المؤمنة المضيئة بوجوه كالحة قبيحة.. لن يلتقوا لقاءً عادياً، وإنما سيكون لقاؤهما.. تحت أسنَّة الرماح.. وتحت ضربات السيوف، وسيلقى أبو جهل في أول لقاء من تلك اللقاءات جزاء ما فعله مع الصابرين المؤمنين.

وفعلاً ما كادت تأتي بدر، بدر الكبرى، حتى جُندل أبو جهل وأمية بن خلف ومجموعة أخرى من هؤلاء الصناديد الذين فعلوا بالمؤمنين الأفاعيل وأخرجوهم من ديارهم وسلبوا أموالهم ومنازلهم.

.. ثم ماذا؟..

لم تمض إلا لحظات قصار في عمر الزمن.. حتى كانت تلك الفئات المؤمنة تتبع رسول الله ﷺ في سيره نحو مكة.

إنهم في شوق إلى تلك الديار التي شهدت أيام صباهم وشبابهم.. وهم في حنين طاغ إلى منابع مياهها، وخضرة سهولها، وقمم جبالها.

إنهم يحنون إلى بيت الله الحرام.. أول بيت وضع للناس.

فهل تسمح لهم قريش بذلك؟.

لقد جاءوا يسوقون الهدي.. وجردوا أنفسهم من كل سلاح وعتاد. وكل ما يريدونه أن يدخلوا البيت الحرام ويطوفوا بالكعبة معتمرين قانتين.

ولكن قريشاً ركبت رأسها.. وقررت ألا تسمح لأتباع محمد بالدخول إلى مكة في عامهم هذا.

وإزاء ذلك أرسل الرسول ﷺ عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ ليُعلم قريش بأنهم جاءوا معتمرين.

ولم تستجب قريش لذلك وحبست الرسول الذي أُرسل اليها.. وشاع بين المسلمين أن قريشاً قد قتلته.

عندها قال الرسول عليه السلام:

«لا نبرح حتى نناجز القوم»[1].

ودعا إلى البيعة — فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.

بايعهم رسول الله ﷺ على الموت.

ولكن لم يحدث قتال.. ولم تنشب الحرب. وتم الصلح بين رسول الله وقريش. ونزل قول الله تعالى:

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه وكفَّ أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾[2].

ودخل عياش بن أبي ربيعة في الفئة التي أنزل الله السكينة عليهم، وسارت به الحياة طيبة راضية، هنيئة سهلة.

إن كان قتال فهو على أعنة الخيل، يحمل سيفه ويتقدم الصفوف، ويدعو للقتال والطعان، ويعود في آخر المعركة، مخضب السيف، مثخناً بالجراح، ولكنه لم ينل الشهادة التي هي طلبته التي يطلبها من ربه وغايته التي يتمنى أن يختم بها حياته؟..

لقد ساهم في غزوة حُنين.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٨٩.

(٢) سورة الفتح آية ١٨ — ٢١.

وقاتل في جيوش المسلمين في حروب الردة.

وحمل زاده وسلاحه لينشر دين الله على أرض فارس.

وانتقل مع خالد بن الوليد رضي الله عنه على مشارف الروم يحطم القلاع ويجالد الأبطال ويترقب نصر الله.

حتى كانت معركة اليرموك التي خرجت الروم فيها في تعبة لم يرَ الراؤون مثلها قط، حتى قال عياش بن أبي ربيعة لخالد:

«ما أكثر الروم وأقل المسلمين»!..

فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان [1].

ثم أمره خالد ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو بإنشاب القتال.

والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا.

وبينما هم على ذلك قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتأميره أبي عبيدة.

وبينما الجيش على أهبة خوض معركة أخرى إذ برز من صفوف الروم أحد القواد ويسمى (جرجة). وطلب خالداً فخرج إليه وأمَّن كل منهما صاحبه.

فقال جرجة:

يا خالد أصدقني ولا تكذبني
فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني
فإن الكريم لا يخادع المسترسل
هل أنزل الله على نبيكم سيفاً
من السماء فأعطاكه فلا تسله
على قوم إلا هزمتهم؟..

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٤١٢.

قال خالد: لا.

قال: ففيمَ سُميت سيف الله؟..

فقال له: إن الله بعث فينا نبيه ﷺ، فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم إن الله هداني فتابعته.

فقال: أنت سيف الله سله الله على المشركين ودعا لي بالنصر.

قال: فأخبرني إلى ما تدعوني؟..

قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب.

قال: فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم؟..

قال: منزلتنا واحدة.

قال: فهل له مثلكم من الأجر والذخر؟..

قال: نعم وأفضل لأننا اتبعنا نبينا وهو حي، يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات، وحقٌّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم، وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا، فمن دخل بنية وصدق كان أفضل منا.

فقلب جرجة ترسه ومال مع خالد وأسلم، وعلَّمه الإسلام واغتسل وصلّى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم[1].

وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبي جهل وعمه الحارث بن هشام فقال عكرمة:

قاتلت مع النبي ﷺ في كل موطن ثم أفر اليوم. ثم نادى: مَن يبايع على الموت؟..

فبايعه عياش بن أبي ربيعة، والحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٤١٢ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ١٤.

وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وقاتل خالد ومعه (جرجة) حتى قُتل (جرجة) وانهزمت الروم وفروا هاربين.. وتحقق النصر.. نصر الله للمؤمنين.

وكانت هذه آخر القلاع والقوة الضاربة التي كانت تقف في وجه المسلمين بأرض الشام.

ونتساءل: أين عياش بن أبي ربيعة؟..

هل تناوشته السيوف ونالت منه الرماح؟..

حتى قُتل في المعركة.. وتحقق ما كان يرجوه ويطلبه من طلبه الشهادة من ربه؟..

إن بعض المراجع لا تضيفه إلى قائمة الشهداء في معركة اليرموك.. وتذكر أنه كان ضمن مَن أثختهم الجراح.

وعلى رأس القائلين بذلك والمؤيدين له ابن الأثير فيذكر أن المصابين في هذه المعركة هم:

عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو.

وسلمة بن هشام، وعمر بن سعيد.

وجندب بن عمر، والطفيل بن عمرو.

وهشام بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة[1].

ويذكر محمد بن سعد: أن الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وعياش بن أبي ربيعة قُتلوا يوم اليرموك.

وقال أبو جعفر الطبري: مات عياش بن أبي ربيعة بمكة.

ونحن نؤيد ما ذهب إليه الطبري من أن عيّاش أثخنته الجراح في معركة اليرموك ـــ فعاد إلى مكة ومات بها. رحمه الله.

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٤١٤.

ومما رواه عياش عن رسول الله ﷺ قوله :

«ولا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها — يعني الكعبة والحرم ، فإذا ضيعوها هلكوا»[1] .

صدق رسول الله — وغفر لعياش بمقدار ما قدَّم من خير للإسلام والمسلمين.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٢٣٣.

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس : نزلت في أهل مكة ، قالوا : يزعم محمد أن مَن عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله — لم يغفر له .

فكيف نهاجر ونسلم ، وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر ، وقتلنا النفس التي حرم الله ؟ . .

فأنزل الله تعالى هذه الآية :

وقال ابن عمر : نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا وفتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صَرفاً ولا عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عُذبوا به فنزلت هذه الآيات .

وكان عمر كاتباً فكتبها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ، وأولئك النفر ، فأسلموا وهاجروا :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزَنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن ما عملناه كفارة فنزلت هذه الآية[1] .

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ١٢٥ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٧.

وقال محمد بن إسحاق ، قال حدثنا نافع عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنه أنه قال :

« لما اجتمعنا إلى الهجرة اتعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل. فقلنا الميعاد بيننا المناصف — ميقات بني غفار — فمن حبس منكم لم يأتها فقد حبس فليمض صاحبه. فأصبحت عندها أنا وعياش وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

فقدمنا المدينة فقلنا : ما الله بقابل من هؤلاء توبة ، قوم عرفوا الله ورسوله ثم رجعوا عن ذلك البلاء أصابهم من الدنيا فأنزل الله تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[1] إلى قوله : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾[2].

قال عمر : فكتبتها بيدي ثم بعثت بها إلى هشام.

قال هشام : فلما قدمت عليَّ خرجت بها إلى ذي طوى. فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها أُنزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ[3].

(١) سورة الزمر آية ٥٣.

(٢) سورة الزمر آية ٦٠.

(٣) راجع أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ٣٨٩.

تذييل...

عياش بن أبي ربيعة.

وأبو جندل بن سهيل بن عمرو.

وأبو بصير عتبة بن أسيد. وغيرهم كثير من شباب مكة الذين آمنوا وصدقوا بدعوة الرسول ﷺ، ولكن قريشاً وقفت لهم بالمرصاد، وحالت بينهم وبين عبادة ربهم، والفرار بدينهم إلى يثرب.

أما عياش فقد عرفنا كيف هاجر إلى يثرب ثم احتال عليه أخوه أبو جهل حتى رده مرة أخرى إلى مكة يرسف في قيده وقال لأهل مكة المجتمعين في دار الندوة: هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

وأما أبو جندل.. فقد حبسته قريش أيضاً حتى إذا كان صلح الحديبية انفلت إلى رسول الله ﷺ في صلح الحديبية فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ثم قال:

«يا محمد قد انعقدت القضية وانتهى أمرها بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.. وكان من بنود الصلح: أن من جاء محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

فقال الرسول ﷺ: صدقت.

ثم قال لأبي جندل : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم».

وأما أبو بصير:

فهو أيضاً رجل من رجالات قريش الذين تفتحت قلوبهم للدعوة الجديدة ــ بعد هجرة الرسول ــ ﷺ ، وعندما فكر في الهجرة حالت قريش بينه وبين ذلك ولكنه لم ييأس.

وفي غفلة من عيون قريش اعتلى ظهر ناقته وترك لها العنان تسابق الريح وتطوي الصحراء إلى يثرب لينضم إلى جماعة المسلمين، ويصير جندياً من جنود الله يدافع عن دينه ويجندل الذين يقفون في طريقه.

وما كاد يصل إلى يثرب ويلتقي بصحابة رسول الله ﷺ ويحس بينهم ببعض الأمان والراحة حتى كانت قريش قد أوفدت رسولين إلى رسول الله ﷺ ليرد لها أبا بصير، تنفيذاً للعهد الذي كان بينهم في صلح الحديبية. عندها قال الرسول ﷺ : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك».

قال: يا رسول الله.. أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟..

قال الرسول ﷺ : يا أبا بصير انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.

واستجاب أبو بصير لما أمره رسول الله ﷺ وانطلق مع الرسولين إلى مكة.

وفي الطريق قرر ابو بصير أمراً. إن قريشاً صاحبة حيلة ومكر، وأخذت هذه الشروط من الرسول ﷺ عن طريق القسر والاضطرار. هذه واحدة.

والثانية: لا بد من تحرير المستضعفين الذين آمنوا بدعوة محمد ﷺ من طغيان قريش.

إذن لن يعود إلى مكة وعليه أن يهب نفسه للجهاد في سبيل الله.. ويل قريش ممن استقر الإيمان في قلبه، واستضاءت روحه بنور الإيمان.

وعندما وصل إلى وادي ذي الحليفة نزل وحارساه ليتناولوا طعامهم.. وفي أثناء الطعام تعرف على قوة صاحبيه... حتى إذا انتهوا من الطعام نزل بالسيف على أحد الرجلين فقتله، وفر الآخر — حتى أتى رسول الله ﷺ وقال له: قُتل والله صاحبي، وإني لمقتول.

وبعد لحظات دخل أبو بصير على رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله قد والله وفت ذمتك، وقد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم.

ثم خرج مودعاً الرسول ﷺ واتجه صوب مكة، حتى نزل العيص على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يمرون عليها إلى الشام.

وفي وسط هذا الطريق — طريق القوافل — إلى الشام ومكة — ركز هذا الفدائي حربته وتوشح سيفه وقرر أن يأخذ على مكة الأرض من أقطارها، سيحاربها في اقتصادياتها.. سيوقف تجارتها.. سيجندل أبناءها.

فلتعش مكة بغير تجارة.

ولتوقف كل معاملاتها مع العالم الخارجي.

ولتحصر بين جبالها تأكل «السعدان» وحشائش الأرض مع إبلها وأغنامها؟..

ويعلم الرسول ﷺ بما اعتزمه هذا الفدائي الكبير فقال:

«ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال».

وتدوي هذه الكلمة في أرض الله وتبلغ الرجال المسلمين الذين حبستهم مكة بين دروبها، وفهموا أن ذلك نداء من القائد العام للجماعة المسلمة بالانضمام إلى كتيبة أبي بصير. فخرجوا الواحد بعد الواحد حتى بلغ عددهم سبعين رجلاً.

وأخذوا في مزاولة أعمالهم — يترصدون قوافل قريش، ويستولون عليها — حتى غنموا كل ما تحمله من عروض التجارة.

وأخذوا ما يحمله الرجال من ذهب وفضة ، وجندلوا من فرسان قريش مَن وقف في طريقهم.

وعلمت قريش بما فعله أبو بصير ورفاقه ، فخافت على تجارتها فلم ترسلها إلى الشام ، فكسدت بضائعها وانفض عنها عملاؤها ، وأصيبت بضربة موجعة.

عندها قررت قريش أن يتجه وفد منها إلى رسول الله ﷺ يسألونه بالرحم أن يقبل أبا بصير وصحبه ويردهم إلى المدينة.

وقال الرسول ﷺ : والشروط التي أخذت في صلح الحديبية؟

قالوا : يا محمد إنك لتصل الرحم وتقري الضيف ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر. اقبل رجاءنا وارسل إلى أبي بصير وصحبه فضمهم إليك فقد توقفت أعمالنا وكسدت تجارتنا ، وإننا متنازلون عما بيننا وبينك من هذا الشرط.

واستجاب الرسول ﷺ لطلب قريش ، وأرسل رسالة إلى أبي بصير يرده إليه.

ويمسك أبو بصير بكتاب الرسول ﷺ ويقرأه بشفتيه ويبلله بدمعه ، ويضعه على صدره ، وتفارق روحه جسده.

والعبرة في هذا الحديث أن العمل الفدائي له وزنه وثقله وخصوصاً مع الدول التي تركب رأسها ويعميها غرورها عن الحق الصريح.

ولنا الآن على أرض فلسطين وخارجها مجموعة من الفدائيين — ولا نقلل من العمل الذي يقومون به ، ولكن لم توجد فيهم إلى الآن مجموعة أبي بصير التي تفكر في قطع تجارة إسرائيل عبر البحار ، وتشل عمل أساطيلها التجارية والحربية. وأعتقد أن هذا هو العمل الفدائي البناء.

إن تجارة إسرائيل تكاد تغطي جزءاً كبيراً من جنوب أفريقيا المسلمة ، ولا يجهل أحد الأرباح الطائلة التي تعود على إسرائيل من هذه التجارة بالإضافة إلى ما تبثه من أفكار هدّامة مع ما تقدّمه لهذه البلاد.

فأين أبو بصير وجماعته؟..

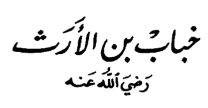
أين أبو بصير ليستولي على ما تستورده إسرائيل من أفريقيا؟..

إننا في حاجة إلى فدائية من هذا الطراز تحاصر إسرائيل اقتصادياً وتفسد كل مخططاتها في الأسواق الدولية.

لا الفدائية التي خربها المد الشيوعي فأصبحت رخوة لا تكسر شوكة الأعداء ضعيفة فلا توجع، رضيت بحياة الخيام، وبصفعات اللئام..

لو كان في فدائية العرب الحديثة أمثال أبي بصير ما كانت هناك إسرائيل، ولو سلكنا طريقه وخطته ما استطاعت هذه الدولة، أن تستولي على أرض العرب وترفض النزول على كل قرارات الهيآت الدولية.

وأخيراً نقول: إذا أردتم أن تعود إليكم فلسطين — فاسلكوا طريق أبي بصير.


خباب بن الأرت
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾



[سورة الكهف رقم ٢٧ - ٢٨]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والحديث والسيَر: نزلت هذه الآيات في:

عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، وخباب بن الأرت وآخرين.

ذكره صاحب سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٢٠.

وقال ذلك تفسير الطبري ١٥/ ١٥٦.

وصاحب الدر المنثور ٤/ ٢١٩.

والإمام القرطبي ١٠/ ٣٩٠.

والبغوي والخازن ٤/ ١٧٠.

وقاله الإمام مسلم في صحيحه.

وذكره ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ١٣٤.

فمن هو خباب بن الأرت؟..

خبّاب بن الأرت

رضي الله عنه

هو خباب بن الأرت بن سعد بن خزيمة بن كعب.

ونتساءل: أين وُلد، وفي أي البقاع كانت طفولته؟.. فلا نجد جواباً لهذه الأسئلة، ويصمت الذين رصدوا التاريخ فلا يتحدثون عن طفولة خباب، إلا إشارة من هنا وكلمات من هناك.

.. وإن كنا نجد ابن سعد في طبقاته يذكر أن الأعداء أغاروا على قبيلته وأخذوه أسيراً، وأرادوا بيعه في أسواق مكة — التي كانت تقام لتجارة الرقيق في ذلك الوقت — فاشترته أم أنمار الخزاعية[1].

نعم أم أنمار التي كانت تشتغل ختانة بمكة!!

ويقول كتَّاب السيَر: إن هذه المرأة هي التي عناها الشهيد حمزة بن عبد المطلب يوم أُحد، حين قال لسباع بن عبد العزى:

«هلم إليَّ يا ابن مقطعة البظور»[2].

.. وفي هذا البيت الذي تديره هذه المرأة — وتشتهر بهذه الحرفة، عاش خباب رقيقاً لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ٤٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٥.

.. ولما شب عن الطوق ، وبلغ مبلغ الرجولة فكر في حرفة تشغل وقته وتبعد عنه هواجسه ، وتخفف عنه ما يعانيه من قسوة الرق ، والبعد عن الأهل.

.. ولقد هداه عقله إلى احتراف صناعة السهام والرماح والقسي ، لأنها حرفة رائجة ، وشباب مكة ورجالها يحتاجون الشيء الكثير منها ، عند خروجهم للصيد ، أو استنفارهم للقتال.

فهي حرفة تدر على صاحبها في ذلك الوقت المال الكثير — وهي تشبه في وقتنا الحاضر صناعة الأسلحة وأدوات القتال.

واستمر خباب في حرفته حتى جاء الإسلام — واستمع مع المستمعين من الرسول ﷺ إلى كلمات القرآن الكريم ، فاستقرت في قلبه ، وملأته إيماناً ، وزودته بطاقات عجيبة للعمل في ميدان الدعوة الجديدة.

ولقد حباه الله سبحانه وتعالى عقلاً كبيراً ، وذهناً واعياً ، وحافظة قوية. الأمر الذي جعله يتنقل على دور المسلمين بمكة يُقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، ويرشدهم إلى القيام بالعبادات وحسن أدائها.

وكان في كثير من الأوقات سفيراً أميناً بين هؤلاء المسلمين — الذين تحول ظروفهم — ولقاء الرسول ﷺ.

ولقد كان لهذا العمل الذي قام به خباب أثره في دخول الكثير من أهل مكة إلى الإسلام. ويرى البعض أن خباب بن الأرت كان من وراء الأسباب ، فذهب إلى وائل السهمي يطلب منه بقية ما عليه من ثمن السهام والدروع التي ابتاعها منه. فقال وائل :

« يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم »؟..

قال خباب : بلى.

قال : فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك[1] .

فأنزل الله تعالى :

﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً . أطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مداً . ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾[2] .

ولم تستمر هذه المحاجة بين المسلمين والكفار كثيراً ، فقد أخذ صناديد مكة يضيقون بهذا الكلام ويصبون على أتباع محمد جام غضبهم ويتفننون في ألوان العذاب ، وأساليب المضايقة .

قال مجاهد : أول مَن أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وبلال ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار .

قال : فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذ الآخرون فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ الجهد منهم كل مبلغ .

وكان خباب يعذب بأسياخ الحديد المحماة ، حتى يرجع عن دينه ، أو يكف عما يقوله .. فما استطاعوا ذلك ، ولا قدروا عليه .

عن الشعبي قال : دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فأجلسه على متكئه وقال :

«ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد» .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٨٠.

(٢) سورة مريم الآيات ٧٧ — ٨٠.

قال خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟..

قال: بلال.

فقال خباب: يا أمير المؤمنين ما هو بأحق مني، إن بلالاً كان له في المشركين من يمنعه الله به ولم يكن لي أحد يمنعني ثم قال:

«فلقد رأيتني يوماً أخذوني وأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فما اتقيت الأرض إلا بظهري. ثم كشف عن ظهره فإذا هو شيء عظيم من آثار التعذيب والكي بالأسياخ المحماة بالنار[1] التي قربت عمر بن الخطاب من الدعوة الجديدة حتى أعلن إسلامه.

من ذلك ما يرويه ابن اسحاق بقوله:

كان اسلام عمر — فيما بلغني — أن أخته «فاطمة بنت الخطاب» كانت زوجة لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل — وقد أسلما مبكرين — وكانا مستخفيين لا يعلنان إسلامهما. وكان معهما في الاسلام والاستخفاء نعيم بن عبد الله رجل من بني كعب قريباً لعمر. وكان يعلم أن خباب يختلف إلى فاطمة وزوجها يقرئهما القرآن.

وفي يوم التقى نعيم بعمر بن الخطاب متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا أنهم مجتمعون في بيت عند الصفا فقال له: أين تريد يا عمر؟.

فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر؟. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٣٣.

قال : وأي أهل بيتي؟.

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمر ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما.

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها طه يقرئهما إياه.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في جوف البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال : ما هذه الهيمنة.. التي سمعت؟

قالا له : ما سمعت شيئاً؟.

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد.

فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه :

«نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك».

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى ، وقال لأخته أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد — وكان عمر كاتباً — فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك.

قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها.

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل : فأعطته الصحيفة وفيها طه ليقرأها ، فلما قرأ منها صدراً.

قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال :

« يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول :

« اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » .

فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال خباب : هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع .

فقال : يا رسول الله . هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة : فأذن له . فإن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله ﷺ : إئذن له .

فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته ، أو بمجمع ردائه . ثم جبذه جبذة شديدة .

وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله به قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم»[1].

هذا هو موقف خباب من اسلام عمر — رضي الله عنه — ودفعه اسلام عمر على زيادة نشاطه، والدعوة سراً وعلانية للاسلام، وإرشاد الناس إلى مقر الرسول ﷺ وشغله هذا عن حرفته، وأراد أن يصفي حساباته مع قريش، وأن يسترد ماله من مال بعض الأفراد الذين كانوا يتعاملون معه استعداداً للهجرة مع بقية المؤمنين إلى الحبشة أو غيرها.

يقول قيس بن أبي حازم: دخلت على خباب وقد اكتوى سبعاً. فقال يا قيس لولا أني سمعت رسول الله ﷺ نهى أن ندعو بالموت لدعوت به.

إنه العذاب الذي يصبّ عليهم آناء الليل وأطراف النهار، من قوم قلوبهم كالحجارة، لا تنبض برحمة، ولا تحس بشفقة، ولا تتبصر فيما يتلى عليها حتى تهتدي إلى نور الله.

فماذا يفعل هؤلاء المستضعفون؟..

وبعضهم قد فارق الحياة شهيداً من كثرة التعذيب. كما حدث مع سمية أم عمار ابن ياسر والبقية تنتظر دورها؟..

عند ذلك تقدم نفر من هؤلاء المسلمين يطلبون من الرسول ﷺ أن يأذن لهم بقتال هؤلاء المعتدين.

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يأذن لنبيه بعد بقتال هؤلاء الناس عسى الله أن يهديهم، أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله، ويصدق بمحمد ﷺ.

عندها قالوا له: يا رسول الله. ألا تدعو الله لنا؟. ألا تستنصر الله لنا!

فجلس رسول الله ﷺ ثم قال:

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٦٨ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٦٦.

«والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيشق باثنين ما يصرفه عن دينه شيء أو يمشط بأمشاط الحديد ما بين عصب ولحم ما يصرفه عن دينه شيء وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تعجلون»[1].

صدق رسول الله ﷺ فيما قال: ولقد تحقق ما وعد به وفتح الله على المسلمين بلاداً كثيرة وجاءهم الخير الوفير من بقاع الأرض البعيدة، وجعل منهم سادة وقادة، وتم النصر للمسلمين. وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى..

ثم ماذا بعد ذلك؟. وفي أي البقاع استقر خباب بن الأرت؟.

تقول كتب السير: بأن خباباً هاجر إلى الحبشة مع المسلمين الفارين بدينهم ثم عاد وهاجر إلى المدينة ليكون قريباً من الرسول ﷺ وفي المدينة آخى الرسول بينه وبين جبر بن عتيك الذي زاره رسول الله ﷺ في مرضه فقال قائل من أهله:

«إن كنا لنرجو أن تكون وفاته شهادة له في سبيل الله».

فقال رسول الله ﷺ: إن شهداء أمتي إذاً لقليل: القتيل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والمرأة تموت بكراً شهيدة، والحريق شهيد، والغريق شهيد، والمجنوب شهيد»[2].

وكان خباب رجلاً محارباً يبذل نفسه في سبيل الله ويتمنى الشهادة. ويذكر الرواة أنه ما تخلف عن غزوة كان فيها رسول الله ﷺ وكان يذهب في بعض السرايا، أو الطلائع التي تتقدم الجيوش لتكون عوناً لها على اكتشاف مواقع الأعداء، ومعرفة عددهم وعدتهم.

يروي عبد الرحمن بن مدرك عن ابنة خباب قالت:

---

(١) حلية الأولياء.

(٢) طبقات ابن سعد.

خرج أبي في غزوة ولم يترك لنا إلا شاة وقال :

«إذا أردتم أن تحلبوها فأتوا بها أهل الصفة ، قالت : فانطلقنا بها فإذا رسول الله ﷺ جالس فأخذها فاعتقلها. فحلب ثم قال : ائتوني بأعظم إناء عندكم.

فذهبت فلم أجد إلا الجَفنة التي نعجن فيها فأتيته بها فحلب حتى ملأها قال : اذهبوا فاشربوا وأعطوا جيرانكم فإذا أردتم أن تحلبوا فأتوني بها.

تقول ابنة خباب :

فكنا نختلف بها إليه فأخصبنا حتى قدم أبي فأخذها فاعتقلها فصارت إلى لبنها فقالت أمي :

«أفسدت علينا شاتنا.

قال : وما ذاك؟..

قالت : إن كانت لتحلب ملء هذه الجفنة.

قال : ومن كان يحلبها ؟.

قالت : رسول الله ﷺ.

قال : وقد عدلتني به ، هو أعظم بركة يد مني»(١).

صدقت يا خباب إن رسول الله ﷺ هو أعظم بركة من أهل الأرض جميعاً ، وهو الرحمة المهداة إلى البشرية ، هو رجل الرحمة والملحمة كما عبر عن نفسه صلوات الله عليه.

ولكن الشاهد في هذه الحادثة : أن رسول الله ﷺ كان يرعى أبناء المسلمين وبناتهم — في حالة تغيبهم في الغزو أو خلافه فهو الوالد الرحيم — والقلب الكبير. الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه.. وهكذا يجب أن يكون القائد مع جنوده. إن أكبر

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ٢٩٠.

ما يشغل الجندي المحارب في معركته مع الأعداء: الأولاد والأهل والأقارب فإذا اطمأن الجندي إلى أن الحاكم أو الوالي سيرعى أهله الرعاية الواجبة، ويحفظ لهم ما يسدّ رمقهم، ويستر عورتهم — لا شك أنه يدخل المعركة، بقلب شجاع وبعزيمة قوية — ويضع نصب عينيه دائماً إما النصر على الأعداء وإما الشهادة في سبيل الله.

وعن طارق بن شهاب قال: عاد خباباً نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله، إن اخوانك تقدم عليهم غداً.

فبكى وقال: عليها من حالي أما أنه ليس بي جزع، ولكن ذكرتموني أقواماً وسميتموهم لي إخواناً وان أولئك مضوا بأجورهم كما هي.

وعندما أتى بكفنه قباطي بكى أيضاً ثم قال:

«لكن حمزة عم النبي ﷺ، كفن في بردة فإذا مدت على قدميه قلصت عن رأسه وإذا مدت على رأسه قلصت عن قدميه، حتى جعل عليه إذخر «نبات يخرج في مكة».

ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ، ما أملك ديناراً ولا درهماً وإن في ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف وافٍ. ولقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا.

نعم لقد فتحت الدنيا أبوابها للمسلمين فعبوا من خيراتها، ونالوا من كنوزها الشيء الكثير. وهذا ما حذرهم فيه رسولهم الكريم قوله: أنه لا يخشى عليهم الفقر، ولكن يخشى عليهم الدنيا وزينتها — لقد انداحت جيوشهم في أركان الأرض الأربعة — فاستسلمت لهم، وألقت إليهم بمقاليدها فعرفوا سلطان الملك وأبهة القصور، ونعيم العيش.

ولقد عاش خباب في آخر أيامه في الكوفة، بلد الخيرات الكثيرة والحدائق الشاسعة، والبساتين التي لا تحدّ.. ومع ذلك فلم يشغله شيء من ذلك عن دينه والاتجاه إلى ربه في كل ما يعنّ له من أمور.. حتى إنه أوصى ابنه قبل وفاته فقال:

«أي بني إذا أنا مت فادفنّي بهذا الظهر فإنك لو قد دفنتني بالظهر قيل دفن به رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فيدفن الناس موتاهم.

ونفذ الابن وصية والده، وتحقّق ما تكلم به من أن الناس أخذوا في دفن موتاهم بهذا الظهر.. ومرَّ علي بن أبي طالب عند عودته من صفين على قبور بظاهر الكوفة فقال:

ما هذه؟.

فقيل، يا أمير المؤمنين: إن خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك وأوصى بأن يدفن في الظهر. وكان الناس إنما يدفنون في دورهم وأفنيتهم وكان أول من دفن بظاهر الكوفة، ودفن الناس إلى جنبه.

فقال علي —رضي الله عنه—: رحم الله خباباً فقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلى في جسمه أحوالاً ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

ووقف عليها وقال:

«السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون.

اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز بعفوك عنا وعنهم[1].

وكانت وفاة خباب كما ذكر الرواة سنة سبع وثلاثين وهو يومئذ ابن ثلاث وسبعين سنة، رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من نصرة دينه، ونشر الاسلام.

---

(1) ابن الأثير ص ٢٣٤ جـ ٣.

تذييل...

سؤال يطرحه اللبيب الفطن على نفسه، لماذا لا ينتصر الاسلام اليوم كما كان ينتصر بالأمس؟..

ولماذا لا يقوم أتباعه بدور الريادة والقيادة في العالم كما فعل أجدادهم وآباؤهم عند ظهوره؟.

أهناك شيء طرأ عليه فغير مفاهيمه فلم تعد تعمل؟.

أو انتقص من أركانه فلم يعد يتقدم؟.

الله يعلم أن شيئاً من ذلك لم يكن، فكتابه الذي بين أيدينا الآن هو كتابه من يوم أن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ.

وإذا كان ذلك كذلك فما العلة في ضعف المسلمين وابتعادهم عن دور القيادة ومراكز التوجيه؟.

وللإجابة على ذلك نقول: إن الراصد لحركات المسلمين من عدة قرون يرى أن الكثير منهم قد تفلت من تعاليم دينه، وابتعد عن هدى نبيه وترك نور إسلامه، فلفّهم ظلام شامل، لا يدري أحد كيف الخروج منه أو الخلاص من ثقله.

فالذي ينقص الاسلام الآن هم الرجال — الرجال الذين يؤمنون به كعقيدة تحكم تصرفاتهم، وتضبط سلوكياتهم، ويحكمونه في شؤونهم الخاصة والعامة، ويجعلونه دستور الدساتير في شرعهم، ومصدر القوانين في حكمهم.

لو وجد هؤلاء الرجال لأعادوا للإسلام مجده وللمسلمين عزّهم وسلطانهم.

ولكن أين هؤلاء الرجال؟. رجال الاسلام.

ونتساءل لقد كان رجال الاسلام يملأون الساحة، فلماذا فرغت منهم وكان صوتهم يدوي في جنبات الأرض فلماذا لم يعد العالم يسمع لهم صوتاً، أو يرى لهم فعلاً؟.

الحقيقة التي لا ينكرها أحد من المنصفين والراصدين لخطوات التاريخ في عصرنا الراهن، أن الدعاة للحركات الاسلامية في كثير من البلاد، نزل بهم من البلاء ما لو نزل بالجبال الشم لدكّت أركانه وتساقط بنيانه.

لقد سيقوا إلى السجون في كثير من الأوقات، وقدمت أعضاؤهم طعاماً للكلاب، وصبّ عليهم العذاب صبّاً، وديست حرماتهم، وانتهكت أعراضهم، ووضعت تحت الأقدام النجسة مصاحفهم، وتفننت وسائل الاعلام من صحافة وإذاعة مرئية ومسموعة، على إلصاق كل الموبقات بهم، ورميهم بأحطّ الصفات، وإخراجهم من زمرة البشر.

وكثير منهم فارق الحياة داخل أقبية السجون، وتوارت جثته في جنح الظلام، ومن لم يأته أجله، خرج من السجن وهو بالأموات أقرب.

.. ونقول هذا الذي حدث في هذا العصر، حدث لكل الدعاة السابقين في كل عصر ومصر. ولم يسلم من ذلك الرسل والأنبياء ولا المخلصون وأصحاب الدعوات.. وكأن هذا ضريبة الإيمان.

أو أن الله سبحانه وتعالى قد جعل هؤلاء الجبارين والطغاة أداة تعذيب وتنكيل لأتباع دينه والمخلصين من أبناء الانسانية ــ وذلك لحكمة قد تغيب عن عقولنا، أو ليختبر صبرهم ويبلو إيمانهم حتى يتميز من يدعي الايمان بلسانه، ومن هو على الحق واليقين بقلبه. قال تعالى:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ (١).

نعم إن النصر في النهاية يكون للمؤمنين وللعباد المخلصين قال تعالى:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (٢).

تلك سنة الحياة وطبيعة الوجود. والتاريخ يحدثنا عن أنواع من العذاب كانت تنزل بالمؤمنين من أتباع الرسل. وتنشر أجسامهم بالمناشير عن طريق الطغاة والجبارين، ولا يصرفهم ذلك عن دينهم والإيمان بخالقهم موجد الحياة والموت.

من ذلك ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن صهيب بن سنان أن رسول الله ﷺ قال:

«كان فيمن قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني كبر سني، وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً لأعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه.

وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟. وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟.

فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسني الساحر.

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٤.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٥.

قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يمروا.

فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر؟.

قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمر الناس. ورماها فقتلها ومضى الناس فأخبر الراهب فقال :

«أي بني أنت أفضل مني وأنك ستبتلي ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ».

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : أشفني ولك ما ههنا أجمع ؟.

فقال : ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عزّ وجلّ ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك فآمن فدعا الله فشفاه.

ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك :

«يا فلان من ردّ عليك بصرك؟.

فقال : ربي.

فقال : أنا.

قال : لا ، ربي وربك الله.

قال : ولك رب غيري؟

قال : نعم ربي وربك الله فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ، فبعث إليه.

فقال : أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟.

قال : ما أشفي أحد ، إنما يشفي الله عزّ وجلّ.

قال : أنا.

قال : لا .

قال : أوَلك رب غيري ؟ .

قال : ربي وربك الله ، فأخذه أيضاً بالعذاب فلم يزل به حتى دلّ على الراهب ، فأتى بالراهب ، فقال ارجع عن دينك فأبى . فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض .

وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال :

« اللهم أكفنيهم بما شئت » .

فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعين ، وجاء الغلام يتلمّس حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك ؟ .

فقال : كفانيهم الله تعالى . فبعث به مع نفر في قرقور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر . فلججوا به البحر .

فقال الغلام : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فغرقوا أجمعين .

وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك ؟ .

فقال : كفانيهم الله تعالى ، ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي .

قال : وما هو ؟ .

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم قل : باسم الله رب الغلام . فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه وقال :

«باسم الله رب الغلام»، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟. فقد والله نزل بك قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك، فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران. وقال من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها.

قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي:

«اصبري يا أماه فإنك على الحق».

وإلى هذا أشار الله بقوله تعالى:

﴿ قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾[1].

.. إن هذا الغلام الداعية عرف الأسلوب الطبيعي الذي به تنتشر دعوته وتصل عن طريقه — بإذن الله — إلى دنيا الناس.

فأخذ يظهر آيات الله البيّنات التي يجريها على يديه ويطالب المجتمع الذي يعيش فيه الإيمان بها.

ووصلت إلى مسامع الملك الذي يدّعي الألوهية — دعوة الغلام وأن الناس يتابعونه فيما يدعوهم إليه، وألقت حاشيته والمحيطون به في روع الملك أن قوائم ملكه تهتز من تحته نتيجة لهذا الذي يقول به الغلام ويبشر به؟.

---

(١) سورة البروج الآية ٤ — ٩.

فكان لا بدّ من التنكيل به حفاظاً على الملك — مرة بمحاولة ترديه من فوق جبل مرتفع ، وأخرى بمحاولة إزهاق روحه عن طريق البحر ولقد باءت هذه المحاولات بالفشل ، وهكذا كل محاولة يدبرها الباطل أو يوسوس بها الشيطان.

عندها أراد الغلام أن تبلغ دعوته إلى الناس أجمعين ، ورأى أنه لن يتحقق ذلك إلا عن طريق الملك وجنوده ، فطلب من الملك : إن كان يريد القضاء عليه وتخليص مملكته منه ، فما عليه إلا أن يجمع الناس في صعيد واحد حتى يشاهدوا قتل الغلام.

وكان الداعية يريد بذلك أن تبلغ دعوته للناس أجمعين ويشاهدوا عن قرب يد القدرة الخالقة وهي تعمل — حتى ولو كان في ذلك إزهاق روحه وبلوغ أجله. والداعية يعلم أن لكل أجل كتاباً. قال تعالى:

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾(1) .

واستطاع الغلام الداعية عن طريق أعداء الله وأعداء دينه أن يبلغ رسالة ربه ، ثم يموت قرير العين مطمئناً إلى عدالة ربه.

وهكذا يجب أن يكون الدعاة الذين يحبون عقيدتهم ، ويريدون نشر دعوتهم ورفع كلمة الله بين عبّاد الطواغيت ، وسدنة الأصنام.

واذا كان هذا حدث مع الدعاة قبل الاسلام ، فإن دعاة الاسلام نالوا من التعذيب والتنكيل أضعاف ما نال غيرهم من أتباع الديانات والدعوات الأخرى.

ونكتفي في هذا المقام بتسجيل المحاورة التي تمت بين التابعي سعيد بن جبير وأحد قادة بني أمية الحجاج بن يوسف:

صمم الحجاج على قتل سعيد بن جبير لكشفه الطغاة وتعريته أتباع الشيطان فأرسل إليه من أحضره فلما مثل بين يديه سأله الحجاج عن اسمه:

قال: سعيد بن جبير.

قال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

(1) سورة آل عمران الآية ١٤٥

قال سعيد : بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

قال الحجاج : شقيت أنت وشقيت أمك.

قال سعيد : الغيب يعلمه الله.

قال الحجاج : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى.

قال سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

قال الحجاج : فما قولك في محمد؟.

قال : نبي الرحمة وإمام الهدى عليه الصلاة والسلام.

قال الحجاج : فما بالك لم تضحك؟.

قال سعيد : وكيف يضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار؟.

قال الحجاج : فما لنا نضحك؟.

قال سعيد : لم تستو القلوب.

وفكر الحجاج بطريقة أخرى لاستمالته وإذلاله.. فأمر بالذهب والمال واللؤلؤ والياقوت فجمع بين يديه.

ولكن أنّى لهذه المغريات أن تجد لها طريقاً إلى قلب شغله حب الله وزهد بالدنيا وما فيها.

فقال سعيد : إن كنت جمعت هذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة فقد أخطأت وإن فزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

فأمر الحجاج بالموسيقى فصدحت ونفخ في الناي ، وضرب بالعود ، فبكى سعيد فقال له الحجاج : ما يبكيك أهو اللهو؟.

فقال سعيد : بل هو الحزن ، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً : يوم ينفخ في الصور

وأما العود فشجرة قطعت في غير حق ، وأما الأوتار فإنها أمعاء الشياه يبعث بها معك يوم القيامة .

فقال الحجاج : ويلك يا سعيد.

فقال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار .

قال الحجاج : اختر يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك.

قال سعيد : بل اختر لنفسك يا حجاج فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها يوم القيامة .

قال الحجاج : أفتريد أن أعفو عنك ؟.

قال سعيد : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه .

فلما خرجوا به من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده وقال له : ما أضحكك ؟.

قال سعيد : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عنك.

قال الحجاج : اقتلوه .

قال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال الحجاج : شدوا به لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فثمَّ وجه الله .

قال الحجاج : كبوه لوجهه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

قال الحجاج : اذبحوه ؟.

قال سعيد : أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة.

ثم دعا سعيد الله قائلاً :

«اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعد».

يقول الرواة وكتّاب التاريخ :

عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة ثم مات.

فهل لدينا دعاة في القرن العشرين أمثال هؤلاء؟ . إن كان فإن نصر الله قريب ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وإذا كانت الأخرى .. فعلى عاتق علماء المسلمين والمخلصين من أبنائه : إن يعدوا العدة لتخريج هؤلاء الرجال من مدرسة القرآن فهل نحن فاعلون؟ .

نرجو من الله ذلك ..

عُثمان بن طلحة

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا
وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا
يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء الآية ٨٥]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية في عثمان بن طلحة الجمحي من بني عبد الدار..

قاله صاحب الدر المنثور جـ ٢ ص ١٧٤

وقاله الامام الطبري جـ ٨ ص ٤٩١.

وقاله الإمام الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ١٥٠، ١٥١.

فمن هو عثمان بن طلحة؟..

عثمان بن طلحة

رضي الله عنه

.. رجل من الرجال الأبطال ، وفارس عرفته الحروب ، وعنيد لم يستجب لدعوة الاسلام ، إلّا بعد أن ظهرت كل الدلائل ، وقامت الحجج والبينات على أن محمداً صادق.

لأنه لو كان كاذباً لظهر كذبه.

ولو كان دعياً لهزمته قريش.

أما والأمر كذلك..

فهو نبي مرسل ويأتيه الوحي من السماء — وهذا ما توصل اليه عثمان بن طلحة ، بعد الهزائم المتلاحقة التي منيت بها قريش.

أما عن والده فهوّ طلحة بن أبي طلحة.

خرج مع قريش عندما جمعت جموعها لحرب الرسول ﷺ في غزوة أُحد وكانت معه زوجته سلافة بنت سعد. كما خرج معه سفيان بن حرب ومعه زوجه هند ابنة عتبة — واقتدى بهم في اصطحاب زوجاتهم كل فرسان قريش.. ولقد كان للنساء في تلك المعركة دور لا ينكر في تشجيع الرجال وشد أزرهم.. فما كادت المعركة تبدأ ، حتى قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم فقالت :

ويْهاً بني عبد الدار
ويها حماة الأدبـــــار
ضربـاً بـكـل بـتـار

وتقول : إن تـقـبـلوا نعانق
ونـــفـــرش النمارق
أو تـــدبـروا نـفـارق
فـــراق غير وامـق[1]

وفي هذه الغزوة قتل طلحة قتله عليّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — وقتل أولاده الثلاثة : مسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة والحارث بن طلحة[2] .

.. وعاش عثمان بعد قتل والده وإخوته الثلاثة في مكة يشارك قريشاً في تدبيرها ويترقب معركة أخرى مع محمد وأتباعه حتى يأخذ بثأره .. وينتقم لهؤلاء الرجال الذين جندلتهم سيوف المسلمين ..

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة ..

وسارت حياته موحشة قابضة ..

.. حتى كان يوم أحس أن في دار الندوة حركة غريبة ، ونشاطاً لم يعهده ، وخيولاً جديدة تطرق أرض مكة .. وتساءل ماذا حدث ؟ .. وما هو الجديد في مكة حتى يشاهد الرجال يسرعون ، إلى دار الندوة ؟ .

وذهب إلى هناك والتقى بمجموعة من يهود يثرب منهم :

«سلام بن أبي الحقيق النضري .

وحيي بن أخطب النضري .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٢ .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٣٤ .

وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري.

وهوذة بن قيس الوائلي، وغيرهم من يهود بني النضير ونفر من بني وائل جاءوا إلى قريش ليحزبوا الأحزاب معها على حرب محمد ﷺ. وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله»[1].

وأحس عثمان بن أبي طلحة أن همومه قاربت على الانتهاء، وأن الفرصة قد أوشكت للقصاص ممن قتل والده واخوته..

وكاد يصرخ ويخرج عن وقاره الذي عرف به — عندما سمع أبا سفيان يناقش الوفد بقوله:

«يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟.

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله ﷺ.

وهؤلاء اليهود الذين جاءوا إلى قريش — نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ألم ترَ الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومنْ يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾[2].

وسار عثمان مع جيش قريش وبقية الأحزاب إلى المدينة — ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وعادوا كما ذهبوا ولم ينالوا شيئاً.

وتعجب عثمان بن طلحة في هذه المرة أكثر من تعجبه في كل مرة!.

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٢٩ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٠٧.
(٢) سورة النساء الآية ٥١ — ٥٢.

لقد عادوا مهزومين مدحورين.

فمن الذي هزمهم وحطم خيامهم؟.

إن جنود محمد لم يحاربوهم، وسيوفهم لم تنل منهم هذه المرة ومع ذلك هزموا وعادوا إلى ديارهم فارين وجلين.

لقد ملأ الرعب قلوبهم — وسيطر الخوف على نفوسهم.

أيكون محمد رسول الله؟.

وهل بقي لديه شك في هذا؟.

ولكن أيستطيع أن يعبر عن ذلك ويعلن إسلامه — لا مجال إنه لا يستطيع وعندما وصل طلحة إلى هذا الحد من التفكير كأن هاتفاً من وراء الغيب يرتل قول الله تعالى:

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾[1].

وذهب عثمان بن أبي طلحة إلى عمرو بن العاص يشكو له همومه، ويضع أمامه ما يعانيه، ولكنه لم يستطع أن يفضي له بما في داخله.

وعندما رأى عمرو ذلك قال:

«إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه؟.

قالوا: وماذا رأيت؟.

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٥ — ٢٦.

قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلّا خير.

قالوا : إن هذا لرأي.

قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم.

فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

يقول عمرو : فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه اليه في شأن جعفر بن أبي طالب — رضي الله عنه وأصحابه.

قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد قمت مقامها فيه وكفيتها شأنه. حين قتلت رسول محمد.

قالوا : نعم.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحباً بصديقي :

«أهديت إليَّ من بلادك شيئاً؟»[1].

قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت اليك أدماً كثيراً ، ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت :

«أيها الملك ، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا».

فغضب النجاشي ثم مد بيده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ثم قلت :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣١٨.

وأيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟.

قلت : أيها الملك أكذاك هو؟.

قال : ويحك يا عمرو أطعني واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أفتبايعني له على الاسلام؟.

قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الاسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي ، وقد تحول رأيي عما كان عليه ، وكتمت أصحابي إسلامي[1] .

وعادوا إلى مكة ، عاد عمرو ومن كان معه ، عندما لم يطب لهم مقام فيها ، أو لما بيّته عمرو من أمر.

ونقول : هل سافر عثمان بن أبي طلحة مع عمرو إلى أرض الحبشة؟.

أم تراه بقي في مكة حتى عاد عمرو مع صحبه اليها؟.

لا نستطيع أن نقطع في سفره برأي.. ولكن الثابت والذي ذكرته كتب التاريخ أن ثلاثتهم التقوا على أرض مكة وهم يتأهبون للخروج إلى يثرب.

عمرو بن العاص.

وخالد بن الوليد.

وعثمان بن أبي طلحة.

فقال عمرو لخالد بن الوليد : إلى أين يا أبا سليمان؟.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٣١ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٦٠ — ١٦١ .

قال : والله لقد استقام المنسم[1] وإن الرجل لنبي أذهب والله فأسلم.

فحتي ومتى؟.

فحتى ومتى؟.

قلت : والله ما جئنا إلا لنسلم.

وسار ثلاثتهم إلى يثرب قاصدين مدينة الرسول ﷺ حتى وصلوا إلى الرسول ﷺ.

فلما رآهم عليه السلام قال :

«رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها»[2].

وتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع.

ثم تقدم عمرو إلى رسول الله وقال : إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر.

فقال رسول الله ﷺ :

«يا عمرو بايع فإن الاسلام يجب ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها».

فبايعه ثم انصرف.

ثم تقدم عثمان بن أبي طلحة فأسلم وبايع[3].

هل بقي ثلاثتهم في المدينة .. وما هي الأعمال التي أسندت اليهم .. وماذا كان دور عثمان في تلك المرحلة؟.

ونقول : لقد استمر عثمان على اسلامه ومتابعته الرسول ﷺ .. حتى نقضت

---

(١) المنسم : هذا مثل معناه لقد تبين الأمر ووضح ولم يعد فيه لبس ولا شك.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٢٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٢٠ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ١٦٠ — ١٦١.

قريش عهدها مع الرسول ﷺ وركبت رأسها وفكر الرسول عليه السلام في غزوها.

وسار إليها بعشرة آلاف مقاتل.. وفتحت مكة بدون قتال إلا مناوشات من هنا وأخرى من هناك.

عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن[1] في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيه حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد اجتمع له الناس في المسجد فقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدمي هاتين.

إلّا سدانة البيت وسقاية الحج ألا وقتيل الخطأ شبه العمد.

بالسوط والعصا فيه، الدية مغلظة مائة من الإبل.

أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية.

وتعظيمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب.

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير»﴾[2].

---

(١) المحجن: عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير في يده.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

يا معشر قريش ، ما ترون اني فاعل فيكم؟.

قالوا : خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم.

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام اليه علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — ومفتاح الكعبة في يده فقال :

«يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية — صلى الله عليك.

فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟

فدعا له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء»[1].

وفي رواية : أنه أعطاه مفتاح الكعبة ومعه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وقال : خذها خالدة تالدة لا ينزعها [يا بني أبي طلحة] منكم الا ظالم»[2].

.. وبعدها عاد عثمان — رضي الله تعالى عنه — الى المدينة مع رسول الله ﷺ عاد ليكون قريباً من هدى النبوة.

عاد ليكون جندياً من جنود الدعوة.

عاد ليدافع عن حرمات الله ، ويعلن كلمة التوحيد في أركان الأرض.

واستمر عثمان بالمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ.

ثم فكر في العودة الى مكة ، فعاد وعاش فيها بقية حياته — حتى وافاه أجله في أول خلافة معاوية سنة اثنتين وأربعين من الهجرة..

وهناك قول آخر : انه قتل يوم أجْنادين..

رحمه الله رحمة واسعة.. وجعل الجنة مقره ومثواه.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٥ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٥.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٣٤.

أسباب نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت في عثمان بن طلحة من بني عبد الدار ، كان سادن الكعبة فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح ، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح ، فقيل إنه مع عثمان.

فطلب منه ، فأبى وقال : لو علمت أنه رسول الله لما منعته المفتاح فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الكعبة.

فدخل رسول الله ﷺ — البيت — وصلى فيه ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فأمر رسول الله ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر اليه ففعل ذلك عليّ.

فقال له عثمان : يا علي أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق.

فقال : لقد أنزل الله تعالى في شأنك وقرأ عليه الآية. فقال عثمان : أشهد أن محمداً رسول الله وأسلم[1] .

---

(١) قال ابن حجر في الاصابة جـ ٢ ص ٤٥٢ أسلم عثمان بن طلحة في هدنة الحديبية ، وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه مفتاح الكعبة وقد وقع في تفسير الثعلبي بغير سند : أنه أسلم يوم الفتح بعد أن دفع له النبي المفتاح وهذا منكر ، والمعروف أنه أسلم وهاجر مع عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.

فجاء جبريل عليه السلام وقال: ما دام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان — وهو اليوم في أيديهم.

وعن سعد بن سالم عن ابن جريج عن مجاهد في قول الله تعالى:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[1].

قال نزلت في عثمان بن طلحة. قبض النبي ﷺ مفتاح الكعبة فدخل يوم الفتح فخرج يتلو هذه الآية.

فدعا عثمان فدفع اليه المفتاح وقال:

«خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله لا ينزعها منكم إلا ظالم».

وعن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال:

دفع النبي ﷺ المفتاح إليّ وإلى عثمان وقال:

«خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم»[2].

فبنو أبي طلحة الذين يلون سدانة الكعبة من بني عبد الدار.

(١) سورة النساء آية ٥٨.

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٥.

تذييل...

إن الإنسان في هذه الحياة القصيرة التي يحياها على سطح الأرض مطالب بالعديد من الواجبات وفي مقدمتها الأمانة.

وأهم هذه الأمانات الأمانة الكبرى التي ناط بها فطرة الإنسان، والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه.

ومن هذه الأمانة الكبرى تنبثق سائر الأمانات التي يأمر الله أن تؤدّى...

ومن هذه الأمانات أمانة الشهادة لهذا الدين.

فالمسلم مطالب أن يكون شهادة لهذا الدين الذي يحمله حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذا النفس فيقولوا: «ما أطيب هذا الدين وأحسنه وأزكاه».

يكون شهادة في صدقه فلا يكذب.

قال تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧.

وهذا الصدق مسئول عنه أيضاً يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾[1].

ويكون شهادة في سلوكه وحسن معاملته للناس:

قال تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[2].

ويكون شهادة على هذا المجتمع الذي يعيش فيه.. يدعوه إلى الخير ويبعده عن الشر.. ويطهره من الرذائل.. ويدعو أبناءه للتحلي بالفضائل.

قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[3].

ومن الأمانات: أمانة التعامل مع الناس، ورد ودائعهم إليهم، وأمانة النصيحة للراعي والرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة.

ولقد نشأ جيل من أبناء المسلمين لا يعرف عن دينه إلّا القليل، واستطاعت الأفكار الغريبة عن بلادنا وعقائدنا.. أن تصوغ هؤلاء النشء على حسب ما تريد، لا يعرفون المنكر ولا يتجنبون الحرام.

جيل عاش على موائد الشرق والغرب.. فأصبحت مبادئنا غريبة عليه وأصول ديننا مجهولة عنده.

ومن الأمانات: المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها.. فلا يسمح بانتهاك الحرمات وإشاعة الفحشاء في المجتمع الإسلامي.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٨.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠.

ويحافظ على أموالها من السرقة ومن المعاملة بها في الربا.. أو أن ينال بها ما لا يحل له.

ومن الأمانة أن يحمي ثغورها ويدافع عن حدودها ويصد عنها كيد الأعداء وغارات المغيرين..

فمتى يقوم الجيل الإسلامي بهذه الأمانات.. متى يا رب؟..

معقل بن يسار

رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة البقرة الآية ٢٣٢]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض المفسرين نزلت هذه الآية في معقل بن يسار رضي الله عنه.

قاله الإمام الطبري في تفسيره	جـ ٥ ص ١٩
وقاله صاحب أحكام القرآن	جـ ١ ص ١٧٣ — ١٧٤
وقاله صاحب الدر المنثور	جـ ١ ص ٢٨٧
وقاله الامام البخاري في صحيحه	جـ ٦ ص ٢٩ جـ ٧ ص ١٦ ، ٥٨
والإمام البيهقي في السنن الكبرى	جـ ٧ ص ١٠٣ ، ١٣٨
وفي كتاب الأم للشافعي	جـ ٥ ص ١١ ، ١٢٨ ، ١٤٩
وقاله الإمام الواحدي في أسباب نزول القرآن	ص ٧٤ ، ٧٥

فمن هو معقل بن يسار؟.

معقِل بن يسار

رضي الله عنه

.. صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومجاهد لم يضع السيف من يده حتى آخر أيام حياته.. ومؤمن عرف الإيمان طريقه الى قلبه، فأضاء حياته وملأها بالبهجة والسرور والاطمئنان إلى عدل الله والرضى بقضائه.

كيف عرف الاسلام طريقه إلى قلبه؟..

ومن الذي دعاه إلى الإسلام وبين له معالم الإيمان، ومتى كان ذلك؟.

أسئلة كثيرة أهملها التاريخ في حياة معقل.

وفجأة يلتفت التاريخ إلى معقل ويضعه أمامنا في موقف من أخطر مواقف المسلمين.

ألا وهو بيعة الرضوان..

حيث بايع الصحابة رسول الله على الموت.

بايعوه على بذل المهج والأرواح.

ووضعوا بين يديه أموالهم وأرواحهم رخيصة في سبيل الله.

وقنعوا بالثمن الذي قدمه لهم ربهم ، ألا وهو قربه منهم في جنة عدن عند مليك مقتدر ، قال تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ [1] .

.. ولكن لم ينشب قتال ولم يخض المسلمون المعركة مع قريش وتوصل رسول الله ﷺ إلى صلح معهم.

وجلس رسول الله ﷺ بجوار علي بن أبي طالب وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

قال سهيل — مندوب قريش في عقد الصلح — لا أعرف هذا.. ولكن اكتب باسمك اللهم.

فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم.

ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو.

قال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله ﷺ : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه لا إسلال ولا إغلال [2] ، وأنه من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدهم دخل فيه.

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) الأسلال : السرقة الخفية ، والأغلال : الخيانة.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده.

وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

ثم كتب: وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك. فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها[1] ...

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو.

جاء إلى رسول الله والقيد في رجليه.

جاء مؤمناً يريد أن يفر بدينه إلى جماعة المسلمين.

وما كاد أبوه يراه حتى أخذ بتلابيبه وانهال عليه ضرباً ولكماً ثم قال: يا محمد قد انعقدت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

قال: صدقت.

وجعل أبوه يجره إلى قريش وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم»[2].

أين معقل بن يسار من هذه القضية؟..

إنه قريب جداً فهو مع الذين بايعوا رسول الله.. وهو الذي أعد عدته ولبس درعه، وأخرج سيفه انتظاراً لأمر رسول الله ﷺ بمناجزة القوم..

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ١٩١ وذكره البخاري في باب المغازي.

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩١.

ولكنه شاهد صلحاً ووثيقة تكتب.. ورأى رسول الله ﷺ تقترب الشمس من رأسه، وترسل أشعتها المحرقة الى الأرض فما كان من معقل إلا أن أسرع واعتلى شجرة، وقطع أحد فروعها، ووقف به فوق رسول الله ﷺ يحميه من وقدة الشمس.. ومن أشعتها المحرقة.. واستمر كذلك حتى تم كتابة الوثيقة واتجه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي كانت معدة له.

ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة.. وأمر أصحابه بالتجهز لغزو خيبر التي يقطنها جماعة من اليهود.

وفي خيبر جلس معقل بن يسار يستمع للرسول ﷺ وهو يقول لأصحابه:

«لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره». يعني إتيان الحبالى من السبايا حتى يستبرئها.

«ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها».

«ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى اذا أعجفها ردها فيه».

«ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى اذا أخلقه رده فيه»[1].

إنها آداب الحرب التي وضعها رسول الله ﷺ لأصحابه وأتباعه، انها خصائص الانسانية في أجمل صورها.. إنها المثل العليا التي أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتخلقوا بها.

لا اعتداء على الأعراض حتى ولو كانت للأعداء.

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٨٢ والبداية والنهاية جـ ٤ ص ٢١٦ وفي الصحيحين عن طريق الزهري أن رسول الله نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر وعن لحوم الحمر الأهلية.

ولا النيل من حرمات الآخرين حتى ولو كانوا يصدون عن سبيل الله.

ولا غلول في المعركة، بأن يأخذ الانسان أكثر من حقه، أو يجور على حقوق الآخرين..

ولكن للمعارك قواعد وأصول في شريعة الاسلام.

يلتزم بها الجندي والقائد، والصغير والكبير، فإذا تعداها انسان كان خارجاً عن نظام الجماعة. فتقع عليه العقوبة الرادعة حتى لا يعود لمثلها مرة أخرى.

فهل التزم معقل بهذه الآداب؟.

وأخذ نفسه بها في كل معاركه.

إن وقائع التاريخ تقول إنه كان جندياً ملتزماً، ومحارباً شريفاً ومسلماً عرف حدود دينه، ووعى منه ما يأتي وما يدع.

.. لقد اشترك معقل في حروب الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق وسافر مع الجيش الذي أرسله عمر رضي الله عنه لفتح فارس. ففتح الله عليهم، وانتصروا في كثير من معاركهم..

واستقر معقل بالبصرة وبنى بها داراً وسمى النهر الذي يوجد فيها باسمه.. نهر معقل.

وفي يوم من الأيام جاء البريد إلى عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بأن الأعاجم اجتمعوا بنهاوند في خمسين ألفاً ومائة ألف مقاتل.

فجمع عمر الناس واستشارهم وقال لهم:

«هذا يوم له ما بعده، وقد هممت أن أسير فيمن قبلي ومن قدرت عليه فأنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين، ثم أستنفرهم وأكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم، ويقضي ما أحب.

فقال طلحة بن عبيد الله ــ رضي الله عنه:

يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور واحتنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ورأيك ، لا نبو في يديك ولا نكل عليك اليك هذا الأمر ، فرنا نُطع وادعنا نجب ، واحملنا نركب ، وقدنا نَنقدْ فإنك ولي هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت.

فقام عثمان بن عفان — رضي الله عنه — فقال :

أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم ، وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جمع المشركين بجمع للمسلمين فإنك إذا سرت قل عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر.

يا أمير المؤمنين : إن هذا يوماً له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه[1].

وقام عليّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — وقال :

أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات.

أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق :

فرقة في حرمهم وذراريهم ، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا ، ولتسر فرقة إلى اخوانهم بالكوفة مدداً لهم.

إن الأعاجم إن ينظروا اليك غداً قالوا هذا أمير المؤمنين أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد كلبهم عليك.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٧ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ص ١١٨.

فقال عمر — رضي الله عنه — «هذا هو الرأي، كنت أحب أن أتابع عليه»[1].

ولكن من القائد الذي يقود جموع المسلمين؟..

إن عمر بصير بأقدار الرجال، ولقد انتدب أكفأ القادة وأحزم الولاة من خشوعهم في الصلاة، ثم من خلال مواهبهم في الحياة، فكأن اتقان الصلاة رشح هؤلاء لمناصب القيادة والإمارة.

وفي هذه المعركة.. وعمر مشغول بأمر القائد. دخل عمر المسجد فرأى رجلاً يصلي صلاة خاشعة. فامتلأ قلبه إعجاباً به وامتلأت نفسه ثقةً فيه. وكان الرجل مفتول الذراعين مرفوع القامة، قوي العضلات وسأل أمير المؤمنين: من هذا؟..

فقيل له: هذا النعمان بن مقرن.

فقال: عليّ به.

فلما مثل بين يديه قال له عمر: لقد انتدبتك لأمر عظيم.

فقال الرجل العملاق: يا أمير المؤمنين إن كنت تريدني لجمع الصدقات فإني لا أصلح لذلك، وإن كنت تريدني للجهاد والاستشهاد في سبيل الله فإني أصلح له.

فقال أمير المؤمنين: بل أردتك للاستشهاد، ثم ولاه إمارة الجيش الذاهب الى نهاوند[2].

واختار النعمان قواده.

نعيم بن مقرن.

حذيفة بن اليمان.

معقل بن يسار.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٨، البداية والنهاية جـ ٧ ص ١١٩.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٩.

القعقاع بن عمرو.

مجاشع بن مسعود.

وسار هؤلاء الرجال بكتائبهم والذي يعدل كل واحد منهم ألف مقاتل.

وجاء معقل بن يسار بجنوده من أهل البصرة — يعمر قلوبهم الإيمان وأجسامهم القوية، وأذرعتهم المفتولة، وسيوفهم السمهرية في شوق الى لقاء الأعداء ليفوزوا بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

والتقى معقل بن يسار، والنعمان بن مقرن، فأوصاه بدينه وبجنوده خيراً ثم أمره أن يكون بجواره في المقدمة.

حتى اذا وصلوا الى مكان المعركة.. كان أول عمل قام به النعمان أن طلب من جنده أن يتوضأوا ليصلوا صلاتهم قبل الالتحام بعدوهم، ففعلوا. وبعد الصلاة مباشرة طلب إليهم أن يرفعوا أيديهم قائلاً لهم:

«أيها الناس إني داع فآمنوا» ثم قال:

«اللهم اني أسألك أن تُقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيداً».

فقالوا جميعاً: آمين.

ثم رجع الى موقفه فكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال، وحمل النعمان والناس معه فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها، وصبر المسلمون صبراً عظيماً وانهزم الأعاجم وقتل منهم خلق كثير.

فلما أقرّ الله عين النعمان بالفتح استجاب له بالشهادة.

قال معقل: فأتيت النعمان وهو صريع ومعي إداوة فيها ماء، فغسلت عن وجهه التراب فقال:

ما فعل الناس؟.

فقلت: فتح الله عليهم.

قال: الحمد لله. ثم فاضت روحه[1].

.. وحزن معقل على صديقه النعمان حزناً شديداً.. لأنه رأى أنه لا زال على أرض فارس قوة ضاربة تحتاج الى سيف النعمان.. ولم تغب عنه أن لكل أجل كتاباً.. وان صاحبه النعمان اعطاه ربه الشهادة التي طلبها.

وما كاد معقل ينفض يديه من مواراة جثة النعمان.. حتى كانت هناك معركة أخرى تناديه وتحتاج إلى سيفه وسيوف أصحابه، إنها معركة أخرى على أرض أصفهان.. فاستولى عليها الجيش الاسلامي.

ومنها ساروا إلى «جي» فاستسلمت لهم بدون قتال.

ثم ماذا.. مات عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فأين معقل بن يسار؟.

هل استعمله عثمان بن عفان؟.

هل كان مع الثائرين على عثمان؟.

أو انه اعتزل الفتنة وجلس في بيته؟.

إن التاريخ يصمت في تلك الفترة، فلا يذكره من قريب أو بعيد.. حتى كانت واقعة الجمل التي كانت بين معاوية والإمام عليّ شوهد معقل وهو يقود قبائل كنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة. التابعة للإمام علي بن أبي طالب —رضي الله عنه—. وانتهت المعركة بانتصار علي وهزيمة المناوئين له.

أما عن معقل.. فلقد رأى في هذه المعركة هولاً ورعباً.. لقد تعود أن يستعمل سيفه في سبيل الله وقتل عصابات الكفر وطواغيت الضلال أما في هذه المعركة فكان سيفه لمن يقول: لا إله إلا الله — يوجه سيفه إلى اخوة مؤمنين.

(1) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ١٩ — ٢٠.

وهذا لا يكون.. إذن فليتحطم رمحه.. وليدفن سيفه حتى يعلوه الصدأ ولا يرفعه في وجه مسلم مرة أخرى.

وجلس في بيته وعاش لربه.. وانتظر أن تزول هذه الغمة التي حلت بالمسلمين ففرقت وحدتهم.. وشتت شملهم.. ولكن الليل طار.. والفتن استطارت.. ولم يكن لليل آخر ولا للفجر بشائر.. فاتجه إلى ربه أن يقبضه اليه.

وحان أجله واتجه إلى ربه في جنة عدن التي وعد الله بها عباده المؤمنين.

رحم الله معقلاً وجزاه عن الاسلام وأهله جزاء المجاهدين.

وقيل إن وفاته كانت بالبصرة في آخر خلافة معاوية[١] ، وقد قيل إنه توفي في أيام يزيد بن معاوية رحمهم الله جميعاً.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٤٣٣.

أسباب نزول الآيات

عن يونس بن عبيد عن الحسن أنه قال في قول الله تعالى :

﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا ﴾[1] الآية . قال : حدثني معقل بن يسار أنها نزلت فيه ، قال :

«كنت زوجت أختاً لي من رجل فطلقها حتى اذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له :

«زوَّجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها ، لا والله لا تعود اليها أبداً» .

قال : وكان رجلاً لا بأس به فكانت المرأة تريد أن ترجع اليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية فقلت :

«الآن افعل يا رسول الله فزوجتها إياه»[2] .

وعن عباد بن راشد عن الحسن قال : حدثني معقل بن يسار قال :

«كانت لي أخت فخطبت إليّ ، وكنت أمنعها الناس ، فأتاني ابن عم لي

(١) سورة البقرة آية ٢٣٢ .

(٢) رواه البخاري عن أحمد بن حفص وتفسير الطبري جـ ٥ ص ١٩ والسنن الكبرى للبيهقي جـ ٧ ص ١٠٣ ، ١٣٨ والأم للشافعي جـ ٥ ص ١١ .

فخطبها فأنكحتها إياه ، فاصطحبها ما شاء الله ، ثم طلقها طلاقاً له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها ، فخطبها مع الخطاب ، فقلت :

«منعتها الناس وزوجتك إياها ، ثم طلقتها طلاقاً له رجعة ، ثم تركتها حتى انقضت عدتها ، فلما خطبت إليَّ أتيتني تخطبها ، لا أزوجك أبداً ، فأنزل الله تعالى :

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾[1] فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه.

وعن مبارك بن فضالة عن الحسن :

أن معقل بن يسار زوج أخته رجلاً من المسلمين ، وكانت عنده ما كانت فطلقها تطليقة ثم تركها ومضت العدة فكانت أحق بنفسها فخطبها مع الخطاب فرضيت أن ترجع اليه فخطبها الى معقل بن يسار فغضب معقل وقال :

«أكرمتك بها فطلقتها ، لا والله لا ترجع اليك بعدها».

قال الحسن : علم الله حاجة الرجل الى امرأته ، وحاجة المرأة الى بعلها ، فأنزل الله تعالى في ذلك القرآن :

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾[2] إلى آخر الآية.

قال : فسمع ذلك معقل بن يسار فقال : سمعاً لربي وطاعة ، فدعا زوجها فقال :

«أزوّجك وأكرمك فزوجها إياه»[3].

---

(١) و (٢) سورة البقرة آية ٢٣٢.

(٣) راجع تفسير الطبري جـ ٥ ص ١٩ والدر المنثور جـ ١ ص ٢٨٧ ، وأسباب نزول القرآن للواحدي ص ٧٤ — ٧٥.

تذييل...

الأسرة في الاسلام هي المكان الطبيعي الذي يتولى حماية الأطفال ورعايتهم وتنمية أجسادهم وعقولهم وأرواحهم.

والطفل الانساني هو أطول الأحياء طفولة، ذلك أن مرحلة الطفولة هي مرحلة اعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي.

ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في الأرض هو أضخم دور امتدت طفولته فترة أطول، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الانساني وألصق بفطرة الانسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة.

وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهاز آخر عن جهاز الأسرة لا يعوض عنها ولا يقوم مقامها، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوّن الطفل وتربيته وبخاصة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة.

واذا كان ذلك كذلك فهل اهتم الاسلام بالأسرة؟.

الاسرة التي هي حضن الطفولة ومصنع الرجولة.. ومربية الابطال؟.

ان القارئ لكتاب الله تعالى يرى حرص الاسلام على قيام الاسرة على أسس ثابتة متينة..

فأولاً حرصه على أن يكون الزواج من مؤمن أو مؤمنة..

ويرفض رفضاً باتاً أن تقوم الأسرة الاسلامية وأحد أركانها لا يدين بالإيمان ولا يؤمن بالله تعالى.

يقول تعالى في محكم كتابه:

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾[1].

والرسول ﷺ يؤكد هذا المعنى — معنى الايمان بقوله:

«عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال: تنكح المرأة لثلاث: لما لها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2].

فدعائم الأسرة يجب أن تقوم على الإيمان على معرفة الله سبحانه وتعالى لأن الإيمان هو الجهاز الواقي للبيت لكل ما يلفه من اضطرابات واعاصير والزواج يقوم على المودة والمحبة، قال تعالى:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً﴾[3].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١.

(٢) صحيح مسلم باب استحباب نكاح ذات الدين.

(٣) سورة النساء الآية ١.

وقال : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1].

ومن هنا تظهر الحكمة من هذا الرباط المقدس : لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة.

ان حكمة الخالق في خلقه كل من الزوجين على نحو يجعله موافقاً للآخر ملبياً لحاجته الفطرية ، نفسية وعقلية وجسدية ، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد.

وقد يرتبط كل من الزوجين بالآخر.. ثم لا يحدث توافق أو انسجام بين الزوجين وينفر كل منهما من الآخر.

فماذا يكون ؟.. يكون الانفصال ويكون الطلاق.. والطلاق أبغض الحلال الى الله. وهو عملية بتر لا يلجأ اليها الا حين يخيب كل علاج. يقول تعالى عندما يحدث بين الزوجين اختلاف وجهات النظر :

﴿وإن خفتم شقاقَ بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً﴾[2].

ان الاسلام يلجأ الى هذه الوسيلة الأخيرة — عند خوف الشقاق فيبادر قبل وقوعه فعلاً ببعث حَكم من أهلها ترتضيه ، وحكم من أهله يرتضيه.

يجتمعان في هدوء بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية والملابسات المعيشية التي كدرت صفو العلاقات بين الزوجين ، طليقين من هذه

---

(١) سورة الروم الآية ٢١.

(٢) سورة النساء الآية ٣٥.

المؤثرات التي تفسد جو الحياة، وتعقد الأمور، وتبدو لقربها من نفس الزوجين كبيرة تغطي على كل العوامل الطيبة الأخرى في حياتهما.

حريصين على سمعة الأسرتين الأصليتين.

مشفقين على الأطفال الصغار.

بريئين من الرغبة في غلبة أحدهما على الآخر.

راغبين في خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار.

فإذا فشلت هذه المحاولات كان الطلاق.

والطلقة الأولى تجربة يعلم منها الزوجان حقيقة مشاعرهما.

فإذا اتضح لهما في أثناء العدة أن استئناف الحياة مستطاع، فالطريق مفتوح.

«وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً»[1].

في ذلك أي في فترة الانتظار والتربص — وهي فترة العدة. قال تعالى:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[2].

إن المعروف والجميل والحسنى يجب أن تسود جو هذه الحياة، سواء اتصلت حبالها أو انفصمت.

ولا يجوز أن تكون نية الايذاء والإعنات عنصراً من عناصرها، ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة في حالة الانفصال والطلاق إلا عنصر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٢.

والطلقة الثانية تجربة أخرى وامتحان أخير ، فإن صلحت الحياة بعدها فذاك ، وإلا فالطلقة الثالثة دليل على فساد أصيل في حياة الزوجية لا تصلح معه حياة.

روى البخاري بإسناده عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله — ما أعيب عليه في خلق ولا دين. ولكن أكره الكفر في الاسلام.

فقال رسول الله ﷺ :

«أتردين عليه حديقته»؟

قالت : نعم.

قال رسول الله ﷺ : «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة».

وفي رواية ابن جرير عن أبي جرير أنه سأل عكرمة : هل كان للخلع أصل؟..

قال : كان ابن عباس يقول : إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله ابن أُبي ، أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله.. لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً ، إني رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهاً.

فقال زوجها : يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي ، حديقة لي فإن ردت عليّ حديقتي.

قال : ما تقولين؟..

قالت : نعم ، وإن شاء زدته.

قال : ففرق بينهما.

جَابر بن عَبد الله

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ
ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا
تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا
ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا
وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ
أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء : آية رقم ١٧٦]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والحديث والسير نزلت هذه الآية في جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ١ ص ٤١ .

وذكره ابن كثير في تفسيره جـ ١ ص ٥٩٢.

وقال القرطبي في التفسير أيضاً جـ ٦ ص ٢٨ .

وقاله صاحب تفسير الخازن جـ ١ ص ٥٢٤.

وقاله ابن حجر في فتح الباري جـ ١ ص ٢٦٨ .

باب : يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة .

وذكره صاحب معالم التنزيل جـ ١ ص ٥٢٤.

فمن هو جابر بن عبد الله؟..

جابر بن عبد الله

رضي الله عنه

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام.

صحابي من فقهاء الصحابة.

مولده بالمدينة حيث الحدائق الجميلة والفسيحة، والبساتين المعطاء الكثيرة. والأشجار المنتشرة هنا وهناك، فوّاحة بالعطر، مليئة بالثمر. تسر العين، وتفرح القلب، وتملأ الحياة نوراً وبهاء.

وكان لوالده مزرعة خارج المدينة يصحبه معه كلما ذهب إليها، وأحب الطفل هذا المكان وأصبح يتردد عليه كثيراً، وكان يجلس في هذه المزرعة يتأمل خرير الماء الخارج من أكنة بعض الصخور المحيطة بالمزرعة، ويتابعه وهو ينساب في هوادة ويسر تحت شجيرات التين، وكروم العنب، وما تكاد المياه تغمر تربتها حتى تترعرع الأشجار، وتتفتح الزهور، ويُملأ الكون كله بنسمات عليلة وروائح ذكية.

... وفي يوم من الأيام شاهد الفتى الطلعة والده يتجهز لرحلة بعيدة، وما كاد ميعاد تحرك القافلة يأذن بالرحيل، حتى جلس الوالد عبد الله إلى ابنه جابر يوصيه بالمزرعة خيراً، ويطلب منه أن يكون نعم الابن المطيع لأوامر أُمه حتى يعود من هذه الرحلة، وسيكافئه عند عودته بالملابس الجديدة وكل ما تهواه نفسه من لعب وحلوى.

ولكن الفتى يرفض كل ما يعرضه عليه والده — ويتشبث به ، ويلحُّ في أن يصحب والده في تلك الرحلة — وهو ليس بالصغير الذي يخشى عليه تعب الطريق ومشقات السفر.

وفشلت كل الأمور في رد الفتى عن طلبته — وأمام هذا الإصرار لم يكن أمام الوالد — إلّا النزول على رغبة هذا الابن واصطحابه معه.

وسارت القافلة تسرع السير إلى مكة.

إنها لم تكن قافلة من قوافل التجارة.

ولم تكن تحمل كوكبة من الفرسان الذين يريدون الغارة والاستيلاء على الأرض والمرعى.

ولم تكن قافلة تتجه إلى بعض النجوع القريبة ، لتحمل عروساً إلى عريسها بين دقات الدفوف وألحان الرجز.

ولكنها والحق يقال كانت قافلة من نوع جديد. فجموعة من رجال الأنصار ونسائها.. سمعوا بدعوة الرسول ﷺ ، ووعت صدورهم بعض آيات القرآن الكريم يرتلها لهم سفير الرسول إليهم — مصعب بن عمير — رضي الله عنه ، فأعلنوا إسلامهم ونبذوا أصنامهم ، وعاشوا في انتظار اليوم الذي يلتقون فيه مع رسول الله ﷺ.

وسارت القافلة — حتى لاحت أمامها مشارف مكة — فأناخوا قوافلهم وأرسلوا رسولهم لمقابلة رسول الله ﷺ ، وعاد رسولهم ليخبرهم أن الرسول ﷺ سيلتقي بهم في هذه الليلة في مكان حدّده لهم.

.. وجاء ميعاد اللقاء ، وشاهد الفتى جابر رسول الله ﷺ وهو يصافح هؤلاء الأنصار ويبارك قلوبهم ، فسرى نور الإيمان في قلبه ، واستقرّ حب هذا الرجل في قلبه وأصبحت صورته لا تفارق مخيلته..

وانفضَّ اللقاء، وتمت البيعة بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار الذين سيكون لهم دور في تاريخ هذه الدعوة، وسيحملونها مع إخوتهم المهاجرين إلى كل بقاع العالم يدعون إلى كلمة التوحيد وإلى نبذ عبادة غير الله، والناس جميعاً سواء لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح.

وفي طريق العودة إلى المدينة أخذ الفتى جابر يلاحق والده بأسئلته: مَن هذا الرجل يا أبتي الذي صافح كل الرجال، وكان مشرق الوجه، صادق العبارة طيب الرائحة؟.

وقال له والده: إنه رسول الله ﷺ يا جابر.

ومن الله الذي أرسل هذا الرسول؟..

وقال الوالد: إنه يا بني الذي خلق السماوات والأرض. والذي يأتي بضوء النهار فنذهب إلى المزرعة، ويرسل ظلمة الليل فنعود إلى مضاجعنا..

الابن: لا أفهم كثيراً مما تقول يا والدي؟

— أزيدك إيضاحاً يا بني.. أترى المياه التي تأتينا من كن الجبل؟ من الذي يرسلها؟..

— لا أعرف يا والدي؟..

— أرأيت البذرة التي وضعتها في التربة من أيام وسقيناها سوياً بالماء.. ثم خرجت نبتة يانعة من التربة.. نعم يا والدي.

— من الذي أخرج النبتة؟..

— لا أدري يا والدي..

— أترى صفحة السماء في السماء وهي مليئة بالكواكب والنجوم ترسل ضياءها وترشد المسافرين وتحدد أوقات الغادين؟..

— نعم يا والدي.

— من الذي علقها على صفحة السماء فلا تسقط ورتبها فلا تختلف؟

— لا أدري يا والدي؟؟..

— يا بني الذي فعل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

إنه الله سبحانه وتعالى الذي أرسل رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الواحد الأحد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار.

انطق يا بني بما نطق به أبوك قبلك:

«أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

ونطق الفتى بكلمة الشهادة.

ووقفت القافلة للراحة والتزود بالماء، وأخذ الوالد ابنه إلى موضع الماء فتطهر وتوضأ، وأصبح إنساناً جديداً يتحلى بمكارم الأخلاق ويدين بعقيدة الإسلام.

وسارت الحياة بالفتى جابر، يذهب إلى المزرعة في الصباح ويعود في المساء، يجلس مع أترابه، يتحدثون ويتجادلون، ويترقبون وصول الرسول ﷺ الذي تستعد لاستقباله المدينة بأسرها رجالاً ونساء، شباباً وأطفالاً. حتى جاء اليوم الأغر يوم الهجرة الأعظم الذي وطئت فيه أقدام الرسول ﷺ أرض يثرب.

ومن ذلك التاريخ، أصبح للحياة طعماً جديداً لدى كل الذين تابعوا محمداً ﷺ.

لقد عرفوا أن الحياة رحلة قصيرة في عمر الزمن، بعدها تأتي الحياة الأبدية حياة الخلود.

وآمنوا أن الله سبحانه وتعالى أوجدهم لغاية: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

وسخّر لهم الأرض والسماء والشمس والقمر: ﴿كل في فلك يسبحون﴾[1] وأعطاهم من نعمه الظاهرة والباطنة ما لا يحصى ولا يعد: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[2].

كل هذه المعاني الطيبة كان الفتى جابر يسمعها صباح مساء، وتستقر في عقله وقلبه لا تفارقه.

حتى جاء يوم — شاهد الفتى والده — يشحذ سيفه، ويجهز مطيته لأمر ما.

واقترب الفتى من والده يسأله عن الخبر، فأخبره أن قريشاً أقبلت بخيلها ورجلها، تريد حربنا والقضاء على دعوتنا.

وقال الفتى: أذهب معك يا والدي..

وقال الأب: ليس هذا لي يا بني، ولكنه لقائد الجيش رسول الله ﷺ، الذي يأمر بأخذك أو بردّك حتى يكتمل عودك وتقوى يدك على حمل السيف ومقارعة أعداء الله.

هل حضر جابر غزوة بدر؟..

بعض الروايات تجيز ذلك، والبعض الآخر ينفي أن جابراً حضر غزوة بدر.. وإذا لم يكن حضرها فلا شك شارك المسلمين فرحتهم ونصرهم، ومنى نفسه بمعركة أخرى يشارك المسلمين فيها مجالدة أعداء الله وأعداء دينه.

وجاءت غزوة أُحد، وجلس عبد الله إلى ابنه يقول له: «يا بني إني أرجو أن أكون في أول من يصاب غداً، فأوصيك ببنات عبد الله خيراً».

فذهب جابر إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أبي خلفني على أخوات لي سبع وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٣.

(٢) سورة النحل آية ١٨.

فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه ، ودارت رحى المعركة . وكان للكفر فيها جولة ، وقتل عبد الله ، يقول جابر : لما قتل أبي يوم أُحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه ، وأبكي ، وجعل أصحاب الرسول ﷺ ينهونني ، والنبي ﷺ لا ينهاني ، قال : وجعلت عمتي فاطمة بنت عمرو تبكي عليه.

فقال النبي ﷺ : «أبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه».

ويقول جابر أيضاً : إن رسول الله ﷺ لما خرج لدفن شهداء أُحد قال :

«زملوهم بجراحهم فإني أنا الشهيد عليهم . ما من مسلم يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة يسيل دماً ، اللون لون الزعفران والريح ريح المسك».

قال جابر : وكفن أبي في نمرة واحدة ، وكان يقول ﷺ : «أي هؤلاء كان أكثر أخذاً للقرآن»؟..

فإذا أشير له إلى الرجل قال : «قدموه في اللحد قبل صاحبه».

قالوا : وكان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل قتل من المسلمين يوم أُحد ، قتله سفيان بن عبد شمس أبو أبي الأعور السلمي . فصلّى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة ، وقال رسول الله : «ادفنوا عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء».

وقال : «ادفنوا هذين المتحابين في قبر واحد».

فدفنا في قبر واحد.

وكان قبرهما مما يلي المسيل ، فدخله المسيل فحفر عنهما ، وعليهما نمرتان ، وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه ، فيده على جرحه فأميطت يده على جرحه فانبعث الدم ، فردّت يده إلى مكانها فسكن الدم.

قال جابر : فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم ، وما تغير من حاله قليل ولا كثير.

فقيل له : فرأيت أكفانه ؟.. قال : إنما كُفّن في نمرة خُمِر بها وجهه ، وجعل على رجليه الحرمل فوجدنا النمرة كما هي ، والحرمل على رجليه على هيئته وبين ذلك ست وأربعون سنة. فشاورهم جابر في أن يطيب بمسك ، فأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا :

« لا تحدثوا فيهم شيئاً ».

أهناك من ينكر ذلك ؟.. أيستطيع إنسان أن يقول كيف يبقى الميت نصف قرن ولم تأكله الأرض ؟..

إن هذا ما حدث ، ولا يماري في ذلك إنسان مسلم يفقه دينه ويقرأ قول الله تعالى :

﴿ ولا تحسبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيلِ الله أمواتاً بَلْ أحياءٌ عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من اللهِ وفضل وأن الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين ﴾(1).

ويعيش جابر في هول الذكرى حزين القلب ، منكسر الفؤاد ، لا تفارق اللوعة فؤاده ، ولا ترف البسمة على شفتيه. ويراه رسول الله ﷺ على هذه الحال التي يجب ألا يقيم عليها مسلم ، فيقول له : يا جابر ما لي أراك منكسراً مهتماً ؟..

يقول جابر : قلت يا رسول الله. استشهد أبي وترك عيالاً وعليه دين. قال :

« أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك ».

قلت : بلى يا رسول الله.

قال : « إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً ، وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ».

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ١٦٩ — ١٧١.

فقال : يا عبدي تمن أعطك.

قال : يا رب تردني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية.

فقال الرب تعالى ذكره : (إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون).

قال : يا رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله تعالى :

﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (١).

ومن هذا التاريخ أخذ جابر يلازم رسول الله ﷺ لا يفارقه في حضر ولا سفر، ويحدثنا جابر حديثاً عن صلاة الخوف قائلاً :

«غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل مع أصحابه أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه. فنزل النبي ﷺ، وتفرَّق الناس يستظلون بالشجر ونزل ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه.

قال جابر : إن رجلاً من بني محارب يقال له غورث، قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمداً؟.

قالوا : بلى، وكيف تقتله؟.

قال : أفتك به.

قال جابر : فجاء وسيف رسول الله ﷺ معلَّق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فسله.

فقال لرسول الله : أتخافني؟..

فقال النبي : «لا».

قال : فمن يمنعك مني؟..

قال : «الله يمنعني منك».

قال : فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلقه.

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩.

قال : فنودي بالصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين.

قال : فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتان.

وكانت هذه الواقعة في غزوة ذات الرقاع في العام الرابع الهجري، وقفل الرسول ﷺ راجعاً إلى المدينة.

قال جابر رضي الله عنه : كان معي جمل ضعيف في تلك الغزوة، فأخذ، الرفاق تمضي وجعلت أتخلف، حتى أدركني رسول الله ﷺ.

فقال : «ما لك يا جابر»؟.

قال : قلت : يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا.

قال : «أنخه».

قال : فأنخته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال : «أعطني هذه العصا من يدك» أو «اقطع لي عصا من شجرة».

قال : فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال : «اركب» فركبت. فخرج والذي بعثه بالحق يسابق ناقته مسابقة.

قال : وتحدث مع رسول الله ﷺ فقال لي :

«أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟.

قلت : يا رسول الله، بل أهبه لك.

قال : «لا، ولكن بعنيه».

قلت : فسُمْنيه يا رسول الله.

قال : قد أخذته بدرهم.

قلت : لا إذن تغنيني يا رسول الله.

قال : فبدرهمين.

قلت : لا .

قال : فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية .

قلت : أفقد رضيت يا رسول الله؟..

قال : نعم .

قلت : فهو لك .

قال : قد أخذته ، ثم قال : يا جابر ، هل تزوجت بعد؟..

قلت : نعم يا رسول الله .

قال : أثيباً أم بكراً؟

قلت : بل ثيباً .

قال : «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك»؟ .

قلت : يا رسول الله إن أبي أُصيب يوم أُحد ، وترك بنات له سبعاً ، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن .

قال : أصبت إن شاء الله ، أما إنا لو قد جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذاك وسمعت بنا فنفضت نمارقها .

قلت : يا رسول الله ما لنا من نمارق .

قال : إنها ستكون .

فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً .

قال : فلما جئنا «صراراً» أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا .

قال : فحدثت المرأة الحديث ، وما قال رسول الله ﷺ

قالت : فدونك سمع وطاعة .

قال : فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب «مسجد» رسول الله ﷺ.

قال : ثم جلست في المسجد قريباً منه.

قال : وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال : «ما هذا»؟.

قالوا : يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر.

قال : فدعيت له.

فقال يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك.

ودعا بلالاً فقال له :

«اذهب بجابر فأعطه أوقية».

قال : فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً.

قال : فوالله ما زال ينمى عندي ويرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا، يعني يوم الحرّة.

أرأيتم ما فعل الرسول ﷺ مع أحد أصحابه إنه معهم في فرحهم وسرورهم في حزنهم وآلامهم، يسأل عن دابته الضعيفة، ويسأل عن تأخره عن الركب.

ويعرف حاجته إلى المال وأنه قد قتر عليه في الرزق فيساومه على دابته، وتقوم المبايعة والمقايضة بين القائد والمقود، بين الرسول وصاحبه، ترفرف عليهم روح الأخوة الخالصة والإيمان العميق.

وبهذه السماحة بين القائد والمقود، وبهذه الأخوة التي فيها يؤثر كل أخ أخاه على نفسه قام مجتمع الإيمان، مجتمع الإحسان، المجتمع الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً في تاريخها الطويل.

.. فأحدهم يبذل كل ماله في سبيل الله، وعندما يسأل عن ماذا ترك لأولاده الصغار؟..

يقول : تركت لهم الله ورسوله.

وثانيهم : يخرج لوداع الجيش المسافر على بركة الله لنشر دين الله ، ويقول للجنود.

«سيروا على بركة الله وأنا أبو العيال حتى تعودوا».

وثالث : يحول بين أبيه وبين دخول المدينة — الذي أصبح أن يكون عليها ملكاً متوّجاً لولا مجيء الإسلام — ويقول لوالده : محال أن تدخلها حتى يأذن الله ورسوله.

ورابع وخامس.. وغير ذلك كثير ، فأين جابر وسط هذا المجتمع الفريد؟

يقول جابر رضي الله عنه : علم الرسول ﷺ بخروج قريش إليه ، بعد أن أجمعوا أمرهم على قتاله ، فأمر بضرب الخندق حول المدينة ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر. وأيضاً عندما اعترضت المسلمين صخرة كبيرة يقول جابر : فشكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الصخرة ، فيقول من حضرها :

«فوالذي بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالكثيب لا ترد فأساً ولا مسحاة.

يقول جابر رضي الله عنه : فاتجهت إلى بيتي وكانت عندي شويهة غير ثمينة ، فقلت : لو صنعناها لرسول الله ﷺ.

قال : فأمرت امرأتي ، فطحنت لنا شيئاً من شعير فصنعت لنا منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله ﷺ.

قال : فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق.

قلت : يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، وصنعنا معها شيئاً من خبز هذا الشعير.

فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي.

قال جابر ذلك ــ وكان يحب أن ينصرف معه رسول الله ﷺ ــ وحده.

ويكمل جابر حديثه فيقول:

فلما قلت له ذلك قال: نعم.

ثم أمر صارخاً فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله.

فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

فأقبل رسول الله ﷺ، وأقبل الناس معه. قال: فجلس وأخرجناها إليه.

فبرك وسمى «الله» ثم أكل، وتواردها الناس كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها.

إن الرسول ﷺ لا يأكل وحده، ولا يفضّل نفسه على أصحابه وهو وهم كما وصفهم خالقهم سبحانه وتعالى بقوله:

﴿محمدٌ رسولُ الله والّذينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحماء بينَهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغُون فَضْلاً من اللهِ ورضواناً سيِماهُمْ في وُجُوهِهِمْ من أَثَرِ السُّجُودِ﴾(1).

ثم ماذا؟ مات الرسول ﷺ، ثم مات الخليفة أبو بكر، ثم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجابر مع هؤلاء الصحابة، نعم العون ونعم الرفيق في الحرب والسلم.

وسارت به الحياة!.

يودع كل يوم حبيباً أو رفيقاً.

فجلس في بيته: يتذاكر كتاب الله، ويتدارس سنّة الرسول ﷺ وينشر هدى النبي الكريم بين جماعة المسلمين حتى جاء الأجل المقدر، ليلحق جابر بصحابته الكرام في جنة عدن عند مليك مقتدر.

رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين.

---

(1) سورة الفتح آية رقم ٢٩.

أسباب نزول الآيات

قال ابن جرير : حدثنا مؤمل بن هشام أبو هشام ، قال : حدثنا إسماعيل بن ابراهيم ، عن هشام الدستوائي . قال :

حدثنا أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال :

اشتكيت وعندي تسع أخوات لي أو سبع فدخل عليّ النبي ﷺ ، فنفخ في وجهي فأفقت وقلت : يا رسول الله ، ألا أوصي لأخواتي بالثلث؟..

قال : أحسن.

قلت : الشطر؟..

قال : أحسن ، ثم خرج وتركني ، ثم رجع إليّ فقال : يا جابر إني لا أراك ميتاً من وجعك هذا ، وإن الله قد أنزل في الذي لأخواتك ، فجعل لهن الثلثين.

قال : فكان جابر يقول : أُنزلت هذه الآية فيّ :

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾[1] .

وحدثني المثنى قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال :

---

(١) سورة النساء آية ١٧٦ .

مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر وهما ماشيان، فوجدوني قد أغمي عليّ. فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب عليّ من وضوئه فأفقت فقلت:

يا رسول الله: كيف أقضي في مالي؟.. أو كيف أصنع في مالي؟.. وكان لي تسع أخوات.. ولم يكن له والد ولا ولد.

قال: فلم يجبني شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ إلى آخر السورة.

قال ابن المنكدر: قال جابر: إنما نزلت هذه الآية فيّ، وكان بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الآية آخر من نزل من القرآن»[1].

ويقول الشيخ علاء الدين المعروف بالخازن: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة)، نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري. عن جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمي عليّ. فتوضأ النبي ﷺ ثم صب عليَّ من وضوئه فأفقت.

فإذا النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله كيف أصنع في مالي؟.. كيف أقضي في مالي؟..

فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث ﴿ويستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾.

وفي رواية فقلت يا رسول الله: إنما يرثني كلالة. فنزلت آية الميراث. قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر: يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة، قال: هكذا نزلت.

وفي رواية للترمذي: وكان لي تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث.

ولأبي داود قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي فأفقت.

---

(١) راجع تفسير الطبري جـ ٦ ص ٤١.

فقلت : يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين؟..

قال : حسن.

قلت : بالشطر.

قال : أحسن.

ثم خرج وتركني ، فقال يا جابر : لا أراك ميتاً من وجعك هذا ، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهم الثلثين.

قال : فكان جابر يقول : أنزلت هذه الآية : ويستفتونك «فيَّ»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله قال :

دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل. قال : فتوضأ ثم صب علي أو قال : صبوا عليه. فعقلت فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث؟.

فأنزل الله آية الفرائض ، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ، وروى الجماعة من طريق سفيان بن عيينة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر به ، وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث[2] :

﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾[3].

---

(١) راجع تفسير الخازن جـ ١ ص ٥٢٤.

(٢) راجع تفسير ابن كثير المجلد الثاني ص ٤٦٥.

(٣) سورة النساء آية رقم ١٧٦.

تذييل...

الأمر الذي يدعو إلى الدهشة والتساؤل أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، ما كاد يفيق من إغمائه حتى كان أول شيء يفكر فيه هو المال الذي بين يديه..

المال الذي يملكه ولكنه سيؤول إلى الورثة — لهذا طلب من الرسول ﷺ — أن يبين له طرق تقسيمه حتى يتخلص منه.

.. والحقيقة أن المال الذي يجمعه الإنسان بطرق شتّى طوال حياته — وراعى فيه حق الله وحق عبيده أم لم يراعِ — نقول : إن هذا المال في الساعات الأخيرة من حياة الإنسان يكون عبئاً ثقيلاً لا يستطيع التخلص منه.

.. لأن المال يغري — والدنيا حلوة خضرة — حتى إذا بلغت الحلقوم تذكر الإنسان فقط أنه لا يستطيع أن يحمل معه هذه الكنوز وتلك العقارات الى الدار الآخرة.

سيترك الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء.

سيترك القصور العالية والمنازل الفسيحة.

سيترك الذهب والجواهر ، سيترك كل شيء ولا يأخذ معه شيئاً ، إذن هي حسرة

وندامة، هي قلق وضيق، هي شيء لا يحتمل، ويتساءل بينه وبين نفسه والورثة يحيطون به، ويتعجلون خروج روحه، وغروب شمسه..

هل هؤلاء الورثة الذين يرثون هذه الثروة ويتقاتلون عليها بعد موته، سيقومون بها كما كان يقوم.

هل سيؤدون بها حق الله وحق عبيده؟.. هذا إذا كان رجلاً صالحاً، فإذا كانت الثانية — يصور له شيطانه — أن أموال الآخرين التي أخذها منهم بالحيلة أو غصباً وظلماً ستردّ لهم بالتالي — ستعود من حيث أتت — وسيصلى هو عليها ناراً حامية.. ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾[1].

ليس هذا فحسب، ولكن الشيطان الذي أغراه بالسلب والنهب سابقاً يوسوس له بالحسرة والندامة.

هل الورثة ستكون لهم القدرة والدأب الذي كان لديه من المحافظة على هذه الأموال وتنميتها كما كان يفعل؟..

أو أن هؤلاء الورثة سيوسعون بها على أنفسهم ويصرفونها في مطاعم الحياة وملذاتها بعد أن كان مضيقاً عليهم وعلى نفسه؟..

هل ستكون هذه الأموال عامل سعادة وهناء لبنيه وأولاده وهم أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، أو ستكون الأخرى ويحرفهم هذا المال عن الطريق السليم إلى طريق الشيطان؟..

.. إن أخذ أموال الغير بغير حق، كان يعبر القرآن الكريم عنه دائماً «بالأكل».

يقول الله تعالى:

﴿ولا تَأْكُلوا أَمَوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكّامِ لتأْكُلوا فريقاً مِن أموالِ النّاسِ بالإِثْمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(1) سورة النساء آية ٥٦.　(2) سورة البقرة آية ١٨٨.

ويقول تعالى:

﴿وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سديداً. إنَّ الذين يأكُلونَ أموالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنما يأكلونَ في بُطونهم ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً﴾[1].

ولماذا الأكل بالذات.. لأن هذه الأموال لها شهوة كشهوة الطعام والشراب.. وكم يشتهي الإنسان من أطعمة؟. وكم يلقي في بطنه من فواكه ولحوم وغير ذلك؟

ثم ماذا؟.. ماذا تكون نتيجة هذه الأطعمة؟.. وإلى أي شيء تصير؟..

إنها لا شك بعد ذلك تتحول إلى شيء نتن، شيء قبيح يعافه الإنسان وينفر منه.

إن مجرد استيلاء الإنسان على أموال الغير وجعلها في حيازته — يحولها إلى شيء نتن متعفن — لا يطيقه الإنسان السوي.. ولا يقبله عاقل.. ونتساءل إذا كان ذلك كذلك.. كيف يطيقه هذا الانسان؟ ونقول: إنه عندما فكر في ظلم الآخرين تعطلت في جسده أجهزة الخير، وماتت في حسه عوامل الإنسانية.

فأصبح لا يفرق بين الحسن والقبيح.

بين النتن وطيب الرائحة.

بين الحلال والحرام — بل يسير في غيه — حتى تزهق روحه ويقف في يوم الحساب والعقاب.

فماذا يفعل هذا المال معه؟ أعني مال الغير وحقوق الغير؟..

أتترك هذا الإنسان الذي بغى وتجبّر؟.. وهل يمكن أن يفلت من عقاب الله؟ وهل في مقدور الظالم للغير الآكل لأموالهم أن يجتاز الصراط ويتناول كتابه بيمينه؟..

---

(١) سورة النساء: آية رقم ٩ — ١٠.

محال أن يكون ذلك — فالله سبحانه وتعالى — لا بد أن يقتص منه لتردّ الحقوق إلى أصحابها — ومن قبل ذلك — يصور الرسول ﷺ حقوق الغير بقوله :

«تأتي الإبل التي لم تُعط الحق منها تطأ صاحبها بأخفافها ، وتأتي البقر والغنم تطأ صاحبها بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ويأتي الكنز شجاعاً أقرع فيلتقي صاحبه يوم القيامة ، فيفر منه صاحبه مرتين ثم يستقبله فيفر.

فيقول : ما لي ولك؟.

فيقول : أنا كنزك ، أنا كنزك ، فيتقيه بيده فيلقمها»[1] .

---

(١) راجع سنن ابن ماجه جـ ١ كتاب الزكاة باب ما جاء في منع الزكاة رقم ١٧٨٦.

عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدّيق

رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ
أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ
وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾



[سورة الأحقاف : آية رقم ١٧]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير والسيَر : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر.

راجع تفسير زاد المسير لابن الجوزي جـ ٧ ص ٣٨١.

وراجع صحيح البخاري جـ ٨ ص ٤٤٢ ، ص ٤٤٣ في تفسير سورة الأحقاف.

قال ابن كثير : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه. تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥.

وراجع تفسير الجلالين على هامش المصحف الذي طبعه حسن عباس الشربتلي ص ٦٦٧.

وراجع تفسير البغوي والخازن جـ ٦ ص ٨٥.

فمن هو عبد الرحمن بن أبي بكر؟..

عبد الرّحمن بن أبي بكر الصدّيق

رضي الله عنهما

.. والده أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلّا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ما عكم — أي ما تلبث — حين ذكرته له وما تردد فيه»[1] .

وهو صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الهجرة ، قال تعالى :

﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[2] .

وأُمه : أم رومان بنت عامر ، كانت زوجة فاضلة وأُماً بارّة وسيدة حكيمة قال عنها رسول الله ﷺ :

«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر الى أُم رومان»[3] .

وأُخته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، والتي عاشت في بيت النبوّة ، حبيبة إلى رسول الله ﷺ قريبة إلى نفسه شيقة إلى قلبه ، لا يفارقها حتى يعود إليها ، ولا يظعن إلا ويؤوب وملء فؤاده شوق وحنين.

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٣ ط مصر.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٠.

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ٢٧٧.

والذي قال لأم سلمة عندما حدثته برغبة أُمهات المؤمنين :

« يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي في لحاق امرأة منكن غيرها » .

وأخته أسماء ذات النطاقين التي وقفت مع ابنها عبد الله بن الزبير وشدت من أزره أمام طغيان الحجاج .

وعندما قال لها : أخشى يا أماه إن ظفر بي بنو أُميَّة أن يمثلوا بجثتي .

قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فإن كنت على الحق فسر على بركة الله ، وإن كنت على الباطل فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك وأصحابك .

نشأ على بطاح مكة وسهولها كما ينشأ الأبطال ، وعاش أيامه كما يعيش الرجال وعندما جاء الإسلام وأجاب أبو بكر داعي الله ، ودخلت أسرته في دين الله . وقف هو في الجانب الآخر ، مع عصابة الكفر والضلال يسخر من الرجال المؤمنين .

ويسمعهم قوارص الكلم .

وينال منهم وينكل بضعفائهم .

ولم يكتف بذلك ، بل نراه يشارك قريشاً جمعها الجموع وحشدها الحشود لحرب محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم .

وكان له في غزوة بدر باع طويل في الكر والفر ، حتى أراد الله سبحانه وتعالى لدينه أن ينتصر ولحزبه أن تكون لهم الوراثة في الأرض .

وعاد عبد الرحمن إلى مكة ، كما عاد بقية الفارين أمام جند الله ، وهم يتوعدون ، وينتظرون فرصة ينالون فيها من محمد وأصحابه .

ثم كانت غزوة أُحد ، تلك الغزوة التي أحاطت بها ظروف صعبة وملابسات قاسية ! .

منها إكراه الرسول ﷺ على الخروج للمعركة.

وعودة عبد الله بن أُبيّ من وسط الطريق بثلث الجيش.

ومخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ وتركهم أماكنهم رغبة في حيازة الغنائم.

في هذا الجو القاتم، والبلاء النازل على المسلمين، يبرز من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر ونادى بأعلى صوته: مَن يبارز؟..

وما كاد أبو بكر يسمع صوت ابنه حتى همَّ بالخروج إليه.

هم بالخروج إليه ليقتله.

هم بالخروج إليه ليسكت صوتاً من أصوات المشركين، وبوقاً من أبواق الكافرين، ولكن من يدري؟.. أليس من المتوقع أن يتغلب الولد على أبيه ويقتله؟.. لأن القلب إذا كان مظلماً، وليس فيه من نور الإيمان والهداية شيء، لا يبالي بما يأتي وما يدع، ويصبح من السهل أمامه تقطيع وشائج القربى وأواصل الرحم.

من هنا كان قول الرسول ﷺ لأبي بكر: «شم سيفك وأمتعنا بك» وحال بينه وبين الخروج.

وانتهت غزوة أُحد، وعاد عبد الرحمن إلى مكة مرة أخرى مع المتنصرين من عصابات الكفر والضلال.

ثم ماذا؟.. يصمت التاريخ عن الحديث بشأن عبد الرحمن فلا يذكره من قريب أو بعيد.

هل اشترك في حروب تالية ضد الرسول ﷺ؟

أو أن قلبه استضاء بنور الإيمان فأعلن إسلامه؟..

كل هذه الأشياء لا يستطيع الإنسان أن يجيب عليها إجابة قاطعة، ما دام التاريخ لم يحدثنا عنها حديثاً مفصلاً.

حتى كانت حروب الردة، التي جهز لها ابو بكر الصديق رضي الله عنه، الجيوش وأعدّ لها الكتائب، وقرر أن يحارب كل من فرق بين الصلاة والزكاة، وقال في ذلك كلمته المشهورة:

«والله لو منعوني عناقاً كانوا يعطونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

في هذه الحروب والمعارك يظهر عبد الرحمن بن أبي بكر في صفوف المسلمين وفي الجيش الذاهب إلى قتال مسيلمة الكذاب.

حتى إذا ما وصلوا إلى مكان يسمى (اليمامة) ودارت المعركة، وتساقط القتلى من الجانبين، وأوشك أن تدور الدائرة على المسلمين.

حتى قال ثابت بن قيس:

«بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين: اللهم إني ابرأ إليك مما يصنع هؤلاء، يعني أهل اليمامة، وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل».

هنا يظهر عبد الرحمن بقامته العالية وسيفه البتار وقلبه القوي، فرأى محكم اليمامة يخطب في قومه:

يحرضهم على القتال والثبات.

ويطالبهم بالحفاظ على الأعراض والنساء.

ويشد من أزرهم ويقوّي عزيمتهم.

ويعدهم بالجنات والعيون التي أعدّها لهم مسيلمة الكذاب، فرماه بسهم في نحره فأرداه وأعمل فيه سيفه ورمحه.

وأسكت هذا الصوت القوي، وأخرس هذا البوق الداعي إلى الثبات والقتال.. وافتقد رجال مسيلمة الرجل الثاني لهم، والقائد الذي يخطط لهم وبقتله انكشف أمام المسلمين مسيلمة بوجهه القبيح، وكأنه أراد أن يقوم بما كان يقوم به

محكم اليمامة. فما كان من وحشي إلا دفع عليه حربته، وقام رجل آخر من الأنصار فضربه بسيفه، قال ابن عمر رضي الله عنه: فصرخ رجل منهم قائلاً: قتله العبد الأسود، وولت بنو حنيفة عند قتله منهزمة.

واستمر عبد الرحمن رضي الله عنه، الجندي المطيع لأمر القائد والفارس الذي لا يتأخر عن غزوة في سبيل الله.

حتى كان يوم جاءه الرسول يخبره بمرض والده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فانفلت مسرعاً إلى منزله، فوجده يغالب أنفاسه الأخيرة بعد أن أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يصلي بالناس.

دخل عبد الرحمن على والده فقال له: يا أبي ألا ندعو الطبيب؟..

قال: قد أتاني وقال لي أنا فاعل ما أريد.

فعلم مراده، وسكت عنه. ثم مات رضي الله عنه.

وأوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن.

وسارت الحياة به بعد وفاة والده، مع المسلمين في حربهم وسلمهم، مع المسلمين في نشر دين الله، والدعوة إلى توحيده، في رحاب الأرض قاطبة.

وفي ليلة من الليالي كان عبد الرحمن يعود إلى بيته بعد أن قضى شطراً من الليل في منزل أخته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقريباً من بعض المنازل المتهدمة شاهد مجموعة من الرجال يتحلقون، ويتهامسون فيما بينهم، فاقترب منهم عبد الرحمن وكاد أن يسمع حديثهم بعد أن عرف صورهم وأسماءهم على التحديد، وهم:

أبو لؤلؤة المجوسي.

والهرمزان.

وجفينة.

وما كادوا يشاهدونه حتى وثبوا هاربين، وسقط من بينهم خنجر أسود ذو شعبتين.

وتساءل لماذا هرب هؤلاء الرجال عند رؤيتهم له؟..

وما هو السر الذي جمعهم؟..

وأي شيء كانوا يدبرونه في هذا الوقت المتأخر من الليل؟..

لقد كانت هذه الأسئلة تدور بخلد عبد الرحمن، ولكنه لم يجد لها تعليلاً في حينها.

ولكن لم يمضِ كبير وقت، حتى عرف عبد الرحمن ماذا كانت تدبر تلك المجموعة الباغية للإسلام وأهله.

لقد قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتوافقت الروايات بعد ذلك.

على أن الذي رآهم عبد الرحمن بن أبي بكر هم الذين دبروا جريمة القتل.

من ذلك ما يروى أن أبا لؤلؤة، جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: إن المغيرة قد أثقل عليّ علتي فكلمه لي ليخفف عني.

فقال له عمر: ما تحسن من الأعمال؟..

فذكرها له.

فقال له عمر: فما خراجك بكثير فاتق الله وأحسن إلى مولاك، ومن نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه.

فانصرف العبد مغضباً وقال:

«وسع الناس كلهم عدله غيري».

وكان خبيثاً إذا نظر إلى السبي الصغار، يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي ويقول: أكل كبدي عمر، فأضمر قتل عمر.

فاصطنع خنجراً له رأسان وسمه، ثم أتى به الهرمزان فقال: كيف ترى هذا؟..

قال: أرى أنك لا تضرب به أحداً إلا قتلته.

وجعل أبو لؤلؤة يتحين الفرص، فمر بعمر فقال له عمر:

ألم أحدّث أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحى تطحن الريح؟..

فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر، «ومع عمر رهط» فقال: لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس.

فلما ولى قال عمر للرهط الذي معه: «أوعدني العبد آنفاً»[1].

وجاء عثمان رضي الله عنه، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية ودخل في الإسلام قوم — وهم كارهون له — وأخذت الفتنة تظهر بقرنها، حتى تجاوز الأمر إلى الوقوف في وجه الخليفة، ومحاكمته ومحاصرته في بيته والحيلولة بينه وبين أداء واجبه كحاكم أمام الأمة الإسلامية، ووصل الأمر إلى أن جردوا عثمان رضي الله عنه من كل سلطانه.

وفي هذه الفتنة التي لا تبقي ولا تذر، أُسند إلى عبد الرحمن بن أبي بكر أمانة بيت المال.

.. هل اشترك عبد الرحمن في إشعال الفتنة؟..

وإذا لم يكن، فماذا كان دوره؟..

أتراه اكتفى بأمانة بيت المال وأقام فيه يصرف شؤونه؟..

لا خبر يرويه التاريخ عن ذلك.

.. إن وقائع التاريخ تقف فلا تسجل عن عبد الرحمن شيئاً، حتى يظهر في عسكر معاوية بن أبي سفيان في قضية التحكيم، وعلى الرغم من أنه كان مع معاوية، إلّا أنه عاب على أبي موسى الأشعري قلة خبرته بحيل وأساليب عمرو بن

(١) راجع الجزء السابع رجال أنزل الله فيهم قرآناً، عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

العاص والتي كانت كما ترويها كتب التاريخ عاملاً في تفريق الأمة وتمزيق وحدتها. وتقول الرواية:

إن عمرو بن العاص قال لأبي موسى الأشعري خبرني ما رأيك؟..

قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا.

فقال عمرو: الرأي ما رأيت.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو:

يا أبا موسى أعلمهم أن رأينا قد اتفق.

فتكلم أبو موسى فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة.

فقال عمرو: صدق وبر.

تقدم يا أبا موسى فتكلم، فتقدم أبو موسى فقال: إنا قد اتفقنا ثم قال:

«أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً ثم تنحّى.

وأقبل عمرو فقام وقال:

إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.

فقال سعد: ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده؟؟..

فقال أبو موسى: فما أصنع؟..

وافقني على أمر ثم نزع عنه.

فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لو مات الأشعري قبل هذا اليوم ، لكان خيراً له .

أترى عبد الرحمن بعد هذه الحادثة ، علم أن جند معاوية لا يطبقون شرعاً ولا يخافون الله .. وفكر في تركهم والانفصال عنهم — والانضمام إلى جيش علي — رضي الله عنه ؟ ..

إن الحوادث التالية تقول غير ذلك ، وإن عبد الرحمن استمر في جيش معاوية ، حتى رأى هؤلاء الناس يرتكبون أفظع الحوادث وأقساها مع أقرب الناس إليه ، مع أخيه محمد بن أبي بكر رضوان الله عليهم .

لقد كان عبد الرحمن يجلس في فسطاط عمرو بن العاص ، عندما دخل عليهم معاوية بن خديج وهو يقبض على محمد بن أبي بكر والي مصر من قبل علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم .

فوثب عبد الرحمن إلى عمرو بن العاص وقال :

«أتقتل أخي صبراً» ؟ ..

فطلب عمرو من معاوية أن يخلي عنه .

فقال معاوية بن خديج : قتلتم كنانة بن بشر وأخلي أنا محمداً ؟ ..

ثم تمثل بقول الله تعالى :

﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ﴾[1] .

هيهات هيهات .

فقال لهم محمد بن أبي بكر : اسقوني ماء .

فقال له معاوية : لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً ، إنكم منعتم عثمان شرب الماء ، والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق .

---

(١) سورة القمر آية رقم ٤٣ .

فقال له محمد: يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك إليك، إنما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويظمىء أعداءه أنت وأمثالك.

وتمَّ قتل محمد بن أبي بكر.

وفشل عبد الرحمن في أن يمنع هؤلاء من قتل أخيه، ولكن ماذا بيده أن يفعل؟..

إن البحر موار بالأمواج، والضباب الخانق يملأ الكون، والفتنة تسير في طريقها مسرعة لا تبقي ولا تذر، فليصبر عبد الرحمن حتى تنقشع هذه الغمة ويظهر نور الفجر.

وسارت الحياة.. واستقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان وجنده، وتفرق جند علي رضي الله عنه — وآثر كل إنسان السلامة — ولكن معاوية أحسّ بقرب أجله ومغادرته هذه الحياة، فأراد أن يأخذ البيعة لابنه يزيد. وخاطب مروان بن الحكم بذلك، وأمره أن يشيع ذلك بين أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، ففعل وقال: إن أمير المؤمنين قد اختار الخير لكم.

فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال:

«كذبت والله يا مروان وكذب معاوية، ما الخيار أردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل».

فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه:

﴿والذي قال لوالديه أف لكما﴾[1].

فسمعت عائشة مقالته فقامت من وراء الحجاب وقالت: يا مروان يا مروان فأنصت الناس وأقبل مروان بوجهه.

فقالت: أنت القائل لعبد الرحمن إنه نزل فيه القرآن؟.. كذبت والله ما هو به. ولكنه فلان بن فلان.

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٧.

وعلم معاوية رضي الله عنه، بما فعله عبد الرحمن فأرسل اليه بمئة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد، فردَّها عبد الرحمن، وأبى أن يأخذها وقال: «أبيع ديني بدنياي».

فخرج إلى مكة فمات بها قبل أن تتم البيعة ليزيد بن معاوية.

قال أبو عمر رضي الله عنه: يقولون: إن عبد الرحمن بن أبي بكر مات فجأة بموضع يقال له (الحبشي) على نحو عشرة أميال من مكة، وحمل إلى مكة فدفن بها. ويقال: إنه توفي في نومة نامها، ولما اتصل خبر موته بأخته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، — ظعنت من المدينة حاجة — حتى وقفت على قبره، فبكت عليه وتمثلت بقول الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حِقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً   لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً[1]

أما والله لو حضرتك لدفنتك حيث مت مكانك، ولو حضرت ما بكيتك وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وخمسين وقيل سنة خمس وخمسين بمكة، والأول أكثر صحة.

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ ٢ ص ٨٢٦، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

أسباب نزول الآيات

روي عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام وهو يأبى ، وعلى هذا جمهور المفسرين.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن ، وتحلف على ذلك وتقول :

«لو شئت لسميت الذي نزلت فيه».

قال الزجاج ، وقول من قال : إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، باطل بقوله تعالى : ﴿أولئك الذين حق عليهم القول﴾[1] .

فأعلم الله أن هؤلاء لا يؤمنون ، وعبد الرحمن مؤمن ، والتفسير الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق.

وروي عن مجاهد أنها نزلت في عبد الله بن أبي بكر.

وعن الحسن أنها نزلت في جماعة من كفار قريش قالوا : ذلك لآبائهم[2] .

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٨.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي جـ ٧ ص ٣٨١.

قال ابن كثير، والذي قال لوالديه أف لكما :

هذا عام في كل من قال هذا.

قال : ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقوله ضعيف.

لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.

قال : وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

قال وفي صحة هذا نظر والله أعلم.

وقال ابن جرير عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما.

قال ابن جريج، وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

تذييل...

الأسرة في الإسلام هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، ويحرص الإسلام على إحاطتها بمجموعة من الضمانات ، حتى تستطيع أن تؤدي واجبها كاملاً ازاء أبنائها وأمام المجتمع .

والأسرة لن تستطيع أن تقوم بتربية الأولاد تربية تتفق مع شرع الله تعالى إلّا إذا كان المجتمع ملتزماً بهذا الشرع قائماً به ، يحتكم إليه . لأنه إذا كان المجتمع لا يقيم وزن للقيم ولا للأخلاق ، وينخرط في السلك المادي. فمهما حاولت الأسرة أن تقوم بواجبها في تربية الأولاد فإن ذلك سيكون له آثار عكسية .

إذا كانت الأسرة تعلم أبناءها الصدق في القول ، والصدق في العمل والصدق في كل ما يأتي المرء وما يدع .

ويخرج هذا الابن إلى المجتمع فيجد أن الصدق بضاعة كاسدة ، وعملة لا تروج . .

فالذي يتقدم الصفوف هو الذي يتقن فن المداهنة ، ويجيد أساليب التملق ، ويحرص على إرضاء الرؤساء حتى ولو كان هذا الإرضاء على حساب كل القيم وكل الأخلاق .

وماذا يفعل الابن الذي تلقى على يد والديه.. العفة في اللسان وصيانة الأعراض ، وضبط النفس ، والحيلولة دون التطلع إلى جسد حرام أو مال حرام .

ويخرج هذا الابن إلى المجتمع ، فيرى أجساداً عارية ، وعورات مكشوفة ، وأعراضاً مباحة.. ينهش منها هذا الواغل أو ذلك ، والمجتمع يرى ذلك فلا يغيره ، والحكومات — تشاهد ذلك فلا تبطله ، بل في بعض الأوقات تشجع عليه — وتقيم له الأماكن وتهيىء له الأسباب حتى ينشغل الشباب به عن إسفاف الحاكم ، أو يتلهوا به عن لصوصية القائمين على الحكم.

إن الأسرة تستطيع أن تفعل الكثير ، والكثير من أجل تربية أبنائها شريطة أن تقف الدولة بجانبها ، تشد من أزرها ، وتقيم قواعد المجتمع على أسس سليمة من القيم والأخلاق.

ولكن المشاهد في هذا القرن الذي نعيش فيه ، أن الكثير من أجهزة الإعلام في كثير من البلدان الإسلامية تعمل على إفساد المجتمع وعلى تفتيت الأسرة وعلى إشاعة الرجس بين الأبناء والفتيات. إن الصحافة في سبيل الحصول على الربح ، تعمل جاهدة على إذكاء الغرائز وتهييج الشهوات بما تقدمه من مادة في الكتابة تدفع الشباب دفعاً إلى الانسلاخ من قيمهم وأخلاقهم.

زد على ذلك الصور العارية — والسوءات المكشوفة — والجنس المتنمر الذي لا يقف عند حد.

وإذا كانت الصحافة تفعل ذلك ، ومستمرة فيه ، فإن الإذاعة ، تعمل أيضاً على تقديم الأغاني الخليعة ، والكلمات المبتذلة ، والكفر البواح في بعض الأوقات.

ثم جاء «التلفاز» وتفنن القائمون عليه ، في أن يقدموا للمجتمع كل ما من شأنه أن يرضي الغرائز ويدفع إلى الانحلال.

إن الصحافة ، والاذاعة ، والتلفاز.

أجهزة تعاونت البشرية في إنشائها.. ويمكن أن تكون وسيلة من وسائل بناء المجتمع ، وعاملاً قوياً في تثبيت أركانه.. إذا التزمت بشرع الله وسارت على قواعد الدين والخلق.

إن الصحافة : يمكن أن يكون لها دور كبير في التوجيه والتربية وإقامة رأي عام يدعو إلى الخير ويفعله.

والإذاعة : أيضاً هي عامل من عوامل التثقيف والإرشاد، ككل طبقات الأمة فهي تستطيع أن تشارك الفلاح في مزرعته ترشده إلى خير الطرق في تنمية الزراعة وتجديد التربة، وإكثار الخير. وتستطيع الإذاعة أيضاً أن تشارك الصانع في مصنعه.

والعامل في معمله.

والطالب في مدرسته.

والموظف في ديوانه.

وكل من هؤلاء تقدم لهم الجديد المبتكر في كل علم وفي كل فن، حتى تتقدم الحياة وينتعش المجتمع ويعم الرخاء.

وما تفعله الإذاعة يمكن أن يفعله «التلفاز» بصورة مكبرة، فهو يقدم مع الكلمة المثل والدليل، فتكون الفائدة أكثر والنفع أكبر.

وإذا لم تتدارك الأمم الإسلامية ذلك — وتعود إلى كتاب ربها وإلى سنّة رسولها — لا شك أنه يصيبها ما أصاب الأمم قبلها من الدمار والخراب..

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[1].

(١) سورة محمد آية رقم ٣٨.

ثبتٌ بالمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الشعب، مصر.

٣. أسباب نزول القرآن للواحدي: تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤. تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير، دار الاندلس، بيروت.

٥. تفسير الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف، مصر.

٦. الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧. الدر المنثور: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الاسلامية، طهران.

٨. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار احياء التراث العربي: بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠. تفسير الدر المنثور: للإمام السيوطي.

١١. تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢. أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣. فتح الباري بشرح البخاري: للحافظ أبي الفضل العسقلاني: المعروف بابن حجر.

١٤. صحيح الإمام مسلم، بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥. مسند الإمام أحمد: شرح أحمد محمد شاكر: دار المعارف بمصر ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦. صحيح الترمذي، بشرح ابن العربي: المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

١٧. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: أ. ي. ونسنك، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢م.
١٨. الجامع الصغير: للإمام السيوطي، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة.
١٩. كشف الخفا ومزيل الالباس: اسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة التراث الإسلامي — حلب.
٢٠. تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني: دار صادر — بيروت.
٢١. الكامل في التاريخ: لابن الأثير، دار صادر — بيروت ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م.
٢٢. تاريخ الرسل والملوك: لأبي جعفر محمد الطبري، دار القلم الحديث — بيروت.
٢٣. البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير، مكتبة بيروت — ومكتبة النصر — الرياض.
٢٤. الطبقات الكبرى: ابن سعد، صيدا — دار بيروت ١٣٧٧.
٢٥. سيرة النبي لابن هشام: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية — القاهرة.
٢٦. الروض الأنف: عبد الرحمن السهيلي، دار الكتب الحديثة — القاهرة.
٢٧. مروج الذهب: للمسعودي، دار الأندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر.
٢٨. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر، دار الاندلس — بيروت — مكتبة نهضة مصر.
٢٩. أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار الفكر بيروت — الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣م.
٣٠. خلفاء الرسول: خالد محمد خالد، دار الكتاب العربي — بيروت — لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م.
٣١. العبقريات: لعباس محمود العقاد.
٣٢. علي بن ابي طالب — بقية النبوة — وخاتم الخلافة: للأستاذ عبد الكريم الخطيب — دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت.
٣٣. هذا هو الطريق: د. عبد الرحمن عميرة، دار التراث مصر — ١٩٧٣.
٣٤. مع الالحاد وجهاً لوجه: د. عبد الرحمن عميرة، دار الحلبي — القاهرة.
٣٥. أشهر مشاهير الاسلام: رفيق العظم.
٣٦. الاعلام: للزركلي.

٣٧. الأغاني : للأصفهاني.
٣٨. تاريخ الخلفاء : للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، مصر — ١٣٠٥.
٣٩. تفسير الخازن والبغوي : المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل ، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٤٠. تلبيس ابليس : لابن الجوزي ، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٤١. الروض الأنف : للإمام السهيلي.
٤٢. الرياض النضرة في مناقب العشرة : للمحب الطبري .. مصر.
٤٣. سنن الترمذي : حققه وصححه عبد الرحمن عثمان ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي ، صاحب المكتبة السلفية : المدينة المنورة.
٤٤. سنن الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه» ، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار احياء التراث العربي.
٤٥. تراث الانسانية : مجموعة من العلماء ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآناً

الجزء السابع

د. عبدالرحمن عميره

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ
مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ
ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾



[سورة الأنفال آية رقم ٣٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إذا كانت الأجزاء السابقة قد تكلمنا فيها عن الرجال الأقوياء الأمناء الذين حملوا راية الإسلام وانداحوا بها في أركان الأرض الأربعة ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام فمدنوا الدنيا، وذهبوا العالم، وقرروا الحق للإنسان.

فإن هذا الجزء يتكلم عن رجال من نوع آخر يتكلم عن هؤلاء والذي وقفوا في وجه الدعوة، يحاربونها بكل سلاح.

يتكلم هذا الجزء عن عبد الله بن أبي سلول زعيم المنافقين والذي كان له دور في الكيد للإسلام وأهله. والذي نزل فيه وفي أمثاله قول الله تعالى:

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾.

ويتكلم عن أبي جهل الذي ألقى بالمسلمين في رمضاء مكة وصب على المسلمين ألواناً من العذاب وقتل سمية أم عمار بن ياسر رضي الله عنهم. والذي كان يمر عليهم رسول الله — صلّى الله عليهم وهم يعذبون فيقول لهم:

صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة.

ويتكلم عن أبي لهب أول رجل من المشركين ألقى بكلمة سيئة في وجه الرسول — ﷺ — عندما قال: «تباً لك ألهذا جمعتنا». فأنزل الله تعالى فيه وفي

زوجته سورة كاملة وصار يلاحقهم ذلك الوصف الذي وصفهم القرآن به ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾.

إن الكتاب يتناول الكثير غير هؤلاء من الكفار والمنافقين الذين جمعوا أموالهم ورجالهم لينالوا من الإسلام وأهله ولكن رد الله كيدهم في نحورهم والله من ورائهم محيط.

د. عبد الرحمن عميرة

عَبدُ اللهِ بن أُبَيّ

زَعيمُ حِزبِ المنافقين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ
إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ
كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞ وَإِذَا
رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ
كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ
ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ
يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ
لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ

عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾
يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا
ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾



[سورة المنافقون الآيات رقم ١ - ٨]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق كثير من المفسرين والمحدثين على أن هذه الآيات نزلت في : عبد الله بن أُبي زعيم المنافقين.

راجع الترمذي	جـ ١٢ ص ٢٠١.
وتفسير الدر المنثور	جـ ٦ ص ٢٢٢.
وتفسير القرطبي	جـ ١٨ ص ١٢١.
وتفسير ابن كثير	جـ ٤ ص ٣٧١.
والمستدرك	جـ ٧ ص ٤٨٨.
وتفسير الطبري	جـ ٢٨ ص ٧٠.
وتفسير الخازن والبغوي	جـ ٧ ص ٨٢.
ومسند الإمام أحمد	جـ ٤ ص ٢٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٣. (طبع الحلبي).

وأسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ٤٥٧.

فمن هو عبد الله بن أُبي...؟

عبد الله بن أُبي

زَعيم حزب المنافقين

هو : عبد الله بن أُبي بن سلول الأنصاري ، من بني عوف من الخزرج زعيم الخزرج في الجاهلية ، إحدى القبائل التي آوت ونصرت في الاسلام ووالد عبد الله الصحابي الجليل وابن خالة عامر الراهب ، وكان عامر هذا قد تألّه في الجاهلية ، ولبس المسوح وترهَّب ، وتنبأ بظهور النبي ﷺ قبل بعثته ، وأخذ يذكره لقومه ، ويبشرهم بخروجه .

فلما بُعث رسول الله ﷺ حسده وبغى عليه وأقام على كفره ، وأعلن الحرب على المسلمين ، وشهد مع المشركين غزوة أُحد ، فسماه الرسول ﷺ : الفاسق[1] .

وكان عبد الله بن أُبي ذا جاه عريض في الجاهلية ، وله ثروة كبيرة تقدّر بمال كثير جمعها من عدة طرق ، منها عروض التجارة ، وقرضه لأصحاب الحاجة بالربا ، ودفع الجواري إلى مزاولة البغاء طلباً لكسبهنّ ورغبةً في أولادهنّ ليكثرن منهن خدمه وحشمه .

وكان يقدّم لكل من ينزل عليه من الضيوف جارية من الجواري ، مبالغة في الكرم وأملاً في الحظوة ، وجلباً لقلوب الأتباع والأنصار[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢١٧ والروض الأنف جـ ٥ ص ٢٢.

(٢) تفسير سورة النور للأستاذ أبي الأعلى المودودي.

وقبل هجرة الرسول ﷺ كان أهل المدينة وأصحاب المكانة فيها يجمعون له الخرز ليصنعوا له تاجاً ليتوجوه ملكاً عليهم ورئيساً لجموعهم. فلما جاء الرسول ﷺ انفضَّ الناس من حوله والتفوا حول رسول الله، وتبعهم في ذلك أقرب الناس إليه من قبيلته وأسرته وأهل بيته.

ولم يجد عبد الله بن أُبي من حيلة، فأظهر إسلامه وأبطن كفره، وتابعه في ذلك مجموعة من خدمه وعبيده ممن هم في حاجة إلى عطائه وماله، وجماعة أخرى من أولئك الذين طمس الله على قلوبهم. وأصبح بذلك زعيماً لفئة من الناس، عرفت بالنفاق والتلون في دولة الإسلام الأولى...

وكان المسلمون في المدينة يكادون يعرفون أفراد حزب النفاق بأعيانهم وسلوكهم، وفي نفس الوقت يقدرون خطرهم على مسيرة الصف الإسلامي.

وكيف لا يكون ذلك كذلك وهم يجلسون معهم، ويتجسسون عليهم، ويشيعون بينهم مقالة السوء — بغير حق — لينالوا من سمعة هؤلاء الرجال الذين اختارهم الله لدينه.

وكان المسلمون أيضاً يجابهون اليهود — ممن يدعون أنهم أصحاب كتاب — وهؤلاء كانت لهم حيَلهم وأساليبهم في ضرب الاسلام والمسلمين من ذلك التشكيك في الدعوة وصاحبها، والتقارب مع المنافقين، ورسم الخطط لذلك... ومع هذا لم يتعرض المسلمون لأي من الفريقين بأذى أملاً في هدايتهم وإصلاح حالتهم، أو أن يتوب الله عليهم... حتى كان يوم نقض فيه يهود بني قينقاع العهد والميثاق الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وكان من أسباب ذلك أنه عقب انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى، وعلم اليهود بذلك، خافوا على قيادتهم ومراكزهم في المدينة أن تفلت من بين أيديهم، فحقدوا على المسلمين، وأخذوا في استفزازهم والنكاية بهم.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فذكَّرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه فردوا عليه رداً مغيظاً فيه تهديد.

فحاصرهم المسلمون حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فقام رأس المنافقين عبد الله بن أُبي يجادل رسول الله ﷺ وقال : يا محمد... أحسن في موالي — وكانوا حلفاء الخزرج.

فأبطأ رسول الله ﷺ في الرد عليه...

فقال : يا محمد... أحسن في موالي.

فأعرض عنه رسول الله ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ.

فقال له الرسول : أرسلني...

وغضب رسول الله حتى ظهر الغضب في وجهه.

ثم قال مرة ثانية : ويحك أرسلني...

قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر والأيام.

فقال رسول الله ﷺ : هم لك[1].

إن الإنسان ليعجب من أمر هذا المنافق... كيف لم يدخل نور الإسلام إلى قلبه؟... وكيف لم تؤثر فيه وفي نفسه هذه النفحات الربانية التي كانت تتنزل من السماء إلى الأرض... ولكن لا عجب ، إنها إرادة الله التي أعمتهم وطمست على قلوبهم ، وأصبحت كما قال القرآن :

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها﴾[2]...

إن هذا المنافق تنضح كلماته بالشرك والكفر... إنه لم يرهب الله ، ولم يخف

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٣٠.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٧٩.

عقابه، ولم يخش الله، ولم يرج ثوابه. وقد جعل من هؤلاء ـــ الذين هم أضعف خلق الله ـــ سنده القوي، وقوته الضاربة، ودرعه الواقية، التي يتقي بها ضربات الدهر وتقلبات الأيام... ألا خسئت من رجل...؟

وعرف مَن لم يكن يعرف من المسلمين حقيقة عبد الله بن أُبي... عرفوا نفاقه وكفره، وأخذ ينكشف أمام المسلمين أتباعه واحداً تلو الآخر، تدل عليهم أعمالهم، وتنم عن حقيقتهم أقوالهم.

ولم تهدأ المعركة بين المسلمين وبين اليهود وحزب المنافقين بعد معركة بدر.

لقد ذهب إلى قريش وفد من يهود المدينة بقيادة كعب بن الأشرف ليعرض عليهم قتال محمد[1].

وذهب أيضاً إليهم أبو عامر الفاسق رأس الأوس في الجاهلية، ووعد قريشاً بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا إليه[2]. واستمع زعماء مكة إلى هؤلاء... وهؤلاء قرروا جميعاً الخروج لحرب محمد وأصحابه.

فلما سمع رسول الله ﷺ بخروجهم وعرف أنهم نزلوا على شفير الوادي... استشار أصحابه، أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟...

وكان رأيه ألّا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها فترة، فإن دخلوها قاتلهم الرجال على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت.

وكان الرسول ﷺ قد رأى في منامه أن في سيفه ثلمة، ورأى بقراً تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة[3].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦، ٧.

فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهله... وتأول البقرة بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع بالمدينة[1].

فقال رجال من المسلمين وأكثرهم من الشباب ممن فاتهم يوم بدر: «اخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا حتى لا يرون أنا قد جبنا عنهم وضعفنا»[2].

فقال عبد الله بن أبي: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا إلّا أصاب منا، ولا دخلها علينا عدو إلّا أصبنا منه... فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوق، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا[3].

ولكن بعض المسلمين ممن أحبوا لقاء قريش ما زالوا برسول الله حتى دخل بيته فلبس «لامته» ثم خرج، فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا، وقالوا: استكرهنا رسول الله ولم يكن ذلك لنا... أنشير على النبي والوحي يأتيه...؟

فقاموا فاعتذروا إليه، وقالوا: اصنع ما رأيت...

فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل[4].

وخرج في ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا (بالشوط) — مكان بين أُحد والمدينة — انخذل عنه عبد الله بن أُبي بثلث الناس وقال: يخالفني ويسمع للفتية...

فتتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه يوبخهم على فعلتهم ويحضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا...

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦، ٧.

(2) المصدر السابق.

(3) الروض الأنف.

(4) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٧.

قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع (١).

فرجع عنهم وسبهم. ولم يكن رسول الله ﷺ يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جرّاء الخروج، فقد كان لديه الإرهاص من رؤياه الصادقة التي رآها، والتي يعرف مدى صدقها، وقد تأولها قتيلاً من أهله وقتلى من صحابته، وتأول المدينة درعاً حصينة. وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة الشورى ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات الكبيرة، لأن إقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الأمة، من الخسائر الوقتية، أما ما فعله عبد الله بن أبي فهو تحطيم للصف الإسلامي، وتوسيع الفرقة والخلاف بين أتباعه ومدعاة لهزيمة المسلمين... وهذا من شأنه أن يحول المجتمع المسلم إلى أمشاج وتفاريق.

لقد كان له رأي... ورأت الجماعة رأياً آخر... فيجب النزول على راي الجماعة مهما كلف هذا الرأي من أخطاء...

إن تحمُّل الرأي الخطأ وما يترتب عليه من نتائج أقل بكثير، مهما تكن ضخامته، من فرقة الأمة الإسلامية وتمزيق الجيش الإسلامي في لحظة هو فيها أشد ما يكون حاجة إلى التماسك والترابط، ولكنه النفاق الذي يعلن عن نفسه ويطل برأسه ولا هدف له في النهاية إلّا الهزيمة والبوار... ولكن الله خيب ظنهم وأفسد كيدهم.

وكان عبد الله بن أُبي إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس... قام فقال: أيها الناس... هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه واعذروه واسمعوا له وأطيعوا (٢)، ثم يجلس... حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أيا عدو الله... لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٧.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٧.

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: لكأنما قلت «بجراً»[1] أن قمت أشدد أمره.

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: مالك... ويلك.

قال: قمت أشدد أمره فوثب عليّ رجال من أصحابه يأخذون بمجامع ثوبي ويعنفونني، لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره.

قال: ويلك... إرجع يستغفر لك رسول الله ﷺ.

قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي[2]...؟

بهذه الصفاقة يرفض استغفار الرسول، وبهذا التبجح الوقح يأبى أن يدخل النور إلى قلبه...

وذات يوم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، فلما أتاهم رسول الله يستعينهم قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه[3].

ثم خلا بعضهم لبعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه... — ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك.

فصعد ليلقي عليه صخرة — ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضوان الله عليهم — فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام

(١) البجر في القاموس: الشر والأمر العظيم.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٧ ويراجع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٥٢.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩١.

وخرج راجعاً إلى المدينة[1] . فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة .

فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون . فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : يا محمد ... قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على مَن صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها[2] ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾[3] .

وهنا يظهر عبد الله بن أُبي — رأس المنافقين — على رأس وفد من بني عوف بن الخزرج ويتجه إلى بني النضير ، إلى هؤلاء اليهود ويقول لهم : اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ... إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم[4] .

قالوا ذلك بأفواههم للكيد والدس ضد الصف الإسلامي .

ويصوّر القرآن الكريم حال عبد الله بن أبي ورفقائه ويصفهم بأنهم إخوان للكفار ، فهؤلاء اليهود تركوا كتابهم ولم يعملوا به ، وحرّفوا كلماته وجعلوه وراء ظهورهم ، فهم كفّار ... وهؤلاء المنافقون أعلنوا الإسلام بألسنتهم ، وقلوبهم تطفح بالحقد والحسد للمسلمين.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٢ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٥ .

(٤) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٢ .

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون﴾[1].

ولم يستطع عبد الله بن أُبي ورفقاؤه أن يفعلوا شيئاً لحلفائهم اليهود. وقذف الله في قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلّا السلاح، ففعل.

وصور القرآن الكريم هذه القصة فقال:

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[2].

وانهزم الكفر وجنده والنفاق وحزبه.

وتتابع انتصار المسلمين حتى كانت (غزوة الخندق) التي جمعت لها قريش أكثر من عشرة آلاف مقاتل، ولكن لم ينالوا شيئاً وردهم الله إلى قريش خائبين. وأعلن الرسول ﷺ في أصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم»[3]... عندها أيقن المنافقون أن الصف الإسلامي لن يهزَم في ميدان الحرب... إذن فلا بد من طريق آخر، وهو تلويث الصف الإسلامي بإطلاق الشائعات بالحق وبالباطل. وكان أول هذه المفتريات قولهم هذا محمد وقع في غرام

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١١، ١٢.

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢ ويراجع تفسير الإمام ابن كثير.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٩٧ ورواه الإمام أحمد بسنده عن سليمان بن صرد.

زوجة متبناه لما نظر إليها فجاءها، ولما أن اطلع متبناه على هذا الغرام الذي وقع في قلبه لزوجته، تركها له بتطليقها، فهو هكذا قد تزوج حليلة ابنه[1]. ثم كانت الثانية حادث الإفك الذي أشاعه المنافقون عند رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق عام خمس من الهجرة، وعبد الله بن أُبي أول من أثار الفتنة في حادث الإفك، وهو الذي عناه الرسول ﷺ وجماعة معه بقوله: أيها الناس... ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق... والله ما علمت منهم إلّا خيراً، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلّا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلّا وهو معي»[2].

وعندما قال الرسول ﷺ ذلك، قال أسيد بن الحضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرَب أعناقهم.

فقام رجل وقال: كذبت... أما والله ما قلت هذه المقالة، إلّا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كان من قومك ما قلت هذا.

فقال أسيد: كذبت لعمرو الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين وتثاور[3] الناس، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر[4].

ولقد أراد عبد الله بن أُبي بإشاعة حادثة الإفك أن يرمي إلى عدة أهداف:

أولاً — الطعن في عرض النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وثانياً — أن يضع من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤٥.

(٣) تثاور الناس: ثار بعضهم على بعض.

(٤) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤٥.

وثالثاً ــ أن يشعل في داخل المجتمع الإسلامي جذوة من نار الفتنة بين الحيين من الأوس والخزرج، وبذلك ينفس عن حقده وغيظه الذي يملأ قلبه من جراء الرجل الذي سلبه ما كان يطمع فيه من ملك وتتويج.

وكان لعبد الله بن أُبي جارية تدعى «معاذة» وكانت قد أسلمت وأرادت التوبة، ولكنه تشدّد عليها. فأقبلت إلى أبي بكر رضي الله عنه، وشكت إليه ذلك، فذكره للنبي ﷺ، فأمره بقبضها، فصاح عبد الله بن أبي: مَن يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا[(١)].

فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومَن يُكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾[(٢)].

وبعد نزول هذه الآية أعلن النبي ﷺ: «لا مساعاة في الإسلام»[(٣)] والمساعاة هي الفجور علناً.

وعن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال عن مهر البغي، أي أجرة الزانية «إنه خبيث وشر المكاسب»[(٤)].

وقال أبو محيفة: إن النبي ﷺ نهى عن مهر البغي[(٥)].

ولم يكتف عبد الله بن أُبي بكل ذلك بل كان يعلّم أتباعه كيف يعاملون المسلمين ويزينون لهم القول ويخدعونهم.

من ذلك: أن عبد الله بن أُبي خرج مع جماعة من أصحابه المنافقين فاستقبلهم

---

(١) تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي.

(٢) سورة النور آية رقم ٣٣.

(٣) رواه داود عن ابن عباس في باب ادعاء ولد الزنا.

(٤) أبو داود والترمذي وأحمد والنسائي.

(٥) رواه الجماعة والإمام أحمد.

نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال عبد الله بن أبي : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم .

فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال : مرحباً بالصدّيق سيد بني تميم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله في الغار ، الباذل نفسه وماله ... ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال : مرحباً بسيد بني عدي بن كعب ، الفاروق القوي في دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه(١) فارس بني هاشم . ثم افترقوا .

فقال عبد الله لأصحابه : كيف رأيتموني فعلت ؟ ... فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ... فأثنوا عليه خيراً(٢) .

فرجع المسلمون إلى النبي ﷺ فأخبروه بذلك ، فأنزل الله هذه الآية :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾(٣) .

وبلغ الكتاب أجله ومات عبد الله بن أُبي ... مات زعيم المنافقين . وجاء ابنه إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فقال : أعطني قميصك حتى أُكفنه فيه وصلّ عليه واستغفر له . فأعطاه قميصه ، ثم قال : آذني حتى أُصلي عليه ، فآذنه .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فلما وقف عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت : يا رسول الله ... أعلى عدو الله عبد الله بن أُبي القائل يوم كذا ... كذا وكذا ؟ ... أُعدد أيامه ... ورسول الله ﷺ يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه

---

(١) ختنه : زوج ابنته . مختار الصحاح في مادة ختن .

(٢) أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ٢٠ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٤ .

قال : أخّر عني يا عمر[1] ، إني خيرت فاخترت... قد قيل لي : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم... لو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له لزدت[2] .

قال : ثم صلى عليه السلام ومشى إلى أن وصل إلى قبره فقام على قبره حتى فرغ منه .

قال فعجبت لي وجرأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان يسيراً حتي نزل : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾[3] .

قال : فما صلّى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى .

قال المفسرون : وكلم رسول الله ﷺ أصحابه فيما فعل بعبد الله بن أُبي فقال : وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله... والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه[4] .

---

(1) رواه البخاري جـ ٢ ص ٧٦ ورواه مسلم جـ ٢ ص ١٢٠.

(2) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٢٥٧.

(3) سورة التوبة آية رقم ٨٤.

(4) الدر المنثور جـ ٣ ص ٢٦٦ وتفسير الطبري جـ ١٤ ص ٤١٠.

أسباب نزول الآيات

قال أهل التفسير وأصحاب السيَر : غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق فنزل على ماء من مياههم يقال له «المريسيع»، فوردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بن عون بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال: أوقد فعلوها؟... قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلّا كما قال الأول[1]: «سمّن كلبك يأكلك»[2]، «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

ثم أقبل على مَن حضره من قومه فقال لهم: «هذا ما فعلتم بأنفسكم... أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم... أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم[3].

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣٤، وجلابيب: لقب كان المشركون يلقبون به أصحاب النبي.

(٢) هذا مثل من أمثال العرب، وفي ضده تقول العرب: جوع كلبك يتبعك.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣٥.

الله من عدوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مرْ به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه...؟ لا[1].

ولكن أذن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع، فحلف بالله: ما قلت ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفاً عظيماً. فقال مَن حضر مجلس رسول الله — ﷺ — من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل، حدباً على ابن أبي بن سلول ودفاعاً عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقل رسول الله وسار لقيه أسيد بن الحضير فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها.

فقال له رسول الله ﷺ: أوَما بلغك ما قال صاحبكم؟...

قال: وأي صاحب يا رسول الله؟...

قال: عبد الله بن أُبي.

قال: وما قال؟...

قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل.

قال: فأنت يا رسول الله... والله لتخرجنه منها إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز.

(١) المصدر السابق وأسباب النزول للواحدي ص ٤٩٥ وصحيح الترمذي جـ ١٢ ص ٢١٠ ومسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٣٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٣ طبع الحلبي.

ثم قال : يا رسول الله أرفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً[1] .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبي ومَن كان على مثل أمره .

فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال :

« هذا الذي أوفى الله بأذنه »[2] .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبي الذي كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، بلغني أنك تريد قتل ابن أُبيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[3] .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه .

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : كيف ترى يا عمر؟... أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ، لأرعدت له ألف أنف ، لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته[4] .

قال عمر رضي الله عنه : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري .

---

(١) يراجع في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٢٨ ص ١١٠ وأسباب النزول للواحدي ص ٤٦٠.

(٢) صحيح الترمذي جـ ١٢ ص ٢١٠ والدر المنثور جـ ٦ ص ٢٢٢.

(٣) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٦٠ وابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٥.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٥.

ثم ماذا يا أهل الإسلام... هل وقف الأمر عند هذا الحد؟... لا والله... إن الذين تربّوا في مدرسة الإسلام لا يوافقون أن ينال من قائدهم على هذه الصورة.

وقفل الناس راجعين إلى المدينة وكل منهم في حلقه غصة مما قال عبد الله بن أبي...

ويفاجأ المسلمون بعبد الله بن عبد الله بن أبي يقف على باب المدينة وقد استل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه. فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك.

فقال: ما لك... ويلك...

فقال الابن: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل[1].

فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان إنما يسير خلف الجيش، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه.

فقال ابنه: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له.

فأذن له رسول الله ﷺ.

فقال الابن: أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن[2].

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤٦١.

(٢) رواه الإمام ابن كثير عن محمد بن إسحاق بن يسار جـ ٤ ص ٤٩٥ ورواه سفيان بن عيينة عن أبي هارون المدني.

تذييل...

قال علماء اللغة: إنما سمي المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر، تشبيهاً باليربوع له جحر يقال له: «النافقاء» وآخر يقال له «القاصعاء»، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كان يبلغ ظاهر الأرض أرق التراب، فإذا رابه ريب دفع التراب برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب، وباطنه حفر... وكذلك المنافق... ظاهره إيمان وباطنه كفر.

والنفاق صفة لازمت بعض أفراد البشرية في تاريخها الطويل... ووقف أتباعه في طريق الإصلاح والخير، وساهموا في صنع الجبابرة والطغاة...

والمنافق له صفات وعلامات تدل عليه وتظهره وترشد عن حقيقته وتوضحه...

قال تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾[1].

ومن أُولى هذه الصفات: الجبن... فالمنافق جبان... يُظهر الشيء ويبطن غيره... ويدعي الاقتناع ويخفي الرفض والتمرد... وبالجملة، لا يستطيع مجابهة الآخرين بحقيقة شعوره.

---

(١) سورة محمد آية رقم ٣٠.

ثانياً — الخداع : فالخداع صفة من صفاتهم ، وعلامة مميزة لهم ... والمنافق يظن في نفسه الذكاء والدهاء وأن لديه القدرة على خداع الناس والتمويه عليهم.

ويعبّر القرآن عن هذه الظاهرة بأنهم يعتقدون ، لقصور عقولهم ، وقلة معرفتهم أن أساليبهم وخداعهم لا يقف عند حد ، بل يمتد حتى يشمل المؤمنين ويتطاول إلى الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون ﴾[1] .

والله سبحانه وتعالى جلّ أن يُخادَع ، ولكن المقصود من هذه الآية ، كما يذهب إليه رجال التفسير في العصر الحديث ، هو التفضل الكريم من الله تعالى لعباده المؤمنين ، حيث يضيفهم إليه ، ويجعل قضيتهم هي قضيته ، ومعركتهم هي معركته ، وعدوهم هو عدوه ، ويأخذهم في صفّه ، ويرفعهم إلى جواره الكريم.

وإذا كان هذا هو الحق والصدق ... فماذا يفعل العبيد والصغار ؟ ... وماذا يقدم كيدهم وخداعهم لقوم وليهم الله ؟ ...

وهذه الحقيقة جديرة أن يتدبرها المؤمنون ليطمئنوا ويثبتوا ويمضوا في طريقهم ... طريق الله ... لا يبالون كيد الكائدين ، ولا خداع الخادعين ، ولا أذى الشريرين ... ويتدبرها أعداء المؤمنين أيضاً فيفزعوا ويرتاعوا ويعرفوا أنهم يحاربون الله ، ويتصدون لنقمته حين يتصدون لحرب المؤمنين[2] .

ومن صفات المنافقين أيضاً : مرض قلوبهم ، والداء الوبيل الذي يسيطر على أفئدتهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٩.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك فقال: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾[1].

ومرض القلوب هو أشد أنواع الأمراض... إنه الداء الذي يتحكم في سلوك الأفراد فيجعلها تنحرف عن الطريق السوي، ويباعد بينها وبين الهدى، فتضل وتهوى، ويملأ حياتها بالظلام، فلا ترى النور وتتعود عليه، فلا تستطيع الانفكاك منه أو البعد عن طريقه، ويطمس على البصيرة فلا ترى حقاً أو ترضي عدلاً.

والمرض ينشىء المرض، والانحراف يبدأ يسيراً ثم تتسع دائرته، حتى يشمل المجتمع كله.

ومن صفات المنافقين أيضاً، السفه والادعاء... إنهم يسخرون من المبادىء، ويحتقرون الأخلاق، ويهزأون بالقيم، ويفسدون في الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ويلف الجهل حياتهم ويسيطر على عقولهم، ويدعون أنهم علماء، وينغمسون في الوحل والجريمة، ويلطخون حياة الآخرين ويدعون أنهم أبرياء.

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾[2].

أي إصلاح هذا الذي ينتسبون إليه؟...

لقد تركوا رسول الله ﷺ في غزوة أُحد يجابه الكفر وعصابته، والشر وجنوده... وعادوا إلى ديارهم ومنازلهم داخل المدينة، وقالوا قولتهم التي حكاها القرآن الكريم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾[3].

وقاموا بإشعال الفتنة بين المهاجرين والأنصار حتى تخلو لهم المدينة وحرضوا كلا الفريقين على حمل السلاح.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١١.

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٦٧.

وتقولوا على رسول الله ﷺ الأقاويل، وخاضوا في أعراض المسلمين، وعندما فضحهم الوحي وكشف عن سوء طويتهم قالوا: إنما كنّا نخوض ونلعب...

أيكون كل هذا من الإصلاح؟... أم أنه الفساد المدبر الخبيث؟...

وفي كل عصر ومصر.. نجد الكثيرين الذين يدعون هذه الدعوة.. ويقولون هذا بأفواههم لأن الموازين مختلة في أيديهم، ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرّد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذّر عليهم أن يشعروا بفساد أعمالهم لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية.

وصدق ربي في قوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾(١).

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة، والمكر السيء براعة.. وهو في حقيقته ضعف وخسة. فالقوي ليس لئيماً ولا خبيثاً، ولا خادعاً، ولا متآمراً، ولا غمازاً في الخفاء، ولا لمازاً.. وإنما يلجأ إلى هذه الأشياء مَن هو ضعيف النفس، ضعيف الجسد، ضعيف الإيمان.

ومن الأشياء التي أراد المنافقون استعمالها ضد الصف الإسلامي في عهد الرسول ﷺ: التجويع، والمحاصرة الاقتصادية.. كما يعبّر عنها في عصرنا الحاضر.. وهدفهم من ذلك معروف، هو تمزيق المؤمنين وانفضاضهم من حول رسول الله ﷺ.

قال تعالى مصوراً تدبيرهم وكيدهم: ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾(٢).

وهي خطة يظهر فيها خبث الطبع ولؤم النفس، ويلجأ إلى هذه الخطة شرار

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢.

(٢) سورة المنافقون آية رقم ٧.

النفوس في كل زمان ومكان، لتطويق المؤمنين، وأصحاب الدعوة إلى الله.. ظناً منهم أن لقمة العيش هي كل شيء في الحياة، كما هي في حسهم...

إنها خطة قريش... وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ تحت وطأة الضيق والجوع.

وهي خطة الشيوعيين — في العصر الحديث — في حرمان المسلمين والمتدينين في بلادهم من بطاقات التموين.. ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ويتركوا الصلاة.

وهي خطة الطغاة والحكومات المستبدة في حربها لأصحاب الدعوة إلى الله في بلاد الإسلام.. حيث لجأت بعض الحكومات في حصار وتجويع الفئة المؤمنة، وسدّت في طريق أفرادها أسباب العمل والارتزاق...

فعل الطغاة ذلك ليكسروا شوكة جند الله.. معتقدين أنهم بهذا الأسلوب يمكن أن ينالوا شيئاً، أو يحققوا مغنماً، أو يصلوا إلى أهدافهم...

ولكن المؤمنين بالله، وأصحاب الدعوة إليه.. لا يمكن أن تهزّهم أمثال هذه الأساليب، أو تنال من عزيمتهم.. فالآجال محدودة، والأرزاق مكتوبة ومقدَّرة.. ولن يموت إنسان حتى يستوفي رزقه وأجله.. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وما كان لنفس أن تموت إلّا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ورزقكم في السماء وما توعَدون﴾[2].

فهل يفقه الجبابرة والمستبدون ذلك؟...

وهل يعي المنافقون هذه الحقيقة؟...

الواقع أنهم لا يفقهون...

قال تعالى: ﴿ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٤٥.

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٢٢.

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٧.

الوليد بن المغيرة

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا
مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ
يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ
صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾



[سورة المدثر الآيات من ١١ - ٢٦]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق العلماء على أن المقصود بهذه الآيات هو: «الوليد بن المغيرة».

نجد ذلك في الدر المنثور جـ ٦ ص ٢٨٢.
والمستدرك جـ ٢ ص ٦، ٥، ٧: ٥.
وتفسير الإمام الطبري جـ ٢٩ ص ٩٦.
وتفسير الإمام القرطبي جـ ١٩ ص ٧٢.
وتفسير الإمام البغوي جـ ٧ ص ١٤٦.
وتفسير الإمام ابن كثير جـ ٤ ص ٤٤٣.

وأسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

فمن هو الوليد بن المغيرة؟...

الوليد بن المغيرة

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كان يقال له: العدل، وسمي: أوحد العرب. وأطلق عليه: ريحانة قريش.

وهو أحد قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش في دار الندوة، ومن زنادقتها الذين حملوا لواء الكيد والتعذيب ضد أتباع الدعوة الإسلامية.

تناوله القرآن في أكثر من موضع .. من ذلك في سورة القلم، قال تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم﴾[1].

وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

﴿وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾[2].

وقيل في سبب نزولها أنه كان ينادي في أيام الحج:

«ألا من أراد «الحيس[3]» فليأت الوليد بن المغيرة».

وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً[4].

---

(١) سورة القلم آية رقم ١٠ — ١٢.

(٢) سورة فصلت آية رقم ٧.

(٣) الحيس: طعام يصنع من اللبن.

(٤) عبقرية خالد — المقدمة — عباس محمود العقاد.

ومع ذلك يصفه بعض المؤرخين بأنه كان رزيناً هداه عقله إلى بعض الحق ، منها أنه عرف أن الخمر لا تليق بالرجل الوقور فحرمها على نفسه — وهو في الجاهلية قبل ظهور الإسلام — وحرمها على أبنائه ، وضرب ابنه هشاماً على شربها. وكان يعرف للبيت الحرام قدسيته ، فكان يكسو الكعبة وحده عاماً وتكسوها قريش كلها عاماً آخر… من هنا جاء لقب العدل ، لأنه كان يعدل قريشْ[1] .

وفي يوم من الأيام قبل بعثة الرسول ﷺ استيقظت قريش على سيل جارف يكتسح أمامه كل شيء ولا يبقي على شيء.

جاء هذا السيل من جهة « الجرف » واستمر في جريانه حتى دخل البيت الحرام فانصدع جانب منه ، وأهم قريش ذلك الأمر ، وخافوا على البيت أن ينهدم كله ، ولقد أتاح هذا التصدع في جانب البيت فرصة للذين في قلوبهم مرض فامتدت أيديهم إلى ما في داخله من حلية ، وغزال من ذهب ، كان قائماً على در وجوهر ، وموضوعاً على الأرض فأخذوه[2] ، فاجتمعت قريش في دار الندوة وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة وقرروا هدم الكعبة وإعادة بنائها. وأن ينتشروا في أرض الله يبحثون عن البنائين المهرة لإقامة بيت الله.

وبينما هم على أهبة السفر ، سمعوا أن سفينة كانت في البحر هاجمتها عاصفة شديدة جنحت بها إلى الشعيبة — مرفأ السفن في ذلك الوقت قبل جدة — فتحطمت السفينة وكان عليها قوم من الروم — الغرب حالياً — ومعهم رجل يسمّى « باقوم » بانياً ماهراً.

فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إليها وابتاعوا خشبها ، وكلموا الرومي

(١) ابن الأثير — في كتابه الكامل جـ ٤ ص ٧١.

(٢) تاريخ ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٧ والروض الأنف جـ ٢ ص ٢٥٩ ، ويقال إن الذي وجد عنده الكنز المسروق « دويكا » مولى لبني مليح بن عمر من خزاعة ، فقطعت قريش يده.

في بناء الكعبة ، وما زالوا به حتى أجابهم إلى طلبهم[1] وأخذوا في هدم الكعبة ، وتقدم أبو وهب بن عمرو بن عائذ فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه[2] .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفكروا في الرجوع عن ذلك.

فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم به ، فأخذ معوله مردداً : «اللهم لم ترع ، إنما أريد الخير»[3] .

فهدم جزءاً منها ولكن الناس لم يطمئنوا إلى ذلك ، وقالوا : نتربص تلك الليلة ، وننتظر ، فإن أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً ، فأصبح الوليد سالماً وغدا إلى عمله فهدم والفأس معه حتى انتهى من الهدم إلى الأساس ثم أفضوا الى حجارة خضر ، أخذ بعضها ببعض فأدخل رجل من قريش «عتلة»[4] بين حجرين ليقلع به أحدهما فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها[5] فتوقفوا عند ذلك. وعندما هموا بجمع الحجر لبنائها ، وقف الوليد بن المغيرة ناصحاً لهم وهاتفاً بهم :

«يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها إلا طيباً ، ولا تدخلوا فيه مهر بغي ، ولا زنا ولا مظلمة أحد»[6] .

هذه بعض ملامح الوليد ، قبل بعثة الرسول ﷺ — رجل يحب مكارم الأخلاق — للسمعة والشهرة وبعد الصيت. ولقد أعطاه الله سبحانه وتعالى — كما حدثنا القرآن — مالاً كثيراً وبنين شهوداً.

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٠ ، والروض الأنف جـ ٢ ص ٢٦٠ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٢ ، والروض الأنف جـ ٢ ص ٢٦١.

(٤) قطعة من الحديد رافعة.

(٥) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٣٠ ، ويقال أن الذي قال ذلك هو أبو وهب بن عمر بن عائذ بن مخزوم.

أعطاه الذهب والفضة ، وأعطاه الإبل والخيل ، وأعطاه البساتين والكروم.

ونجح في التجارة وجاءه المال من كل طريق ، واقتنى الخدم والجواري والعبيد ، حتى سمي بريحانة قريش ، وأُعطي فوق ذلك البنين ، قيل عشرة ، وقيل اثنا عشر ، وكلهم حاضر معه شاهد ، لا يغيبون للتجارة أو للعمل(١) .

منهم : خالد بن الوليد.

الذي سماه رسول الله ﷺ : «سيف الله».

والذي قال فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

«عجزت النساء أن يلدن مثل خالد»(٢) .

ومنهم الوليد بن الوليد.. الذي أُسر يوم بدر ، أسره عبد الله بن جحش ، فقدم في فدائه أخواه : خالد وهشام. فتمنع عبد الله بن جحش حتى افتدياه بأربعة آلاف درهم.

ويقال : إن النبي ﷺ قال لعبد الله بن جحش : «لا تقبل في فدائه إلا شكة أبيه الوليد». وكانت الشكة درعاً فضفاضة وسيفاً وبيضة. وقدرت الشكة بمائة دينار ، فطاعا بذلك وسلماها إلى عب الله بن جحش ، فلما افتدياه أسلم ، فقيل له : «هلّا أسلمت قبل أن تفتدى وأنت مع المسلمين؟...».

فقال : «كرهت أن تظنوا بي أني جزعت من الأسار»(٣) .

يقول سفيان الثوري ــ رضي الله عنه ــ في تقدير ثروة الوليد بن المغيرة : إنه كان يملك ألف ألف دينار.

---

(١) تفسير الإمام الطبري جـ ٢٩ ص ١٥٣ وتفسير الإمام القرطبي جـ ١٩ ص ٧٢.

(٢) خالد بن الوليد للشيخ صادق عرجون.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ص ١٥٥٨ جـ ٤ وطبقات ابن سعد جـ ٤ ص ١٣٢.

ويقول ابن عباس — رضي الله عنه — : إنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال [١] .

ولهذا كله كان عنده صلف وكبرياء.

﴿كلا إن الإنسان ليطغى. إنْ رآه استغني﴾ [٢]

وكان مبذراً يتلف ماله للرياء والمفاخرة وكان ينهى أن توقد نار غير ناره في منى لإطعام الحجيج.

ومع كل هذا الإسراف الشديد ، والانفاق والبذخ الذي لم يكن لله ولا للخير ، كان يقرض ماله بالربا. وكان مشهوراً عنه ذلك بين قبائل العرب. وكم شهدت مكة وفوداً جرارة تريد الوليد بن المغيرة لتقترض منه ، ومات وله على قبائل مكة وأرياضها ديون تحسب بالآلاف.

وتروي أوثق المصادر : ان ابنه خالداً لم يزل يتقاضاها حتى أسلم ، وأسلم المدينون. فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال فقط [٣] ، امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ [٤] .

وعندما سمع الوليد بدعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ وتتابع الوحي على يتيم بني طالب ، كما كانوا يسمونه ، انتفخت أوداجه ، كبراً ، وصلفاً ، وأخذته العزة بالإثم ، وزعم أنه أحقّ الناس بالنبوة والقرآن.

---

(١) تفسير الإمام القرطبي جـ ١٩ ص ٧١.

(٢) سورة العلق آية رقم ٦ ، ٧.

(٣) ومن وصية الوليد لابنائه : دمي في خزاعة فلا تطلقه : أي تضيعوه ، والله اني لأعلم انهم منه براء ، ولكن أخشى أن تسبوا به بعد اليوم ، ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه (سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٨).

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٧٨.

وقال : أينزل القرآن على محمد وأُترَك؟... وأنا كبير قريش وسيدها[1]...

ويردّد القرآن أمانيهم الباطلة ، وأحلامهم الواهية ، وتدخّلهم في شئون الخالق جلا وعلا ، وهم أنفسهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً.

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2].

واستمر إيذاء الوليد للرسول ﷺ ، وكان يؤيده في ذلك زعماء قريش ورجالاتها.

آذوا الرسول في نفسه وأهله...

وآذوه في أصحابه ورجاله...

وجادلوه في أمر الوحي وكذبوا بكل ما عرضه عليهم ، ونالوا من دعوته ، وألّبوا عليه يهود المدينة.

وضاق الرسول ﷺ بذلك وانتظر أمر ربه ، وكان لا بد من نهاية لذلك حتى تعلو كلمة الله وتطمئن قلوب المؤمنين.

وينزل جبريل على الرسول الكريم يهدىء من روعه ويطيب قلبه ويبلغه رسالة ربه :

---

(١) الطبري جـ ٢٥ ص ٩٥، والقرطبي جـ ١٦ ص ٨٣.
(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣١، ٣٢.

﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[1] .

وأُعلنت الحرب على الذين جعلوا القرآن عضين[2] .

أُعلنت الحرب على الوليد بن المغيرة وصحبه .

أُعلنت الحرب على هؤلاء الكفرة الفجرة .

أُعلنت من رب السماء ، الذي له الخلق والأمر . ويتزل قول الله تعالى حاسماً للقضية وواضعاً حداً لهؤلاء .

﴿ يا محمد : إنا كفيناك المستهزئين ﴾[3] .

ذكر ابن اسحاق : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام وقام رسول الله ﷺ فمرّ به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمي ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه . ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجرّ سبلة[4] وذلك أنه مرّ برجل من خذاعة يريش نبلاً له فتعلق سهم من نبله بازاره فخدش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء فانتقض به ومات . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فعلقت به شبرقة[5] فدخلت في أخمص قدمه شوكة فقتلته .

(١) سورة الحجر آية ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) عضين : جمع عضة ، وهي السحر ، وأنشدوا : أعوذ بربي من النافثات في حقد العاضة المعضة .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٩٥ .

(٤) السبل : الثياب المسبلة ، يفعل ذلك كبراً واختيالاً .

(٥) الشبرق : نبت حجازي يؤكل وله شوك .

ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله[1].

وهكذا تم القضاء على حزب المستهزئين، والمناوئين للدعوة الجديدة، لم تأخذهم صاعقة مثل صاعقة ثمود ولم تقتلعهم من أرضهم عواصف كالتي أرسلت على قوم عاد، ولم يجرفهم طوفان كطوفان نوح، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل لكل شيء سبباً وكأنه بذلك يريد للبشرية بعد أن تركت طفولتها وبلغت رشدها وكمالها أن تأخذ بالأسباب وتلتزم بها، ثم بعدها تتوكل عليه، وتفوّض أمورها إليه وهو الحكيم القادر حتى لا يقع شيء في الوجود طفرة، ولا تتم الأمور عن طريق الارتجال والعفوية وإنما كلّ شيء بميزان وقدر.

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[2].

(1) تفسير الطبري سورة الحجر ص ٦٢.

(2) سورة الرعد آية رقم ٨.

أسباب نزول الآيات

كان من خبره في هذا ما رواه الصوفي عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

« دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال :

« يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي الجنون وإن قوله لمن كلام الله.

فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا :

« والله لئن صبا الوليد لتصبو قريش » .

فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال :

« أنا والله أكفيكم شأنه » .

« أنا والله أكفيكم شأنه » .

فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد :

« ألم ترَ إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ ... » .

فقال : « ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ ... » .

فقال له أبو جهل : « يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه » .

فقال الوليد : «أقد تحدث به عشيرتي؟... فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر».

قال : «فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له».

قال : «فماذا أقول فيه؟... فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بتقصيده ولا بأشعار الجن... والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى».

قال : «والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه».

قال : «فدعني حتى أتفكر فيه».

فلما فكر قال : «إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره»[1].

وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن تقدم عليهم وفود العرب للحج ليصدوهم عن محمد ودعوته.

وكان الرسول ﷺ يتعرض لوفود الحجيج ليعرض عليهم دعوة الإسلام فأرادوا أن يتفقوا على أمر يقنع جميع العرب ويصدهم عن دعوة محمد.

فقال قائلون : «نقول إنه شاعر».

وقال آخرون : «بل هو ساحر».

وقال قسم ثالث : «بل هو كاهن».

وقال قسم رابع : «بل نقول إنه مجنون».

كل هذا والوليد يفكر ويدبر فيما يقوله فيه، ففكر وقدَّر ونظر وعبس وبسر فقال :

---

(١) يراجع الدر المنثور جـ ٦ ص ٢٨٢ ، والمستدرك جـ ٢ ص ٥٠٦ وانظر الطبري جـ ٢٩ ص ٩٦ والقرطبي جـ ١٩ ص ٧٢، وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٤.

«يا أهل قريش، إنكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإنكم تزعمون أن محمداً مجنون. وهل رأيتموه يجن قط»؟.

قالوا: «اللهم لا».

قال: «تزعمون أنه كاهن، وهل رأيتموه يتكهن قط؟».

قالوا: «اللهم لا».

قال: «تزعمون أنه شاعر، هل رأيتموه ينطق بشعر قط؟».

قالوا: «لا».

قال: «فتزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟».

قالوا: «لا».

قالت قريش للوليد: «فما هو»؟..

قال: «ما هو إلّا ساحر وأما ما يقوله فسحر»[1].

فنزل قوله تعالى:

﴿إنه فكَّرَ وقدَّرَ، فقُتِلَ كيفَ قدَّرَ، ثم قُتِلَ كيفَ قدَّرَ، ثم نظرَ ثم عبسَ وبَسَرَ ثم أدبرَ واستكبرَ فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثَرُ، إن هذا إلّا قولُ البشرِ﴾[2].

---

(١) رواه الإمام الواحدي، بسنده عن مجاهد في اسباب نزول القرآن ص ٤٧٦.

(٢) سورة المدثر الآيات من ١٨ — ٢٥.

تذييل...

دأب الناس في كل عصر ومصر على محاربة المخلصين والكيد لهم والوقوف أمام كل من يجهر بكلمة حق.. لم يسلم من ذلك الرسل والأنبياء ولا الأولياء المخلصون ولا الأتقياء المؤمنون، والتاريخ مليء بصور المآسي التي تحمّلها هؤلاء جميعاً، تحمّلوها في صبر وجلد، وتقبّلوها في شجاعة وإيمان، وكأن هذا طبيعة الكون وسنّة الوجود، ودستور الحياة.

يقول الرسول ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون».

وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: «لا يفقد نبي حرمته إلّا في بلده».

وروى الإمام البيهقي أن كعب الأحبار قال لأبي موسى الخولاني: «كيف تجد قومك»؟..

قال: «مكرمين مطيعين».

قال: «ما صدقتني التوراة إذن وأيم الله ما كان رجلٌ حليم في قوم قط إلّا بغوا عليه وحسدوه».

ويذكر الإمام الحجة جلال الدين السيوطي — رحمه الله — مجموعة من المآسي التي ابتلي بها المصلحون بقوله:

«اعلم أنه ما كان كبير في عصر قط إلّا كان له عدو من السفلة إذ الأشراف لم

تزل تبتلي بالأطراف، فكان لآدم عليه السلام إبليس. وكان لنوح حام وغيره. وكان لداود جالوت وأضرابه. وكان لموسى فرعون.. وهكذا إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فكان له الوليد بن المغيرة وأبو جهل وعصابة الشرك وسدنة الكفر، وما زالوا به حتى أخرجوه من بلده واتهموه بالسحر مرة وبالجنون مرّات.

قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾[1].

والوليد بن المغيرة أحد الذين فكروا وقدروا لحرب الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر﴾[2].

وكان الدافع لهذا التفكير والتقدير هو الحسد والبغي الذي ملأ صدره وأعماه عن الحق وأبعده عن الهداية.. الأمر الذي جعله يهذي بينه وبين نفسه بكلمات إن دلت على شيء فإنما تدل على قصر نظره وبلادة حسه...

لقد كان يتعجب من أمر محمد ومن دعوته ويقول: «أينزل الوحي على محمد وأُترك أنا»؟...

أيترَك الوليد صاحب الكنوز الكبيرة والأولاد العشرة، والصولجان والعز، ويختار محمد اليتيم الفقير؟..

ولكن القرآن لا يتركه في جهالته وغروره بل يجابهه بحقيقة الأمر وأنه الخبير بعباده، العليم بما يصلحهم ويصلح حالهم في الدنيا والآخرة وأنه يحكم ولا مرد لحكمه لأنه العدل المطلق.

قال تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٣١.

(٢) سورة المدثر آية رقم ١٨، ١٩.

يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[1] .

فهل ارتدع الوليد؟ وهل كف عن ضلاله؟..

الحقيقة أنه لم يرتدع ، ولم يكف عما هو فيه ، فلم يكن هناك بد من تعريته وكشفه وبيان حقيقته وأصله . ونزل الوحي على الرسول ﷺ معدداً صفات الوليد بن المغيرة لتبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها صورة مجسمة لأحد هؤلاء الطغاة الذين تصدّوا لحرب الله وحرب رسوله ، ومبارزتهما بالعداوة.

قال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، منّاع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾[2] .

فهذه هي صفات الوليد بن المغيرة — بل صفات كثير من الطغاة الذين لا يستمعون لهدى ولا يصدقون برسالة .

« فهو حلاف كثير الحلف ، ولا يكثر الحلف إلّا إنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه ويستجلب ثقة الناس ، وهو مهين : لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله ، وآية مهانته حاجته إلى الحلف وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطاناً طاغية جباراً ، والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا . وهو هماز : يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم سواء. وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣١ ، ٣٢.

(٢) سورة القلم الآيات من ١٠ الى ١٥.

الأدب في معاملة الناس وحفظ كرامتهم صغروا أم كبروا ، وقد تكرر ذم هذا الخلق في القرآن في غير موضع .

فقال : ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾(١) .

وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾(٢) .

وكلها أنواع من الهمز في صورة من الصور . وهو مشاء بنميم ، يمشي بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بمودتهم ، وهو خلق ذميم ، كما أنه خلق مهين ، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراماً عند الآخرين ، حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام المشاء بالسوء بين الأوداء ، حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه في قرارة نفوسهم ولا يودّونه .

ولقد كان رسول الله ﷺ ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه ، وكان يقول :

«وهو معتد متجاوز للحق والعدل إطلاقاً معتد على النبي ﷺ ، ومعتد على المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين وهو أثيم يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت «أثيم» بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها ، فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم(٣) .

وهو عتل : وهي لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من

---

(١) سورة الهمزة آية رقم ١ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١١.

(٣) أخرجه ابو داود والترمذي من حديث ابن مسعود.

السمات لا تبلغها مجموعة ألفاظ وصفات، عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «العتل كل رغيب الجوف وثيق الخلق، أكول شروب، جماع للمال، منّاع له»[1].

وهو زنيم: وهو اللصيق في القوم لا نسب له فيهم أو أن نسبه فيهم ظنين. ومن معانيه: الذي اشتهر به وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره»[2].

فهل انتهى هذا النوع وخلصت منه البشرية إلى الأبد؟..

أم أننا نجد هذه الصفات وتلك الملامح تنطبق على بعض الناس بأعيانهم، ولا يزالون يقومون بنفس الدور الذي قام به الوليد في صدر الإسلام من الادعاء والكذب ووصف الآخرين بما ليس فيهم؟...

إن مهمة الدعاة كشف هؤلاء الأفراد وتعريتهم أمام المجتمع أسوة بما فعله القرآن الكريم مع الوليد بن المغيرة. فهل نحن فاعلون؟..

---

(١) رواه الإمام البخاري والإمام مسلم عن مجاهد.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٦٦٢ بتصرف.

الحكم بن هشام

(أبو جهل)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾
أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ
يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة العلق الآيات من ١١ إلى آخر السورة]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية في أبي جهل «عمرو بن هشام».

قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ٣ ص ١٦٤ — ١٦٥

والإمام القرطبي في تفسيره	جـ ٢ ص ١٢٧.
وتفسير الخازن والبغوي	جـ ٧ ص ٢٢٥.
وتفسير الإمام ابن كثير	جـ ٤ ص ٥٢٩.
والشوكاني	جـ ٥ ص ٤٥٨.
والدر المنثور	جـ ٦ ص ٣٦٩.
ومراجع تفسير الفخر والرازي	جـ ٨ ص ٤٦٧.
وابن جزي	جـ ٤ ص ٢٠٩

واسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ٤٩٣.

بأنها نزلت في أبي جهل..

فمن هو أبو جهل؟...

الحَكَم بن هِشَام (ابو جهل)

قاهر المستضعفين، وعدو المؤمنين بمكة وفرعون هذه الأمة[1].

كما قال الرسول ﷺ وراضخ جسم بلال بالحجارة والسياط، والناهي رسول الله عن الصلاة في جوف الكعبة، وأحد المستهزئين بالدعوة وصاحبها، والمتآمرين على قتله في دار الندوة.

إنه: عمرو بن هشام بن المغيرة، وكان يكنّى أبا الحكم فكنّاه رسول الله ﷺ: أبا جهل. وأمه الحنظلية: أسماء بنت مخربة أحد بني نهشل ابن دارم بن مالك بن حنظلة. وأخوه الحارث بن هشام بن المغيرة الذي فرّ من غزوة بدر عندما قتل أخوه أبو جهل فقال حسان بن ثابت:

إن كنت كاذبة بما حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

فقال يعتذر:

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى رموا فرسي بأشعر مزبد
ووجدت ريح الموت من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدد

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٧.

فعلمت أني إن أقاتل واحداً ... أقتل ولا ينكى عدوي مشهدي
فصدفت عنهم والأحبة دونهم ... طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم...

وابنه عكرمة بن أبي جهل، كان فارساً مشهوراً في الجاهلية والإسلام، هرب حين فتح مكة ولحق باليمن ولحقت به امرأته أم حكيم، فدعته إلى الإسلام وحببته اليه، وجاءت به النبي ﷺ فلما رآه قال:

«مرحباً بالراكب المهاجر»[1].

فأسلم وحسن إسلامه.

وقال ﷺ لأصحابه: «إن عكرمة يأتيكم، فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي[2] ويؤلمه».

واستشهد عكرمة باليرموك، ومعه الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو. وأتوا ماء وهم صرعى فتدافعوه كلما دفع الى رجل منهم قال: اسق فلاناً حتى ماتوا ولم يشربوه.

قال عبد الله بن مصعب: طلب عكرمة الماء فنظر إلى سهيل ينظر إليه، فقال: ادفعه إليه فهو أحق مني. فنظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ادفعه إليه، فلم يصل إليه حتى ماتوا جميعاً[3].

يا لروعة الرجال الذين تربوا على مائدة الإسلام.. كم كانوا صادقين مع أنفسهم، ومع الغير، حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة، والأنفاس الباقية لكل منهم، يؤثر غيره على نفسه، إنه يحب دينه أكثر مما يحب الحياة، ولهذا كانوا يبذلون

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٠٨٤.

أغلى ما يملكون في سبيل نصرة الإسلام، وكان كل منهم حريصاً على حياة الآخرين، حتى يبلغ هذا الدين للناس كافة، وكان في نفس الوقت يحرص على الشهادة التي هي بغية كل منهم لتنقله إلى دار الخلود في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وكان يوجد في نفس الوقت فئة مطموسة العينين فلا ترى الحق، غليظة القلب فلا تنبض برحمة أو شفقة، بليدة الإحساس والعقل، فلا تفكر ولا تهتدي بهدي الله.

وكان من الفريق الثاني أبو جهل عدو الله وعدو الدعوة الجديدة ومن هؤلاء المناوئين لرسول الله ﷺ وأصحابه، وكم نال المستضعفون على يديه من تعذيب وتنكيل حتى أن بعضهم كانت تزهق روحه — كما حدث لسمية أم عمار بن ياسر أول شهيدة في الإسلام[1].

وكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم وتابع محمداً على دينه تتبعه وتعقبه، فإن كان له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك... لنسفهن حلمك، ولنبطلن كيدك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك حتى لا يبقى لك مال... وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[2].

وعندما علم بهجرة عياش بن أبي ربيعة إلى المدينة وكان أخاه لأمه خرج إلى المدينة واحتال على عيّاش وردّه إلى مكة ودخل به نهاراً موثقاً. ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل مكة، هكذا افعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا»...[3].

الذي يعبد الواحد الأحد، ويتبع دين إبراهيم؛ ويرفض السجود لصنم أو

(١) الروض الأنف جـ٣ ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٨٤.

حجر، ويتحلى بمكارم الأخلاق، ويترك سفسافها... يكون سفيهاً في نظر أبي جهل؟...

والذي يأكل الميتة، ويتمسح بالأصنام، ويغير على الضعفاء ولا يحلّ ولا يحرم... يكون عاقلاً رزيناً؟...

إنه منطق الجهالة في كل عصر ومصر، تنحرف عن التفكير السليم، وتشوّه وجه الحقيقة.. وكان يتهكم بالمسلمين، فمن آمن بدعوة محمد فيقول: ألا تعجبون إلى هؤلاء وأتباعهم الضعفاء، لو كان ما أتى محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليه. أفتسبقنا «زنيرة»[1] إلى رشد[2]؟...

بل بالغ في تهكّمه حتى كان يهزأ بالرسول ﷺ وما نزل من القرآن.

فكان يقف في جوف الكعبة ويقول: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم[3]؟...

فأنزل الله تعالى:

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾[4].

يا لضحالة هذه العقول، إن النار وما عليها ليست إلا من خلق الله وإذا أراد الله إهلاك أمة فلا يحتاج ذلك منه إلى عدد وعدة وإنما هو أمره إذا أراده قال له: كن فيكون.

﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾[5].

(١) كانت أمه وأعتقها أبو بكر.
(٢) الروض الأنف جـ٣ ص ٢٢١.
(٣) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٣٦.
(٤) سورة المدثر آية رقم ٣١.
(٥) سورة المدثر آية رقم ٣١.

ويحس أبو جهل أن جهته في تناقص مستمر وأن آيات القرآن تهز تلك القلوب المتحجرة فكان يعمل على تهدئتها وتأمينها. فلما نزل قوله تعالى:

﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾[1].

قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟...

قالوا: لا.

قال: عجوة يثرب بالزبد. والله لئن استمسكنا منها لنتزقمها تزقماً[2].

ويسير أتباعه سيرته في الاستهزاء برسول الله ﷺ.

يقول ابن إسحاق: قدم رجل من أراش بابل له إبل بمكة فابتاعها منه أبو جهل فماطله بأثمانها، فأقبل الأراشي حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله ﷺ من ناحية المسجد جالس.

فقال: يا معشر قريش من رجل يؤديني[3] على أبي الحكم بن هشام فإني رجل ابن سبيل وقد غلبني على حقي.

قال: فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس، وأشاروا على رسول الله ﷺ، وهم يهزأون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة: اذهب إليه فإنه يؤيدك عليه.

فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه — يرحمك الله —.

---

(١) سورة الدخان آية رقم ٤٤ — ٤٩.

(٢) الروض الأنف جـ٣ ص ٢١٤ وسيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٨٦.

(٣) يؤديني: قال أبو ذر: معناه يعينني، أي ينصفني. وقال السهيلي: أن يعينني على أخذ الحق منه، وهو من الأداة التي يتوصل بها الانسان الى ما يريد.

فقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه وانظر ماذا يصنع ؟

وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال : مَن هذا؟

فقال : محمد ، فاخرج إليَّ.

فخرج إليه وما في وجهه من رائحة[١] قد امتقع لونه.

قال : أعط هذا الرجل حقه.

فقال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذي له.

فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي : الحق بشأنك[٢].

فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي.

قال : وجاء الرجل الذي بعثوا معه ، فقالوا : ويحك ماذا رأيت؟...

قال : عجباً من العجب والله... ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه[٣]. فقال له أعط هذا حقه. فقال نعم ، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه.

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا : ويلك ما لك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت قط...

قال : ويحكم... والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت منه رعباً ثم خرجت إليه وأن فوق رأسه لفحلاً من الابل ما رأيت هامته ولا قصرته[٤] ولا أنيابه لفحل قط... والله لو أبيت لأكلني[٥].

---

(١) أي من قطرة دم — قال السهيلي : أي بقية روح قد امتقع لونه.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق ص ٤١.

(٤) القصرة هي العنق الطويل.

(٥) الروض الأنف جـ٣ ص ٣٧٢.

لقد ذهب الرسول ﷺ إلى أبي جهل ومعه حزب الله ومعه ملائكته وجنوده وإيمانه وربه ، وخرج أبو جهل إليه ومعه شيطانه فلما رأى ما رأى نكص على عقبيه ، فرَّ شيطانه ، فتهاوت قوته ، وضعفت مقاومته وأحس أنه وحيد لا حول له ولا قوة أمام هذا الجيش اللجب ، وقذف الله في قلبه الرعب فكان من أمره ما كان .

والتقى يوماً بالرسول ﷺ عند الصفا فآذاه ونال منه ما يكرهه من العيب لدينه ، والتضعيف برسول الله ﷺ وبجواره امرأة تتألم لما تسمع ولا تملك أن تفعل شيئاً ــ هي امرأة مؤمنة تكتم إيمانها وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان فأخبرت بما رأت وسمعها حمزة بن عبد المطلب فانطلق مهرولاً إلى المسجد حتى وجد أبا جهل جالساً في القوم فأقبل نحوه ورفع قوسه فضربه بها فشجه شجةً منكرة ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فردّ ذلك عليَّ إن استطعت[1] ...

فقام رجل من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً[2] .

لقد فكر عدو الله ورأى أن أصحاب محمد يزيدون كل يوم وأخذوا يجاهرون بإسلامهم ، فالأمر إذن ليس أمر حمزة ولكن الأمر أمر محمد وأمر بني هاشم جميعاً الذين رفضوا أن يسلِّموا محمداً بعد أن فعل ما فعل واجتمع في دار الندوة مع زعماء الكفر وقرروا مقاطعة بني هاشم وكتبوا بذلك صحيفة علقت في جوف الكعبة[3] .

وفي يوم من الأيام ــ أيام المقاطعة ــ لقي أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ومعه قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد زوج الرسول ﷺ فتعلق به وقال :

« أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ ... والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٣.

(٣) راجع أمر الصحيفة في الأثير ص ٨٧ جـ ٢.

فجاء أبو البختري بن هشام بن الحرث فقال : ما لك وله؟...

فقال : يحمل الطعام إلى بني هاشم.

فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه... أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟... خلّ سبيل الرجل.

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري عصا غليظة فضربه بها فشجه ووطأه وطأً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك[1] .

إنها لقمة الخبز في كل مكان وزمان السلاح الذي يشهره الأباطرة والمتجبرون ضدّ مَن يخالفهم في الرأي أو العقيدة... إنه السلاح الخسيس الذي يدل على تعفن النفوس ، ومرض القلوب ، وتحجّر العواطف ولكن الله دائماً ينصر الحق وأهله ويدافع عن رجاله ما داموا على الجادة سائرين ، وفي سبيل الله هم مجاهدون ، ولكن لماذا كل هذا الحقد لرجل يقول : ربي الله؟...

لماذا هذه العداوة التي لا تقف عند حد ، ولرجل بالذات وصف عندهم بالأمانة والعفة والنزاهة.. حتى وصفوه قبل بعثته بالأمين؟..

أبغضاً في محمد؟...

كما كانوا يقولون : «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»[2].

أجحداً ونكراناً بأن الله خالق السموات والأرض؟ ولئن سألتهم :

﴿مَن خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾[3] .

أم ماذا إذن؟... أكراهية لسماع القرآن؟...

إن ابن إسحاق يروي عن شهاب الزهري : أن سفيان بن حرب وأبا جهل بن

---

(١) الروض الأنف جـ٣ ص ٢٨٤ وسيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٧٦ وراجع ابن الأثير جـ٢ ص ٨٨.

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣١ ، والقريتان : مكة والطائف.

(٣) سورة لقمان آية رقم ٢٥.

هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض :

«لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً».

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أولاً ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل واحد منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[1] .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد.

فقال : يا أبا ثعلبة ... والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها.

قال الأخنس : وأنا ... والذي حلفت به .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؟.. أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟.. والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٣٨.

فقام عنه الأخنس وتركه[1].

هذه هي القضية.. قضية الصراع على الجاه والمنصب.. قضية التسابق والتكالب على عرض الدنيا الزائل. إنه لم يغب الحق عنهم ساعة، بل كانوا يعرفونه ولكنهم كانوا كارهين لهذا الحق الذي جاء عن طريق بني عبد مناف للذين كانوا دائماً سبّاقين لإطعام الطعام، وتقديم العطايا ونصرة الضعيف، والدفاع عن قريش.

ولقد كانوا يحاولون دائماً أن يلحقوا بهم ولكن هيهات هيهات، فرق بين الحيلة والتصنع، بين الرنين والبريق، بين الحق والباطل.

﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾[2].

وتجتمع قريش في دار الندوة اجتماعاً غير عادي، وما أكثر ما كانت تجتمع وتنفضّ من أجل محمد وأصحابه. ولكن في هذه المرة كانت تبيت شيئاً جديداً... لا بدّ من وضع خطة يكون فيها القضاء على هذه الدعوة قضاء لا قيام لها بعده. ويقال إن هذا الاجتماع حضره إبليس في صورة شيخ كبير مجرّب، وافتتح بعضهم الحديث فقال: خذوا محمداً إذا اصطبح على فراشه فاجعلوه في بيت فتربص به ريب المنون[3].

فقال إبليس: بئسما قلت... تجعلونه في بيت فيأتي أصحابه فيخرجونه فيكون بينكم قتال.

قالوا: صدق الشيخ.

قال آخر: أخرجوه من قريتكم.

قال إبليس: بئسما قلت... تخرجونه من قريتكم وقد أفسد سفهاءكم فيأتي قرية أخرى فيفسد سفهاءهم فيأتيكم بالخيل والرجال.

---

(١) الروض الأنف جـ٣ ص ١٩٧.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٧٠.

(٣) الريب هو الموت، والمنون هو الدهر.

قالوا : صدق الشيخ.

قال أبو جهل ، وكان أولاهم بطاعة إبليس : بل نعمد إلى كل بطن من بطون قريش ، فنخرج منهم رجلاً فنعطيهم السلاح فيشدون على محمد جميعاً فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يستطيع بنو عبد المطلب أن يقتلوا قريشاً ، فليس لهم إلا الدية.

قال إبليس: صدق... وهذا الفتى هو أجهدكم رأياً[1] .

ولكن الله أبطل كيدهم وسخر من تدابيرهم ، وأوحى إلى عبده بالهجرة إلى يثرب ، وسار رسول الله ﷺ في الطريق الممتد إلى مهجره تحرسه عناية الله وتكلأه رعايته.

وتنفرج أسارير الرسول ﷺ ويلقي على مسمع صاحبه أبي بكر وشريكه في هجرته قول الله تعالى :

﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين ﴾[2] .

خير الماكرين بتخليص عبده من مخالب الكفر..

خير الماكرين بإنقاذه من شرذمة الضلال..

خير الماكرين بصدق وعده ، ونصر عبده وإذلال الكفر وأهله..

هل توقف حقد أبي جهل عند هذا الحد؟..

هل فكر لحظة في أمر محمد؟.. وعرف أن الله حارسه وحافظه؟..

ألم يساورك شك في أن محمداً لو كان دعياً ما ادّعى على الله ، ولو كان كاذباً ما كذب على ربه.

---

(١) تفسير الطبري جـ٩ ص ٢٢٩.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٠.

الحقيقة.. أن أبا جهل استمر على كفره، وانطماس بصيرته إلى آخر رمق في حياته. لقد سمع بأن عاتكة بنت عبد المطلب رأت رؤيا أرعبتها، وخلاصتها:

«أن قريشاً تخرج لمصارعتها في ثلاث، ورأت رجلاً يقف على جبل أبي قبيس ويقذف بحجر ضخم فتناثرت أجزاؤه فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابته فلقة من هذا الحجر»[1].

فترصد للعباس بن عبد المطلب حتى وجده يطوف بالبيت ثم قال له:

«متى حدثت فيكم هذه النبية»؟...[2]

ثم قال: أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم.

ولكن ما رأته «عاتكة» كان حقاً وصدقاً فلم يمض على حديثها ثلاثة أيام حتى نفرت قريش لاستخلاص عيرها من محمد، واستطاع أبو سفيان أن ينجو بالعير عندما سلك طريق الساحل.

وأرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله فارجعوا.

فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نردّ بدراً ونقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع العرب بنا وسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ما مضوا[3].

ولكن هذا الرأي لم يرض به حكيم بن حزام، فاستشار عتبة بن ربيعة في ذلك فوافقه على الرجوع بعد عرض الأمر على أبي جهل.

---

(١) راجع تفاصيل هذه الرؤيا في سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٥٨.

وعندما عرض عليه حكيم بن حزام رأي عتبة ، قال : لقد انتفخ والله سحره [1] حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

وعندما بلغ عتبة ما قاله أبو جهل قال :

«سيعلم مصفر «إسته»[2] مَن انتفخ سحره أنا أم هو[3] ؟...

(١) السحر : الرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السرة.

(٢) قال الشيخ الفقيه أبو ذر : العرب تقول هذا القول للرجل الجبان ولا تريد به التأنيب.

(٣) راجع ابن الأثير جـ٢ ص ١٢٤ وسيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٦٤.

مقتل أبي جهل

ودارت المعركة.. المعركة التي فرقت بين الحق والباطل، المعركة التي لا زالت أصداؤها ترنّ في سمع التاريخ، وتطالب المسلمين الذين طحنهم الأعداء وغلبتهم الأمم، وأصبح بأسهم بينهم شديداً، أن تكون لهم معركة أخرى مثل معركة بدر.

نقول: دارت المعركة وأقبل رأس الكفر أبو جهل يحمل سيفاً عرّاه من غمده ويضرب به في غير مضرب ذات اليمين وذات اليسار وهو يرتجز ويقول:

ما تنقم الحرب العوان مني   بازل عامين حديث سني
لمثل هذا ولدتني أمي[1]

قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم يقولون:

أبا الحكم لا يخلص إليه فلما سمعناها جعلته من شأني فصمدت نحوه فلما أمكنني الله منه حملت عليه فضربته ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهدني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي — يقصد يده — فلما آذتني وضعت عليها قدمي وتمطيت بها عليها حتى طرحتها[2].

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق وابن الأثير جـ٢ ص ١٢٧ والبداية والنهاية جـ٣ ص ٢٨٧.

أتسمعون يا أتباع محمد ـــ يا أحفاد ابن الجموح؟..

أرأيتم الجهاد في سبيل الله؟..

لقد تخلص من يده لأنها تعوقه عن أداء واجبه في المعركة... تخلص من عضو من أعضائه بطريقة لا يقدر عليها إلا أمثال هؤلاء الرجال.

لقد كان يكفيه ما فعل، لقد قاتل أغلب يومه، وأصيب بجراحة قطعت يده، ولكن كلا.

حتى يفرق الله بين الحق والباطل..

وتعلو كلمة التوحيد عالية خفاقة في أرجاء الأرض، وهذا ما فعله هؤلاء الرجال ممن تربوا في مدرسة القرآن وانخرطوا تحت قيادة الرحمن.

ولنعد إلى أبي جهل..

ثم تبعه ـــ وهو عقير ـــ معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل وانتهت المعركة الكبرى ـــ المعركة التي شهدتها الملائكة وانتصر فيها جند الله.

وأمر الرسول ﷺ بالبحث عن عدو الله أبي جهل.

وقال لهم: «انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أقوى منه بيسير فدفعته فوقع على ركبته، فخدش في إحداهما خدشاً لم يزل أثره به»[1].

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـــ فوجدته بآخر رمق فعرفته، وقد كان خبث بي[2] مرة بمكة، فآذاني ولكزني، فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت: لقد أخزاك الله يا عدو الله.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٦، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٨٧.

(٢) خبث بي: قبض عليه ولزمه، البداية والنهاية جـ٣ ص ٢٨٧.

فقال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم[1].

ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عبدو الله أبي جهل، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله.

وفي رواية الإمام أحمد — رضي الله عنه —: قال رسول الله ﷺ «انطلق فأرينه».

فانطلقت فأريته فقال: هذا فرعون هذه الأمة[2].

وقال الواقدي: وقف رسول الله ﷺ على مصرع ابن عفراء فقال: رحم الله ابني عفراء فهما شركاء في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر.

فقيل: يا رسول الله، ومَن قتله معهما؟

قال: الملائكة وابن مسعود قد شارك في قتله[3].

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٧.

(٢) البداية والنهاية جـ٣ ص ٢٨٩.

(٣) رواه الإمام البيهقي.

أسباب نزول الآيات

اجتمع زعماء قريش في دار الندوة، وأرسلوا للرسول ﷺ فجاءهم سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم. فقالوا له أشياء وطلبوا أن يحقق لهم مطالب هي من اختصاص الله سبحانه وتعالى والتي ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً... أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه.. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (1) ...

قال الرسول ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل.

ثم قام عنهم حزيناً كاسفاً لعدم هداية قومه.

عندها قال أبو جهل: يا معشر قريش.. إن محمداً قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا وإني أعاهدكم لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حمله — أو كما قال — فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

---

(1) سورة الإسراء الآيات من ٩٠: ٩٣.

قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ...

وغدا رسول الله كما كان يغدو وكان الرسول بمكة قبلته إلى الشام ، فكان إذا صلّى صلّى بين اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام الرسول ﷺ يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل .

فلما سجد الرسول ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى دنا منه .. رجع منهزماً ، ممتقعاً لونه مرعوباً ، وقد يبست يداه على حجره ، حتى قذف من يده .

وقامت إليه رجال من قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم؟ ..

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الايل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط .. فهمّ بي أن يأكلني .

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال :

«ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»(١) .

وروى النسوي بإسناده إلى أبي هريرة — رضي الله عنه — قال أبو جهل .. وذكر الحديث إلى قوله : فنكص أبو جهل على عقبيه ، فقالوا : ما لك؟ .. فقال :

---

(١) الروض الأنف والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٣ ، وراجع الطبري ، وعند الامام أحمد قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه .. ورواه البخاري عن يحيى عن عبد الرزاق.

إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً شديداً فقال رسول الله ﷺ : لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً(١) .

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه من طريق داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال :

كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال : «يا محمد.. ألم أنهك عن هذا»؟..

وتوعده...

فأغلظ له الرسول وانتهره...

فقال : يا محمد.. بأي شيء تهددني؟.. أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً.

فنزل قوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾(٢) .

وقال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته.

وقال الإمام الترمذي : حسن صحيح.

وعن أبي هريرة قال : قال ابو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟.. قالوا : نعم. فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته.

قال : فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقيل له : ما لك؟.. فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة..

---

(١) رواه الامام أحمد والترمذي وصححه النسائي من طريق داود ، وفي رواية أخرى للإمام أحمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) سورة العلق آية رقم ١٧ ، ١٨.

فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً»[1].

فأنزل الله تعالى:

﴿كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى، إن إلى ربك الرجعى، أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى، أرأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى، أرأيت إن كذب وتولى، ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، فليدع ناديه، سندع الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾[2].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة، ورواه الامام أحمد ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم والبيهقي من حديث معتمد بن سليمان.

(٢) سورة العلق الآيات من ٦ : ١٩.

تذييل...

لماذا حمل أبو جهل «عمرو بن هشام» لواء المعركة ضد الدعوة الوليدة؟...

وما هي الدوافع وراء تشدده في محاربة المسلمين، وتحريض قريش على التنكيل بضعفائهم؟...

أكان يرتاب في صدق محمد ﷺ ويشك فيما ينقله عن ربه؟...

وكيف يكون ذلك، وهو المشهور بينهم بالأمانة والصدق؟...

أيكون صادقاً مع الناس، كاذباً على ربه؟... أم أن أبا جهل كان ينفس على محمد مكانته بين قومه ويحسده على ما حباه به ربه؟...

الحقيقة أن قصة أبي جهل مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية من رسول الله ﷺ تلقي كثيراً من الأضواء على تلك النفسية المعقدة التي كان لها دورها الكبير في الصد عن دين الله والتنكيل بأتباعه.

يقول ابن هشام: «سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد من كلمات الوحي، فأجابه أبو جهل بقوله: ماذا سمعت؟... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟... والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه»...

أتكون الرغبة في الملك والصولجان، والحرص على الجاه العريض والنفوذ الكبير داخل الجزيرة العربية، هم الذين حالوا بين أبي جهل والاستماع إلى الوحي وأجابه داعي الله؟...

إن أبناء بني عبد مناف كانوا دائماً سباقين إلى معالي الأمور...

أطعموا الطعام، وفكوا الأسير، وأعانوا على نوائب الدهر، وكان منهم الرجال الأبطال والفرسان المغاوير، الذين يتولون قيادة الجيش المحارب، فيفتُّون في عضد الأعداء ويعودون لقريش بالنصر والغنيمة.

وكان بنو أمية في الجانب الآخر يحاولون أن يلحقوا ببني عبد مناف في كل ما يأتون من خير أو يبتعدون عن شر، ولم يحدث أن تقدموهم في شيء أو تفوقوا عليهم في ميدان، وكان هذا يملأ قلوب بني أمية بالحفيظة والحسد، ومع هذا كانوا يمنون أنفسهم بيوم تكون لهم السيادة والقيادة على قريش وعلى بني عبد مناف على وجه الخصوص... حتى جاء محمد ﷺ بالرسالة من ربه، وأخذ في الدعوة إلى الله مبشراً بالدين الجديد، وظنت عصابة الكفر أن هذا إنما هو شرف جديد يضاف إلى بني عبد مناف، ومكرمة خاصة حباهم الله سبحانه وتعالى بها، وأطلت من رؤوسهم روح العصبية المنتنة والقبلية الحاقدة فأعلنوها حرباً على محمد وعلى أتباع محمد، وتذكر أبو جهل المنافسة والغلبة فقال كلمته التي سجلها التاريخ: «فمتى ندرك مثل هذه»؟...

وإذا كان لأبي جهل دوره في الصد عن الهدى ومحاولة طمس أنوار الحق، وانتهى ذلك بقتله في غزوة بدر... فإننا نجد في كل عصر ومصر «أبا جهل» الجديد.. نجده في مجال السياسة، وفي ميدان الحروب، وفي حقول التعليم، وفي بيوت الطب، وفي كل ميدان من ميادين الحياة.. ولقد شهد عصرنا الحديث بعض هؤلاء الجهلاء الذين تسلقوا إلى الحكم عن طريق المخاتلة والمكر، أو الحيلة والدسيسة. وعندما تربعوا على قمة الحكم وسلمت لهم مقاليده، استبدوا برأيهم، وتحكموا في مصائر الشعوب وأقدارها.

إننا نقول لرجال التربية والتعليم على مستوى العالم الإسلامي والعربي : اتركوا هذا الزيف وترفعوا بأنفسكم وأبنائكم عن السطو على موائد الغير من شرق وغرب ، فإنها وُضعت لغيرنا.. وبالنسبة لنا لا تأتي بخير.

إن للقوم تقاليدهم وعاداتهم وأفكارهم ، ولا شك أنها تختلف وتتصادم مع تقاليدنا وعاداتنا وعقائدنا.

إذا كان لدينا كتاب الله فكيف نستجدي تشريعات الغير؟...

وإن كان بين أيدينا حديث الرسول ﷺ فكيف نحتاج إلى مناهج تربية أو قواعد اجتماع أو مبادىء اقتصاد أو مخطط لعلم النفس؟...

وإذا كان ذلك كذلك فعلام نستورد مناهج حياتنا من خلف الحدود والسهوب؟...

وإذا كانت أعماقنا مليئة بالكنوز فلماذا ننتظر زبد الغير؟...

أترى أن تجاربنا عقمت فلم تعد تنتج ، وصدئت عقولنا فلم تعد تفكر؟...

أم أن رصيدنا من المعرفة والحضارة قد استنفذ أغراضه فلم يعد يصلح للحياة؟...

الحقيقة أن تجاربنا التي مدنت الدنيا وهذبت الحياة لا زالت ثرة زاخرة...

وعقولنا التي خطَّت للبشرية طريقها ، ووضحت لها منهجها ، لم تصدأ بعد...

وكتاب ربنا الذي قضى على الجاهلية الأولى — وجاء بالتوحيد الخالص والدين القيم.. لم يزل غضاً قادراً على إزالة الجاهلية الثانية ، والقضاء على بقايا الشرك والإلحاد والتعفن.

فمتى يا رب يأتي وعدك.. وتتخلص الأمة الإسلامية من أبي جهل وأتباع أبي جهل القرن العشرين الذي سيطر على أقدار البلاد والعباد؟..

متى يا رب؟...

أبو لهب بن عبد المطّلب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ
مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن
مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة المسد وهى خمس آيات]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق رجال التفسير والحديث على أن هذه السورة نزلت في أبي لهب. قال ذلك :

الإمام ابن كثير في تفسيره.

الإمام القرطبي

الإمام الفخر الرازي.

صاحب كتاب أسباب نزول القرآن (الإمام الواحدي).

من هو أبو لهب؟...

أبو لهَب بن عبد المطلب

يسمى عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمي «أبو لهب» لإشراق وجهه . وقد قيل : اسمه كنيته ، فكان أهله يسمونه «أبا لهب» لتلهُّب وجهه وحسنه ، فصرفهم الله عن أن يقولوا «أبو النور» و«أبو الضياء» الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى «لهب» الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن جعلها مقره[1] .

وللعلماء في ذلك أربعة أوجه :

الأول — أنه كان اسمه عبد العزى ، والعزي صنم ، ولم يضف الله — سبحانه وتعالى — العبودية في كتابه إلى صنم .

الثاني — أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه فصرح به .

الثالث — أن الاسم أشرف من الكنية فحطه الله عن الأشرف إلى الأنقص ، إذا لم يكن بد من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ، ولم يكن عن أحد منهم .

الرابع — أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته فيدخله النار فيكون أبو لهب تحقيقاً للنسب ، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه .

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢٠ ص ٢٣٦.

وهو أحد أبناء عبد المطلب بن هاشم الذين وهبهم الله له عندما تضرع إليه أن يرزقه عشرة من البنين عندما اعترضت قريش طريقه في حفر زمزم وطلبت منه أن يشركها في ذلك.

وأمه آمنة بنت هاجر... يصمت التاريخ عن الحديث عنها أو رواية أخبارها[1].

نشأ في مكة، وعرف دروبها وعرفته، وشارك والده في استقبال الحجيج الذين كانوا يفدون إلى مكة. وكان غليظ القلب، جاف الطبع، سريع الغضب، لا يعرف الرحمة ولا يهتم بالمودة، ولا تهزه الأريحية.

وكان جهوري الصوت، أجش النبرات، يرفع عقيرته وسط الجبال المرتفعة فيتردد صداها بين الآفاق فيظن أن الأصنام راضية عنه معجبة به، لهذا كان كثيراً ما يشاهد بينها متأملاً في أشكالها، مزيلاً ما عليها من أتربة وأوساخ، وكان لا يطيق البعد عنها أو الانفكاك من أسرها. وكان يشاهد كل صباح وهو يمسح على أجسامها بيده، وتلامس أنامله أحجارها الصلدة، وأعضاءها المتماسكة التراكب، فإذا اطمأن إليها، ووقر في ذهنه أنها راضية عنه، ركب راحلته واتجه صوب الوديان يستعمل رمحه وسهمه في اصطياد وحوشها الكاسرة، وغزلانها النافرة، وطيورها الهاربة. ثم يعود إلى بيته فيلقي ما جمعه في يومه. ويخرج إلى فناء الكعبة ليخوض مع قريش في أحاديثها وأسمارها.

أما صفته الجسدية، فكان طويلاً فارع الطول، أبيض البشرة، غزير الشعر، أحول العينين، بعيد ما بين المنكبين، فيه صرامة وقسوة، تصطك أسنانه إذا تحدث، وتجحظ عيناه إذا غضب.

وزوجه: أم جميل. واسمها: أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣.

سفيان[1] .. كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، آذت الرسول وأطلقت فيه لسانها بفحش القول، وبذيء الكلام.. كرهت النور الجديد — نور الإسلام — وأخذت في الصد عنه، ومحاربة أهله، حتى نزل القرآن يخصها بالتهديد والوعيد.

وكان له من الولد: عتبة، ومعتب.

عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما قال:

لما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح قال لي: يا عباس أين ابنا أخيك عتبة ومعتب لا أراهما؟..

قلت: يا رسول الله تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش.

فركبت إليهما فأتيتهما، فقلت: إن رسول الله ﷺ يدعوكما.

فركبا معي سريعين حتى قدما على الرسول ﷺ فأخذ بأيديهما وانطلق يمشي بينهما حتى أتى بهما الملتزم — وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود — فدعا ساعة، ثم انصرف والسرور يرى في وجهه، فقلت له: سرّك الله يا رسول الله؟.. فإني أرى في وجهك السرور.

فقال الرسول ﷺ: نعم، إني استوهبت ابني عمي هذين ربي فوهبهما لي[2].

إنها صلة الرحم.. ومَن يصلها إذا لم يصلها رسول الله ﷺ.

لقد وصل رحمه وأكرم قومه، وعفا عن الذين أخرجوه من بين أهله وبلده، وقال لهم كلمته المشهورة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[3].

---

(1) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٢.

(2) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٦٠.

(3) صحيح البخاري فتح مكة.

ولقد استجاب عتبة ومعتب لرسول الله ، فأسلما وحسن إسلامهما. وتحقق ما قاله الرسول ﷺ عندما نزل عليه جبريل يطلب منه أن يأذن له في إنزال العقاب على قومه.. بأن يخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فقال الرسول ﷺ :

«يا جبريل ، لعل الله يخرج من أصلابهم مَن يعبد الله ويصدق بمحمد اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1] .

قال حمزة بن عتبة : فخرجا مع الرسول إلى حنين فشهدا غزوة حنين وثبتا مع رسول الله يومئذ فيمن ثبت من أهل بيته وأصحابه ، وأصيبت عين معتب يومئذ[2] .

أما أبو لهب فكم آذى الرسول وكم أسمعه ما يكره ، وكم نال من سمعته ، وكم وقف له في مكان يؤلب عليه الأطفال ، وينفِّر منه الكبار والصغار...

يقول محمد بن إسحاق : حدثني حسين بن عبد الله ، قال :

سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول : إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : «يا بني فلان إني رسول الله إليكم.. آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني ، وتمنعوني حتى أُبلِّغ عن الله ما بعثني به». فإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : «يا بني فلان.. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللّات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أفيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه». فقلت لأبي : مَن هذا؟... قال : عمه أبو لهب[3] .

لم يكتف أن يظلّ على كفره وشركه ، وأن يبقى على ضلاله وحمقه ، ولكنه أبى

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٩٩.

إلا أن يكون كذلك.. يتبع الرسول كظله يكذبه إن تكلم، وينفر القبائل عنه إن دعا إلى الله، ويقف له كل موقف، ويبارك ما فعلته قريش من مقاطعة بني هاشم. ويؤيد هذه المقاطعة ويكون أكثر المتشددين فيها، ويشارك في تعليق صحيفة المقاطعة في جوف الكعبة.

ولما توفي أبو طالب وخديجة، وكان بينهما خمسة أيام، اجتمع على رسول الله مصيبتان، ولزم بيته، وأقلَّ الخروج. ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعاً إذا كان أبو طالب حياً فاصنعه.. واللات.. لا يوصل إليك حتى أموت.

وفي يوم من الأيام سب ابن الغيطلة رسول الله ﷺ، فأقبل إليه أبو لهب، فنال منه، فولى يصيح: يا معشر قريش صبا أبو عتبة.

فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب، فقال: ما فارقت دين عبد المطلب ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد.

فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم.

فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً، يأتي ويذهب، لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب.

ولما رأت قريش أن محمداً أخذ يدعو لدينه، لا يعترضه أحد، فكر زعماؤهم في إقناع أبي لهب في البعد عن محمد، فجاءه عقبة بن أبي معيط وأبو جهل وقالوا له: ألخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟..

فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟..

فقال: مع قومه.

فخرج إليهما فقال: قد سألته فقال: مع قومه.

فقالا: يزعم أنه في النار.

فقال: يا محمد... أيدخل عبد المطلب النار؟

فقال رسول الله ﷺ: ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار.

فقال أبو لهب ـــ لعنه الله ـــ: والله لا برحت لك إلا عدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار.

واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه[1].

ويهاجر الرسول الكريم ولم يكفّ أبو لهب عن حربه للإسلام والمسلمين حتى كانت غزوة بدر، ونفرت قريش لحرب الرسول... ومَن لم يستطع الخروج جهّز من ينوب عنه في هذه المعركة. وكان أبو لهب من هؤلاء الرجال الذين لم يخرجوا إلى بدر ولكنه أرسل العاصي بن هشام بن المغيرة[2] ليحارب باسمه في أول معركة تدور رحاها بين عصبة الكفر وكتيبة الإيمان.

وكان أبو لهب يجلس كل يوم في الكعبة يسأل الغادي والرائح عن أخبار المعركة.. حتى كان يوم عودة الفلول المنهزمة من رجالات قريش إلى مكة... قال رافع مولى رسول الله ﷺ:

كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح[3] أنحتها في حجرة زمزم.. فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي وعندي أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة[4] فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب قد قدم.

قال: فقال له أبو لهب: هلم إليّ فعندك لعمري الخبر.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير بتصرف جـ٣ ص ١٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٩.

(٣) الأقداح جمع قدح، وكان يصنعها من الخشب.

(٤) طنب الحجرة طرفها، وطنب الخباء حباله التي يشدّ بها.

قال : فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخي أخبرني ، كيف كان أمر الناس؟..

قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا ، ومع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، لا والله ما تبقي منا شيئاً ، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت : تلك والله الملائكة[1]

قال : فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة ، قال : وثاورته[2] فاحتملني ، فضرب بي الأرض ، ثم برك عليّ يضربني ، وكنت رجلاً ضعيفاً. فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فتأخذه وتقول : استضعفته أن غاب عنه سيده ، وتضربه بالعمود على رأسه فتشجه شجة منكرة ، فقام يجرّ رجليه ذليلاً»[3].

ذليلاً لهزيمة قومه هزيمة منكرة...

ذليلاً لأن الله أبطل كيده وفلّ مكره ، وأدار الدائرة عليه...

لقد هيأ فرسه واختار له فارسه ، وأنفق ماله.. وانتظر أن يأتي له البشير بالنصر واندحار محمد وصحبه...

ولكن هيهات هيهات.. لقد خسر كل شيء ولم يبق شيء...

وصدق ربي في قوله :

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلَبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[4].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٩.

(٢) ثاورته : وثبت عليه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص ٢٣٧.

(٤) سورة الأنفال آية رقم ٣٦.

موت أبي لهب

لم يلبث طويلاً أبو لهب بعد أن سمع الأخبار عن غزوة بدر حتى رماه الله «بالعدسة»[1] فمات بها. وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن.. ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة. وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضخوا عليه الحجارة[2].

(١) العدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل. (القاموس المحيط).

(٢) جعلوا الحجارة بعضها على بعض.

أسباب نزول الآيات

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :

لما نزل قوله تعالى : ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال : يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مرّة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار ، يا فطيمة انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من النار شيئاً غير أن لكم رحماً ولا أغني عنكم من الله شيئاً .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : مَن هذا الذي يهتف ؟ ...

قال : محمد .

فاجتمعوا إليه .. فقال : يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب .

فاجتمعوا إليه ، فقال : أريتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ ...

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢١٤.

قالوا : ما جربنا عليك كذباً.

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب : تباً لك ، أما جمعتنا إلّا لهذا؟..

ثم قام فنزلت هذه السورة : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.

فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن.. أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فهر من حجارة. فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر.

فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني.. والله لو وجدته لضربت بهذه الفهر فاه. ثم انصرفت.

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك؟..

قال : ما رأتني.. لقد أخذ الله بصرها عني.

وكانت قريش إنما تسمّي رسول الله ﷺ مذمماً.. يسبونه.

وكان يقول : ألا يعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمماً وأنا محمد.

وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وُفد على رسول الله ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لهب فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له : أنت أعلم به منا ، فيقول لهم أبو لهب : إنه كذّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يلقونه. فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه ، فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه فتباً له وتعساً.

فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فاكتأب لذلك ، فأنزل الله تعالى :

﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١٩ ص ٢٣٢. والآية الأولى من سورة المسد.

تذييل ...

يتساءل الإنسان عن الأسباب الجوهرية التي دعت أبا لهب لأن يقف في وجه الدعوة الوليدة... يحاربها بالكلمة مرة ويهاجمها بالعصبية مرات ويجمع ضدها كل مخبول الفكر ناقص العقل مدخول الفؤاد.

أكان محمد كاذباً فيا قاله ودعا إليه؟..

إن أبا لهب نفسه ينكر ذلك، ويؤيد هذا القول ما يرويه الإمام الترمذي من أن أبا لهب نفسه كان يقول: «يا محمد إنني لا أقول إنك كاذب، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل».

والذي قاله أبو لهب توصل إليه هرقل — أمبراطور الروم — عندما جرى حديث بينه وبين أبي سفيان.

قال هرقل: هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا.

وتساءل هرقل أيضاً: هل يغدر؟

فقال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

فقال هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وإذا لم يكن محمد كاذباً فلماذا حاربه أبو لهب، وألّب قريشاً عليه؟

أكان يعتقد فيما أشاعته قريش عنه من اشتغاله بالكهانة أو أن به مساً من الجن؟..

إن كتب التاريخ تقدّم هذه الواقعة التي تدلّ على بطلان مزاعم قريش، فتقول: لقد جاء إلى مكة رجل يسمى «ضماد» من «أزد شنوءة» وكان يرقى من هذه الريح فقال: لو رأيت هذا الرجل لعلّ الله يشفيه على يديّ. فدله بعضهم على بيته، وعندما التقى به قال: يا محمد إني أرقى من هذه الريح وإن الله يشفي على يديّ من يشاء فهل لك في ذلك؟..

فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه.. مَن يهده الله فلا مضلّ له ومَن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد...

وقبل أن يتم رسول الله ﷺ حديثه قال «ضماد»: أعد عليّ كلماتك هؤلاء.

فأعادها عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى).

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يؤمن أبو لهب؟..

وما الذي جعله يعادي الهدى الجديد؟..

أكان ينكر على محمد ما يقوله، ويعتبره كبقية المعاندين المكابرين ضرباً من ضروب الشعر والرجز.

لقد سمع لبيد بن ربيعة الشاعر العربي والشهير ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه ورصانة شعره أن محمداً يتحدّى الناس بكلامه فصنع بعض الأبيات ردّاً على ما سمع وعلّقها على باب الكعبة متحدياً بذلك أن يأتي غيره بمثل ما قال. وحين رأى أحد

المسلمين هذا الشعر المعلّق على باب الكعبة أخذته العزة فكتب بعض آيات من القرآن الكريم وعلّقها إلى جوار أبيات لبيد.

وفي اليوم التالي مرّ لبيد بباب الكعبة، ولم يكن قد أسلم بعد، فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنه صرخ من فوره قائلاً: «والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين».

إذن محمد لم يكن بالمجنون وليس به مسّ من الجن وليس هو بالشاعر الذي يتقن الشعر ويجوده لأنه لم يكن في مقدوره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾[1].

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يصدق أبو لهب محمداً ﷺ فيما دعا إليه؟..

أكان يعتقد أن ما يقوله محمد ﷺ من قول الكهانة أو من خزعبلات السحرة؟..

يقول النضر بن الحارث ـــ وكان يعدّ من الخبراء المحنكين بمكة ـــ لعصبة المعارضين لمحمد ودعوته الجديدة: «يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدَثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر... لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدَهم... وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهنة وتخاليجهم وسمعنا سجعهم.. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه... وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه... يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم».

هذا هو الحق الذي لا مرية فيه... إن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد ﷺ ـــ الذي يعرفونه حق المعرفة ـــ أنه ساحر مرة وكاذب

---

(١) سورة يس آية رقم ٦٩.

أخرى ومجنون ثالثة ... إنما كانت كل هذه الادعاءات أسلحة من أسلحة التضليل والتهويش وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء... الكبراء في كل مكان وزمان، ويتخذونها ستاراً لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة.

لقد كان أبو لهب يقوم بدور يسمى في عصرنا الراهن بدور الرفض. أو إذا أردنا التجاوز في التعبير بدور الإعلام وما فيه من تضليل وأباطيل ليتمشى مع سياسة الحاكم ويخدع المحكومين المغلوبين على أمرهم.

إنها الدعوة التي تخرج من أبراج السادة والأباطرة لتخدير الجماهير أن تطالب بحقوقها.

إنه الأسلوب الرخيص الذي يستعمله هؤلاء المتحكون في مصائر البلاد والعباد، ويطالبون الجماهير أن تلغي عقولها وتخدر إحساسها وتصدق ما تذيعه أجهزة الاعلام من صحافة وإذاعة.

لقد كان أبو لهب يتتبّع خطوات الرسول ويرصد حركاته، فإذا التقى الرسول ﷺ بوفد من الوفد أو مجموعة من الناس ودعاهم إلى الاسلام وحبّب إليهم الايمان انبرى أبو لهب ليشكّك في الدعوة والداعية ويضلل هؤلاء الناس ويطالبهم بتصديقه باعتباره أقرب الناس إلى محمد وأكثرهم لصوقاً به ومعرفة بأحواله.

أليس هذا الأسلوب هو ما انتهجته وسائل الاعلام وأجهزة الدولة في كثير من البلاد الإسلامية في عصرنا الراهن؟.. فإذا قال المخلصون: نريد تطبيق شرع الله.. اتهموهم بالخروج على القانون والتآمر على الحكم. وإذا قالوا نحن مسلمون.. قالت وسائل الإعلام: أنتم رجعيون متخلفون. ألا إنهم هم المتخلفون الذين يعيشون في أشدّ العهود ظلاماً ورجعية.

إن هذه الفئة الباغية من أحفاد أبي لهب تضِلّ وتضَل وتعتقد أنها على الحق سائرة، وأتباعها يفرون أمام الأعداء كما يفرّ قطيع الغنم من الذئب، ويقولون إن

ذلك جولة. وينهزمون في كل معاركهم ويسمون ذلك نكسة. ويسرقون أقوات العباد ومقدّراتهم ويهتكون أعراضهم ويسطون على عورات بيوتهم ويدعون أنهم شرفاء. ويفسدون في الأرض طولاً وعرضاً ويقولون إنهم هم المصلحون: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[1].

إن أبا لهب الأول الذي صدّ عن سبيل الله ونكل بالضعفاء من المؤمنين لم يغن عنه ماله الوفير ولا كنزه الكبير ولا كل ما جمع وقدَّر.

لقد ساهم في مقاطعة بني هاشم ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل كيده. وقدم ماله وخيله وجهّز جنده وحزبه لحرب محمد وصحبه ولكن الله سبحانه وتعالى فرَّق جمعه وهزم حزبه وأعاد الدائرة عليه، ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأرسل عليه بعض عقابه فركبته الأمراض الخبيثة، وحلّ به الداء الذي لا يعالَج فنفر منه الولد وفرّ منه الخلّ وتحاشاه الأهل...

هذا في الدنيا.. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فمتى يعتبر كل أبي لهب جديد يكره النور ويقف في طريق الإصلاح والخير بما حلّ بأبي لهب الأول...

متى يا رب؟...

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١١.

كعب بن الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء آية رقم ٥١ - ٥٢]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق العلماء على أنها نزلت في :

كعب بن الأشرف.

وحيي بن أخطب.

راجع الدر المنثور جـ ٢ ص ١٧١

وانظر تفسير الطبري جـ ٨ ص ٤٦٨.

وأيضاً أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

فمن هو كعب بن الأشرف؟...

كعب بن الأشرف

تمهيد :

ظل اليهود أربعة عشر قرناً حرباً على الإسلام ومبادئه وتشريعاته منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة .. من ذلك أنهم أرسلوا سهامهم المسمومة على الجماعة المسلمة الوليدة ، وأخذوا يشيعون الأكاذيب فيهم ، ويؤلبون المشركين من أهل الجزيرة العربية عليهم ، ويشجعون المنافقين ويرسمون مع زعيمهم عبد الله بن أُبي طريق النَّيل منهم .

ومن الأسلحة التي استعملها هؤلاء اليهود ودخلوا بها معركتهم الفاشلة ضد الإسلام وأهله .. تشكيكهم في الوحي والرسالة ، ومحاولتهم خلخلة المجتمع المسلم ، وتحالفهم مع الكفر وأهله على حرب الإسلام وجنده . والآيات السابقة تكشف عن دور من أدوارهم الخطيرة في الكيد والدس وتأليب المشركين على الكتيبة المسلمة .

وزعيم المؤامرة في هذه المرة : كعب بن الأشرف .

فمن هو كعب؟...

وما حقيقة الدور الذي قام به حتى أنزل الله فيه قرآناً؟...

تقول كتب السيرة : هو رجل من طيء[1] ، وأمه امرأة من بني النضير ، داهية

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٥ وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣١.

مدبرة، جمعت له الأموال الطائلة، وأدخرت له ما لا يحصى من الكنوز حتى أصبح أغنى اليهود بالمدينة.

وكان قبل الإسلام يهدد أهل يثرب ويتوعدهم بقرب ظهور نبي جديد، فلما جاء الرسول ﷺ أضمر له الحقد والغلّ وتقوّل عليه ما لم يقله، وأخذ يؤذي شعور المسلمين ويشبب بنسائهم وبناتهم، وتمادى في ذلك حتى شبب بأم الفضل بنت الحارث[1].

وأخذت أشعاره تنتشر في الجزيرة العربية، وردّدتها الصبية والشباب، وبدأت تتشدق بها الأفواه المريضة والألسنة المسمومة.

ومن شعره في أم الفضل بنت الحارث:

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة	وتارك أم الفضل بالحرمِ
صفراء رائعة لو تعصر انعصرت	من ذي القوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها	إذا تأنت قياماً ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا	والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بني عامر جُن الفؤاد بها	ولو تشاء شَفَتْ كعباً من السقم
فرع النساء وفرع القوم والدها	أهل التجلة والإيفاء بالذمم
لم أرَ شمساً بليل قبلها طلعت	حتى تجلّت لنا في ليلة الظلم[2]

إن المسلم لا يأمن على نفسه، ولا على عرضه من أمثال هذا اللسان السليط... إذن ما العمل؟...

والمسلمون في هذا الوقت بالذات لا يريدون أن يشهروا سيوفهم في وجه هذا الحي من اليهود، لأنهم لم يؤمَروا بقتال، وهم أيضاً لا يسكتون على هذا الضيم.

(١) المصدر السابق وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٨.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٨.

وحمل بعض المسلمين أشعار كعب وسقطاته وفحشه إلى الرسول ﷺ ووضعها أمامه، وتحمس المسلمون في مجلس الرسول ﷺ عندما سمعوا هذا اللغو من الكلام، وتنادوا فيما بينهم إلى السلاح، وخشي الرسول عليه السلام أن تعم الفتنة، وتدور رحى المعركة بين المسلمين واليهود. فاستشار أصحابه في ذلك.. فأشاروا عليه بقتل بن الأشرف حتى تستقر القلوب وتهدأ النفوس ويقضى على الفتنة.

عندها قال الرسول ﷺ: مَن لكعب بن الأشرف[1]؟...

قال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله. أنا أقتله.

قال عليه الصلاة والسلام: فافعل إن قدرت على ذلك[2].

قال محمد بن مسلمة ذلك استجابة لأمر الرسول ﷺ ولكنه بعد أن تدبر الأمر، شعر بأنه تسرع في وعده...

إن الأمور في حاجة إلى دراسة وتريث... وكعب بن الأشرف يعيش في حصن منيع وحوله رجال أشداء، وهو من الفوارس الشجعان، وإلّا لما أقدم على ما أقدم عليه من تحالفه مع قريش ونقض عهده مع رسول الله ﷺ.

وبقي محمد بن مسلمة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، وركبته الهموم وتناوشته الأفكار السود من كل جانب.

لقد وعد الرسول ﷺ وعليه أن ينفذ ما وعد مهما كلفه ذلك من جهد، حتى ولو كان في ذلك إزهاق روحه، على شريطة أن يحقق وعد الرسول ﷺ ورغبة المسلمين.

ولحظ الصحابة ما يعانيه ابن مسلمة من ضجر وضيق وهم كثير فذكروا ذلك للرسول ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣٦ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٤ ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ورواية ابن كثير عن البخاري وتاريخ الطبري جـ ٤ ص ٤٨٩. وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣٢.

فدعاه فقال له : لمَ تركت الطعام والشراب؟

قال : يا رسول الله قلت قولاً لا أدري أفي به أم لا؟

قال عليه الصلاة والسلام : إنما عليك الجهد[١] .

قال ابن مسلمة : يا رسول الله... إنه لا بد لنا أن نقول.

قال الرسول عليه السلام : قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك[٢] .

يقول الإمام الطبري :

اجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة ، وكان أخاً لكعب من الرضاعة ، وعباد بن بشرين وقش والحارث بن أوس بن معاذ[٣] .

وكان لا بد من وضع خطة لا تثير ضجيجاً ولا تدعو القوم إلى الالتحام...

إن المقصود فقط في تلك الآونة كعب بن الأشرف ، فلا داعي لأن يقتَل معه أحد... والمسلمون حريصون على عدم إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح. واتفق الرجال على أن يرسلوا له أخاه من الرضاعة سلكان بن سلامة. وذهب إليه وتحدث معه ساعة وتناشدا شعراً ، وكان سلكان أيضاً يقول الشعر.

ثم قال له سلكان : ويحك يا ابن الأشرف... إني قد جئتك لحاجة اريد ذكرها لك فاكتم علي ما أقول.

قال كعب : أفعل.

قال سلكان : كان قدوم هذا الرجل — يعني الرسول عليه السلام — بلاء علينا... عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٧ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٩.

العيال ، وجهدت الأنفس ، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا[1] .

فقال كعب : أنا ابن الاشرف ، أما والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول[2] .

فقال سلكان : إني أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك .

وسكت كعب لحظة وأمسك بذقنه مفكراً ، وبعد برهة قال : ارهنوني نساءكم[3] .

فضحك ابن سلكان وربت على كتف ابن الأشرف قائلاً له : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟...

قال : إذن ارهنوني أبناءكم .

وهنا اقترب منه ابن سلكان ، وكأنه يستعطفه قائلاً له : أتريد أن تفضحنا أمام العرب ، ويتحدثون عنا ويقولون : يرهنون أبناءهم ... وأنا لست وحدي ، إن معي أصحاباً على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ، ونرهنك السلاح والسلاح فيه وفاء لك .

وأراد ابن سلكان بذلك ألا ينكر كعب السلاح ، أو يخاف ، إذا ما جاؤوا به .

فقال كعب : صدقت يا سلكان.. إن في السلاح لوفاء[4] .

ورجع سلكان يسرع السير إلى أصحابه ويخبرهم خبره وأمرهم أن يأخذوا السلاح فينطلقوا فيجتمعوا إليه .

يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنهم اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وسار

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٧ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٩٠.

معهم الرسول إلى بقيع الفرقد ثم وجههم وقال: «انطلقوا على اسم الله.. اللهم أعنهم»[1].

ثم رجع الرسول ﷺ إلى بيته في هذه الليلة المقمرة.

وسارت الكتيبة الصغيرة، الكتيبة المؤمنة، إلى وجهتها باسم الله، حتى انتهوا إلى حصن بن الأشرف، فهتف ابن سلكان، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته يريد النزول.

فأمسكت به زوجه، وأرادت أن تمنعه من النزول قائلة له: إنك امرؤ محارب، وإن صاحب الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة[2].

فقال لها: إنه ابن سلكان أخي من الرضاعة، ولو وجدني نائماً لما أيقظني.

قالت المرأة — وهي في رأيي قد تكون أصدق حدساً من الرجل —: والله إني لأعرف في صوته الشر.

قال كعب بصلف وكبرياء: إليكِ عني، لو دعي الفتى لطعنة أجاب[3].

ولما لم تجد زوجه من حيلة في منعه خلت بينه و بين النزول، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه.

إن الليلة مقمرة، والسماء صافية، ونسمات رخيمة تملأ الكون، وكل ما حولهم يغري بالسهر والمسامرة.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٧ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٩٠.
(٢) المصدر السابق وطبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق وتاريخ ابن هشام: لو دعي الفتى إلى طعنة.

فقالوا له : هل لك يا ابن الأشرف أن تماشى إلى شعب العجوز[1] حيث عيون الماء، وخريرها العذب، وأغصان الشجر التي تلامس صفحة مياهها، فنتحدث بقية ليلتنا هذه؟...

قال : إن شئتم.

فخرجوا يتماشون، ثم إن ابن سلكان وضع يده على شعر رأسه ثم شم يده فقال : ما رأيت كالليلة طيب عطر قط[2].

وكان ابن كعب مشهوراً بوضع العطور، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب وأخذ كل منهم يطريه وهم يتحدثون عن عطره وطيبه. وفي المرة الثالثة أخذ ابن سلكان بشعر رأس ابن كعب ثم قال لأصحابه : اضربوا عدو الله[3]. فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئاً، وكاد أن يفلت عدو الله من أيديهم، ولو فعل ما نجا منهم أحد.

قال محمد بن مسلمة : فذكرت سكيناً في سيفي حين رأيت أسيافنا لا تغني شيئاً، فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلّا أوقدت عليه نار. قال : فوضعته في ثندوءته[4] ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله[5].

يقول عباد بن بشر :

صرخت به فلم يعرض لصوتي ووافى طالعاً من رأس جدر
فعدت له فقال مَن المنادي فقلت أخوك عبّاد بن بشر
وهذي درعنا رهناً فخذها لشهر إن وفى أو نصف شهر

---

(1) الشعب : كل فرجة بين جبلين.

(2) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٧.

(3) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٨.

(4) ثندوءته : ما بين السرة والعانة.

(5) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣٩.

فقال معاشر سغبوا وجاعوا وما عدلوا الغنى من غير فقر
فأقبل نحونا يهوي سريعاً وقال لنا لقد جئتم بأمر
وفي أيماننا بيض جداد مجردة بها الكفار نفري
فعانقه ابن مسلمة المردَّى به الكفار كالليث الهزبر
وشد بسيفه صلْتاً عليه فقطَّره أبو عبس بن جبر
وكان الله سادسنا فأبنا بأنعم نعمة وأعز نصر
وجاء برأسه نفر كرام هموا ناهيك من صدق وبر[١]

ولكن الكتيبة المؤمنة لم تعد سالمة ، فقد أصيب أحد رجالها[٢] ، أصيب من أسيافهم. وحملوا صاحبهم عائدين إلى رسول الله ﷺ. وكان الليل أوشك أن ينتهي ، فوجدوا الرسول ﷺ قائماً يصلي[٣] ، فلما انتهى من صلاته خرج إليهم فأخبروه بقتل عدو الله.

وتناول عليه الصلاة والسلام جريحهم فمسح على جرحه ودعا له ، وتفرق كل منهم إلى منزله تشيعه عناية الله ودعوات الرسول الكريم.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣.

(٢) الحارس بن أوس بن معاذ.

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٣٩ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٨ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٩١.

أسباب نزول الآيات

كانت موقعة بدر الكبرى حدثاً ضخماً من أحداث الدعوة الاسلامية حدثاً هز الجزيرة العربية وجعلها تعيد حساباتها مع قريش وأصنامها.

وكان كعب بن الأشرف يتنسم أخبار محمد وأصحابه في تلك المعركة.

وعندما فتح الله على المسلمين في تلك الغزوة أرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران بفتح الله عز وجل، ويذكران اسماء القتلى من قريش، ووصلت إلى أسماع كعب حقيقة ما حدث ببدر، فلم يطق صبراً على ذلك وهرول إلى صاحبه ورفيقه في الكيد للمسلمين حيي بن أخطب قائلاً له: أترى أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان — يعني زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة — وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس؟...

وأجابه صاحبه بأنه حدث ما حدث، ولكن ليس بالكثرة التي يقول بها الرجلان.

وهنا قال كعب: والله لئن محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها[1].

واتفقا على أن يرسلا رسولاً ليقف لهما على حقيقة ما حدث، وما لبث أن جاءهما الخبر اليقين.

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٦ وتاريخ الطبري جـ ٢ ص ٤٨٨.

يقول بعض المفسرين: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة بدر ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ.

فنزل كعب على أبي سفيان، ونزلت اليهود في دور قريش[1].

فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، فذلك قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾[2].

ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنضع أكبادنا بالكعبة ونعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد.

ففعلوا ذلك.. فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريق وأقرب إلى الحق الصريح.. أنحن أم محمد؟...

فقال كعب: اعرضوا عليّ دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمّر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن جميعاً أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد الحديث[3].

فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه[4].

---

(١) الدر المنثور جـ ٢ ص ١٧١ وتفسير الطبري جـ ٨ ص ٤٦٨، وأسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ١٤٩.

(٢) سورة النساء آية رقم ٥١.

(٣) أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ١٤٩.

(٤) المصدر السابق.

فأنزل الله تعالى :

﴿ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾[1] .

ونجحت سفارة كعب ، وأخذ وعداً من قريش بحرب محمد وعاد إلى المدينة ... عاد وهو منتفخ الأوداج ، حريص على مناوشة المسلمين ، والنَّيل منهم ، وتسلل رجل من أتباعه وألقى على مسامعه ما نزل به الوحي .

فقال كعب : « صدق الله .. والله ما حملني على ذلك إلّا البغض والحسد »[2] .

---

(١) سورة النساء الآية ٥١ — ٥٢.

(٢) تفسير الطبري جـ ٨ ص ٤٧ وأسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ١٥٠.

تذييل...

كعب بن الأشرف الذي حزَّب الأحزاب ودعا إلى حرب الرسول ﷺ أحد أبناء اليهود.

واليهود قديماً وحديثاً لهم تاريخ أسود كالح يدل على خبث نفوسهم وحقد قلوبهم.. فهم الذين حرَّفوا الكتب السماوية، وادعوا أنهم أبناء الله وشعبه المختار، وتقولوا عليه ما لم يقله أو ينزل به وحيه، وصوروه في صورة بشر يخطىء ويصيب ويبكي على خطئه كما تبكي النساء ويلطم خديه، ويلجأ إلى الحاخامات ليأخذ برأيهم ويستأنس بأفكارهم. وفي هذا يقول الرابي «مناحم»:

«إن الله تعالى يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء».

أي إله هذا الذي يفعل ما يتقولون؟...

أهو الله سبحانه وتعالى الذي خلق السموات والأرض والظلام والنور وأوجد الحياة والموت والبعث والحساب، وخلق الإنسان في أحسن تقويم ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه؟...

محال أن يكون هو... وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما إلههم الذي يخطىء ويصيب، ويلطم خديه، فهو الذي أوجدوه في مخيلتهم وصنعوه بأيديهم على صورة عجل له خوار.

يقول تلمودهم: «إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله، وقد وقع يومها الإختلاف بين الباري وعلماء اليهود في مسألة.. فبعد أن طال الجدال تقرر إحالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين، واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور».

﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾[1].

وتعالى الله عما يقولون.

وإذا كان الله في تلمود اليهود يخطىء ويصيب، ويستعين بأضعف خلقه في تصحيح خطئه، فهو أيضاً يلعب ويلهو، ويسخر ويضحك.

يقول التلمود: «إن النهار اثنتا عشرة ساعة، في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة. وفي الثلاث الثانية يحكم. وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك».

إنه التخريف الكامل، والسفه الكبير الذي لا يدانيه سفه آخر..

أبلغت الوقاحة بهؤلاء الأراذل التطاول على الله سبحانه وتعالى ورميه بصفات لا يقبل الإنسان العادي أن يتصف بها؟...

ليس هذا فحسب، ولكن ما داموا هم أبناء الله وشعبه المختار فهو يتألم لألمهم ويبكي لما حل بهم وينزل على نفسه بالحسرة لغضبه عليهم وتخريب هيكلهم، فصار يبكي. ويمضي ثلاثة أجزاء الليل يزأر كالأسد قائلاً: «تباً لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي».

اليهود الذين رفضوا أوامر الأنبياء وقتلوا بعضهم، وسخروا من الرسل، وعملوا على إفساد البشرية، وإشاعة الفحشاء والفجور.. هم أبناء الله؟...

الله الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. الذي لم يلد ولم يولد...

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٥.

يا عجباً لا ينتهي لهذه الفئة الباغية...

مَن يصدقهم في دعواهم الباطلة إلّا إذا كان مخبولاً مثلهم ، وهدفه كأهدافهم ، يبغي من وراء ذلك التسلط والتجبر والإفساد في الأرض ، وتسخير خلق الله...

لقد زعمت بعض كتبهم أن «إسرائيل» سأل إلهه قائلاً : «لماذا خلقت خلقاً سوى شعبك المختار»؟...

فأجابه قائلاً : «لتركبوا ظهورهم وتمتصوا دماءهم وتحرقوا أخضرهم وتلوثوا طاهرهم ، وتهدموا عامرهم».

هذا هو مخططهم الذي وضعوه في التلمود وتواصوا فيما بينهم على تنفيذه بدقة ومهارة.

مَن ينكر ما فعله اليهود مع الرسول ﷺ ومع صحابته من بعده؟ ومع المسلمين فيما بعد ذلك؟...

إنهم وراء تأليب قريش على حرب المسلمين...

ووراء مقتل عثمان وعلي وإشاعة الفتنة في أرض الاسلام...

وهم الذين دبروا الوضع في الأحاديث النبوية ، وحشوا تفاسير القرآن الكريم بالإسرائيليات...

وهم خلف كل المذاهب الباطلة والسرية من مانوية ومزدكية وباطنية في عصور الإسلام...

وهم الذين أنشأوا المذاهب الهدّامة والإلحادية من شيوعية وصهيونية وماسونية في العصر الحديث...

يقول «بنيامين فرنكين» الزعيم الأمريكي محذراً من اليهود ومخططاتهم ومنبهاً لقومه من أساليبهم وكيدهم :

«هناك خطر كبير يهدد الولايات المتحدة الأمريكية.. هذا الخطر الكبير هو اليهودية... ففي أي مكان حلّ فيه اليهود كانوا السبب في خنق القيم الأخلاقية، وانحطاط الأمانة التجارية...

إذا لم نمنعهم من دخول أمريكا بموجب الدستور ففي أقل من مائة عام سيتدفقون إلى هذه البلاد بأعداد هائلة إلى درجة أنهم سيحكمون ويحطمون نظام الحكم القائم الذي بذلنا نحن الشعب الأمريكي من دمنا وضحينا بأرواحنا وممتلكاتنا وحريتنا الشخصية في سبيل إقامته...

إذا لم نمنع اليهود من الإقامة في أمريكا بموجب الدستور، ففي خلال مائتي سنة، سيكون أطفالنا يعملون كخدم في الحقول ليطعموا اليهود، بينما يجلس هؤلاء في بيوتهم يفركون أيديهم وهم يحصون ما ربحوا».

فهل استجاب الشعب الأمريكي لهذا النداء؟... وهل وضعه موضع التنفيذ؟...

الحقيقة أن الخطر الداهم من وراء بقائهم في أمريكا جعلهم يفكرون كثيراً لإبعادهم عن بلادهم. وقدمت أمريكا العتاد والرجال والسلاح، وكل ما تستطيعه من دعم، لإقامة دولة لهم في فلسطين... واستطاعت بذلك أن تبعد عن بلادها خطر الكثرة العددية والهجرات المتتابعة، ولكن بقي في داخلها النفوذ اليهودي والمخطط اليهودي الذي يتحكم في اقتصادياتها ويحرّك سياستها ويطوّع أجهزتها الإعلامية لصالح اليهود ومخططات اليهود.

وتحققت وصية تلمودهم الأولى التي تدعوهم ليركبوا ظهور الخلائق...

لقد ركبوا ظهور الشعب الأمريكي بالتحكم في اقتصادياته...

وركبوا ظهور الشعب الروسي بالتخطيط لثورته والقضاء على قياصرته وإقامة أعلام الإلحاد بين أبنائه...

وركبوا ظهور الشعب العربي ، باستيلائهم على قطعة غالية من أرضه لتكون قاعدة لتحطيم قيم أبنائه وإنهاك اقتصادياته ونشر الشيوعية والفوضوية بين حكامه .

أما الوصية الثانية ، وهي امتصاص الدماء ، فهي حقيقة لا تنكر ، وواقع لا يمكنهم الخلاص منه ... وقد جرت العادة أن يتولى هذه العملية الحاخام الأكبر ، وأنهم يعتقدون أن هذا الدم البشري تتميم لفروض طقوسهم الدينية .

يقول المؤرخ اليهودي الشهير المولود في سنة ٣٧ م. والمتوفى في روما سنة ٩٥ م. متكلماً عن أنطونيوخيوس الرابع الملقب بأبي غان فاتح مدينة أورشليم والذي تبوأ تخت الملك سنة ١٧٤ قبل المسيح قال : « إن هذا الملك اليوناني لما دخل المدينة المقدسة وجد في إحدى محلات الهيكل رجلاً يونانياً ، كان اليهود قد ربطوه وسجنوه بمكان ، وكانوا يقدمون له أفخر المأكولات حتى يأتي يوم يخرجون به لإحدى الغابات حيث يذبحونه ويشربون من دمه ويأكلون شيئاً من لحمه ويحرقون باقيه وينثرون رماده بالفلاة . وكان هذا السجن لأجل أن يعملوا بشريعة لا يجوز عندهم مخالفتها ، وهي أن يأخذوا في كل سنة يونانياً ، وبعد أن يطعموه أفخر المآكل ليسمن ، يعدمونه لإتمام الوصية »[1] .

إنهم اليهود الذين قال عنهم المسيح عليه السلام : « أعمى الرب عيونهم ، وقسّى قلوبهم لئلا يبصروا بعيونهم ويفهموا بقلوبهم » .

وعرف طبيعتهم في حب الذهب والمال فقال لهم : « لا تعبدوا ربين ، الله والمال » .

ولما يئس من إصلاحهم وعودتهم إلى رحاب الايمان جابههم بحقيقتهم معرّياً ما فيهم من خبث ولؤم . فقال : « أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تبغون أن تعملوها » .

---

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٢٢ .

وما قاله المسيح عليه السلام لم يخرج عما قاله رب العزة عنهم في القرآن : من قسوة قلوبهم ، وحقد نفوسهم ، ومحاولتهم الإفساد في الأرض.

قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾[(1)].

وقال أيضاً : ﴿ لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[(2)].

والآن ماذا فعل المسلمون؟... وماذا أعدّوا لخطر اليهود الذي يريد أن يدمر ويخرّب؟... ويفسد الشباب ويحطم الأخلاق؟...

إن تلمودهم يجوز لهم القتل والبغي والسلب والنهب والظلم والعدوان في سبيل إسرائيل ومصلحة إسرائيل ، ويحضّ على تدمير كافة المؤسسات البشرية والقواعد الإنسانية والمبادئ الخلقية وكل ما تحمله الديانات من حب وخير وسلام...

فهل تسكت البشرية كلها والإنسانية جمعاء على هذا الوباء حتى يجرفها التيار ويلفّها الطوفان؟...

أين أحفاد الأبطال الذين أخرجوهم من خيبر وأبعدوهم عن الجزيرة العربية... أين هم؟...

إنني ألمحهم على الأفق مقبلين...

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٧٤.

(2) سورة المائدة آية رقم ٧٨ ، ٧٩

أُمَيَّة بن خَلَف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا
وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ. كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى
ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ
ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم
مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الهمزة وهى تسع آيات]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض علماء التفسير ورجال السيرة: نزلت هذه الآيات في:

أمية بن خلف...

قال ذلك الإمام القرطبي في تفسيره جـ ٢ ص ١٨٣.

وقاله صاحب تفسير الخازن وتفسير البغوي جـ ٧ ص ٢٤٠.

وقاله الفخر الرازي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾.

وقال ذلك أيضاً محمد بن إسحاق في سيرة ابن هشام.

وقال ابن كثير: نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل غيره.

وقال مجاهد: هي عامة...

فمن هو أميّة بن خلف؟...

أميّة بن خلف

والده وهب بن حذافة أحد الرجال الصناديد الذين عرفوا حلو الحياة ومرّها ، والذي عاش حياته في جهد ونصب ، وجاب أقطار الأرض بتجارته وماله ، باحثاً عن الربح ومنقّباً عن الثروة ، حتى أصبح من أكثر القرشيين مالاً وأربحهم تجارة.

ورزقه الله بالعديد من الأبناء ، فأشركهم معه في تجارته ، ووجّههم إلى أساليبها وطرقها ، ونشأهم على الشحّ وكنز المال.

وعندما تقدّمت به السن وأدركه الهرم ، وعجز عن الرحلة والترحال في أرجاء الأرض ، عكف على أصنام مكة وأوثانها ، يصلح معوجها ويقوم راقدها ، ويزيل ما علق بها من أوساخ وأتربة.

ثم ينتظر أفواج الحجيج الذين يفدون إلى الكعبة وهم يقدمون أموالهم ونذورهم بين يدي الأصنام حتى ترضى عنهم — كما كانوا يعتقدون — وتستجيب لما يتطلعون إليه من وفرة المال والولد.

في هذا الجو الذي ألغيت فيه العقول وسيطرت الخرافة على أفئدة الناس ، عاش أمية بن خلف ناعم البال هادئ النفس ينتظر مع بقية القرشيين كل عام آلاف البسطاء والجهلاء ، الذين يقطعون الفيافي والصحراء سعياً إلى الأوثان والأصنام وهم يحملون من كل الثمرات والغلات ما تقرّ به أعين السدنة من أمثاله.

وأحس أمية بقيمة هذه الأصنام... فمن طريقها يأتيهم الرزق، وتجلب إليهم الخيرات بلا تعب أو مشقة، فهي إذن كنز من المال لا ينضب، ومورد رزق لا يفنى، وثروة يجب المحافظة عليها ولو كلّفهم ذلك بذل المهج والأرواح؟...

واستمر الحال على ذلك حتى أراد الله سبحانه وتعالى للبشرية أن تتحرر من عبودية الأفراد إلى عبادة الواحد الأحد، وأن يتحرّر العقل الإنساني من أغلال الوثنية والخرافة... فكانت بعثة الرسول ﷺ الذي دعاهم إلى التوحيد الخالص والحنيفية السمحاء، وطالبهم بنبذ الأصنام والأوثان، لأنها لا تسمع ولا تعقل، ولا تنفع ولا تضر.

وأخذت دعوته ﷺ تجد لها آذاناً صاغية وقلوباً واعية، ورجالاً أجابوا داعي الله.

عندها أحسّ أمية بن خلف ومَن كان على شاكلته من بقية السدنة أن الأرض تميد من تحت أقدامهم، وأن سلطانهم إلى زوال، ومجدهم إلى هباء.. فوقفوا في وجه الدعوة الجديدة وصاحبها يعارضونه وينالون منه، ويصدون عن دعوته ويؤلبون القبائل عليه، ولا يكتفون بذلك بل يتهمونه بالسحر مرة وبالجنون أخرى، وبالكهانة مرة ثالثة.

ولم يكن أمية بن خلف هو الوحيد من قبيلة «جمح» الذي وقف في وجه الرسول الكريم، بل كان أخوه أُبيّ بن خلف على شاكلته من طمس بصيرته وإغلاق قلبه.

وتحدثنا كتب السيرة أن أُبي بن خلف عندما سمع الرسول ﷺ يتكلم عن بعث الأجسام لينال المحسن جزاء إحسانه والمسيء عقاب إساءته، أخذ بيده عظماً بالياً قد تحطم وقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرَم؟... ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله: نعم، أنا أقول ذلك.. يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هذا ثم يدخلك الله النار.

يقول الله سبحانه وتعالى مسجّلاً هذه الواقعة :

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال مَن يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوَليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم ﴾[1] .

ولم يكتف أُبي بالخصومة في القول ، ولا بحرب الشائعات التي كان يشنها على الإسلام والمسلمين بل شارك أيضاً في الحروب التي قامت بها قريش ضد الرسول ﷺ وبقية الصف المسلم.

وفي غزوة أحد التي زلزل فيها المسلمون ، وتفرقت جموعهم ، واستشهد كثير من رجالهم وأصيب رسول الله ﷺ .. أقبل أُبي بن خلف على الشِعب الذي يجلس فيه رسول الله وحوله جماعة من أصحابه وهو يقول : أين محمد؟... لا نجوت إن نجا...

فقال القوم: يا رسول الله... أيعطف عليه رجل منا؟...

فقال رسول الله ﷺ : دعوه.

فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تقلب منها عن فرسه مراراً. ومات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة...

هذا هو أُبي شقيق أمية بن خلف.. أما عن أبنائه ، فلقد كانوا على شاكلة أبيهم من بغض للدعوة الجديدة ، وصدّ عن سبيل الله.

ومن هؤلاء الأبناء صفوان بن أمية ، الذي هرب من الجيش الإسلامي يوم فتح مكة.

ويصوّر حسّان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ فزع قريش وفرار رجالها وشبابها ، ومنهم صفوان بن أمية ، بقوله :

(١) سورة يس آية رقم ٧٨ — ٨١.

إنك لو شهدت يوم الخندمه إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمه يقطعن كل ساعد وجمجمه

ثم رجع صفوان إلى النبي ﷺ بعد أن أخذ له الأمان من رسول الله عمير بن وهب.

وشهد صفوان حنيناً والطائف وهو كافر وامرأته مسلمة.. أسلمت يوم الفتح.

واستعاره رسول الله ﷺ سلاحاً.

فقال صفوان: طوعاً أو كرهاً؟...

فقال الرسول ﷺ: بل طوعاً، عارية مضمونة. فأعاره.

ولما انتهت معركة حنين أعطاه رسول الله ﷺ من الغنائم فأكثر.

فقال صفوان: أشهد بالله ما طابت بهذه إلا نفس نبي...

فأسلم وأقام بمكة.

ومن أبناء أمية أيضاً ربيعة بن أمية، أسلم عام الفتح.. وكان قد رأى رؤيا فقصها على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

«رأيت كأني في وادٍ معشب ثم خرجت منه إلى واد مجدب ثم انتبهت وأنا في الوادي المجدب».

فقال عمر: تؤمن ثم تكفر ثم تموت وأنت كافر.

فقال ربيعة: ما رأيت شيئاً.

فقال عمر: قضي لك كما قضي لصاحبي يوسف، قالا ما رأينا شيئاً.
فقال يوسف عليه السلام: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[1].

ثم إنه شرب خمراً فضربه عمر بن الخطاب الحد، ونفاه إلى خيبر، فلحق

(١) سورة يوسف آية رقم ٤١.

بأرض الروم فتنصر. فلما ولي عثمان بعث إليه قاصداً أبا الأعور السلمي. فقال له: إرجع إلى دينك وبلدك، واحفظ نسبك وقرابتك من رسول الله ﷺ، واغسل ما أنت فيه بالإسلام... فأبى، ومات هناك.

وإذا ذُكر بلال بن رباح الصحابي الجليل ذُكر معه أمية بن خلف، لقد كان بلال أحد الأرقاء الذين يملكهم عدو الله.. ولقد استجاب بلال لدعوة الإسلام وامتلأ قلبه بنور الإيمان. وهذا ما كان يجعل أمية بن خلف يفقد عقله، ويتجرّد من آدميته، ويتحول إلى وحش ضارٍ ويتناول بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه فيها على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى.

فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.

قال ابن إسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك وهو يقول: أحد أحد.

فيقول: أحد أحد والله يا بلال.

ثم يقبل على أمية بن خلف ومَن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً(١).

حتى مرّ به أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يوماً، وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح، فقال لأمية بن خلف:

«ألا تتقي الله في هذا المسكين؟... حتى متى»؟...

قال: أنت الذي أفسدته، فانقذه مما ترى...

فقال أبو بكر: افعل... عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى على دينك.. أعطيكه به.

---

(١) حناناً: أي فطنة رحمة أتبرك به وألوذ بجواره.

قال : قد قبلت.

قال : هو لك.

فأعطاه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه غلامه ذلك، وأخذه فأعتقه[1].

وتحرر بلال، وصدع بكلمة الحق، وأقبل الناس على الدين الجديد، وضاقت دار ابن أبي الأرقم بكثرة الوافدين الملبين.

وأكل الغيظ قلب أمية بن خلف وقلوب الغافلين عن دين الله.. وضاقت بهم السبل وهم يرون أن معسكر الإسلام يكسب كل يوم جديداً ومعسكرهم يتناقص رويداً رويداً...

حتى كان يوم وأمية بن خلف يجلس في نادي قومه ومعه أخوه أُبي بن خلف وعتبة بن ربيعة، وكان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وحده، فقال عتبة لأمية ابن خلف وأخيه : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا...

فقال أمية : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي.. إنك منا حيث قد علمت من المنزلة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع.

قال : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا

---

(1) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٤٠.

نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد؟؟...

قال : نعم.

قال : فاستمع مني.

قال : أفعل.

فقال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حم ... تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرَضَ أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه.

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه ... فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟...

قال : ورائي أني سمعت قولاً ... والله ما سمعت مثله قط ... والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ، ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم وكنتم أسعد الناس به.

---

(١) سورة فصلت آية رقم ١ — ٥.

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم.

وماذا تستطيع قريش أن تفعل؟... وهل في مقدورها أن توقف مدّ الإسلام؟... أو أن تحول بين الناس وبين الدخول فيه؟...

إن ذلك محال...

لقد أخذ الإسلام يفشو بمكة ويدخله الرجال والنساء ، وتسامعت به القبائل المجاورة ، فجاءت فرادى وجماعات لتنهل من هذا النبع الجديد. واستطاع الضعفاء من المسلمين أن يفرّوا بدينهم إلى الحبشة ، حيث العز والمنعة والأمن والاطمئنان بجوار ملك كريم دخل نور الإيمان إلى قلبه وكشفت بصيرته أنوار الحق فاهتدت به.

وأسقط في يد أميّة بن خلف ومن معه من صناديد قريش... ترى ماذا يفعلون؟... ودعوة محمد لا تقف عند حدّ ، وأتباعه لا يبالون بالوعد والوعيد؟... إذن لا بدّ من اتباع خطة جديدة مع محمد ، علّها تبقي على ما لهم من مكانة وما تبقى في أيديهم من عزّ وصولجان.

وتوجّه أمية بن خلف إلى محمد ﷺ يرافقه في ذلك الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل السهمي. وقالوا له : يا محمد ، هلمّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر.. فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه.

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي ديني ﴾[1].

---

(١) سورة الكافرون.

وفشلت كل الحيَل التي سلكتها عصابة الكفر لإيقاف النور الجديد، وفلّت كل الأسلحة فلم تعد تفيد... إذن هناك طريق واحد هو الذي يوقف هذه المعركة، ويريحهم من محمد ودعوته.. طريق رسمه الشيطان لهم بمهارة ودبره لهم بليل، ألا وهو الخلاص من محمد بقتله وضياع دمه بين القبائل.. عندها جمعوا جموعهم، وأعدّوا أسلحتهم واتجهوا إلى دار محمد ﷺ ينتظرون خروجه ليضربوه ضربة رجل واحد.

يقول ابن إسحاق: وأمية بن خلف أحد الذين باتوا حول بيت الرسول ﷺ، ولكن خاب كيدهم، وبطل مكرهم، وخرج رسول الله ﷺ وهم جلوس على الباب، فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرّها على رؤوسهم ويتلو قوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾[(١)].

ومضى رسول الله ﷺ وهم نيام... حتى مرَّ عليهم رجل منهم، فقال لهم: ما تنتظرون؟... قالوا: محمداً.

قال: خبتم وخسرتم.. قد والله مرّ بكم وذر على رؤوسكم التراب.

قالوا: والله ما أبصرناه... وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم...

لقد خابوا الخيبة الكبيرة، وخسروا الدنيا والآخرة... وطمس الله على قلوبهم، فلم ترَ النور، وغفا على أفئدتهم، فلم تنبض بمعرفة، لأنهم أتباع الشيطان، وأصحاب البهتان، وضيوف جهنم.

---

(١) سورة يس آية رقم ١٠.

مقتل أمية بن خلف

قال عبد الرحمن بن عوف : كان أمية بن خلف صديقاً لي بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو ، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن ، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول : يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟...

فأقول : نعم.

قال : فإني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه.

فقلت له : يا أبا علي اجعل ما شئت.

قال : فأنت عبد الإله.

قلت : نعم.

فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الله... فأجيبه فأتحدث معه.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده ، ومعي أدراع قد استلبتها فأنا أحملها. فلما رآني قال : يا عبد عمرو.. فلم أجبه.

فقال : يا عبد الإله.

فقلت : نعم .

قال : هل لك فيَّ؟ ... فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك .

قلت : نعم ها الله ... فطرحت الأدرع من يدي ، وأخذت بيده ، وبيد ابنه ، وهو يقول : ما رأيت كاليوم قط ، ثم خرجت أمشي بهما .

فقال لي وأنا بينه وبين ابنه آخذٌ بأيديهما : يا عبد الله مَن الرجل منكم المعلَّم بريشة نعامة في صدره؟ ...

قلت : حمزة .

قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل؟ ... وما إن انتهى من كلامه إذ رآه بلال معي .. وقصته مع بلال معروفة بمكة .

فلما رآه قال رأس الكفر أمية بن خلف : لا نجوت إن نجا .

قلت : أي بلال أسيري؟ ...

قال : لا نجوت إن نجا .

ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله .. رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا .

فأنا أذبّ عنه ، إذ دخل علينا رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط .

قلت : انج بنفسك ولا نجاء ، فوالله ما أغني عنك شيئاً .

فبهروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما . فكان عبدالله يقول : يرحم الله بلالاً ، فجعني بأدراعي وبأسيريَّ[1] .

سقط رأس الكفر وجندلته السيوف المؤمنة .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٨٦.

وتحقق وعد الله لرسوله، ونصر المسلمين نصراً مؤزراً.

وفرّت فلول الكفر إلى مكة تاركة خلفها جثث قتلاها وأسلابهم..

وارتفع صوت المؤمنين بالتكبير والتهليل على ماء بدر، ورددت جنبات الوادي معهم دعاءهم الصادق وابتهالاتهم الفيّاضة وشكرهم لربهم واعترافهم بفضله عليهم.

لا إله إلا الله.. صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله.. ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون...

عندها أمر الرسول ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب فطرحوا فيه. إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه، فتزايل لحمه، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. ثم وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال:

«يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام — فعدد مَن كان قُتل منهم — هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟... فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوماً قد جيفوا؟...

قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني[1].

صدق رسول الله ﷺ.

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٨٠.

أسباب نزول الآيات

أمية بن خلف أحد الرجال الذين وقفوا يصدون الناس عن الدخول في الإسلام ، ويصبون جام غضبهم على أتباعه ، وينالون من الرسول ﷺ . ويكاد لا يخلو موقف من المواقف التي فكرت فيها قريش من ايذاء رسول الله ﷺ إلّا وكان أمية بن خلف أحد المخططين لذلك والمدبرين له ، والمحاربين لله ولرسوله بالقول والفعل.

ويكاد المتتبع لتاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن أمية بن خلف كان دائماً وراء الشائعات التي أذاعتها قريش بغية التشكيك في الرسول والرسالة ، والتي حكى القرآن الكريم بعضاً منها ، قال تعالى :

﴿ أَأُلْقِيَ الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أَشِرٌ ﴾[١] .

وكان أيضاً وراء أمانيهم الباطلة ، وترهاتهم الفاسدة ، التي لا تقف عند حد ، ولا تنتهي عند غاية.

قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾[٢] .

وكيف يتم ذلك والقرآن الكريم لم ينزل على هذه الأمة ليكون كتاباً «للاهوت»

---

(١) سورة القمر آية رقم ٢٥.

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٣٢.

أو نظرية للجدل والمناقشة ، وإنما كان أولاً وأخيراً لتربية هذه الأمة ، وإعدادها لتحمل هذا الدين إلى البشرية قاطبة ، فكان لا بد من نزوله منجماً حتى تستوعبه النفوس ، لينظم حياتها ويوجه سلوكها ، ويربي عقلها.

وتعجبوا كيف ينزل القرآن على محمد اليتيم الفقير.. أما كان الأولى أن ينزل على رجل عظيم يملك المال والجاه.. وكأنهم بذلك يشرعون لصاحب التشريع ، ويخططون لخالق الخلق ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ومَن يصلح لها.

قال تعالى حاكياً أوهامهم : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] .

ووراء المطالب المتعنتة التي كانت قريش تطلبها من الرسول ﷺ ، ويحكيها القرآن أيضاً عنهم قال تعالى :

﴿ وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[2] .

وكان أمية بن خلف يجلس في نادي قومه مع أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وبقية الكافرين ، فإذا مرَّ بهم رسول الله ﷺ ، غمزوه ، وهمزوه ، واستهزأوا به ، وكان ذلك يؤذي الرسول عليه السلام ويؤلمه ، فأنزل الله تعالى :

﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[3] .

فكان الرسول ﷺ يصبر ويتحمل ما يرمونه به ، ويعتبر بمَن سبقه من الرسل.. وهو واثق من ربه سبحانه وتعالى ومن رعايته ، وأن هؤلاء المستهزئين سيكون لهم يوم

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣١.

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٨ ـ ٩.

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٤١.

قريب.. أسوة بما فعل الله سبحانه وتعالى بالجبارين السابقين الذين استهزأوا برسلهم ونالوا منهم.. والقرآن الكريم يصور لنا الكثير من مصارع هؤلاء الكافرين.

لقد استُهزىء بنبي الله نوح عليه السلام فعاقب الله الكافرين من قومه بالطوفان... قال تعالى مصوراً حال نوح مع قومه:

﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدّر ﴾[1].

واستهزىء بنبي الله هود عليه السلام فعاقب الله المستهزئين بالرياح الشديدة والبلاء النازل.. قال تعالى مصوراً مصارع عاد:

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾[2].

واستهزىء بنبي الله صالح عليه السلام: ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[3].

حتى جاء محمد ﷺ ولم يكن بدعاً من الرسل.. فكان المنتظر أن يكون له أعداء.. أعداء من الذين يخافون على ملكهم أن يزول، وعلى صولجانهم أن يبطل، وعلى مجدهم أن يذهب...

أعداء من الذين طمس على قلوبهم، فلم تعرف هدى.. ولم تنبض برحمة، ولم تستمع إلى إيمان...

واستمر الإيذاء والاستهزاء من هؤلاء وهؤلاء ما دام الرسول عليه السلام يسفه أحلامهم، ويسخر من عقولهم، ويبطل آلاهتهم، وكان لا بد من وضع نهاية لهذا

(١) سورة القمر آية رقم ١٠ — ١٢.
(٢) سورة القمر آية رقم ١٩ — ٢١.
(٣) سورة الحجر آية رقم ٨٣.

كله ، فعاجلهم الله بالعقوبة ، ونزل قول الله تعالى بالبشرى على قلب نبيه ، وحاسماً لهذه القضية.. قضية المستهزئين..

قال تعالى :

﴿ إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾[1] .

---

(١) سور الحجر الآية ٩٥.

تذييل...

إن أمية بن خلف كما صورته هذه الصورة.. هو الإنسان اللئيم الذي لا يقف لؤمه عند حد، والصغير في عقله، والصغير في نفسه، والذي يؤتيه الله المال والولد، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويضاعف له الربح والخيرات، فيسيطر المال على نفسه، حتى ما يطيق نفسه ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة.. والمال في حقيقة الأمر ليس قيمة ولكنه زينة في هذه الحياة الدنيا، قال تعالى:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[1].

وما دام المال في نظر أمية بن خلف — ومَن هو على شاكلته — قيمة.. فلا بد من المحافظة عليه بكل طريق، ولتهون أمامه جميع القيَم وجميع الأقدار.. أقدار الناس وأقدار المعاني وأقدار الحقائق. وأنه، وقد ملك المال، فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب.

بل يصور الوهم لبعض الناس أن هذا المال إله قادر على كل شيء لا يعجز عن فعل شيء.. وهؤلاء الذين تسيطر المادة على حياتهم ولا تجعل لهم مندوحة من الوقت يتطلعون الى السماء.

إن أموال العالم كله لتعجز عجزاً كبيراً أن تدخل السرور على قلب طفل يتيم فقد والديه.. أو تصنع الابتسامة الصادقة على شفتيه..

(١) سورة الكهف الآية ٤٦.

وماذا تفعل كنوز الأرض لمن خلق مشوهاً في جسمه وخلقه، أو فقد ذراعه أو قدمه؟... أيمكن أن يسد المال مسد العضو الطبيعي.. أو أن يقوم مقامه؟..

ولكن هؤلاء الذين هم خزائن المال يحسبون أن هذا المال إله قادر على كل شيء.. لا يعجز عن فعل شيء، حتى دفع الموت وتخليد الحياة ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه.. إن كان هنا لك، في نظرهم حساب وجزاء.

ومن ثم تراهم ينطلقون في هوس بهذا المال.. يعدونه ويعاودون عدّه، ويستلذون بهذا العمل، ومن ثم يصابون بنفخة فاجرة تدفعهم إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ولمزهم وهمزهم — يصيرهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته — سواء بحكاية حركاتهم، أو بتحقير صفاتهم، وسماتهم.. بالقول والإشارة، بالغمز واللمز.. باللفتة الساخرة، والحركة الهازئة... وهي صورة لئيمة، حقيرة، من صور النفوس البشرية، حين تخلو من المروءة وتعرّى من الإيمان.. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفّعه الأخلاقي.

إن مائدة القرآن تتضمن الكثير من أدب الإسلام، الإسلام الذي جاء خاتم الأديان السماوية إلى البشرية كلها بعد أن اكتمل نضجها العقلي والنفسي، وما أجدر أبناء الإسلام في القرن العشرين أن يأخذوا أنفسهم به.

إن هذا الدين هو الحق الواضح، ومَن آمن به عليه أن يسلك طريقه، ويتبع منهجه حتى يعود للأمة الإسلامية مجدها ويحقق الله لها عزها وسلطانها.

يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.. ينصر من يشاء...

عقبة بن أبي معيط

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى
ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ
جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾



[سورة الفرقان الآية ٢٧ : ٢٩]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير: نزلت هذه الآية في: عقبة بن معيط.
قال ذلك الإمام الطبري في تفسيره جـ ١٩ ص ٦.
وقاله البغوي جـ ٥ ص ٨٢.
وقاله صاحب كتاب أسباب نزول القرآن الإمام الواحدي ص ٣٤٧.

فمن هو عقبة بن أبي معيط؟...

عقبة بن أبي معيط

والده : أبو معيط أبان بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس.

يكنى أبا الوليد نسبة لابنه الوليد بن عقبة الذي نزل فيه قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[1] .

وزوجته : أروى بنت كريز بن ربيعة والدة عثمان بن عفان — رضي الله عنه — وابنته أم كلثوم بنت عقبة عرف الاسلام طريقه الى قلبها مبكراً ، فأسلمت وحسن إسلامها ، وفرّت بدينها إلى يثرب.

ويتفق رجال السير على أنها أول من هاجر من النساء إلى المدينة بعد صلح الحديبية وفيها نزل قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾[2] .

وعندما علم أخوها الوليد بهجرتها أقسم ليأتين بها مهما كلفه ذلك من مشقة وجهد ، فخرج هو وأخوه عمارة بن عقبة إلى المدينة ، حتى قدما على الرسول ﷺ

(١) سورة الحجرات الآية ٦.

(٢) سورة الممتحنة الآية ١٠.

وطلبا منه أن يدفع اليهما أختهما تنفيذاً للعهد الذي كان بينه وبين قريش في صلح الحديبية.

ولكن الرسول ﷺ ردهما رداً كريماً وقال لهما:

«أبى الله ذلك»[1].

وكان عقبة من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين.

عمد إلى مكتل فجعل فيه (عذرة) وجعله على باب رسول الله ﷺ فبصر به طليب بن عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصي، وأمه أروى بنت عبد المطلب فأخذ المكتل منه وضرب به رأسه وأخذ بأذنيه.

فشكاه عقبة إلى أمه وقال: قد صار ابنك ينصر محمداً.

فقالت: ومَن أولى به منا؟.. أموالنا وأنفسنا دون محمد.

فهل ارتدع عقبة عما هو فيه من غي.. وترك ما فيه من ضلال؟..

الحقيقة أن عقبة استمر على ذلك وقتاً طويلاً.. ووقائع التاريخ تثبت ذلك.

قال عمرو بن العاص:

«حضرت قريش يوماً بالحجر فذكروا النبي ﷺ وما نال منهم وصبرهم عليه، فبينما هم كذلك إذ طلع النبي ﷺ ومشى حتى استلم الركن. ثم مرّ بهم طائفاً فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها ثم الثالثة.

فقال: أتسمعون يا معشر قريش؟..

«والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح».

قال: فكأنما على رؤوسهم الطير واقع، وانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ٢٣١.

الغد اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه.

فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا اليه وثبة رجل واحد يقولون له : أنت الذي تقول كذا وكذا؟..

فيقول : أنا الذي أقول ذلك.

فأخذ عقبة بن معيط بردائه . وقام أبو بكر الصديق دونه يقول — وهو يبكي — «ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله»[1] .

ثم انصرفوا عنه.

وضاقت قريش بمحمد ودعوته ، ودعت إلى اجتماع عاجل في دار الندوة وذهب إلى هذا الاجتماع النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط.

ولما تم اجتماعهم قال النضر بن الحارث :

«يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر.

لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم.

وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم.

وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه.

(١) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٧٩ ورواه البخاري عن عروة بن الزبير ورواه البيهقي عن الحاكم. ورواه ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٣ ص ٥١.

وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه.

يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم»[1].

إن ما قاله النضر هو الحق الذي لم تستطع قريش أن تعترف به.. إنها تعرف محمداً حق المعرفة.

تعرف محمداً الأمين الذي لم تعرف عنه خيانة قط.

تعرف محمداً الصادق الذي لم يُجرب عليه كذب مطلقاً.

تعرف ما يقوله محمد.. وتستمع إليه وتميل نحوه بقلوبها وترفضه بشفاهها.

إن ما يقوله محمد ليس بالسحر.

وما أتى به ليس بالكهانة.

وما ينادي به من مبادىء لا يصدر من مجنون..

ثم اعترف بحقيقة عداوة قريش وأسبابها وهو الأمر العظيم الذي يقضّ على سلطان قريش، ويقوض ملكها ولا يجعل لها الزعامة على سائر العرب وهذا ما تخشاه قريش ولا تتحمله.

ولما وصل النضر بن الحارث إلى هذه الحقيقة.. قال له زعماء دار الندوة لتذهب أنت وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة: وسلاهم عن محمد. وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرج عقبة وصاحبه النّضر حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله. وقالا لهم:

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٩.

.. إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوْا فيه رأيكم :

١) سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب.

٢) وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟..

٣) وسلوه عن الروح ما هي؟..

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

وأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط فقالا :

«يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ .. قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم.

وجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول.

وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.

وأخبرنا عن الروح ما هي؟..

فقال لهم رسول الله ﷺ :

«أخبركم بما سألتم عنه غداً»[١].

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢٠ ، رواه ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٣ ص ٥٨ وذكره في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ الإسراء آية ٨٥.

قال ذلك رسول الله ﷺ — ولم يستثن — فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وقالوا:

«وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه».

وحزن رسول الله ﷺ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاء جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف والروح.

.. جاء جبريل عليه السلام فقال له رسول الله ﷺ:

«لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً..».

فقال جبريل:

﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾[1].

ونزل قول الله تعالى يحدثهم عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول بقوله تعالى: ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾[2].

إلى قوله تعالى:

﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت

(١) سورة مريم آية ٦٤.

(٢) سورة الكهف الآية ١٠ — ١١.

وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ، ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾[1] .

وجاء قول الله تعالى عن الرجل الذي كان طوافاً إلى مشارق الأرض ومغاربها بقوله :

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً. إنّا مكّنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾[2] .

إلى قوله تعالى : ﴿ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاءَ وكان وعد ربي حقاً ﴾[3] .

وجاء قول الله تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[4] .

فهل آمنت قريش عندما جاءها محمد بالحق؟.

هل حكّموا عقولهم وتركوا أصنامهم وما هم عليه من ضلال؟

الحقيقة أنها استمرت في غيّها وضلالها ، والسخرية من أتباع الدعوة الجديدة وغصبهم أموالهم وممتلكاتهم.. حتى أمر الرسول ﷺ أتباعه بالهجرة إلى يثرب.

واستقر المهاجرون بجوار الأنصار في أكرم جوار.. مما زاد في حنق قريش وإيغار

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٣ — ٢٥.

(٢) سورة الكهف الآية ٨٣ — ٨٦.

(٣) سورة الكهف الآية ٩٨.

(٤) سورة الإسراء الآية ٨٥.

صدرها.. الأمر الذي جعلها تنتظر الفرصة لتنال من محمد وأصحابه حتى كان يوم استيقظت قريش فيه على صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول:

يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة.

أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث[1].

وتجهز الناس سراعاً وقالوا:

«أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟.. كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً. ولم يتخلف من أشرافها أحد.

إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، وكان أمية بن خلف أجمع القعود ــ وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً فأتاه عقبة ابن أبي معيط ــ وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها فيها نار ومِجْمر حتى وضعها بين يديه ثم قال:

«يا أبا علي.. استجمر فإنما أنت من النساء»!!

قال: قبحك الله وقبح ما جئت به. ثم تجهز فخرج مع الناس.

.. خرج عقبة إلى قتال المسلمين بعد أن حرّض الرجال والشباب والشيوخ على حرب محمد.

ولم يغادر مكة إلا بعد أن تأكد أن كل بيوتات قريش قد تمثلت في هذا الجيش الذي خرج لحرب محمد ــ إما بالرجال أو المال أو السلاح. وسارت قريش حتى التقت بجيش المسلمين بالقرب من ماء بدر.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص ١١٧ وسيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٤٧.

ولكن الحباب بن المنذر بن الجموح قال :

يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.

قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نفسد ما وراءه من القليب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي.

ونهض رسول الله ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه. ثم أمر بالقلب فأفسدت. وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماء[1].

ودارت المعركة وانتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً..

وقتل من عصابة الكفر : أبو جهل ، الحكم بن هشام. وأمية بن خلف وشيبة ابن ربيعة ، وأخوه عتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة وآخرون.

وأسر منهم مجموعة كبيرة. على رأسهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط. أما النضر فقتله علي بن أبي طالب.

وأما عقبة فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري.

ويقال : ان عقبة قال للرسول ﷺ :

أتقتلني يا محمد من بين قريش؟.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٥٩ ، والبداية والنهاية جـ٣ ص ٢٩٣.

قال : نعم ، لأنك يهودي من أصل صفورية[1] .

ثم التفت الرسول ﷺ وقال : أتدرون ما صنع بي هذا؟ .

«جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي ، وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستخرجان .

وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي»[2] .

... لقد نال عقبة جزاءه في الدنيا .

عندما جزت رأسه بالسيف بأمر رسول الله ﷺ . وأما في الآخرة فمقرّه جهنم وبئس المصير مع الفئة الباغية الطاغية التي جلدت بسياطها ظهور الأبرياء... وصبت جامّ غضبها على المؤمنين الأتقياء فمتى يعي كل طاغية أن له نهاية كنهاية هؤلاء؟ .

متى يا رب؟ .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٨٦ ، والبداية والنهاية جـ٣ ص ٣٣٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ٣ ص ٣٣٦ والكامل لابن الأثير جـ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس — رضي الله عنه — في رواية عطاء الخراساني كان أُبي بن خلف يحضر النبي ﷺ ويجالسه ، ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به ، فزجره عقبة ابن أبي معيط من ذلك فنزلت هذه الآية.

وقال الشعبي : وكان عقبة خليلاً لأمية بن خلف — فأسلم عقبة فقال أمية وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً وكفر وارتدّ رضىً لأمية فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية :

وقال آخرون : إن أُبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين ، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله ﷺ إلى طعامه فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ :

« ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » .

فقال عقبة :

« أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

فأكل رسول الله ﷺ من طعامه .

وكان أُبي بن خلف غائباً ، فلما أخبر بقصته قال ، صبأت يا عقبة ؟ .

فقال : والله ما صبأت ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحيت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له وطعم . فقال أُبي :

«ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً إلا أن تأتيه فتبصق في وجهه ، وتطأ على عنقه ففعل ذلك عقبة. فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه.

فقال رسول الله ﷺ :

لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف. فقتل عقبة يوم بدر صبراً[1] .

وأما أُبي فقتله رسول الله ﷺ يوم أُحد في المبارزة فأنزل الله تعالى فيهما :

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾[2] .

(١) راجع تفسير الطبري جـ١٩ ص ٦ وكتاب أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ص ٣٤٧.

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٧.

تذييل...

.. لماذا لم يؤمن أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط وبقية الصناديد من أهل قريش؟...

إن الله سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم سيكونون حطب جهنم، ومن هنا طمس الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم فعاشوا في ظلام الجهل، وترّهات الضلال.

وليس هؤلاء فقط هم الذين ينكرون الواحد الأحد الفرد الصمد. وإنما على مدار التاريخ أمثال هؤلاء يكابرون في الحق ويركبون رؤوسهم، وينكرون كل ما وراء الغيب وتنحصر معلوماتهم في المشاهد أمامهم — المجسم أمام أعينهم، وما دام الله سبحانه وتعالى لا يرى بأبصارهم ولا تلمسه أيديهم — فهو غير موجود عندهم — وأن هذا الكون العريض وما فيه من أرض وسماء، ونجوم وكواكب وبحار وأنهار هو من صنع الطبيعة الخالقة أو الصدفة القادرة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون، ولهؤلاء وأولئك أحبّ أن أسير وإياهم إلى رحلة متأنية إلى الزمان القديم الموغل في القدم.. لعلّ الله يهديهم أو يجعل لهم من أمرهم رشداً، فتقول:

تعالوا يا مَن رفضتم الغيب وما وراءه.. وأنكرتم الخالق العظيم، فإذا كنتم لا تميلون كثيراً إلى تصديق الرسل والأنبياء وما جاءوا به من عند الله سبحانه وتعالى.. فإنكم لا تنكرون التاريخ ووقائعه.. وما تقدّمه لكم سجلاته من حفريات منقوشة أو آثار موضوعة.. أو أوراق مكتوبة.

تعالوا سوياً نتابع إبراهيم عليه السلام وهو يحثّ السير في جوف الصحراء حيث يترك ابنه إسماعيل مع أمه في هذا العدم القاتل ووسط الصحراء القاحلة، حيث لا ماء فيها ولا زرع ولا نبات ولا ضرع.

ولكن إبراهيم عليه السلام هذا العبد الفاني الضعيف قبل أن يترك هذا المكان استطاع أن يتصل بالخالق القادر.. أن يتصل بربه عندما رفع أكفّ الضراعة متجهاً إلى مولاه بقوله:

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1]

فاستجاب له ربه، وكيف لا وهو القائل:

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ ﴾[2].

واتصلت الأرض بالسماء. وإذا بالصحراء القاحلة تتفجر ماء، وإذا بالأرض الجرداء تتحول إلى جنة وارفة الظلال، وإذا بالآلاف المؤلفة تتجه إلى تلك البقعة المباركة.

مَن الذي فعل ذلك؟..

مَن الذي أنقذ الطفل وأمه من هذا العدم القاتل؟..

مَن الذي فجر الماء من قلب الصخر؟..

أهي الطبيعة كما يقول «دارون» اليهودي وأتباعه؟..

أهي الصدفة كما يدّعي الوجوديون وأنصارهم؟..

أم هو الله سبحانه وتعالى كما يعتقد المؤمنون وأتباع الرسالات؟..

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

وليحتفظ كل منا برأيه إلى أجل. ولنعد مرة أخرى إلى الزمان القديم الموغل في القدم، ولنترك مكة وشعابها، ولنعد إلى مصر — مصر الفرعونية — التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم فرعون وكان له عزة وصولجان حتى قال لشعبه ورعيته:
﴿أنا ربكم الأعلى﴾[1].

ولقد أراد فرعون لأسباب يحفظها التاريخ ولا يجهلها أحد أن ينكل ببني إسرائيل وقرّر أن يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وفعل ذلك ونفذ مخططه في كل الأبناء الذكور، ولكن طفلاً واحداً ألقت به أمه في اليم.

قال تعالى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[2].

واستجابت الأم لأمر ربها.. ونفذت ما أمرها به.

وقذفت بالطفل إلى البحر.

قذفت به في رأيها إلى الموت المحقق.. والهلاك المؤبد.

قذفت به إلى حيث أمواج البحر الطاغية، ووحوشه المفترسة.

وقالت الأم لأخت موسى: انظري أخاك.. ماذا يكون مصيره.. وماذا سيحدث له؟..

قال تعالى حاكياً قولها:

﴿وقالت لأخته قصِّيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾[3]

(١) سورة النازعات الآية ٢٤.
(٢) سورة القصص الآية ٧.
(٣) سورة القصص الآية ١١.

وأخذ تابوت الطفل يصارع الموج الهائج والبحر المضطرب، حتى ألقت به موجة إلى قصر فرعون.

لقد أرادت أمه أن تبعده عن عين فرعون، وعيون جواسيسه، ولكنه ذهب إليه وتربّى في قصره، وبقية الحادثة معروفة.

ولنا أن نتساءل سوياً:

مَن الذي أوحى إلى أم موسى أن تقذف بفلذة كبدها في جوف البحر؟..

مَن الذي جعل تابوت الطفل يتجه مباشرة إلى قصر الجلّاد؟..

مَن الذي أوحى للطفل أن يرفض كل المراضع حتى يرد إلى أمه؟..

مَن الذي أدخل في قلب الطاغية الرحمة حتى قبل أن يربي الطفل ويرعاه؟..

أهي الطبيعة كما يدّعي «دارون» اليهودي وأتباعه؟..

أهي الصدفة كما يقول الوجوديون وأنصارهم؟..

أم هو الله سبحانه وتعالى كما يعتقد المؤمنون وأتباع الرسل؟..

ولنحتفظ بالإجابة مؤقتاً مرة أخرى.

ولنعد مرة ثالثة إلى عمق التاريخ.. حتى نصل إلى مريم ابنة عمران التي وهبتها أمها لخدمة المعبد وكفلها زكريا.

قال تعالى:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله﴾[1].

مريم التي حملت بغير الطريق المتّبع في الحمل. وولدت طفلها فكان أعجوبة

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٧.

الأعاجيب، ونطق وتكلم — في المهد — وأخرس ألسنة الأفاكين والمتقولين بالباطل، وبما ليس لديهم من علم.

وتتساءل: من أين جاء الرزق مريم؟..

ومَن كان يأتيها بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف؟..

كيف حملت مريم دون أن يمسّها بشر؟..

مَن الذي أنطق عيسى بكلمة الحق وهو طفل في المهد؟..

قال تعالى:

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيّاً منسيّاً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما تَرَينّ من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّاً، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم مَن كان في المهد صبياً، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾[١].

أهي الطبيعة؟..

أهي الصدفة؟..

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذباً ﴾[٢].

إنه الله سبحانه وتعالى — هو الذي فعل هذه الأشياء وأوجدها، وهو العليم بكل شيء، الخبير بكل صغيرة وكبيرة. ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾[٣].

---

(١) سورة مريم الآيات من ٢٢ — ٣٠.

(٢) سورة الكهف الآية ٥.

(٣) سورة الجن الآية ٢٦ — ٢٧.

عَامِر بن الطُّفَيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ
سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ
ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ
خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ
يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الرعد من ١٠ : ١٣]

أقوال العُلماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة.

قال ذلك الطبري في تفسيره	جـ ١٣ ص ٨٠ — ٨٤ — ٨٥
وقاله ابن كثير في تفسيره	جـ ٢ ص ٥٠٦
وقاله الإمام القرطبي	جـ ٩ ص ٣٩٦
وذكره صاحب الدر المنثور	جـ ٤ ص ٥٢
وذكره مختصراً في تفسير البغوي والخازن	جـ ٤ ص ٩

وذكره صاحب أسباب نزول القرآن الإمام الواحدي ص ٢٧٦

فمن هو عامر بن الطفيل؟..

عامر بن الطّفيل

ذئب عاش في الفلاة كما تعيش الذئاب.

ووحش آدمي لا يرتوي إلا بالدماء.. ورجل غليظ الكبد متحجّر القلب لا يعرف الرحمة، ولا يدري ما الشفقة أو الحنان.

انه عامر بن الطّفيل: الذي فتح عينيه عل القتل والسلب.. وعاش طفولته وشبابه.. بين الكهوف والمغارات.

وكانت أولى المعارك التي خاضها عامر بن الطّفيل معركة «فيف الريح» ومن أخبارها أن بني الحارث إحدى قبائل نجد كان لها ثارات كثيرة عند بني عامر فجمع بنو الحارث جموعهم.. واستنفروا القبائل من حولهم — وساروا يريدون بني عامر وكان بنو عامر في ذلك الوقت يقيمون في مكان يسمى «فيف الريح» ومعهم النساء والذراري.

فلما علم عامر بن الطفيل بمسير القوم أشار على قومه بالمسير إليهم وقال: «أرجو أن نأخذ غنائمهم، ونسبي نساءهم ولا تدعوهم يدخلون عليكم»[1].

واستمع قومه إليه، وأجابوه إلى طلبه، وساروا إليهم.

(١) الكامل لابن الأثير جـ١ ص ٦٣٣.

فلما دنوا من بني الحارث تواعدوا على القتال : واقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام وأوشك بنو عامر أن ينهزموا.

ولكن عامر بن الطفيل سار إلى بني نمير يستنفرهم على القتال معهم .. فلما وصل إليهم أخذ يصيح :

يا صباحاه ! يا نميراه ! ولا نمير لي بعد اليوم ! فخرجوا معه .. فقويت نفوس بني عامر وأخذ عامر يتعهد الناس فيقول :

« يا فلان ما رأيتك فعلت شيئاً ، فمن أبلى فليرني سيفه أو رمحه ، ومن لم يُبل شيئاً تقدم فأبلى.

فكان كل من أبلى بلاء حسناً أتاه فأراه الدم على سنان رمحه أو سيفه.

وانتصر بنو عامر. وقبل أن تنتهي المعركة .. تقدم رجل من بني حارث إلى عامر ابن الطفيل ، فقال له : يا أبا علي انظر ما صنعت بالقوم انظر إلى رمحي.

فلما أقبل عليه عامر لينظر إليه وجأه بالرمح في وجنته ففلقها وفقأ عينه وترك رمحه وعاد إلى قومه.

ولكن عامراً لم يمت ، ولم تؤثر فيه تلك الجراحات[1].

وزادته تلك الحادثة بغضاً على الناس وحقداً عليهم ، لأنها شوّهت خلقته وذهبت بإحدى عينيه .. وتحوّل من يومها .. إلى وحش كاسر .. السلامة تمرضه والهدوء يقلقه ، ولا يستريح نفساً ولا يهدأ بالاً إلا على صهيل الخيل وسط المعركة ، وقرعات السيوف فوق رقاب العباد.

فإن دعي إلى سلام أفسده.

وإن طلب منه صلح رفضه.

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٦٣٤.

ومن خلفه مجموعة من الشباب يحبون الزهو ويفتخرون بجندلة الأبطال ومقارعة الشجعان. ولكن الغرور يردي ويصم. والعاقل.. من عرف أقدار الرجال، واستعدّ لنكبات الزمان. ثم ماذا؟..

لقد مضى وقت على انتصار عامر على بني الحارث وأغراه النصر.. وفكر في أن يغزو غيرهم فاتجه مع رجاله هذه المرة إلى بني مُرة بن عوف بن سعد ومعهم قوم من أشجع بن ذئب.

والتقى بهم في وادي الرقم فاقتتلوا قتالاً شديداً وأقبل عامر بن الطفيل فرأى امرأة من فزارة فسألها: من أنت؟..

فقالت: أنا أسماء بنت نوفل الفزاري.

وبينما عامر يسألها.. خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مُرة في أعقابهم، فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى أسماء وولى منهزماً وتبعتهم مرة وعليهم سنان بن حارثة وجعل الأشجعيون يذبحون كل من أسروه من بني عامر»[1].

وانهزم الذئب الآدمي.

وفرّ كما يفرّ الثعلب الجبان إذا رأى مجموعة من الكلاب توشك أن تلحق به.

وولّى الأدبار لا يلوي على شيء.. وترك خلفه قومه بين قتيل وجريح طعاماً للنسور والصقور، وغذاءً للضبعة والأسود..!!

لقد كانت هزيمة بني عامر هزيمة منكرة.. وما كادت تلتئم الجراح، حتى فكر عامر بن الطفيل في أن يأخذ بثأره.

فجمع جموعه.. وجهز أسلحته.. وأوصى قومه وسار يريد غطفان.. وفي الطريق إلى غطفان التقى بنو عامر ببني عبس وذبيان، فأغاروا على أنعامهم وإبلهم فأخذوها وعادوا متوجهين إلى بلادهم.

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٤٢.

لقد خرجوا يريدون ثأرهم من غطفان، ولكنهم وجدوا في طريقهم هذه الخيرات لقوم لم يشتركوا في قتال وليست بينهم ثارات أو خصومة. ومع ذلك تركوا المهمة الأساسية التي خرجوا من أجلها وعادوا بهذا الحطام المتعفن وتحولوا من أبطال محاربين إلى لصوص مغيرين.

وعند عودتهم إلى بلادهم ضلّوا الطريق فسلكوا وادي التناءة فأمعنوا فيه ولا طريق لهم ولا مطلع حتى قاربوا آخره، وكاد الجبلان يلتقيان إذا هم بامرأة من بني عبس.

فسألوها عن المطلع؟...

فقالت لهم: الفوارس المطلع.

وكانت قد رأت الخيل قد أقبلت وهي على الجبل ولم يرها بنو عامر لأنهم في الوادي فأرسلوا رجلاً إلى أعلى الجبل ينظر فقال لهم:

أرى قوماً كأنهم الصبيان على متون الخيل، أسنة رماحهم عند آذان خيلهم.

قالوا: تلك فزارة.

قال: وأرى قوماً بيضاً جعاداً كأن عليهم ثياباً حمراً.

قالوا: تلك أشجع.

قال: وأرى قوماً نسوراً قد قلعوا خيولهم بسوادنهم كأنما يحملونها حملاً بأفخاذهم آخذين بعوامل رماحهم يجرونها.

قالوا: تلك عبس، آتاكم الموت الزؤام ولحقهم الطلب.

فكان عامر بن الطفيل أول من سبق على فرسه الورد، واقتتل الناس وانهزمت بنو عامر وقتل منهم مقتلة عظيمة[1].

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ١ ص ٦٤٧.

إن عامر بن الطفيل لا يجيد فن الحرب . ولا يتحلّى بشرف الفارس المحارب ... إنه يتقن فقط فن الخداع والمكر ...

يجيد أخذ الناس على غرة ..

لم يكتسب من أخلاق الصحراء شيئاً ، فهو دائماً خادع مراوغ ، لا يتحلى بخلق ولا يتصف بمروءة .. وهذه الحادثة التي بين أيدينا تدل دلالة قاطعة على صفة هذا الرجل الذي عاش إلى آخر رمق من حياته .. غادراً فاجراً يلغي في الدماء وينهش لحوم البشر.

لقد قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ فعرض عليه رسول الله الإسلام ، ودعاه إليه ، فلم يسلم ، ولم يبتعد عن الاسلام .

وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال رسول الله ﷺ :

«إني أخشى عليهم أهل نجد»[1] .

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعو الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعد في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة — وهي أرض بني عامر وحرة بني سليم — كلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حرة بني سليم أقرب .

فلما نزلوا بها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص ١٨٤ والكامل لابن الأثير جـ٢ ص ١٧١ .

فلما أتاه الكتاب : لم ينظر فيه ، ولم يهتم بما جاء به .. وتمادى في غيّه وجبروته فقتل الرجل.

قتل رسول رسول الله ﷺ وهذا أفحش شيء يمكن أن يأتي به رجل — لأن الرسل لا تقتل مهما كان بين القوم من خصومة — وهذا القانون هو عام بين الدول قديماً وحديثاً.

ولكن عامراً بن الطفيل لا يدين بقانون ولا يلتزم بعرف.

ولم يكتف بذلك بل استصرخ عليهم بني عامر. فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا لن ننقض عهد أبي براء. وقد عقد لهم عقداً وجواراً.

فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم ، فأجابوه إلى ذلك.

وخرجوا حتى التقوا بالقوم فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم يرحمهم الله.

إلا كعب بن زيد أخا بني دينار ، فإنهم تركوه وبه رمق وعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وكان خلف القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو ابن عوف. فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المكان.

فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً. فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة.

فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ما ترى؟.

قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر.

فقال الأنصاري : لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عامر. ثم قاتل القوم حتى قتل[1] .

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل. وجز ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه . فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بمكان يسمى « القرقرة » أقبل رجلان من بني عامر. حتى نزلا معه في ظل هو فيه.

وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية.

وقد سألهما حين نزلا : ممن أنتما؟.

فقالا : من بني عامر فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر قال رسول الله ﷺ :

« لقد قتلت قتيلين لأدينَّهما » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً »[2] .

ويتساءل المرء بعد مضي أربعة عشر قرناً من الزمان : لماذا قُتل أصحاب الرسول ﷺ على هذه الصورة البشعة؟..

إنهم لم يخرجوا من ديارهم لقتال أحد ، أو الاعتداء على إنسان ، وأيضاً لم يطلبوا من أحد مغنماً أو مالاً.

ولكنهم خرجوا لأشرف مهمة عرفتها البشرية في تاريخها الطويل..

---

(۱) رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، ورواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك وذكره ابن كثير في البداية والنهاية جـ ٤ ص ٨١ — ٨٢ وذكره الواقدي عن مصعب بن ثابت.

(۲) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٨٣ وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٦.

خرجوا دعاة إلى دين الله.. وإلى كلمة التوحيد.

خرجوا لإنقاذ البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الواحد الأحد..

خرجوا يدعون إلى الرحمة والتعاون والتعاطف.

وخرجوا وفي أيديهم دعوة الإسلام وفي قلوبهم كلمات الله التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقبل أن يبدأوا هذه الدعوة، وقبل أن يستمع لهم أحد كانت السيوف تنوشهم من كل جانب، والسهام تستقرّ في قلوبهم.

والذي فعل هذه الفعلة هو: عامر بن الطفيل. رجل أسود القلب خرب السريرة.. عاش حياته في ظلام دامس، وفي جاهلية جهلاء.. حتى بعد أن سمع بدعوة الإسلام وبدأت كلمة التوحيد تتردّد على كل الشفاه، وكلمة الله أكبر تدوي بين جنبات الصحراء تعلن أنه لا حكم إلا لله — ولا سلطان إلا له — والعبيد كلهم لا يملكون من أمر نفوسهم شيئاً.

نقول: حتى بعد ذلك، لم يظهر بصيص من النور في قلبه وها نحن نراه يعدّ العدة لقتل محمد ﷺ لأنه تصوّر أن محمداً صار ملكاً على جزيرة العرب فيجب أن يشاركه في ملكه.. أو رجلاً مغيراً مثله فينبغي أن يقتسم معه الغنيمة. وقصة ذلك أنه وفد إلى الرسول ﷺ هو وصاحبه أربد بن قيس.

نقول: قدم عامر بن الطفيل إلى رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به.

وقد قال له قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم.

قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟..

ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه. فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل:

يا محمد خالني.

قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده.

قال: يا محمد خالني. وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به. فجعل أربد لا يحير شيئاً.

فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال: يا محمد خالني.

قال: لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له.

فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً.

فلما ولّى قال رسول الله ﷺ:

«اللهم اكفني عامر بن الطفيل»[1].

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: ويلك يا أربد!! أين ما كنت أمرتك به؟.. والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً.

قال أربد: لا أبا لك لا تعجل عليّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به من إمرة إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟.

وخرجوا راجعين إلى بلادهم — حتى اذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول.

فجعل يقول:

«يا بني عامر أغدة كغدة البكر في بيت من بني سلول.

ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بني عامر. فقالوا: ما وراءك يا أربد؟..

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٤ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩٨ — ٢٩٩.

قال : لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله.

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما[1].

أخذه الله العزيز المقتدر.

وأنزل به عقابه ، ونال جزاء عمله ، وصدق الله تعالى :

﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾[2].

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٥.

(٢) سورة الكهف الآية ٤٩.

أسباب نزول الآيات

قال ابن عباس — رضي الله عنه — في رواية صالح وابن جريج وابن زيد : نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة.

وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله ﷺ فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك.

فقال : دعه فإن يرد الله به خيراً يهده.

فأقبل حتى قام عليه.

فقال : يا محمد ، ما لي إن أسلمت؟..

قال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

قال : تجعل لي الأمر من بعدك.

قال : لا ، ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله تعالى ، يجعله حيث يشاء.

قال : فتجعلني على الوبر ، وأنت على المدر.

قال : لا.

قال : فماذا تجعل لي؟..

قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها.

قال : أوليس ذلك إليّ اليوم؟..

وكان أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه واضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه.

فدار أربد خلف النبي ﷺ وجعل عامر يومىء إليه.

فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع بسيفه.

فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت.

فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته.

وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، وفتياناً مرداً.

فقال رسول الله ﷺ:

«يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة — يريد الأوس والخزرج».

فنزل عامر بيت امرأة سلولية. فلما أصبح ضم عليه سلاحه فخرج وهو يقول:

واللات والعزى لئن أصحر محمد إلي وصاحبه — يعني ملك الموت — لأنفذهما برمحي.

فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب، وخرجت على ركبتيه في الوقت غدة عظيمة كغدة البعير، فجاء الى بيت السلولية وهو يقول:

غدة كغدة البعير، وموت في بيت السلولية.

ثم مات على ظهر فرسه، وأنزل الله تعالى فيه هذه القصة[1]:

«سواء منكم مَن أسر القول ومَن جهر به» حتى بلغ:

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾[2].

صدق الله العظيم.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره جـ ١٣ ص ٨٠ — ٨٤ — ٨٥، وذكره صاحب أسباب النزول ص ٢٧٦.

(2) سورة الرعد الآية ١٤.

تذييل...

لماذا لم يؤمن عامر بن الطفيل؟..

وكيف أغلق عقله فلم يرَ نور النبوة؟.

ولماذا نجد الملحدين والجاحدين لحقيقة الألوهية في كل عصر ومصر؟.

لقد سبق أن عشنا رحلة في أعماق التاريخ لنرشد هؤلاء الضالين إلى قدرة الله سبحانه وتعالى.. التي تعمل في كل شيء.

والآن يطيب لنا أن نقطع رحلة أخرى مع هؤلاء الملحدين ولكن لتكن هذه المرة في دنيا الحيوان وفي جحور الزواحف، ومع الأجنة في داخل الأرحام أم أننا نبدأها في عالم المحيطات والبحار؟. ليكن كذلك. فنقول:

«إن الأفراد الذين يسكنون بجوار البحار والمحيطات أو تضطرهم ظروف حياتهم الى البقاء فترة يقومون بعملية لتبخير الماء وتكثيفه لاستبعاد الملح الذي به. حتى يكون بذلك صالحاً للشرب.

ولطالما تمنوا لو كان الماء خالياً من مادة الملح إذن لخفف عنهم الكثير من الجهد والمال الذي تحتاجه عملية التبخير.

ويتساءلون لماذا لم تتحقق هذه الأمنية؟.

يقول العلماء: إن هذه الأمنية لو تحققت وصارت المياه حلوة لأصبحت عفناً منتشراً ولانتهت الحياة من على سطح الأرض؟.

ونتساءل لماذا؟.

ويأتي الجواب : لأن مياه المحيطات والبحار واقفة مغلقة والملح فيها مادة حافظة تمنع عنها التعفن والعطن.

إننا نرى البرك ونشاهد المستنقعات ، إنها مياه راكدة ولكنها مليئة بالجراثيم مليئة بالأوبئة.

إنها خطر على البشرية ، ولذلك تنهض الحكومات والهيآت لردم البرك والقضاء على ما فيها من جراثيم. خطر على البشرية وهي صغيرة محدودة فماذا يكون الحال — حال الأرض — إذا تحول أكثر من ثلاثة ارباعها وهو مساحة المحيطات الى برك ومستنقعات ؟.

إن هذه المياه تعتبر مستودعاً للبشرية ، مستودع لا ينفد من المياه المحفوظة ، فماذا يكون حالنا إذا جفت مياه الأنهار؟. وهي قابلة للجفاف والتسرب الى باطن الأرض.

ان مياه المحيطات خلقت باحكام وقدر.

فالشمس تبخر مياه البحار فتصعد الى الطبقات الباردة في الكون فتكثف لتسقط مياهاً حلوة تجري في الانهار ، وتسقي الزرع والحيوان والإنسان وتمد الكون بالحياة والنماء.

قال تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1].

ونقول : أيحق لنا أن نتتلمذ على «العلمانيين» ونسألهم؟.

من الذي أودع الملح في مياه المحيطات والبحار؟.

ولماذا كانت المحيطات راكدة؟.

ومن الذي امر الأنهار بالجريان والحركة؟.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

من الذي أمر بوضع الملح هنا وصفاها منه هناك؟.

لماذا تجف الأنهار ولا تجف المحيطات؟.

إذا كانت الأمطار هي المستودع الضخم للأنهار فأين مستودع المحيطات؟

أين؟. ومن الذي فعل ذلك؟.

أهي الطبيعة؟. أهي الصدفة؟. أم ان ذلك فعل الله تعالى؟.

قال تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾[1].

لنترك المحيطات وما فيها من مخلوقات يقف أمامها الانسان مشدوهاً ويحس بضآلة عقله وضحالة تفكيره أمام آثار الخالق المبدع.

لنترك المحيطات ولنتجه الى الصحراء لنرى ما يقوله العلماء في سفينة الصحراء انهم يرون شيئاً عجباً، ومن هنا كانت إشارة الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت﴾[2].

سفينة الصحراء يقول عنه العلماء انه زود بشبكة من الأهداب الطويلة مخالفاً بذلك بقية الحيوانات.

لماذا هذه الأهداب أو الشبكة كما يقول العلماء؟.

لأنها تحمي عينيه من ذرات الرمال اذا هبت عاصفة رملية اثناء سيره في الصحراء وبذلك لا يضطر الى اقفال عينيه كما يفعل الانسان، والانسان اذا شرب كمية من الماء ـــ فوق طاقته ـــ انفجرت كرات الدم الحمراء في داخل جسمه وعرّضته لخطر محقق.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣.

(٢) سورة الغاشية الآية ١٧.

ولكن الجمل يستطيع أن يشرب كميات هائلة من الماء ويختزنها داخل جسمه فهو يستطيع أن يشرب الماء المالح دون أن يصاب بضرر، وله من الأجهزة في داخل جسمه ما تساعده على تكثيف الماء؟.

وتتساءل: لماذا لم تزودنا الطبيعة بشبكة الاهداب كما زودت الجمل؟.

ولماذا لم تزودنا بجهاز تحويل المياه الملحة إلى عذبة؟.

من الذي خص الجمل دون بقية الحيوانات بالمقدرة الفائقة على تحمل العطش؟

لماذا تنفجر كرات الدم الحمراء في بقية الحيوانات ولا تنفجر في الجمل؟..

لماذا؟.. من فعل ذلك؟..

أهي الطبيعة؟..

أهي الصدفة؟..

أم أن ذلك من فعل الله؟..

قال تعالى: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾[1].

ويقول «ألن ديفو» أحد علماء الحيوان:

«إنه وقف يوماً يرقب ثلاثة من صغار الثعلب تلعب حول أمها، واذا بصغير منها يدخل الغابة ويبتعد عنها بعداً لا تراه العين المجردة، فاستوت الأم قائمة ومدت انفها الى الناحية التي ذهب منها، وبقيت على حالها برهة عاد بعدها الصغير في اتجاه أمه لا يلتفت يمنة أو يسرة، كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين».

كيف تم الاتصال بين الأم ووليدها؟..

انها لم ترفع صوتاً، انها لم تحدث نداء.

---

(١) سورة لقمان الآية ١١.

كيف ارسلت تلك الإشارة الى وليدها؟...

واين وضع جهاز الاستقبال في جسم الحيوان الذي استقبل الإشارة.

مَن الذي زوّده بتلك الأجهزة المعقدة؟..

لقد أثبت علم الحيوان ان العناكب والزنابير وبعض الحيوانات تستطيع أن تحفظ اللحوم اسابيع فلا تفسد دون الاستعانة بما تفتقت به حيل الإنسان من تمليح أو تجفيف أو تبريد.

هذه هي الطرق التي اتبعتها البشرية في رحلة الحياة الطويلة من أجل حفظ اطعمتها دون تلف أو فساد. اما الحيوانات او الطيور فلم تلجأ إلى ذلك، وليست هي في حاجة الى تلك الطرق البدائية التي يتبعها الإنسان. إنها تلجأ الى فريستها وطعامها الذي تريد الاحتفاظ به فتفرز عليه من ابدانها مادة تخدرها دون ان تميتها فيبقى غذاؤها دائماً طازجاً بل حياً الى حين استهلاكه.

ولم يتمكن الإنسان حتى الآن من اكتشاف هذه الطريقة.

لم يتمكن الإنسان من ذلك لأنه اعتمد على عقله والعقل دائماً قاصر محدود.

لم يتمكن الإنسان من الاهتداء الى تلك الطرق لأنه ابتعد عن ربه وجحد مولاه، والطير والحيوانات لم تجحد ربها ولم تنكر مولاها.

قال تعالى: ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[1].

وقال: ﴿والطير صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه﴾[2].

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٢) سورة النور الآية ٤١.

ثَبَتُ المراجع

١ . القرآن الكريم.

٢ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي دار الشعب — مصر.

٣. أسباب نزول القرآن للواحدي : تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤. تفسير القرآن العظيم : للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، دار الأندلس — بيروت.

٥. تفسير الطبري : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعارف — مصر.

٦. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧. الدر المنثور : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، المكتبة الاسلامية — طهران.

٨. في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار احياء التراث العربي : بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠ . تفسير الدر المنثور : للإمام السيوطي.

١١ . تفسير الجلالين : جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢ . أسباب نزول القرآن : لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣ . فتح الباري بشرح البخاري : للحافظ أبي الفضل العسقلاني : المعروف بابن حجر.

١٤ . صحيح الإمام مسلم ، بشرح النووي : المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥ . مسند الإمام أحمد : شرح أحمد محمد شاكر : دار المعارف بمصر ، ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦ . صحيح الترمذي ، بشرح ابن العربي : المطبعة المصرية بالأزهر ، ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م.

١٧ . المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : أ. ي. ونسنك ، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢م.
١٨ . الجامع الصغير: للإمام السيوطي ، مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة.
١٩ . كشف الخفا ومزيل الالباس : اسماعيل بن محمد العجلوني ، مكتبة التراث الاسلامي ــ حلب.
٢٠ . تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني ، دار صادر ــ بيروت.
٢١ . الكامل في التاريخ: لابن الأثير ، دار صادر ــ بيروت ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م.
٢٢ . تاريخ الرسل والملوك: لأبي جعفر محمد الطبري ، دار القلم الحديث ــ بيروت.
٢٣ . البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير ، مكتبة بيروت ــ ومكتبة النصر ــ الرياض.
٢٤ . الطبقات الكبرى : ابن سعد ، صيدا ــ دار بيروت ١٣٧٧ هـ.
٢٥ . سيرة النبي لابن هشام : تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ــ القاهرة.
٢٦ . الروض الأنف: عبد الرحمن السهيلي ، دار الكتب الحديثة ــ القاهرة.
٢٧ . مروج الذهب: للمسعودي ، دار الأندلس ــ بيروت ــ مكتبة نهضة مصر.
٢٨ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر ، دار الأندلس ــ بيروت ــ مكتبة نهضة مصر.
٢٩ . أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، دار الفكر بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٣ م.
٣٠ . خلفاء الرسول : خالد محمد خالد. دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م.
٣١ . العبقريات : لعباس محمود العقاد.
٣٢ . علي بن أبي طالب ــ بقية النبوة ــ وخاتم الخلافة : للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت.
٣٣ . هذا هو الطريق: د. عبد الرحمن عميرة ، دار التراث مصر ــ ١٩٧٣.
٣٤ . مع الإلحاد وجهاً لوجه : د. عبد الرحمن عميرة ، دار الحلبي ــ القاهرة.
٣٥ . أشهر مشاهير الاسلام : رفيق العظم.
٣٦ . الاعلام : للزركلي.

٣٧. **الأغاني**: للأصفهاني.
٣٨. **تاريخ الخلفاء**: للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، مصر— ١٣٠٥ هـ.
٣٩. **تفسير الخازن والبغوي**: المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل، دار الفكر— بيروت— لبنان.
٤٠. **تلبيس ابليس**: لابن الجوزي، مصر— ١٣٤٧ هـ.
٤١. **الروض الأنف**: للإمام السهيلي.
٤٢. **الرياض النضرة في مناقب العشرة**: للمحب الطبري.. مصر.
٤٣. **سنن الترمذي**: حققه وصححه عبد الرحمن عثمان، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي، صاحب المكتبة السلفية: المدينة المنورة.
٤٤. **سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجه»**، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ— ١٩٧٥ م— دار احياء التراث العربي.
٤٥. **تراث الإنسانية**: مجموعة من العلماء، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس الموضوعات للجزء السابع

رجال ونساء
أنزل الله فيهم قرآنًا

الجزء الثامن

د. عبدالرحمن عميره

ثعلبة بن حاطب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ
لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن
فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ
نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا
وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾



[سورة التوبة الآيات ٧٥ - ٧٧]

أقوال العلماء في نزول الآيات

اتفق كثير من العلماء والمفسرين بأن هذه الآيات نزلت في ثعلبة بن حاطب.

قال ذلك ابن الجوزي في كتابه زاد المسير ٣ : ٤٧٣ — ٤٧٤.

وقاله الإمام الطبري ١٤ : ٣٧١ — ٣٧٢.

وخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ : ٣١ — ٣٢.

وذكره الامام الواحدي في أسباب النزول ٢٥٢

وذكره صاحب البغوي والخازن ٣ : ١٠٢.

والدر المنثور للسيوطي ٣ : ٢٦٠

والإمام القرطبي في تفسيره ٨ : ٢٠٩

والإمام ابن كثير في تفسيره ٢ : ٣٧٤

فمن هو ثعلبة بن حاطب..؟

ثعلبة بن حاطب

متى كانت ولادته؟..

وأين كانت نشأته؟..

أنشأ في يثرب الجميلة حيث بساتين النخيل تنتشر هنا وهناك. وكروم العنب تمتد أغصانها وفروعها لتغطي رقعة الأرض الجرداء؟.. أم عاش هناك في البادية حيث السماء المكشوفة والأرض المبسوطة فإذا جاء الليل لفته خيمته الصغيرة التي تحمل متاعه القليل ومغزله الكليل؟..

أعرفت طفولته مرارة العيش وشظف الحرمان؟.. حيث تجف الأرض فلا تنبت زرعاً.

وتكظ السماء فلا ترسل ماء.

أبقي في هذه الصحراء الممتدة ليس معه أنيس إلا وحوشها الجائعة وثعالبها الهائجة؟.. والتي تريد أن تنقض عليه لتسكت ما بداخلها من وقدة الجوع ولهيب العطش.

أكان يتربص بها هو الآخر ليجعلها طعاماً واداماً حتى لا يهلك جوعاً بعد أن نفق ما لديه من ماشية ومصّت شفتيه آخر قطرة من ماء في سقائه؟..

إن التاريخ يصمت عن ذلك كله فهلا يذكره في قليل أو كثير.

إن ثعلبة هذا ممن أنزل الله فيهم قرآناً.

فكيف غفل التاريخ عنه؟..

كيف تجاهله رجال السير فلم يسجلوا عنه إلا قليلاً قليلاً؟. إن ثعلبة أعلن إسلامه، ودخل في هذا الدين الجديد الذي جاء به محمد — ﷺ.

ولقد حرص التاريخ أن يرصد حركات هؤلاء المؤمنين الذين أجابوا داعي الله رجالاً كانوا أم نساء.

ليس هذا فحسب ولكن التاريخ يعمل ذاكرته ويستعين بالمعمرين والحافظين ليتحدث عن طفولة هؤلاء الرجال وشبابهم.

فلماذا أغفلت ذاكرة التاريخ ثعلبة بن حاطب؟..

أتكون لحياته خارج المدينة أثر في ذلك؟..

أيكون لانقطاعه عن جماعة المسلمين وعدم حضوره صلاة الجماعة معهم، والاهتمام بما يهتمون به عامل في نسيانه وعدم الالتفات إليه؟.. إن التاريخ يسجل اسلام ثعلبة.

ثم ماذا؟.. أجلس ثعلبة في حلقات المسلمين وتجمعاتهم التي كانت تعقد للتفقه في الدين وتلقي تعاليم الرسول — ﷺ؟..

لقد كان الصحابة يسألون الرسول ﷺ في القليل والكثير، يسألونه عن أمور دينهم ودنياهم.

أكان ثعلبة من هؤلاء الذين يسألون ويتفقهون؟..

إن كتب الأحاديث والسنن تكاد تخلو من ذكر ثعلبة.

والشيء الذي تسجله له مؤخاة الرسول ﷺ بينه وبين الصحابي الجليل معتب ابن عوف.

ثم إلحاح ثعلبة على الرسول ﷺ أن يدعو له ليرزقه الله مالاً.

وامتناع الرسول ﷺ عن ذلك في بادئ الأمر. ولكن ثعلبة لا يمل من الإلحاح في الطلب.

والرسول ﷺ طبيب للنفوس البشرية يعلم ما يفعله الثراء العريض في نفس ثعلبة إذا رزقه الله مالاً. ويقول له: يا ثعلبه قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». ولكن ثعلبه يصم أذنيه عن ذلك إنه يريد غناء ويريد ثراء فليكن له ما يريد: كل نفس بما كسبت رهينة.

ودعا الرسول ﷺ لثعلبة أن يرزقه مالاً ويهبه عطاء ويبارك له فيه.

واستجاب الله لدعوة نبيه.

وأصبح ثعلبة يملك بعضاً من الإبل وغنيمات.

وذات مساء والشمس تودع هذا الكون للقاء جديد جلس ثعلبة يصر ضرع غنيمة له ليستمتع في الصباح بما تدره من لبن سائغاً للشاربين سمع داعي الرسول ﷺ ينادي النفير — النفير. وتقلد ثعلبة سيفه وامتطى صهوة جمله واتجه الى مسجد الرسول ﷺ.

وما كاد يصل الى ساحة المسجد حتى رأى جماعة الانصار والمهاجرين يعدون العدة لمقابلة قريش التي خرجت برجالها ونسائها وحلفائها تريد القضاء على تلك الفئة المؤمنة.

وشارك ثعلبة في غزوة بدر، ووعى قلبه وعقله الانتصار الكبير الذي حققه المسلمون في تلك الغزوة.

انتصار القلة على الكثرة.

انتصار الايمان على الكفر.

انتصار النور على الظلام.

واستمع ثعلبة الى قول الله تعالى مصوراً حال المشركين الذين يجمعون الأموال ، ويعدون السلاح واهمين أنهم بذلك ينالون من المسلمين. وينزل قول الله تعالى مخيباً آمالهم ، ومبطلاً كيدهم قال تعالى : .

﴿ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون. ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾[1] .

رأى ثعلبة اندحار جماعة الكفر وتشتيت أموالهم وجندلة أبطالهم وجمع جثثهم في قليب واحد.

وسمع ثعلبة مخاطبة الرسول ﷺ لقتلى المشركين يوم بدر.

يا أبا جهل ابن هشام.

يا أمية بن خلف.

يا عتبة بن ربيعة.

يا شيبة بن ربيعة.

أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟..

فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

ويسمع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قول النبي ﷺ فقال يا رسول الله :

«كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا».

(١) سورة الأنفال آية رقم ٣٦ — ٣٧.

قال : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

إذن فالحياة باقية مستمرة وما الموت أو القتل إلّا مرحلة من مراحل البشرية الممتدة والتي لا تنقطع.

فمن يَظْلِم هنا يُظْلَم هناك؟؟..

ومن يعمل هنا يجازى هناك.

«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»(١).

«ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً»(٢).

لقد رأى ثعلبة كل ذلك.

رأى المال الذي لا يغني عن صاحبه شيئاً.

رأى الهول الكبير الذي لف صناديد قريش وتمنى كل منهم أن يفدي نفسه بكل ما يملك. ولكن هيهات هيهات.

لقد نسي ثعلبة كل هذه العبر، وذهب الى ماله وقطيعه وغنمه. ذهب إليها يبحث لها عن المرعى ليسمن هزيلها، ويكبر صغيرها — والإسلام لا يمانع في ذلك بل يحرص عليه، ويدعو له، بشرط ألا ينسيه ذلك ربه، أو يجعله يغفل عن عبادة مولاه.

ولكن ثعلبة نسي خالقه فلم يصلِّ صلاة في جماعة.

نسي في غمرة هذا المال المالك القابض، الذي يعطي ويمنع ويغني من يشاء، ويفقر من يريد.

نسي الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان ٧ و ٨.

(٢) سورة الكهف الآية رقم ٤٩.

نسي الذي بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

ثم ماذا؟..

مرت الأيام وكرت الليالي على ثعلبة وثروته تزداد نماء وتملأ من كثرتها الوديان والسهول.

«إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»[1].

وينزل قول الله تعالى:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[2].

فالصدقة تطهير للقلوب من أمراضها.

تطهير للنفوس من أطماعها.

تطهير لهذا البدن أن تمسه نار جهنم.

تطهير للمال أن يدخل فيه ما ليس طيباً أو حلالاً.

وتزكية للمال بالنماء.

وتزكية للمال بالبقاء.

تزكية للمال أن يسرق أو يغار عليه.

قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس — رضي الله عنهما — انطلق أبو لبابة وجماعته من صحابة رسول الله ﷺ وقالوا: «يا رسول الله: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا وطهرنا.

فقال رسول الله ﷺ:

«لا آخذ منها شيئاً حتى أؤمر».

(١) سورة العلق الآية رقم ٦.

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١٠٣.

فأنزل الله تعالى :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾[1] .

وانطلق عمال بيت المال الى هؤلاء الأغنياء ليأخذوا جزءاً من أموالهم ليردوها الى فقرائهم . وبذلك يوجد المجتمع الاسلامي مجتمع الصلاة والزكاة ، والتطهر من الشح والبخل.

مجتمع الزكاة مجتمع لا يعرف الغربة ، مجتمع لا يوجد فيه الغريب أو الدخيل حتى ولو كان من بلاد بعيدة أو من غير هذا الوطن وكيف يكون غريباً والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾[2] .

والزكاة أقرب السبل الى التعارف ، وانجح الوسائل في إشاعة المحبة بين الناس ، وفي تقريب قلوبهم وإلغاء الحدود بين أوطانهم . ومجتمع الزكاة لا يعرف التنازع ولا يرضى التدابر ، ويقضي على مسافات الخلف بين أفراده ، رغبة في وجود المجتمع المتماسك وحفاظاً على كيانه وقوته .

قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾[3] .

وكيف يتنازعون وقلوبهم مليئة بذكر الله؟..

وكيف يختلف المزكون ودستورهم واحد؟..

إن القلوب المتنافرة هي القلوب التي تشح بما لديها .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٣ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٤٦ .

والقلوب المتنازعة هي القلوب التي لا تستجيب لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ.

أما قلوب المؤمنين فهي مطمئنة قال تعالى:

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1].

مجتمع الزكاة مجتمع جاد لا يعرف العبث يقظ لا ينام إلا قليلاً. قال تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾[2].

مجتمع الزكاة نظيف اليد والقلب، طاهر الظاهر والباطن أبعد ما يكون عن أمراض القلب من الحقد والغل والحسد والتجسس والغيبة والنميمة أنس بحب الله تعالى: يقول سبحانه في محكم كتابه: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا﴾[3].

إن رجال مجتمع الزكاة يطهرون أجسادهم بالماء فلا تمرض.

ويطهرون أرواحهم بالصلاة فلا تنحرف قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[4].

ويطهرون أموالهم بالزكاة فلا تنقص قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[5].

من هنا كان مجتمع الزكاة مجتمعاً طاهراً.

مجتمع الزكاة قد تجد فيه الفقير ولكن لا تجد المحتاج، تجد من قتر عليه في الرزق، ولكنك لا تجد المتسول، تجد فيهم الأغنياء ولكن لا تجد فيهم مظاهر الشح

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٢٨.

(٢) سورة الذاريات آية رقم ١٧.

(٣) سورة الأعراف الآية رقم ٤٣.

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥.

(٥) سورة التوبة آية رقم ١٠٣.

والبخل فهم كرماء أوفياء يعالجون مرضاهم بالصدقة ، وينمون أموالهم بالزكاة ، ويكفرون عن ذنوبهم بالإحسان الى مجتمعهم قال تعالى :

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾(١) .

مجتمع الزكاة لا تحيط به النكبات ولا تستذله المصائب فإن حلت به هرع إلى الصلاة وإذا دهمته الخطوب اتجه الى الله ومن يقدر على كشف الضر سواه.

قال تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أأله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾(٢) .

ولقد كان الرسول — ﷺ إذا أحاطت به النكبات يقول « أرحنا بها يا بلال » .

يدعوه الى إقامة الصلاة.

فهنا العز الذي لا ذل معه.

والقوة التي لا ضعف فيها.

والأمن الذي لا يلابسه خوف.

هل وعى ثعلبة هذه المعاني ، وهل استقر مدلولها في عقله؟.. لقد ذهب إليه عامل الزكاة فقال ثعلبة : أرني كتابك فقرأه فقال : ما هذه الا جزية ، ما هذه إلّا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي.

إنه لا رأي في ذلك ولا خيار إنه أمر من الله سبحانه وتعالى.

أيأمر الله ويأبى العبد؟..

أيختار الله ولا يرضى الإنسان الفاني الضعيف؟.

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨.

(٢) سورة النمل الآيتان رقم ٦٢ و٦٣.

قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (١) .

وعلم الرسول ﷺ بما كان من أمر ثعلبة فقال : «يا ويح ثعلبة».

وتصل هذه الكلمة المدوّية إلى أذن ثعلبة فيتملكه الخوف والهلع ، ويأخذ ماله ويتجه به الى الرسول ﷺ ويرفض الرسول أن يأخذ من ثعلبة مالاً .

ويعود نادماً خائباً يأكل الندم قلبه . ولكن هيهات هيهات ويبلغ الكتاب أجله ويعود ثعلبه الى مالك الملك الذي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

لقد ندم ثعلبة ندماً قطّع نياط قلبه

والندم توبة .

والتوبة اسلام جديد يجب ما قبله

قال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٦.

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٧٠.

أسباب نزول هذه الآيات

ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس ، والحسن البصري ، أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث معان بن رفاعة ، بسنده عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أنه قال لرسول الله ﷺ ادع الله أن يرزقني مالاً.

فقال رسول الله ﷺ «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه.

فقال ثعلبة مرة أخرى.

فقال رسول الله ﷺ «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟.. فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت».

قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه.

فقال رسول الله ﷺ «اللهم ارزق ثعلبة مالاً».

قال فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ «ما فعل ثعلبة..؟».

فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة. يا ويح ثعلبة. يا ويح ثعلبة».

وأنزل الله جل ثناؤه ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾[1] الآية. ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ، ورجلاً من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما «مرّا بثعلبة وبفلان — رجل من بني سليم فخذا صدقاتهما».

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذا إلّا جزية ، ما هذا إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا؟.. انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ.

فانطلق الرجلان وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك.

فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي له.

فأخذاها منه ومرّا على الناس فأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلّا جزية ما هذه إلّا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾[2] الآية.

قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال :

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٣.
(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٥.

«ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيكَ كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته.

فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك».

فجعل يحثو على رأسه التراب. فقال له رسول الله ﷺ «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني».

فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً ثم أتى أبا بكر — رضي الله عنه — حين استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها. فلما ولي عمر — رضي الله عنه — أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟!.. فقبض ولم يقبلها. فلما ولي عثمان — رضي الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟!.. فلم يقبلها منه. فهلك ثعلبة في خلافة عثمان — رضي الله عنه[1].

(1) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٧٤ وتفسير القرطبي جـ ٨ ص ٢٠٩ وفتح القدير جـ ٢ ص ٣٨٤، ٣٨٥، وراجع الدر المنثور جـ ٣ ص ٢٦٢ وراجع زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي جـ ٣ ص ٤٧٤ والطبري ١٤ / ٣٧١ — ٣٧٢.

تذييل...

ما هي طبيعة النفس البشريّة؟..

أهي السماحة والكرم وبذل الكثير في سبيل الآخرين؟..

أم هي الكزازة والشح والبخل والضن بما يملكه الإنسان، حتى ولو لأقرب المقربين إليه والعاملين معه؟...

إن الإنسان ــ والحق يقال ــ يعجز عن أن يضع ميزاناً للنفس البشرية يزن به أعمالها وتصرفاتها. والمستعرض لحياة الناس، والدارس لجبلتهم، والراصد لحياتهم يرى عجباً يرى الإنسان الكريم الذي يقدم كل ما يملك في سبيل إسعاد الآخرين، أو في سبيل هدف كريم، أو مبدإ نبيل.

فالأنصار كان لهم موقف كريم من إخوانهم المهاجرين قدموا المأوى، وقدموا المال وقدموا النفس رخيصة في سبيل الله قال تعالى في وصفهم:

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1]. وأبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ بذل الكثير من ماله في مساعدة المحتاجين، وفي تحريرهم من أسر الرق، وعندما أحس أن المشركين يقفون

(١) سورة الحشر آية رقم ٩.

في سبيل الدعوة والحيلولة بينها وبين الانتشار، قدم كل ماله في سبيل الله ولم يترك شيئاً لأهله وولده، وعندما سأله الرسول ﷺ ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر؟..

قال له الرجل الذي ملأ الايمان كل ذرة من ذرات جسمه، وحرَّك كل خالجة من خلجات فؤاده: تركت لهم الله ورسوله.

وقصص البذل والكرم كثيرة متعددة، وبجوار ذلك نجد النفس التي تبخل بما لديها وتضن به في سبيل الآخرين.

ولقد عرف اللطيف الخبير ما في النفس البشرية من الشح والكظاظة فأخبر في كتابه الكريم: أن الحسنة بعشرة أمثالها، وتضاعف الى سبعين ضعفاً. وأن المال الذي يقدم في سبيل الله أو لمساعدة الآخرين: هو قرض يقدم لله تعالى قرض يقدم للخالق الرازق الذي يعطي ويمنع قال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾[1].

وليس هذا فحسب. ولكن الله تعالى يمثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بالزرع الذي ينمو ويزداد ويتضاعف لصاحبه الى ما لا نهاية. قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبةٍ والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾[2].

ومع ذلك وجد في المجتمعات في كل عصر ومصر — هؤلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، وتقسو قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وكم في المجتمعات الاسلامية أمثال ثعلبة بن حاطب؟.. يكون فقيراً معدماً لا يجد قوت يومه. ثم يوسع الله عليه الخير، ويرزقه من حيث لا يحتسب ويبارك له فيه فإذا هو صاحب ثروة، وصاحب مال وفير، عندها ينسى أيامه الأولى التي كان فيها

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٦١.

فقيراً معدماً، ينسى الجائع والمسكين والمحروم، ينسى مجتمعه الذي هيأ له سبيل الاثراء فلا يتبرع له بمال ولا ينبض قلبه أمامهم بشفقة أو رحمة.

إن المال الذي يعطيه الله لعباده فيه حق معلوم للجائع والمحروم، وهذا المال عارية مستردة إلى الذي وهبها. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[1].

ولكن هيهات هيهات أن يستجيب هؤلاء لكن البخل يعمي ويصم، وعقاب الله رادع في هؤلاء فيذهب بما يملكون، عندها يندمون ولا ينفع الندم قال تعالى:

﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم، فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين، فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾[2].

لقد كان للمساكين حظ من ثمر هذه الحديقة أيام صاحبها الطيب الصالح، ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها، وأن يحرموا المساكين حظهم، فقرروا أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين وأقسموا على هذا، وعقدوا النية عليه، وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه ولكن الله لا ينام كما ينامون، وهو يدبر لهم ما يدبرون جزاء على ما بيتوا من بطر النعمة ومنع الخير، وبخل بنصيب المساكين المعلوم. ثم ماذا؟..

كان العقاب. وكان الجزاء.

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ».

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٧.

(٢) سورة القلم الآيات ١٧ — ٢٩.

سُهَيل بن عَمرو

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ
يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾



[سورة آل عمران آية ١٢٨ - ١٢٩]

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال بعض العلماء والمفسرين ورجال الحديث نزلت هذه الآية في جماعة من قريش منهم سهيل بن عمرو.

قاله الإمام الواحدي في أسباب النزول ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨.

وقاله صاحب الدر المنثور ٢ : ٧١ قال أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر وذكره.

فمن هو سهيل بن عمرو؟..

سهيل بن عمرو

هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس.

من العمالقة الصيد في الجاهلية.

ومن أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين في صدر الاسلام ، حارب الاسلام بيده ولسانه ، ووقف في كثير من المواقف صلباً متشدداً لا يلين.

نشأ بجوار الكعبة ينحر بيده الذبائح لأصنامها ويستقبل الحجيج إليها وهم يأتون زرافات ووحدانا.

يقدمون لأصنامها كل ما كبر من مواشيهم وكل ما نضج من ثمارهم وتمتلئ خزائن سهيل وتفيض دوره بالخير العميم ، فيرسلها في رحلة الشتاء والصيف تجارة رابحة لتعود إليه بالذهب والأموال وأحس أن في تلك الأصنام سبباً مباشراً لما يعود إليهم.

فبهذه الأصنام دانت لهم العرب لأنهم سدنتها.

وعن طريق الأصنام عاشوا في بحبوحة من الخير الوفير.

وسهيل هذا والد أبي جندل الذي لحق بأبي بصير الثقفي وكان معه في سبعين رجلاً من المسلمين يقطعون الطريق على من مرَّ بهم من عير قريش وتجارهم فكتبوا فيهم الى رسول الله ﷺ أن يضمهم إليه فضمهم وقال أبو جندل وهو مع أبي بصير.

أبلغ قريشاً من أبي جندل
أني بذي المروة بالساحل
في معشر تخفق أيمانهم
بالبيض فيها والقنا الذابل
يأبون أن تبقى لهم رُفقة
من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجاً
والحق لا يغلب بالباطل

ووالد عبد الله بن سهيل الذي هاجر الى أرض الحبشة الهجرة الثانية وخرج مع المشركين في غزوة بدر وهرب إلى رسول الله ﷺ مسلماً وشهد معه بدراً والمشاهد كلها، وكان من فضلاء الصحابة، وهو أحد الشهود في صلح الحديبية، وهو الذي أخذ الأمان لأبيه يوم الفتح.

واستشهد عبد الله بن سهيل يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة.

وسهيل هذا عرفه التاريخ عندما وقف مع أهل قريش يستمعون إلى الرسول ﷺ وهو ينادي عليهم أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي؟..

قالوا: نعم.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

عندها جلس سهيل مع شيوخ قريش يتشاورون في أمر محمد، الذي جاء بدين جديد لا يعرفه الآباء ولا الأجداد.

جاء يدعوهم بنبذ عبادة الأصنام والأوثان وإخلاص العبادة لله وحده.

إنها الطامة الكبرى التي تنزل عليهم فتذهب بسلطانهم وتقضي على صولجانهم وتحرمهم الربح الذي يأخذون.

فلتقف قريش في وجه محمد ولتشهر في وجهه كل الأسلحة التي تقدر عليها، وتحول بينه وبين الاتصال بقبائل العرب، ولتلصق به كل أمر معيب تقدر عليه.

فهو الكاهن الذي يستعمل رجز الكهان.

وهو الشاعر الذي يهذي بشعره.

وهو الساحر الذي يفرق بين المرء وزوجه وبين الأخ وأخيه. ولقد شارك سهيل في كثير من الحرب الباردة التي شنتها قريش على الرسول ﷺ وعلى أتباعه وأنصار دينه. وعندما فشلت الحرب الباردة وقررت قريش أن تعلن الحرب على محمد وصحبه كان سهيل بن عمرو في طليعة الداعين إليها والمستنفرين لرجالها والمشاركين في أتونها في غزوة بدر ويسأل الرسول ﷺ عندما علم بخروج قريش لحربه من فيهم من أشراف قريش؟.. قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة.

وأبو البختري بن هشام.

وحكيم بن حزام.

والحرث بن عامر.

وطعيمة بن عدي.

والنضر بن الحارث.

وزمعة بن الأسود.

وسهيل بن عمرو.

وأبو جهل بن هشام.

وأمية بن خلف.

وعمر بن عبد ود.

فأقبل الرسول ﷺ على أصحابه وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها».

ثم استشار أصحابه. فقال أبو بكر فأحسن، ثم قال عمر فأحسن ثم قام المقداد ابن عمرو فقال يا رسول الله: امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون).

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد — يعني مدينة الحبشة — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فدعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا عليَّ أيها الناس؟ فقال له سعد بن معاذ لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل.

قال: قد آمنا بك وصدقناك، وأعطيناك عهودنا فامض يا رسول الله لما أمرت به فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله».

فسار الرسول ﷺ والتقى الجمعان وتساقط القتلى من قريش ووقع الكثير من الأسرى ومنهم سهيل بن عمرو أسره مالك بن الدخشم الأنصاري.

وقال في ذلك:

أسرت سهيلاً فما ابتغى
أسيراً به من جميع الأمم
وخندف تعلم أن الفتى
سهيلاً فتاها إذا تُصطلَم

ضربت بذي الشفر حتى انثنى
وأكرهت سيفي على ذي العلم

فلما أتى به النبي ﷺ قال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يا رسول الله : دعني أنزع ثنيتيه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً؟؟.. وكان سهيل مشقوق الشفة العليا.

فقال رسول الله ﷺ دعه يا عمر، فسيقوم مقاماً تحمده عليه. وتم فداء سهيل وعاد الى مكة وتمر الأيام وتكرّ الليالي ولا يظهر صوت لسهيل طوال المعارك التي دارت بين المسلمين وجماعة قريش أراجع نفسه وفكر في معبوده الذي لا ينفع ولا يضر؟..

هل دخل الإسلام قلبه ولكنه لم يعلنه؟..

أيكون لما رآه في غزوة بدر من انتصار القلة على الكثرة أثر في ذلك. أم أن الهزيمة التي منيت بها قريش ووقوعه في الأسر عامل أساسي في تلك الانعزالية؟.

لقد رأى سهيل في غزوة بدر آيات بينات وشاهد معجزات وخوارق للعادات أتكون هي التي باعدت بينه وبين الفريقين؟ حتى تظهر أمامه الأمور وتستبين الحقائق.

يقول سهيل بن عمرو : «لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقتلون ويأسرون».

ويؤكد ذلك أبو أسيد الساعدي فيقول بعد أن ذهب بصره : لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أمتري.

وإذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يعلن سهيل إسلامه — وهو صاحب عقل وشرف كما أخبر الرسول ﷺ ؟

لماذا لم يعلن إسلامه وقد فعلها ابناه عبد الله وأبو جندل؟..

أكان للعصبية القرشية دخل في ذلك؟..

أكان الخوف على الجاه والسلطان عاملاً في تأخير دخوله في الاسلام؟..

إن هذه التساؤلات الكثيرة يكشف عنها موقف سهيل في صلح الحديبية.

موقف سهيل من صلح الحديبية..

روى الإمام البخاري قال: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

فلما كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا لملاقاتك ويعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً.

فقال رسول الله ﷺ:

«يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا. وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.

ثم قال: لا تدعوني قريش اليوم الى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إياها.

وتتابعت الرسل بين الرسول ﷺ وبين قريش. وهو يوضح لها أنه ما جاء لقتال وإنما جاء معظماً لهذا البيت. ولكن قريشاً كانت تشكك في كل رسول ترسله فتقدم اليهم عروة بن مسعود فقال:

«أي القوم ألست بالوالد؟..

قالوا: بلى.

قال: أولستم بالولد؟..

قالوا: بلى.

قال : فهل تتهموني؟..

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ؟ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟..

قالوا : بلى.

قال : فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه.

فقالوا : ائته.

فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ ويرمق أصحابه ـــ فقال الرسول ﷺ إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلّا فقد جموا.

وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن أمر الله ».

فرجع عروة الى أصحابه فقال :

« أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ، وفدت على قيصر ، وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً. والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

وتوالت الرسل بعد عروة بن مسعود وكلهم يخبر قريش أن المسلمين جاءوا معتمرين لا مقاتلين.

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى الى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى أبا بكر فقال يا أبا بكر : أليس برسول الله؟

قال : بلى.

قال : أولسنا بالمسلمين؟

قال : بلى.

قال : أوليسوا بالمشركين؟

قال : بلى.

قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا.

قال : أبو بكر يا عمر الزم غرزه فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ.

فقال : يا رسول الله ألست برسول الله؟..

قال : بلى.

قال : أولسنا بالمسلمين؟..

قال : بلى.

قال : أوليسوا بالمشركين؟..

قال : بلى.

قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا؟..

قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني..

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم.

فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال :اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو.

قال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم ابيك.

فقال رسول الله ﷺ اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

«اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.

ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

قال : فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت الى رسول الله ﷺ.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بثوبه يجره ليرده إلى قريش.

وجعل ابو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين: أرد الى المشركين يفتنونني في ديني؟؟؟..

فقال رسول الله ﷺ يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنّا لا نغدر بهم.

وصدق رسول الله ﷺ فيما قاله لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أنه عبد الله ورسوله. ولن يضيعه.

وصدق فيما قاله لأبي جندل: اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

لأنه ما كادت تمر فترة وجيزة على كلام الرسول ﷺ حتى كان أبو جندل حراً طليقاً يقطع طريق القوافل على قريش.

إن أبا جندل وجماعته حاصروا قريشاً اقتصادياً، وحاصروها سياسياً وأجبروها أن تلغي بعض شروطها مع الرسول ﷺ وتطلب منه أن من خرج منها مسلماً لا يرده إليها — بل وترجوه أن يضم أبا جندل وجماعته حتى لا تهلك جوعاً.

إن هذا الصلح الذي أغضب عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وكثيراً من المسلمين — ورضيه رسول الله ﷺ يدل دلالة واضحة على صدق الرسالة وصدق الرسول وأنه لا ينطق على الهوى عندما قال: أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني».

نعم لم يضيعه ربه بل أكرمه ونصره.

لأن هذا الصلح جعل قريش تكف يدها وتمنع أذاها عن الداخلين في الإسلام، وبمجرد أن فعلت قريش ذلك: دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في الأصقاع والبقاع. وفوجئت قريش بعد فترة وجيزة من الصلح بعشرة آلاف فارس من أبطال المسلمين بقيادة الرسول ﷺ يدكون معاقلها ويجندلون فرسانها

ويدخلون الكعبة ليطهروا أرجاءها من الأصنام والأوثان. ويجلجل صوت هؤلاء الفرسان ــ خلف الرسول ﷺ وهم يحطمون الأصنام ويطهرون بيت الله الحرام من هذا الركام المتعفن.

لا إله إلّا الله وحده

صدق وعده

ونصر عبده

وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده

وفي بيت الله أول بيت وضع للناس، أحاط المسلمون بقائدهم تحفهم السكينة، ويعلوهم الوقار ويرهفون آذانهم الى نداء علوي يدوي في الكون كله ويملأ الآفاق بقول الله تعالى:

﴿ محمد رسول الله ــ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾.

أين سهيل بن عمرو والأصنام تزال والمعاقل تتلاشى؟..

أين قوة سهيل وقوة أتباعه أمام جحافل المسلمين؟

أين هم وأين شياطينهم الذين أغروا بهم؟..

لقد دخلوا الى بيوتهم مهرولين ــ أمام جيش الله ــ يملأ الرعب قلوبهم ويأخذ الهلع بتلابيبهم وهم يفرون إلى مخابئهم كما تفر الجرذان إلى جحورها.

ويرى عبد الله بن سهيل البطل المسلم ــ والده سهيل يتوارى من القوم، وكأن

الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت وتمنى أن تبتلعه فجاجها خوفاً من العمالقة الصيد الذين آمنوا بالواحد الأحد، وصدقوا بمحمد ﷺ.

وتأخذه الشفقة على هذا الوالد، ويتذكر قول الله تعالى:

﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾(١).

فيتقدم الى رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله أبي تؤمنه؟..

فقال رسول الله ﷺ نعم هو آمن بأمان الله فليظهر ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من رأى سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف. وتمر الأيام وتكر الليالي، حتى كان يوم ليس كمثله يوم يصل الخبر إلى مكة بوفاة الرسول ﷺ.

وتضطرب النفوس، وتذهب بعض العقول، ويقف الشيطان موقفه يطالب هؤلاء المسلمين مسلمة الفتح الذين دخلوا في دين الله وأعلنوا إسلامهم رهبة لا رغبة، يطالبهم بالارتداد والعودة الى أصنامهم، ونبذ ما جاء به محمد، وشن الحرب الضروس على أتباعه وأوشكت الفتنة أن تعم أرجاء مكة.

وكاد الكثير من أهلها أن يرتد.

هنا يقف سهيل بن عمرو الموقف الذي أخبر به الرسول ﷺ ويحمده عليه عمر ابن الخطاب وجماعة المسلمين. لقد قام سهيل على باب الكعبة وصاح بالناس فاجتمعوا إليه فقال: يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد. والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ فلقد رأيته قائماً مقامي هذا وحده وهو يقول:

« قولوا معي لا إله إلّا الله تدين لكم العرب، وتؤدّي إليكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله».

فكنا بين مستهزىء ومصدق. فكان ما رأيتم.

---

(١) سورة لقمان آية رقم ١٥.

والله ليكونن الباقي.

فامتنع الناس عن الردة.

وعاش سهيل بعد ذلك للإسلام بقلبه وبلسانه وسيفه يقنع بلسانه هؤلاء الذين يتبعون خطوات الشيطان، ويحاول بمنطقه السديد ولسانه القوي أن يأخذهم الى جادة الصواب ويردهم الى مرفإ الايمان.

ثم ماذا دانت الجزيرة العربية بالاسلام ورددت أرجاؤها كلمة الله أكبر وأصبح للمسلمين جيش قوي كل فرد من أفراده يبغي الشهادة ويرجوها من الله أو يتحقق نصر الله بنشر هذا الدين في أركان الأرض الأربعة. وعلم سهيل بن عمرو أن خليفة المسلمين أبا بكر الصديق يوجه الجنود الى فتح الشام وهم يعدون العدة لذلك. ويدور بخلده حديث الرسول ﷺ عندما سأله أحد الصحابة، دلني يا رسول الله على عمل يعدل الجهاد؟..

ورد عليه الرسول ﷺ بقوله: أتستطيع أن تصلي فلا تفتر وتصوم فلا تفطر؟..

ومن يطيق ذلك يا رسول الله؟..

إذن ليس هناك ما يعدل الجهاد. وليس هناك ما يعدل الشهادة وقرر سهيل أن يرافق الجيش المتجه الى ربوع الشام وأعد زاده وفرسه وجهز رمحه وسيفه وجلس مع جماعة الجنود يستمعون إلى خليفة المسلمين وهو يوصي قائد جنده يزيد بن أبي سفيان بقوله:

« أحسن الى جندك وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، واصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها وإذا قدم عليك رسل فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك، ويعلموا علمك وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة الخ...

وعلى البطحاء المنبسطة على أرض الشام كانت له صولاته وجولاته وكان نعم

المقاتل بسيفه ونعم الناصح لقائده بلسانه واستمر على ذلك حتى كانت النهاية وبلغ الكتاب أهله فمات على فراشه شهيداً بطاعون عمواس الذي كان منتشراً في ذلك الوقت.

رحمه الله رحمة واسعة بمقدار ما قدم من خير للإسلام والمسلمين.

أسباب نزول الآيات

قال الإمام الواحدي: أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد التميمي، أخبرنا عبد الله ابن محمد بن جعفر، حدثنا عبد الرحمن بن محمد الرازي، حدثنا سهيل بن عثمان العسكري، حدثنا عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال:

كسرت رباعية رسول الله ﷺ يوم أحد ودمي وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ويقول:

«كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم؟.. قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الغازي، أخبرنا أبو عمرو بن حمدان أخبرنا أحمد ابن علي بن المثنى، حدثنا اسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا معمر عن الزهري، عن سالم عن أبيه قال:

لعن رسول الله ﷺ في صلاة الصبح فلاناً وفلاناً ناساً من المنافقين فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾.

رواه البخاري عن حيان عن ابن المبارك عن معمر[1] ، ورواه مسلم من طريق ثابت عن أنس[2] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن ابراهيم الفارسي ، أخبرنا محمد بن عيسى بن عمرويه أخبرنا ابراهيم بن محمد ، أخبرنا مسلم بن الحجاج حدثنا القعنبي حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس :

أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه ، وجعل الدم يسيل عنه ، ويقول : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى ربهم فأنزل الله عز وجل :

﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ .

أخبرنا أبو اسحاق الثعالبي ، أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان ، أخبرنا أبو حامد ابن الشرقي ، حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه :

أنه سمع رسول الله ﷺ قال في صلاة الفجر حين رفع رأسه من الركوع : ربنا لك الحمد ، اللهم العن فلاناً وفلاناً دعا على ناس من المنافقين فأنزل الله عز وجل :

﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ رواه البخاري من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب وسياقه أحسن من هذا.

أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال حدثنا بحر بن نصر قال : قرىء على ابن وهب أخبرك يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال : أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أنهما سمعا أبا هريرة يقول :

---

(١) صحيح البخاري ٥ : ٩٩، ٦ : ٣٨، ٩ : ١٠٦.

(٢) صحيح مسلم ٢ : ١٣٨.

كان رسول الله ﷺ حين يفرغ في صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه يقول : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ثم يقول وهو قائم : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصبة عصت الله ورسوله . ثم نزل قول الله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ فترك ذلك . رواه البخاري عن موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد عن الزهري . وقال السيوطي في الدر المنثور ٢ : ٧١ أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد : اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ .

للذيل ...

«إنه ذو عقل وشرف» هكذا قال الرسول ﷺ يصف سهيل بن عمرو.

والعقل في الاسلام مناط التكليف، ولقد احتفل الاسلام احتفالاً كبيراً بالعقل. وذكره في كثير من سوره والذين يستعملون عقولهم هم الذين يحظون بخطاب الله تعالى لأنهم يتفكرون ويتدبرون في خلقه قال تعالى:

﴿ إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾.

وقال تعالى أيضاً في سورة الروم: ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون، وله من في السموات والأرض كل له قانون، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم. ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾.

وهذا الخطاب المتكرر إلى العقل في القرآن الكريم هو خطاب الى اللب. قال

تعالى : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربنا وما يذكر إلّا أولو الألباب ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾.

وقال تعالى : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾.

ومن هذه الآيات نتبين أن اللب الذي يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء الذين لهم نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقل الذي يكف صاحبه عن السوء.

والذي ينبغي أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضاً ولا تردد فيه كثيراً من قبيل التكرار المعاد ، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنهه الإنسان في تقديره.

والاسلام دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ، ولا يفرض على الإنسان قرباناً يسعى به الى المحراب بشفاعة من ولي متسلط ، أو صاحب قداسة مطاعة ، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده. لهذا ما كاد سهيل يدخل في هذا الدين ، حتى اكتشف عن طريق عقله أنه الدين الحق الذي جاء من عند خالق الأرض والسماء. وآمن سهيل أن ما كان يعبده وقومه هو الضلال بعينه ، لأن الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا يستطيع حجر من الحجر أو شجر ، أو جن ، أو ملاك ، أو أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى أن يقدم نفعاً أو ضراً للإنسان ولهذا كان قول الرسول ﷺ لابن مسعود :

« احفظ الله يحفظك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن أهل الأرض جميعاً لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما كتبه الله لك ما

استطاعوا أن ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما استطاعوا أن يضروك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وما أحرى المسلمين في عالمنا المعاصر أن يتخلصوا من طواغيت الإنس والجن ، وألا يرجوا النفع والضر إلّا من خالق النفع والضر ، لأنهم إذا فعلوا ذلك صلحت دنياهم وخلصت العبادة لله تعالى :

فمتى يفعل المسلمون ذلك؟..

متى يا رب؟..

سَعْد بن الرَّبيع

رَضِيَ اللهُ عَنه

عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع أنها دخلت على أبي بكر الصديق، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه.

فدخل عليه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فقال:

«يا خليفة رسول الله ﷺ من هذه؟..

قال: هذه بنت من هو خير مني ومنك.

قال: ومن خير مني ومنك إلا رسول الله ﷺ...

قال أبو بكر: رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ تبوأ مقعده في الجنة وبقيت أنا وأنت.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾

إلى قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾



[سورة النساء آية ١١ ، ١٢]

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

ذكر جماعة من المفسرين والعلماء أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة منهم سعد بن الربيع.

ذكر ذلك الإمام أحمد وأبو داود في المسند ٣: ١٦٦.

وقاله الإمام الترمذي وحسنه ٢ : ٣٠.

وقاله ابن ماجه في سننه ٢: ٩٠٨.

وصححه الحاكم من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر وقاله الإمام الواحدي في أسباب النزول ١٣٩.

فمن هو سعد بن الربيع؟..

سعد بن الربيع

رضي الله عنه

سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري.

من العمالقة الصيد الذين علموا الدنيا أن الجهاد عبادة والقتل في سبيل الله شهادة.

من الأنصار الأبطال الذين آووا ونصروا، آووا المهاجرين ونصروا دين الله وقدموا أرواحهم رخيصة في سبيله.

من هؤلاء الذين رغبوا في الجنة فعملوا لها. وخافوا ربهم فسهروا ليلهم وقاموا نهارهم.

ولد على أرض يثرب المباركة، وعلى ثراها ترعرعت طفولته وبين سهولها ووديانها نمت رجولته واكتمل شبابه.

وما كاد يخط شاربه ويصلب عوده حتى أخذ والده يدربه على ركوب الخيل، والوثب على ظهورها، واستعمال الرمح والسهم في صيد الطيور المحلقة، واقتناص الحيوانات البرية، التي تملأ صحراء العرب وكهوفها.

ولقد كان يخرج مبكراً كل يوم ليستمتع ببزوغ أشعة الشمس الزاحفة على فلول ظلمة الليل المنهزمة، وأمامه إبله ومواشيه يختار لها أماكن الرعي ومواطن الكلأ.

فإذا وصلت إلى مبتغاها وأخذت تلتهم طعامها ، انشغل عنها بصيده وقنصه ، ليعود في آخر يومه ، ومعه طعامه من طيور اقتنصها ، أو أرانب برية ، أصابها بسهمه أو رمحه.

فإذا أقبل الليل اجتمع مع رفاقه من رجال يثرب في منتداهم يتطارحون الأشعار ، ويتبادلون الأخبار ويتسمعون الى السمار والقصاص وهم يرددون أخبار الغابرين وأهازيج العاشقين. فإذا ذهب الهزيع الأول من الليل ولف الكون بردائه وأطبق عليه بظلامه عاد الى بيته وفي رأسه تساؤلات عجيبة وأفكار غريبة لا يستطيع الافصاح عنها أو التكلم بها ، ولكنه كان دائماً يرددها بينه وبين نفسه.

من الذي صنع هذا الكون الذي يمتد أمام بصره ولا يصل الى مداه؟..

من الذي زرع هذه الكواكب والنجوم وبثها على صفحة السماء والتي تسير في نظام ويسر؟..

من كور السماء على الأرض؟..

من الذي يخرج النبات المختلف الأشكال والألوان من باطن هذه التربة؟..

كيف يتكون الطفل في بطن أمه؟..

من الذي يفتح عينيه ويشق له شفتيه ، ويصنعه في أجمل صورة ، من يفعل ذلك كله؟..

أتفعل ذلك آلهة اليهود التي تأكل وتشرب وتتشكل وتتجسد وتلعب مع الحيتان في أعماق البحار؟..

أتفعلها آلهة النصارى الثلاثة التي تتشاحن وتتخالف ويسخر بعضها من بعض؟..

أم أن الذي يقوم بتلك المهمة هي أصنام قريش أصنامها الكبيرة كهبل ، واللّات ، ومناة؟..

وأصنامها الصغيرة التي تنحت بأيدي الرجال وتنتشر في أركان الكعبة ، وهي لا تنطق ولا تبين؟.

أتفعل الأصنام كل ذلك؟..

أتقوم هي بعملية الخلق والابداع؟..

أتستطيع هذه الأصنام أن تقدم لسدنتها أنواع الطعام والشراب؟ أتملك أن تخفف عنهم قيظ الصيف وقر الشتاء؟..

أتسمع هذه الأصنام شكاية المريض ، وتوجع اللهفان؟..

أتستطيع أن تخفف أمراضهم وتزيل آلامهم؟..

وينتفض سعد انتفاضة من به مس ويرتفع صوته قائلاً : لا.. لا.. لن ألغي عقلي.

إن تلك الحجارة التي تملأ جنبات الكعبة لا تنفع ولا تضر، لا تسمن ولا تغني من جوع.

تباً لها من بلهاء عاجزة.

وويل لهؤلاء الذين يعبدونها ويخصونها من دون الحجارة بالتقديس والتبجيل؟..

ويستمر سعد في أفكاره تلك كلما آوى الى فراشه ، أو لفه صمت أو مكان ويسبح مع خيالاتها التي لا تقف به عند حد ولا تهتدي إلى مرفإ أو مكان.

حتى كان يوم وصل إلى سمعه وهو يتجول في سوق يثرب همساً لا يبين وحركة لا تتوقف وبريقاً يملأ عيون بعض الرجال وإبلاً تعد وقافلة تهيء نفسها للرحيل.

ولمح بين هؤلاء الرجال صديقه ورفيق صباه عبادة بن الصامت وتصافحا وتعانقا ثم قال سعد :

كأنكم تريدون الإظعان يا عبادة.

نعم يا سعد وجهتنا بيت الله الحرام.

ولكنكم كثر وعادتنا ألا يخرج لهذا البيت إلا الواحد بعد الواحد ليطوف ويقدم لأصنامها ما يريد.

لا يا سعد ليست الأصنام وجهتنا وليست الكعبة مطلبنا ولكننا وماتت الكلمات على شفتي عبادة فلم تبن.

ماذا بك يا عبادة كأنك تخفي عني شيئاً لا تريد البوح به؟.. ما قصدت ذلك يا سعد ولكن رحلتنا هذه اعدت لمقابلة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟..

من محمد هذا يا عبادة؟..

إنه رسول الله الى عباده ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الإيمان ومن عبادة الأصنام الى عبادة الرحمن.

أيستطيع الرسول هذا أن يدلني على خالق الأرض والسماء وموجد الإحياء والاماتة؟..

نعم يا سعد انه يوحي إليه من ربه وينزل عليه قرآناً وما كاد سعد يسمع هذه الكلمات حتى انفلت مسرعاً الى بيته ليعد راحلته وزاده ويرافق هذه القافلة الى وجهتها الميمونة. يقول سعد بن الربيع : وسارت المطي بنا تطوي البيد وتقطع الفيافي والقفار وكأنها الأخرى بها شوق ولهفة الى رؤية رسول البشرية الذي جاءها على فترة من الرسل، ليحطم الأصنام، ويجندل البهتان، ويجعل العبادة خالصة لله تعالى :

وطويت الأرض تحت أقدامنا وظهرت لنا مشارف مكة — وفي مكان يسمى العقبة انخنا المطي وكلنا لهفة وشوق الى رؤية الرسول الكريم، ولم يطل بنا الانتظار حتى جاء ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب جاء ليستوثق لابن أخيه. وكان العباس أول من تكلم فقال :

«يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم في عزّ ومنعة وأنه قد أبى إلّا

الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم تفون بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم وذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة».

فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت».

«فتكلم الرسول ﷺ وتلا القرآن ورغب في الاسلام ثم قال:

«تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

ثم أخذ البراء بن معرور بيده ثم قال:

«والذي بعثك بالحق لتمنعنك مما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب».

فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان فقال:

«يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها يعني اليهود فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع الى قومك وتدعنا؟..

فتبسم رسول الله ﷺ وقال:

«بل الدم الدم والهدم والهدم، وأنتم مني وأنا منكم أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم».

ثم قال الرسول ﷺ اخرجو إليَّ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم».

فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقال لهم العباس بن عبادة بن نضلة الانصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟..

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتوه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله؟..

قال : الجنة.

قالوا : ابسط يدك نبايعك. فبايعوه جميعاً.

يقول سعد بن الربيع : وبايعت رسول الله ﷺ ونطقت بكلمة التوحيد (لا إله إلّا الله محمد رسول الله).

وكلمة التوحيد هذه التي نطق بها سعد تتضمن رفضاً وإثباتاً رفض لكل الانحرافات التي تردت فيها البشرية في تاريخها الطويل، وإثبات بأن الله واحد لا شريك له : الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد. وشهادة بأن محمد ﷺ رسول الله تصديق ومتابعة للرسول واقتداء به في كل ما يأتي وما يدع.

لا بد من الاقتداء به سلوكاً.

والاقتداء به قولاً.

والاقتداء به متابعة.

إن الإقرار بالشهادتين يدخل صاحبها في ساحة الاسلام والاسلام ليس قولاً باللسان فقط.

ولكنه قول، وتصديق، وعمل.

إن كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا بدّ أن ينطق بها اللسان ويصدق بها القلب وتلتزم بها الجوارح.

إن من يقر بأن الله واحد، لا يعرف معبوداً سواه، ولا يخضع لأحد غيره، ولا يرجو النفع من مخلوق أياً كان هذا المخلوق ملك أو رسول أو بشر.

فمن يساير أهواءه وتغلبه شهواته فهو بعيد عن جو لا إله إلّا الله.

يقول الله تعالى :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾(١) .

والذي يخضع لغيره ويذل نفسه في سبيل نفع يناله ، أو خير يأخذه ، هو بعيد عن جو لا إله إلا الله.

لأن المؤمن عزيز فلا يذل.

يقول الله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(٢) .

والمؤمن مطمئن الى عدل الله فلا يخاف.

يقول الله تعالى : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٣) .

والمؤمن قوي فلا يضعف. يقول الله تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾(٤) .

إنهم الرجال الذين تربوا في مدرسة الاسلام ، فكانوا كالصواعق المدمرة التي نزلت على رأس الكفر.

ورحماء بينهم عاشوا إخوة متحابين ، نزع الله من قلوبهم الحقد والغل والحسد ، وحرب على من عاداهم ، يسعى بذمتهم أدناهم تتكافأ دماءهم.

آمنوا أن النفع والضر ، والاعطاء والمنع للواحد الأحد الفرد الصمد. قال تعالى :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾(٥) .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة المنافقون آية رقم ٨.
(٣) سورة الأنعام آية رقم ٨٢.
(٤) سورة الفتح آية رقم ٢٩.
(٥) سورة آل عمران آية رقم ٢٦.

والعمل في جو لا إله إلّا الله عبادة أياً كان هذا العمل ما دام المقصود به في النهاية هو وجه الله.

وقد عد القرآن الضرب في فجاج الأرض والكشف عن كنوزها والبحث عن الرزق وتعمير الكون ودراسة أسرار الفضاء كل هذه الأشياء عدل العبادة وقيام الليل.

قال تعالى: ﴿ والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسّر منه ﴾.

كل هذه المعاني راودت سعد بن الربيع وهو في طريق العودة الى يثرب. لقد أصبح إنساناً جديداً.

إنساناً دخل مدرسة التوحيد فآمن بالواحد الأحد.

وتربّى في مدرسة النبوة فانضبط سلوكه واستيقظ ضميره وأصبح ربانيًّا في كل ما يأتي وما يدع.

ولما جاءت غزوة بدر كان سعد بن الربيع أحد فرسانها الأبطال ورجالها الأقوياء وقد وقف مع سعد بن معاذ على باب العريش لحراسة رسول الله ﷺ وشاهده وهو يرفع أكف الضراعة الى ربه قائلاً:

« اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الأرض، اللهم انجز ما وعدتني».

ثم خرج من عريشه وهو قول: « سيهزم الجمع ويولون الدبر» وحرض المسلمين على القتال وقال:

« والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله الله الجنة».

فهم سعد بن الربيع أن يترك عريش رسول الله ﷺ وينخرط في سلك المقاتلين.

ولكن الرسول ﷺ قال له : ليس الآن يا سعد. فامتثل الى أمر الرسول ﷺ.

وشاهد سعد : عمير بن الحمام الأنصاري وبيده تمرات يأكلهن وهو يقول : بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلّا أن يقتلني هؤلاء؟؟.

ثم القى التمرات من يده وقاتل حتى قتل.

ورأى سعد معاذاً بن عمرو بن الجموح عندما شاهد المسلمين لا يصلون الى أبي جهل فجعله معاذ من شأنه حتى أمكنه الله منه فضربه ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه، ثم اشترك معه معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق ثم مر به ابن مسعود فقضى عليه.

رأى سعد وهو واقف على عريش رسول الله ﷺ أبطال المسلمين وهم يقتلون ويأسرون زعماء قريش وفرسانها رأى النصر الباهر والفوز العظيم فسجد شاكراً لله. وتابع ركب الرسول ﷺ الى المدينة.

ثم ماذا؟..

تكر الأيام وتتوالى الليالي وتعمل قريش لغزوة أخرى تقتص فيها من قتلاها يوم بدر وتخرج بأحباشها ورجالها لملاقاة المسلمين.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ قال :

«إني رأيت بقراً، فأولتها خيراً.

ورأيت في ذباب سيفي ثلماً».

ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة».

فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

فأشاروا عليه بالخروج. فخرج في ألف رجل واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم فلما كان بين المدينة وأُحد عاد عبد الله بن أبي بثلث الناس.

ووصل الرسول ﷺ الى مكان المعركة فاستقبل المدينة وجعل أحداً خلف ظهره.

وجعل وراءه الرماة وهم خمسون رجلاً وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال له «انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا واثبت مكانك لا نؤتين من قبلك».

والتقى الجيشان واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأنزل الله نصره على المسلمين وكانت الهزيمة على المشركين.

ونزل الرماة من على الجبل يريدون الغنيمة فاهتبلها خالد بن الوليد وحمل على المسلمين من خلفهم فكانت الهزيمة ووقع الهرج والمرج في الصف واستولى الاضطراب والذعر لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد، وكثر القتل واستشهد من المسلمين من كتب الله له الشهادة.

وافتقد الرسول ﷺ سعد بن الربيع؟؟..

فقال: من يأتني بخبر سعد.. فإني قد رأيت الأسنة قد أشرعت إليه؟..

فقال ابي بن كعب: أنا يا رسول الله.

فذهب يطوف بين القتلى. فوجده وبه رمق.

فقال له سعد: ما شأنك؟.

فقال أبي: بعثني رسول الله ﷺ لآتيه بخبرك..

قال سعد: فاذهب إليه فأقرئه مني السلام، وأخبره أني قد طعنت اثنتي عشرة

طعنة ، وأني قد أنفذت مقاتلي. وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حي.

ثم فارقت روحه جسده الى بارئها.

وجلست إحدى ابنتيه تذرف الدموع الغزار على البطل المغوار وتتذكر حنان الأبوة الغامر وعطفه الكبير.

واقتربت منها أختها الكبرى تكفكف دمعها وتواسي قلبها وتتلو على مسامعها قول الله تعالى :

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾.

فوالدنا يا أختي انتقل من دار الفناء الى دار البقاء.

فهو حي عند ربه حياة لا نعلم كنهها وهو بذلك لم ينفصل عنا ولم تنقطع صلاته بنا.

ويذهب الحزن عن الابنة الأخرى عند سماعها آيات التنزيل وتهيء نفسها للعمل في مرضاة الله ومرضاة الرسول حتى تلحق بأبيها في جنات الخلد عند مليك مقتدر. وخلا مكان الفارس العملاق سعد بن الربيع من ساحة القتال. وبقي مكانه شاغراً لم يملأه أحد بعد. فمن من أبناء الاسلام يملأ هذا المكان؟..

من الفارس المغوار الذي ينقذ بلاد المسلمين من الدمار والهلاك والهزيمة.

من الفارس الذي يعيد لأمة القرآن أمجاد بدر ، والقادسية ، واليرموك؟..

من أيها المسلمين؟..

إني أكاد ألمحه عبر الأفق يأتي من غير هذه البلاد يحمل في جعبته النصر، والفوز، والأمان.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وعندها يتحقق قول الله تعالى:

﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[1].

---

(1) سورة محمد آية رقم ٣٨.

أسباب نزول الآية

قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله ﴾ أخرج الأئمة الستة عن جابر بن عبد الله قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رشّ عليّ فأفقت ، فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي ؟ . فنزلت « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال ، فقال : يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث .

قال الحافظ بن حجر : تمسك بهذا من قال : إن الآية نزلت في قصة ابنتي سعد ، ولم تنزل في قصة جابر خصوصاً أن جابراً لم يكن له يومئذ ولد ، قال : والجواب أنها نزلت في الأمرين معاً ، ويحتمل أن يكون نزول أولها في قصة البنتين ، وآخرها وهو قوله « وإن كان رجل يورث كلالة » في قصة جابر ، ويكون مراد جابر بقوله فنزلت ﴿ يوصيكم الله في أولادكم ﴾ أي ذكر الكلالة المتصل بهذه الآية انتهى . وقد ورد سبب ثالث ، أخرج ابن جرير عن السدي قال : كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال ، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها أم كحة

وخمس بنات ، فجاءَ الورثة يأخذون ماله ، فشكت أم كحة ذلك إلى النبي ﷺ . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾ ثم قال في أم كحة ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن . وقد ورد في قصة سعد بن الربيع وجه آخر ، فأخرج القاضي اسماعيل في أحكام القرآن من طريق عبد الملك بن محمد بن حزم أن عمرة بنت حزم كانت تحت سعد بن الربيع فقتل عنها بأحد ، وكان له منها ابنة ، فأتت النبي ﷺ تطلب ميراث ابنتها ، ففيها نزلت ﴿ يستفتونك في النساء ﴾ الآية .

تذييل...

قلنا : إن سعد بن الربيع من الأنصار الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ وبين المهاجرين.

ومن هذا التاريخ والاسلام يحتفل بالأخوة بين أتباعه ، ويحيطها بسياج من تعاليمه وأوامره. ويعمل على إشاعتها بين أبنائه ، وإقامتها على أواصر من المودة والمحبة.

والأخوة في الإسلام تقتضي تبعات جساماً ، الأخ يهتم بأمر أخيه ويعنى بشأنه ، ويتفقد أموره ، ويرشده الى أقوم السبل ، ويقف بجواره إن حل به مكروه أو نزلت به نازلة ، يقول الله تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

ويقول الرسول ﷺ «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ويقول أيضاً : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يحقره بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

والدعوة الإسلامية قد تدعمت بالأخوة الصادقة بين صاحب الدعوة محمد ﷺ وبين صديقه وحبيبه أبي بكر الصديق — رضي الله عنه —.

ولم يكن التآخي بين المهاجرين والأنصار لمجرد المشاركة في عروض الحياة

الفانية ، ولا من أجل شهوات النفس ورغباتها ، ولكنه كان أعمق من ذلك . لقد كان من أجل العقيدة السمحة التي حباهم الله بها ، وجعلهم من حماتها ولقد قدم الأنصار في سبيل ذلك كل ما يملكون ، سخية بها نفوسهم لا يطلبون إلا الثواب من الله ، والأمل في رضوانه .

ولقد سجل القرآن الكريم هذا الايثار الذي قابل به الأنصار إخوانهم المهاجرين قال تعالى :

﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

ويبين القرآن الكريم أن مجتمع الأخوة في الاسلام يقوم على عداوة الشرك واعداد العدة لقتال المشركين ، ومع ذلك فهم رحماء بينهم يبتغون الثواب والمغفرة من ربهم قال تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سياهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

وتستمر الأخوة الإسلامية حاملة لواء الدعوة محطمة حصون الشرك حتى كان النصر المؤزر والفتح المبين ، الذي خنس فيه الشرك واستخذت الجهالة ، وذلت قريش ، ووقف الرسول ﷺ أمام الكعبة بعد أن حطمت الأصنام بداخلها مخاطباً أعداء الأمس ، إخوان اليوم بقوله : أيها الناس : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ ..

قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم .

فقال ﷺ اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ونتساءل لماذا قطعت أواصر الأخوة بين المسلمين؟..

لماذا أصبح بأسهم بينهم شديداً؟..

الأمر الذي جعل بلادهم هدفاً لكل طامع ، ومغنماً لكل سالب.. أيها المسلمون عودوا الى أخوة الاسلام تعد لكم قوتكم وبلادكم . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

بلال بن أبي رباح

رَضِيَ اللهُ عَنه

قال الرسول ﷺ :

نعم المرء بلال هو سيد المؤذنين ولا يتبعه إلا مؤذن ، والمؤذنون أطول الناس اعناقاً يوم القيامة » .

قال الحاكم : تفرد به حسام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة الأنعام آية ٥٢]

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

قال جماعة من المفسرين نزلت هذه الآية في بلال مؤذن الرسول. وجماعة من الصحابة.

قال ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره ١١ : ٣٧٦.

وقاله ابن كثير في التفسير ٢ : ١٣٤

من رواية ابن أبي حاتم وقال: هذا حديث غريب

ورواه ابن ماجه في السنن ٢ : ١٣٨٣

ورواه الامام أحمد في المسند رقم ٣٩٨٥.

وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه: اسناده صحيح

فمن هو بلال؟..

بلال بن رباح

مؤذن الرسول
صلى الله عليه وسلم

كان أبوه من سبي الحبشة

وأمه حمامة سبية أيضاً.

وهو من مولدي السراة.

يكنى أبا عبد الله وقال بعضهم: يكنى أبا عمرو.

لا يعرف التاريخ شيئاً عن أبيه أو أمه، ولكنه يسجل نتفاً عن أخيه خالد بن رباح وأخته غفيرة.

يصفه الرواة فيقولون: آدم شديد الأدمة، نحيفاً طوالاً أجن خفيف العارضين. جهوري الصوت.

كان عبداً لأمية بن خلف أحد صناديد قريش في الجاهلية ورأس الكفر في صدر الإسلام.

يقول ابن اسحاق: أمية بن خلف أحد الذين باتوا حول بيت الرسول ﷺ يريدون قتله. ولكن خاب كيدهم وبطل مكرهم وخرج رسول الله ﷺ وهم

جلوس على الباب. فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرها على رؤوسهم ويتلو قول الله تعالى:

﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾.

ولقد سمع بلال بدعوة الرسول ﷺ ووعى قلبه وعقله كلام الله الذي نزله به جبريل على قلب الرسول ﷺ.

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، الذي علم بالقلم ﴾.

فآمن بالواحد الأحد وترك عبادة الاصنام التي لا تغني ولا تسمن من جوع.

الأمر الذي جعل أمية بن خلف يفقد عقله ويتجرد من آدميته ويتحول إلى وحش ضار، ويتناول بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له:

«لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللّات والعزى. فيقول بلال — وهو في ذلك البلاء — أحد أحد.

قال ابن اسحاق: وحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال:

«كان ورقة بن نوفل يمر به، وهو يعذب بذلك وهو يقول: أحد، أحد، فيقول: أحد أحد يا بلال.

ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول:

«أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حناناً»[1].

---

(١) حناناً: أي رحمة أتبرك بها وألوذ بجوارها.

حتى مر به أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — يوماً وهم يصنعون ذلك به، وكانت دار أبي بكر في بني جمح.

فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟..

قال أمية: أنت الذي أفسدته، فانقذه مما ترى؟؟..

فقال أبو بكر: أفعل... عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى على دينك، أعطيكه به.

قال: قد قبلت.

قال: هو لك.

فأعطاه أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — غلامه، وأخذه فاعتقه وتحرر بلال، وصدع بكلمة الحق، وأقبل الناس على الدين الحق. قال عمر بن عنبسة: أتيت رسول الله ﷺ بعكاظ فقلت: يا رسول الله من تبعك على هذا الأمر؟..

قال تبعني عليه حر وعبد، أبو بكر وبلال فأسلمت عند ذلك. وكان أبو ذر — رضي الله عنه — يقول: لقد رأيتني ربع الإسلام ولم يسلم قبلي إلّا النبي ﷺ وأبو بكر وبلال.

دخل بلال الإسلام عندما نطق بكلمة التوحيد، ومن هذا التاريخ أصبح إنساناً جديداً لا تشغله إبل أمية بن خلف ولا البحث عن الماء والكلأ. ولكن أصبح الأمر جديداً.

إنه يحاول بكل جهده أن يتعرف على الآيات البينات التي يرسلها الله سبحانه وتعالى على رسوله.

إنه يحاول أن يتدرب على أعنف الأساليب الحربية، وطريقة الكر والفر وجندلة الأعداء، أعداء الله وأعداء دينه.

واستمر بلال على ذلك حتى كانت الهجرة — هجرة الرسول — ﷺ الى

يثرب. حيث الأنصار والأحباب، فهاجر بلال الى يثرب لينضم الى جماعة المسلمين ويكون لهم جيش لم تسمع الدنيا بمثله لأن رجاله رجال الله فرسان بالليل ورهبان بالنهار.

ثم كانت غزوة بدر وفيها خرجت قريش بأشرافها ولم يتخلف عن ذلك إلا أبو لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

ولقد أراد أمية بن خلف القعود فإنه كان شيخاً ثقيلاً ولقد روى البخاري الأسباب التي جعلت أمية بن خلف يتردد في الخروج الى بدر فقال: إن سعد بن معاذ سيد الأوس — كان صديقاً لأمية بن خلف وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد.

وكان سعد إذا مرَّ بمكة نزل على أمية.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة فقال لأمية:

انظر الى ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت.

فخرج به قريباً من نصف النهار فلقيهما أبو جهل.

فقال: يا أبا صفوان من هذا؟..

فقال: هذا سعد.

فقال أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة؟ — يعني المسلمين — وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت الى أهلك سالماً.

فقال له سعد — ورفع صوته عليه — أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي.

فقال سعد : دعنا عنك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم قاتلوك».

قال : بمكة..؟

قال : لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً.

فلما رجع أمية الى أهله قال : يا أم صفوان ألم تري الى ما قال لي سعد؟

قالت : وما قال لك؟..

قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي.

فقالت له : بمكة؟

قال : لا أدري.

فقال أمية : والله لا أخرج من مكة ، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس. قال : أدركوا عيركم.

فكره أمية أن يخرج. فأتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية : يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له : يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟.

قال : لا ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره.

والتقى الجمعان على مقربة من ماء بدر وطلبت قريش المبارزة فخرج اليهم فرسان الإسلام فقتلوهم شر قتلة. وكان بلال بجوار علي بن أبي طالب — رضي الله عنه —. وهو يجندل الفرسان ويحصد الرجال بسيفه حصداً ما عدا فارساً لم يستطع

أن ينال منه مقتلاً فاختطفه من على فرسه ، وألقى به أرضاً ثم وضع قدميه على ذراعيه وأخذ بسيفه يريد أن يجز رقبته. ولكنه لم يفعل.

واعتلى صهوة فرسه فتعجب من ذلك بلال وقال له :

«ويحك يا علي لما لم تقتله»؟.

فردّ عليه علي قائلاً : يا أخي يا بلال لقد بصق عدو الله في وجهي فخشيت أن أقتله فأكون قتلته غضباً لنفسي لا لله.

ثم ماذا؟..

قال عبد الرحمن بن عوف : كان أمية بن خلف صديقاً لي بمكة ، وكان اسمي عبد عمرو ، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن ، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول :

«يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماكه أبوك»؟..

فأقول : نعم.

قال : فإني لا أعرف الرحمن ، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه.

فقلت له : يا أبا علي اجعل ما شئت.

قال : فأنت عبد الله.

قلت : نعم.

فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الله.. فأجيبه فأتحدث معه.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده ومعي أدراع قد استلبتها فأنا أحملها.

فلما رآني قال :

يا عبد عمرو.. فلم أجبه.

فقال: يا عبد الله.

قلت: نعم.

قال: هل لك فيَّ... فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك.

قلت: نعم. ها الله.

فطرحت الأدرع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول:

ما رأيت كاليوم قط، ثم خرجت أمشي بهما.

فقال لي وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما:

ويا عبد الله من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟...

قلت: حمزة.

قال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل؟...

وما كاد ينتهي من كلامه إذ رآه بلال معي.

رآه بلال فعاد بذاكرته الى مكة أيام كان يلقى به في الرمضاء ويسلط عليه صبيانها ويصب عليه العذاب صبا.

فقال على الفور: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا.

قلت: أي بلال أسيري؟..

قال: لا نجوت إن نجا.

ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا.

قال عبد الرحمن بن عوف: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في حلقة كالسوار وأحدقوا بنا. فأنا أذبُّ عنه إذ دخل علينا رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع. وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط. قلت: انج بنفسك ولا نجاء فوالله ما أغني عنك شيئاً.

فبهروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما؟؟.

فكان عبد الرحمن بن عوف يقول : يرحم الله بلالاً فجعني بأذراعي وبأسيري.

واستطاع بلال أن يسقط رأس الكفر التي كانت تقف في طريق الدعوة الى الله. حتى يتمكن الإسلام من الدخول الى عباد الله فينير طريقهم ويرشدهم الى ربهم خالق الأرض والسماء.

ويستمر بلال — رضي الله عنه — مع الرسول ﷺ في غزواته وحروبه حتى كانت غزوة خيبر التي أبلى فيها المسلمون بلاء حسناً. وتم لهم النصر وكلف بلال بحراسة النساء الأسيرات حتى طلبهم رسول الله ﷺ فمر بهما بلال على قتلى من قتلى اليهود.

فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ قال :

«اغربوا عني هذه الشيطانة.

ثم قال حين رأى من تلك اليهودية ما رأى :

«أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالها. ويتأدب بلال بأدب الاسلام ولا يعود لمثلها أبداً.

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر وكان ببعض الطريق ، قال من آخر الليل.

من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟..

فقال بلال : أنا يا رسول الله احفظ لك.

فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلي ، فصلى ما شاء الله أن يصلي ثم استند الى بعيره ، واستقبل الفجر يرمقه ، فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس.

وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هب من نومه فقال : ماذا صنعت بنا يا بلال ؟؟

فقال : يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك .

قال : صدقت .

ثم اقتاد رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى الناس .

فلما سلم أقبل على الناس فقال :

«إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾[1] .

وتمر الأيام وتكر الليالي ويجلس بلال بجوار الرسول ﷺ ويسمع منه كلمات الله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾[2] .

وتهز هذه الآيات بلالاً وتذهب به الى تصور الواقع الذي لا يستطيع أن ينطق به .

لقد كمل الدين بنزول القرآن الكريم .

وتمت نعمة الله على عباده بالاسلام .

ووصلت كلمة التوحيد الى أركان الأرض الأربعة . ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» .

لقد أدى محمد ﷺ الأمانة ، وبلغ الرسالة أتأتي بعد ذلك نهاية الأجل ؟ .. ويفر محمد الى ربه ، ويهاجر الى مولاه ؟ ..

(١) سورة طه آية رقم ١٤ والخبر في ابن هشام ٢ : ٢٤١ ، ٢٤٢ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٣ .

ذلك ما كان يشغل بلالاً في صحوه ونومه، في ظعنه وإقامته حتى كان يوم ذهب فيه الى الرسول ﷺ ليخبره بوقت الصلاة.

فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

واستجاب المسلمون لأمر نبيهم وصلّى أبو بكر بالمسلمين ثلاثة أيام ثم بلغ الكتاب أجله وتوفي رسول الله ﷺ وبكاه بلال — رضي الله عنه — أشد البكاء.

واستمر يؤذن للمسلمين في حياة أبي بكر، ولكنه لم يؤذن في خلافة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه —.

فقال له عمر: ما منعك أن تؤذن؟

قال: إني أذّنت لرسول الله ﷺ ثم أذنت لأبي بكر لأنه اعتقني من الرق. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا بلال: ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله».

وفي رواية أخرى: كان يؤذن لرسول الله ﷺ فلما مات أراد الخروج الى الشام. فقال له أبو بكر:

بل تكون عندي.

فقال: إن كنت اعتقتني لنفسك فاحبسني وإن كنت اعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب إلى الله عز وجل.

فقال: اذهب.

فخرج مجاهداً وانداحت الدنيا أمامهم وفتحت لهم البلاد، حتى كان يوم وانتصر فيه المسلمون انتصاراً ساحقاً على الروم في معركة اليرموك وأصابوا منها أموالاً كثيرة فبلغ الناس ما أصاب خالد فقصده رجال من أهل الآفاق وكان منهم الأشعث ابن قيس فأجازه خالد بعشرة آلاف.

وسمع عمر بن الخطاب — وكان لا يخفى عليه شيء من عماله.

فأرسل إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع منه قلنسوته حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من مال المسلمين؟.. فإن زعم أنه فرّقه من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنه من ماله فقد أسرف، واعزله على كل حال. واضمم إليك عمله.

فكتب أبو عبيدة الى خالد فقدم عليه، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر وقام صاحب البريد فسأل خالداً من أين أجاز الأشعث؟..

فلم يجبه؟.. وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً.

فقام بلال إليه. فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ونزع عمامته فلم يمنعه سمعاً وطاعة.

ووضع قلنسوته ثم أقامه فعقله بعمامته.

بلال العبد الحبشي، بلال الذي كان يلقى به في الرمضاء، ويعبث به صبيان مكة.

بلال هذا يثب على أكبر قواد المسلمين، ويوثقه بعمامته، ويجلسه أمامه ليحاسبه.

من أعطى بلالاً هذا الحق، من الذي جعل بلالاً يفعل ذلك بالقائد الذي لم يهزم قط. من؟..

إنه الإسلام، إنها كلمة التوحيد، إنه الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ والذي يقرر:

«أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلّا بالتقوى والعمل الصالح. ولأن الناس جميعاً من آدم وآدم من تراب». ويتابع بلال حسابه للقائد المنتصر.

من أين أجزت الأشعث من مالك أجزت؟ أم من إصابة أصبتها.

فقال: بل من مالي.

فأطلقه بلال وأعاد له قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال:

«نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا».

وتنتهي القضية بعزل خالد بن الوليد — رضي الله عنه — عزل بأمر أمير المؤمنين — رضي الله عنه —.

عزل القائد المنتصر لأنه أعطى بعض الشعراء مبلغاً من المال — رأى الحاكم العام أن في ذلك اسرافاً في العطاء، سواء أكان من المال الخاص أو العام يقول بلال — رضي الله عنه — والتف حول خالد مجموعة من أبناء بني أمية الذين غضبوا لعزل خالد. وتقدم أحدهم من القائد المعزول قائلاً له: «إنها الفتنة يا خالد سنملأها خيلاً ورجلاً على ابن الخطاب في المدينة. ويرد القائد المنتصر المعزول متسائلاً:

هل تم تحطيم الحصون على أرض فارس؟..

قالوا: نعم.

هل تمت إزالة القلاع على أرض الروم؟..

قالوا: نعم.

هل توجد قوة ضاربة كافرة تقف في وجه المسلمين وتحتاج هذه القوة لسيف خالد؟..

قالوا: على حد علمنا اللهم لا.

قال القائد المنتصر المعزول الذي تربى في مدرسة الإسلام إذا كان ذلك كذلك، فالأمة الإسلامية في حاجة الى عقل عمر أكثر من حاجتها الى سيف خالد.

ثم تابع حديثه قائلاً: لن تكون فتنة وابن الخطاب موجود.

ويسارع بلال الى خالد ويعتنقه ويهنئه لانتصاره على نفسه — النفس التي يقول الله تعالى فيها: إن النفس لأمارة بالسوء».

يهنىء القائد : الذي لم تغره زخارف الدنيا ، ومظاهر القيادة وسلطة الحكم : لأن بلالاً يعلم حق العلم وغيره يعلم أيضاً لو أن خالداً أراد السلطة وأراد الصوجان لكان بين يديه.

ولكنه عزل في أوج انتصاره فلم تأخذه العزة بالاثم.

وكان بين يديه القوة ، وكان بين يديه الجيش — ولكنه لم يتخط طوره ولم يغضب على دنيا زائلة ومجد زائف.

إن خالداً حارب الاسلام وانتصر على جنوده عندما كان معتقداً أن آلهة الآباء والأجداد هي خير وأبقى.

وعندما اعتنق الإسلام وسرت تعاليمه في كيانه واستقر الايمان في قلبه حمل سيفه دفاعاً عن الإسلام ورفع راية التوحيد ، إنه لن يبغي مجداً لنفسه ولا صوجاناً لشخصه. وإنما يبغي فقط نصرة هذا الدين. من هنا لا يهمه إن كان في السقاية أو القيادة.

واستراح بلال لقرار خالد. ورغب في مرافقته الى الخليفة ، وفي مجلس الخليفة أحسّ بلال أن الرجال الذين أخذوا زادهم في مدرسة النبوة تخلو قلوبهم من الحقد والغل ، من الغضب والرضى إلّا لله وفي سبيل الله.

وتعانق الخليفة والقائد. وشنف بلال أذنه ليسمع صوتاً عبر الأفق يصدح شادياً :

بمدرسة النبي نما شباب
عباقرة لهم في الخلد ذكر
صحائفهم على الأجيال تتلى
وليس وراء ما صنعوه فخر

يا أمة الاسلام : أين بلال اذن ليحضر أفراح النصر وأهازيج الانتصار ويبارك خطى الاسلام؟..

لا تعجبوا إنه هناك في رحلة متأنية الى ربه ولسان حاله يقول : «إني مهاجر الى ربي».

فمن يهاجر معه في رحلة الخلود.. مَنْ يا أمة الاسلام.. أم أن هذه الأمة عقمت فلا تلد أمثال خالد وبلال؟؟..

أسباب نزول هذه الآية

روى ابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص قال :

لقد نزلت هذه الآية في ستة : أنا وعبد الله بن مسعود وأربعة قالوا لرسول الله ﷺ اطردهم ؛ فإنا نستحي أن نكون تبعاً لك كهؤلاء ، فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله ، فأنزل الله :

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ إلى قوله :

﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾[1] .

وروى أحمد والطبراني وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت ، وصهيب ، وبلال ، وعمار . فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء ، وهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، لو طردت هؤلاء لاتبعناك. فأنزل الله فيهم القرآن :

﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا﴾ . إلى قوله ﴿سبيل المجرمين﴾ وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب

---

(١) رواه ابن ماجه ٢ / ١٣٨٣ ومسلم بنحوه مختصراً ٤ / ١٨٧٨ ورواه بنحوه الطبري ١١ / ٣٧٨ ورواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان وقال : على شرط الشيخين ، وأخرجه ابن حيان في صحيحه من طريق المقدام بن شريح به ، وأورده ابن كثير في تفسيره ٢ / ١٣٥ بنحوه عن سعد.

فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء الأعبد كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، فكلم أبو طالب النبي ﷺ ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون ، فأنزل الله :

﴿ وأنذر به الذين يخافون .. ﴾ إلى قوله : ﴿ أليس الله بأعلم الشاكرين ﴾ .

وكانوا : بلالاً ، وعمار بن ياسر ، وسالماً مولى أبي حذيفة وصالحاً مولى أسيد ، وابن مسعود ، والمقداد بن عبد الله وواقد بن عبد الله الحنظلي . وأشباههم .

فأقبل عمر فاعتذر عن مقالته ، فنزل : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ الآية[1] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن خباب فقال : جاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن فوجدا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم ، فأتوه فخلوا به فقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، فنزلت :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ الآية .

ثم ذكر الأقرع وصاحبه ، فقال : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ الآية[1] .

وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فنزل : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ الآية .

قال ابن كثير : هذا حديث غريب .

---

(١) رواه الطبري في التفسير ١١ / ٣٧٩ ، ٣٨٠ بأطول منه .

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ١١ / ٧٣٦ بمعناه ، وأورده ابن كثير في تفسيره ٢ / ١٣٤ من رواية ابن أبي حاتم ، وقال : وهذا حديث غريب فإن الآية مكية والأقرع ابن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر ، ورواه ابن ماجة ٢ / ١٣٨٣ .

تذييل...

من بلال قبل الاسلام؟..

إنّه عبد حبشي يقذف به في رمضاء مكة إن غضبوا عليه، فإن رضوا فهو راع للابل والماشية في السهول الخضراء يختار لها المرعى ويرسلها على العشب ويبحث لها عن الماء.

ومن بلال بعد الاسلام؟..

إنه الرجل الذي يشعر بآدميته ويحس أن الناس أمام الله سواء فالأبيض لا يزيد عن الأسود، والعربي لا يقل عن العجمي فالكل لآدم وآدم من تراب، وإنما يتفاضل الناس بالتقوى أو بعمل صالح.

وعندما قال له أحد السادة قبل الإسلام: يا ابن السوداء غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً وقال:

« ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلّا بالتقوى أو بعمل صالح ». إن الإسلام يجعل الناس سواسية كأسنان المشط، وعندما خرجت جيوش الاسلام متجهة الى خارج الجزيرة العربية كان الهدف من خروجها إخلاص العبادة لله تعالى.

لقد قال ربعي بن عامر أحد أبطال معركة القادسية إجابة على سؤال رستم ما جاء بكم؟..

قال : الله جاء بنا ، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من عبادة العباد الى عبادة الواحد الأحد ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه الى خلقه فمن قبله قبلنا منه ورجعنا إليه ، وتركناه وأرضه دوننا ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي الى الجنة أو الظفر».

إنهم دعاة الى الله تعالى ، إن هدفهم أن يعود الناس الى بارئهم ، هدفهم أن يخلصوه بالعبادة.

فالعبادة والتقديس لن تكون للأصنام والأوثان.

والعبادة لن تكون للشمس ولا للقمر.

والعبادة لن تكون للشجر ولا للحجر.

والعبادة لن تكون للجن ولا للإنس.

والعبادة لن تكون للنار التي تخمد ، ولا للحيوان الذي يموت. العبادة تكون للذي خلق الأرض والسماء ، وأوجد الحياة والموت وخلق الظلمات والنور.

فمن قبل هذه الكلمة «كلمة التوحيد» فلا حرب بيننا وبينه بل اخوة في الله ، وأخوة في العقيدة ، وأخوة في الاسلام.

ولقد انتشرت كلمة التوحيد وشرق بها أتباعها وغربوا وجالوا في أقطار الأرض يدعون إليها ويبشرون بمبادئها.

حتى قال شاعرهم يصف المد الاسلامي الذي شمل ربوع المعمورة وتخطى السهول والجبال ، والبحار والوديان :

كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم ... وبعدها ملأوا الآفاق تمدينا
لو كبرت بآفاق الصين مئذنة ... سمعت في الغرب تهليل المصلينا

وعندما تجاهل المسلمون الإسلام وانحصرت مبادؤه أخذت العنصرية تجوب آفاق الدنيا ففي عصر الاختراعات الحديثة والتكنولوجيا الباهرة نجد التفرقة العنصرية بين.

الأبيض والأسود. والغربي والشرقي. وأصبح التفاضل بين الناس عن طريق القوة أو ما يدعو الى القوة. بينما ترفع في بعض الأحيان درجة بعض الكلاب الى ما فوق الآدمية. وفي ضوء هذه المبادئ التي لا تستند الى دين أو خلق، تباد الشعوب الضعيفة بالسموم والغازات السامة، أو تلقى عليهم القنابل الذرية التي تحرق الأخضر واليابس، وتحول الحياة الى بلاقع كما حدث في «هروشيما» وغيرها.

إن السود في قارة أفريقيا يبادون إبادة جماعية بينما تحرص أمريكا على ترك الوحوش المفترسة، وتعمل على اطعامها والمحافظة على نسلها خوفاً من الانقراض.

أما هؤلاء سود البشرة بيض القلوب والذين تلهج ألسنتهم بكلمة التوحيد فلهم الهلاك والدمار لأنهم يزعجون أمريكا ومن هم وراء أمريكا. إن الإبادة تكاد تكون شاملة في بعض القارات الذين يدينون بدين الاسلام وتحرص بعض الدول أن تقدم لهم الأمصال التي تصيبهم بالعقم الجماعي حتى ينقرض هذا النسل.

إن أم التخريب والدمار ما كان لها أن تفعل ذلك وما كان لها أن تقدر عليه لو كان المسلمون في الساحة.

إن تصفية المسلمين وإبعادهم عن دور القيادة جعل العالم يخسر كثيراً في مبادئه وقيمه وأخلاقه.

فتى يستيقظ المسلمون ويعودون الى كتابهم؟ حتى يمدنوا الدنيا ويهذبوا العالم ويقرروا الحق للإنسان — أسود كان أم أبيض — كما فعلوا سابقاً؟ متى يحدث ذلك؟.. إنا لمنتظرون؟؟..

مَعاذ بن جبل الأنصَاري

رَضِيَ اللهُ عَنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾



[سورة آل عمران آية ٦٩]

أقوال العلماء في نزول هذه الآية

قال كثير من العلماء ورجال التفسير والتاريخ نزلت هذه الآية في معاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر.

قاله الإمام الواحدي في أسباب النزول ١٠٤

وقاله ابن الجوزي في تفسيره ١ : ٤٠٤.

وقاله الإمام القرطبي في التفسير ٤ : ١١٠.

فمن هو معاذ بن جبل؟..

معاذ بن جبل

رضي الله عنه

من قبيلة الخزرج ومن الأنصار الذين قدموا أرواحهم وأموالهم وأهليهم لنصرة دين الله.

من الرجال المغاوير الذين حملوا سيوفهم على أيديهم، وكتاب الله في قلوبهم وانداحوا في أربعة أركان الأرض.

ينشرون الأمن بعد الخوف.

ويبددون ظلام الكفر بنور الايمان.

ويدعون الى عبادة الواحد الأحد.

فاستقبلتهم الدنيا أحسن استقبال وأقامتهم على ظهرها قادة ومعلمين. نشأ في يثرب الخضراء وترعرعت طفولته فوق سهولها. ويفع شبابه بين وديانها، وكان من الرعيل الأول الذي استمع الى رسول الله ﷺ وبايعه في العقبة الثانية.

وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود، نعم ابن مسعود الذي التقى به رسول الله ﷺ في طريق هجرته يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط.

فقال له رسول الله: يا غلام هل من لبن؟..

فقال: نعم ولكنني مؤتمن.

قال : فهل من شاة حائل لم ينزُ عليها الفحل؟..

قال : نعم.

فأتاه بشاة فمسح ضرعها. فنزل لبن فحلبه في إناء وشرب وسقى أبا بكر ثم قال للضرع : اقلص. فقلص. رأى ابن مسعود هذه الآية الباهرة فجاء الى رسول الله وقال : يا رسول الله : علمني من هذا القول.

فمسح رأسه وقال : يرحمك الله ، فإنك امرؤ معلم.

وشهد معاذ مع الرسول ﷺ غزوة بدر وأحد والمشاهد كلها لم يتخلف عن أي منها.

ثم بعثه رسول الله ﷺ قاضياً الى الجَنَدِ من اليمن يعلّم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن.

وكان الرسول ﷺ قد قسم اليمن على خمسة رجال :

خالد بن سعيد على صنعاء.

والمهاجر بن أبي أمية على كندة.

وزياد بن لبيد على حضرموت.

ومعاذ بن جبل على الجند.

وأبي موسى الاشعري على زبيد وعدن والساحل.

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل :

«بم تقضي يا معاذ؟..

قال : بما في كتاب الله.

قال : فإن لم تجد؟..

قال : بما في سنة رسول الله.

قال : فإن لم تجد؟.

قال : اجتهد رأيي.

فقال الرسول ﷺ الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يحب الله ورسوله.

وشارك معاذ بن جبل في غزوة حنين. وبعد الفتح المبين، والنصر الكبير، قسم رسول الله الغنائم بين قريش وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً فوجدوا في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي رسول الله ﷺ قومه.

فذهب سعد بن عبادة ومعه معاذ بن جبل الى رسول الله ﷺ وأخبراه الخبر. قبل أن ينزل وحي في هذا.

فقال له : فأين أنت من ذلك يا سعد؟..

قال : ما أنا إلا من قومي.

فقال : فأين أنت من ذلك يا معاذ؟..

قال : ما أنا إلّا من قومي يا رسول الله.

فقال الرسول ﷺ فاجمعا قومكما لي في هذا المكان. فجمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ فقال :

«ما حديث بلغني عنكم؟..

ألم آتكم ضلاّلاً فهداكم الله بي؟..

وفقراء فأغناكم الله بي؟..

وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟..

قالوا : بلى والله يا رسول الله، ولله ورسوله المنّ والفضل.

فقال : ألا تجيبوني؟..

قالوا : بماذا نجيبك؟..

قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم.

أتيتنا مكذَّباً فصدقناك.

ومخذولاً فنصرناك.

وطريداً فآويناك.

وعائلاً فواسيناك.

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟..

أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟. والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار.

ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار.

وأبناء الأنصار.

وأبناء أبناء الأنصار.

قال معاذ : فبكينا حتى اخضلت لحانا.

وقلنا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

ويتحلق الصحابة حول الرسول ﷺ ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنا وأهلي فداؤك يا رسول الله فما باب التوبة؟..

قال : يا عمر خلق الله عز وجل باباً للتوبة خلف المغرب، مصراعين من ذهب ما بين المصراع إلى المصراع الآخر مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرج، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه الى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما، ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحاً من لدن آدم الى صبيحة تلك الليلة إلّا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب ثم ترفع الى الله عز وجل.

فقال معاذ بن جبل : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما التوبة النصوح؟..

قال : أن يندم المذنب على الذنب الذي أصابه فيعتذر الى الله ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن الى الضرع.

ويقول معاذ : يا رسول الله قال الله تعالى وقوله الحق : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾.

يا رسول الله كيف كان ذلك؟..

قال : خلقه من طين فلما بلغ الحين الذي أراد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له.

فلما نفخ فيه الروح. دخل الروح في رأسه عطس.

فقالت الملائكة : قل الحمد لله.

فقال : الحمد لله.

فقال الله عز وجل له : ﴿رحمك ربك﴾.

فلما دخل الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب أن تبلغ الروح رجليه عجلان الى ثمار الجنة.

فذلك حين يقول تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾.

(فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين).

(أبى واستكبر وكان من الكافرين).

فقال الله له : ﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ لما خلقت بيدي؟..

قال : أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين.

قال الله له : ﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾. وهم معاذ أن يسأل رسول الله ﷺ.

فابتدره سعد بن عباد لقد اثقلنا على رسول الله ﷺ بكثرة اسئلتنا عليه؟..

وهنا يقول الرسول ﷺ :

«يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء».

ولما عاد رسول الله ﷺ من غزوة تبوك بعد أن صالح صاحب الأيلة وأعطاه الجزية جلس في المدينة ينظر في أمر الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله والذين نزل فيهم قول الله تعالى :

﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾.

وفي أثناء ذلك قدم الى رسول ملوك حمير بكتابهم يخبرون رسول الله ﷺ بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله.

فكتب إليهم رسول الله ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله الى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كُلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر.

أما بعد ذلكم: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم، وخبَّر ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعمتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة... الخ.

أما بعد، فإن رسول الله محمد النبي، أرسل الى زُرعة ذي يزن، أن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً.

معاذ بن جبل، رضي الله عنه.

وعبد الله بن زيد، رضي الله عنه.

ومالك بن عبادة، رضي الله عنه.

وعقبة بن نَمِر، رضي الله عنه.

ومالك بن مُرة، رضي الله عنه.

وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وبلغوها رسلي، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً.

وعاش معاذ في بلاد اليمن عاش فقيهاً معلماً، عاش لدينه يقرئ من آمن بكتاب الله ويفقههم في دينهم.

عاش مجاهداً بالكلمة المضيئة التي تبدد ظلام الشرك والكفر وتخرج الناس من الظلمات الى النور.

وفي نفس الوقت تجبى من القادرين الزكاة فترد على فقرائهم فإذا كان هناك فائض عن حاجتهم بعث به معاذ الى فقراء المسلمين في المدينة.

وتمر الأيام وتكر الليالي — ويعود الرسول — ﷺ من حجة الوداع وتمرَّض من السفر غير مرض موته — وبلغ ذلك الأسود فادعى النبوة وكان مشعبذاً يريهم الأعاجيب، وكانت ردة الأسود أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ. وغزا نجران فأخرج عنها عمرو بن حزم، وسار من نجران الى صنعاء وقتل واليها واستتب للأسود ملك اليمن وسار حتى استولى على مفازة حضرموت الى الطائف الى البحرين والاحساء الى عدن واستطار أمره كالحريق وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي شهراً سوى الركبان واستغلظ أمره.

وكان خليفته في مذحج عمرو بن معد يكرب.

وكان خليفته على جنده قيس بن عبد يغوث.

وكان الأسود تزوج امرأة شهر بن باذان بعد قتله — وهي ابنة عم فيروز.

وعلم الرسول ﷺ فكاتب المسلمين باليمن يأمرهم بقتال الأسود فقام معاذ في ذلك وقويت نفوس المسلمين.

وجيشت الجيوش وجمعت الجموع. وسارع شيطان الأسود يخبره بما عليه حال المسلمين من الاستعداد لحربه وملاقاته.

فدعا الأسود قيساً وأخبره أن شيطانه يأمره بقتله لميله الى عدوه. فحلف قيس له وأخبره بأنه أعظم في نفسه من أن يحدث نفسه بذلك. وأخذ الأسود يحذّر قادة المسلمين ويعدهم الشر ويعمل على الايقاع بهم وفي أثناء ذلك تصل رسل عامر بن شهر، وذي زود، وذي مروان، وذي الكلاع، وذي ظليم الى معاذ بن جبل يخبرونه فيه أنهم أعدوا أنفسهم ورجالهم ليكونوا معهم على قتال الأسود.

فأرسل لهم معاذ يطلب منهم التمهل والتريث حتى يعدوا للأمر عدته ويجمعوا صفوفهم ويمتاز المؤمنون من المرتدين.

وبلغ ذلك الأسود فأحس بالهلاك.

قال قيس بن عبد يغوث: فدخلت على زوجته آزاد التي تزوجها بعد قتل زوجها شهر بن باذان فدعوتها الى ما نحن عليه. وذكرتها قتل زوجها شهر واهلاك عشيرتها، وفضيحة النساء فيهم.

فأجابت وقالت: والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليَّ منه ما يقوم لله على حق ولا ينتهي عن محرم فأعلموني أمركم أخبركم بوجه الأمر.

قال: فخرجت وأخبرت فيروز وداذويه.

وأعلم الأسودَ شيطانُه فطلب قيساً.

فدخل عليه قيس في عشرة من قبيلة مذحج وهمدان فلم يقدر على قتله وهو معهم. وقال له: ألم أخبرك الحق وتخبرني الكذب؟..

يقصد ما قاله شيطانه إن لم تقطع من قيس يده يقطع رقبتك.

فقال قيس : إنه ليس من الحق أن أهلك وأنت رسول الله فمرني بما أحببت أو اقتلني فموتة أهون من موتات؟..

فرق له وتركه.

وخرج قيس فمر على فيروز، وداذويه وقال :

«اعملوا عملكم» ولم يقعد معهم.

يقول معاذ بن جبل — رضي الله عنه — وبينا نحن جلوس خرج علينا الأسود في جمع. وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير فنحرها ثم تركها.

وقال : أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟.. ورفع عليه الحربة قائلاً : لقد هممت أن أنحرك؟..

فقال فيروز : لقد اخترتنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء فلو لم تكن نبياً لما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الدنيا والآخرة؟.. فقال له : اقسم هذه فقسمها ولحق به.

فسمع الأسود يقول لأحد خلصائه : أنا قاتله غداً وأصحابه.

فعاد فيروز وأخبر أصحابه. وأرسلوا الى قيس.

واجتمعوا يدبرون أمرهم ويتشاورون فيما هم مقدمون عليه من قتل الأسود وقرروا أن يذهب فيروز الى زوجته ليخبرها بعزيمتهم ويأخذوا رأيها.

وذهب فيروز والتقى بزوجته.

فقالت : على أي شيء أجمعتم أمركم؟..

قال : على قتله.

قالت : هو متحرز وليس من القصر شيء إلّا والحرس محيطون به غير هذا البيت فإن ظهره الى مكان كذا وكذا.

قال : وقتي لنا وقت نومه.

قالت : إذا أمسيتم وذهب من الليل ثلثاه فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس ، وليس دون قتله شيء.

قال : هل من علامة نهتدي بها؟

قالت : سأعد لكم سراجاً وسلاحاً.

وخرج فيروز مسرعاً فالتقى به الأسود خارجاً من بعض منازله فقال : ما أدخلك عليّ؟.. ووجأ رأسه حتى سقط وكان شديداً.

فصاحت المرأة فانشغل بها.

وقال لها : ما بك يا زين النساء؟..

قالت : جاءني ابن عمي زائراً ففعلت به هذا؟..

يقول فيروز : فتركني فأصلحت حالي وأتيت أصحابي.

فقلت : النجاة النجاة الهرب الهرب وأخبرتهم الخبر.

وإنا على ذلك حياري اذ جاء رسول المرأة قائلاً : لا تدعن ما فارقتك عليه.

فقلت لأصحابي : ما العمل؟..

قالوا : ائتها فتثبت منها.

قال فيروز : فذهبت إليها ودلتني على الطريق ثم جلست عندها كالزائر. فدخل علينا الأسود فأخذته غيرة.

فأخبرته المرأة برضاع وقرابة منها.

وخرج فيروز والتقى بالرجال الصيد من أتباعه.

التقى برجالات الاسلام الذين يملأ الايمان قلوبهم.

وعرض عليهم ما انتهى إليه مع زوجته. وتواعدوا على مكان حددوه لأنفسهم للقاء المساء.

ان الرجل معه شيطانه، وهو يخبره بما يدور حوله. هكذا قال فيروز.

قال معاذ: المؤمن يرى بنور الله.

قال فيروز: الشيطان يستعمل أسلحته.

قال معاذ: ليس أقوى من أسلحة الايمان.

قال فيروز: الشيطان له مكره وكيده.

قال معاذ: إن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

قال فيروز: الشيطان يزين له عمله فيغتر أتباعه.

قال معاذ: قال تعالى:

﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾.

قال فيروز: إنا نخاف أن تدور علينا الدائرة؟..

قال معاذ: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

قال فيروز: إن أولياءه كثر.

قال معاذ: ونحن ولينا الله.

قال فيروز: أنقدم على بركة الله؟..

قال معاذ: وهو معكم ومثبت قلوبكم وناصركم. فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين».

قال فيروز: أوضنا يا معاذ؟؟..

قال: قولوا إذا هممتم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

زدنا يا معاذ: لا زيادة: إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

وسارت كتيبة الإيمان تحت رعاية الله وعنايته يملأ الايمان قلوبهم بأن النصر لهم والهزيمة والقتل لعدو الله المضلل الكذاب.

يقول فيروز : فلما جن المساء عملنا في أمرنا واعلمنا أشياعنا وعجلنا عن مراسلة الهمدانيين والحميريين فنقبنا البيت من خارج ودخلنا في دهليز طويل وفيه سراج تحت جفنه وتقدمت أصحابي. فسمعت غطيطاً شديداً والمرأة قاعدة.

فلما وقفت على باب حجرته أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه وقال : «ما لي ولك يا فيروز»؟..

فهممت أن أرجع وأعود من حيث أتيت فخشيت أن يقتل المرأة لأنها التي فتحت لنا الأبواب ثم يقتل كل أصحابي.

وكدت أن أهلك فذكرني صاحبي بقول الله تعالى :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ وصرخ من خلفي تقدم يا فيروز الى عدو الله. فتقدمت إليه فعاجلته بسيفي وخالطته وهو مثل الجمل فأخذت برأسه ودققت عنقه.

وهممت أن أخرج : فأخذت المرأة بثوبي وهي ترى أنه لم يقتل.

فقلت لها قد قتلته وأرحتك منه.

وخرجت فدخل أصحابي فهبروه بسيوفهم وقطعوا رأسه.

وسمع حرس المقصورة خواره قبل أن تجزّ رأسه فجاؤوا يقولون ما هذا؟.. فقالت المرأة : النبي يوحي إليه.

وخرجت كوكبة الإيمان يحملون بين أيديهم رأس الكذاب. وكان معاذ في انتظارهم. فأعد لهم ماء وضوئهم فتطهروا وصلوا صلاة الشكر لله تعالى الذي أيدهم بنصره وتأييده.

ثم جلسوا يتشاورون كيف يخبرون أشياعهم؟..

فاجتمعوا على النداء، فلما طلع الفجر نادوا بشعارهم ففزع المسلمون والكافرون ثم نادوا بالأذان ووقف فيروز على ربوة عالية وقال:

أشهد أن محمداً رسول الله وأن عيهلة كذاب وألقى إليهم برأسه فكبر المسلمون وعاد الكافرون الى رحاب الإيمان وأرسلت السماء بوابل صيب طهر الأرض من الضلال والبهتان والكفر وتجاوب الكون كله بالتسبيح والتهليل لخالق الأرض والسماء.

وانبعث صوت معاذ يردد قول الله تعالى:

﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾.

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

وخرجت كوكبة من الفرسان تمتطي الخيول الجياد وتطوف في انحاء اليمن يزفون البشرى لجماعة المسلمين ويدعون الآخرين بالتوبة والانابة الى الله وشقت أصواتهم فجاج الأرض وأطباق السماء بقول الله تعالى:

﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

وانتهت مهمة معاذ على أرض اليمن وعاد الى رسول الله ﷺ مهموماً مكدوداً لأن ماله كله أغلقه في الدين.

وطلب من الرسول ﷺ أن يسأل غرماءه أن يضعوا له دينه.

فأبوا عليه ذلك، ولو تركوا لأحد من أجل أحد لتركوا لمعاذ من أجل رسول الله ﷺ.

فباع النبي ﷺ ماله كله في دينه.

وقام معاذ من مجلس الدين بلا شيء.

فأرسله الرسول ﷺ مرة أخرى الى أرض اليمن ليجبره فمكث معاذ باليمن أميراً، وكان أول من اتجر في مال الله معاذ.

وأصاب كثيراً وأصبح له مال وثروة.

ومات الرسول ﷺ بعد أن أدّى الأمانة وبلغ الرسالة فعاد الى المدينة وتولى أبو بكر الصديق الخلافة.

وعلم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — بثروة معاذ التي عاد بها من اليمن نتيجة متاجرته في مال الله.

فقال عمر لأبي بكر: أرسل الى معاذ فدع له ما يعيشه، وخذ سائره منه. فقال أبو بكر: إنما بعثه النبي ﷺ ولست بآخذ منه شيئاً إلّا أن يعطيني.

فانطلق عمر إليه إذ لم يطعه أبو بكر.

وقال يا معاذ خذ ما يكفيك ورد سائره لبيت المال.

فقال معاذ: إنما أرسلني إليه النبي ﷺ ليجبرني ولست بفاعل ما تقول به.

فذهب عمر ورضي بما قاله معاذ أن النبي أرسله ليجبره فلا فتوة لعمر فيما أمر به الرسول ﷺ.

وتمر الأيام وتكر الليالي ويذهب معاذ الى بيت عمر ويطرق عليه بابه ويلتقي عمر ومعاذ ويتساءل عمر ما بك يا معاذ؟..

فيقول: يا أخي يا عمر: قد أطعتك في أمر المال وأنا فاعل ما أمرتني به. ويقول عمر: يا معاذ هذا أمر قد فرغنا منه ولقد راجعت نفسي لأن الذي أرسلك رسول الله ﷺ وما كان لي أن أتي نفسي فيما أمر به الرسول. وتمتم عمر بينه وبين نفسه بصوت لا يبين:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم».

قال معاذ : لقد رأيت في المنام أني في حومة ماء قد خشيت الغرق فخلصتني منه يا عمر.

عندها قال عمر: رحمك الله يا أخي معاذ.

وانطلقا سوياً حتى أتيا أبا بكر وذكرا ذلك كله له. وحلف لا يكتم شيئاً من مال أعطاه الله له.

فقال أبو بكر: لا. يا معاذ لا آخذ منك شيئاً قد وهبته لك.

فقال عمر: يا معاذ هذا خير حلٍّ وطاب.

ويتعانق فرسان مدرسة البنوة وتهطل دموعهم فتخضل لحاهم خشية ورهبة من الله تعالى.

أسباب نزول الآيات

قال الامام القرطبي عند تفسيره قول الله تعالى ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾.

نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع الى دينهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً ﴾. و«من» على هذا القول للتبعيض وقيل : جميع أهل الكتاب فتكون «من» لبيان الجنس. ومعنى «لو يضلونكم» أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له.

وقال ابن جريج : «يضلونكم» أي يهلكونكم ومنه قول الأخطل :

كنتَ القذى في موج أكدر مزبد قذف الأتي به فضلَّ ضلالا[1]

وقال ابن الجوزي في التفسير : قوله تعالى ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ سبب نزولها أن اليهود قالوا لمعاذ بن جبل ، وعمار بن ياسر تركتما دينكما واتبعتما دين محمد ، فنزلت هذه الآية.

قاله ابن عباس : والطائفة : اسم لجماعة مجتمعين على ما اجتمعوا عليه من دين ، ورأي ، ومذهب ، وغير ذلك.

(١) راجع تفسير القرطبي ٤ : ١١٠.

وفي هذه الطائفة قولان ، أحدهما : أنهم اليهود قاله ابن عباس ، والثاني : اليهود والنصارى قاله أبو سليمان الدمشقي. والضلال : الحيرة[1] . وقال الإمام الواحدي في أسباب النزول عند قوله تعالى ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ الآية.

نزلت في معاذ بن جبل ، وحذيفة ، وعمار بن ياسر ، حين دعاهم اليهود الى دينهم ، وقد مضت القصة في سورة البقرة»[2] .

ويقصد قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾[3] .

قال المفسرون : إن المشركين قالوا : ألا ترون الى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، ما هذا القرآن إلّا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله تعالى : ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾[4] . وأنزل أيضاً : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾[5] .

---

(١) راجع زاد المسير في علم التفسير ١ : ٤٠٤.

(٢) راجع أسباب النزول للواحدي ص ١٠٤.

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٦.

(٤) سورة النحل آية رقم ١٠١.

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٠٦.

تذييل...

روى الإمام الترمذي بسنده عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ألا وإن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح. صدق رسول الله ﷺ وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل.

وإذا كان ذلك كذلك فما الدعائم التي يقوم عليها العلم في الاسلام؟..

إن العلم في الاسلام يقوم على دعامتين قويتين.

أ — أولاهما : أن نستفيد من تجارب غيرنا سابقين لنا أم معاصرين ، وعبر الاسلام عن الدعامة الأولى بالسماع قال تعالى :

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[1] .

ب — وثانيهما : استعمال العقل والتجارب في طلب الحقيقة لنهتدي الى ما لم يهتد اليه غيرنا وعبر عنها بالعقل قال تعالى :

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾[2] .

---

(١) سورة ق آية رقم ٣٧.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٢.

ولم يكتف القرآن بذلك بل وضع ضوابط علمية دقيقة لهاتين الوسيلتين للاحتراس من الزلل أو الانحراف ، ولنعرض بعض هذه الضوابط ، لعل الشاردين عن الجادة ، المتجهين الى موائد الشرق والغرب يثوبون الى رشدهم ويعودون الى كتاب ربهم ، ينهلون من معينه ويغترفون من هداه.. من ذلك :

أ ــ ألا يكتم عالم ما اهتدى إليه من معارف وعلوم ، فإن هذه المعارف ليست ملكاً خالصاً له ، وإنما هي هداية من الله وبتوفيق منه يقول تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون إلّا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾[1] .

ب ــ أمانة العلم : ينبغي أن تكون في المحل الأول من الاعتبار بحيث ينقل العالم معلوماته واضحة دقيقة لا لبس فيها ولا تحريف ولا زيادة ولا نقصان. قال تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾[3] .

ج ــ العلم حق مشاع للإنسانية جمعاء وما بعث الله الرسل إلّا مرشدين سواء أكان ذلك بالكتب المنزلة أم بالقدوة الطيبة ، واشتراط الأجر في الاسلام يتنافى مع مبادىء الاسلام إلّا في حالة الاضطرار.

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٥٩.

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٥.

(٣) سورة البقرة آية رقم ٤٢.

قال تعالى: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾[2].

د ـ البعد عن ضياع الوقت في المناقشات الجدلية سواء من جهة المعلمين أم المتعلمين. والواقع أنه لا يضلل العقول، ولا يعوق التقدم مثل المجادلات «البيزنطية» التي تبدّد الجهود، وتضلّ العقول، وتثير الخلافات في غير طائل.

قال تعالى: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾[3].

هـ ـ الإقبال على النافع المفيد، وترك ما لا طائل وراءه من «الأبحاث» العقيمة وقد وصف الله المؤمنين بقوله:

﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾[5]. وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الإلحاح في طلب المحال أو ما يشبه المحال فقال تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾[6].

و ـ التمييز والدقة في اختيار من نتلقى عنه المعارف والعلوم، وقد أشار الله تعالى الى هذا بقوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[7].

وقال تعالى: ﴿فسأل به خبيراً﴾[8].

فتى يعي المسلمون هذا المنهج الذي نادى به القرآن وأمر به الرحمن حتى يصبحوا سادة وقادة؟

متى يا رب؟..

---

(١) سورة يس آية رقم ٢١.
(٢) سورة البقرة آية رقم ٤١.
(٣) سورة غافر آية رقم ٥.
(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٢.
(٥) سورة المؤمنون آية رقم ٣.
(٦) سورة المائدة آية رقم ١٠١.
(٧) سورة النحل آية رقم ٤٣.
(٨) سورة الفرقان آية رقم ٥٩.

سالم بن معقل مولى أبي حذيفة

رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ
ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾
وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ
أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾



[سورة المائدة آية ٨٧ – ٨٨]

أقوال العلماء في نزول هذه الآيات

اتفق كثير من العلماء والمفسرين أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة منهم سالم مولى أبي حذيفة.

قاله ابن جرير في التفسير ١٠ : ٥١٩ عن عكرمة.

وقاله السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ.

وقاله الترمذي في سننه ٤ : ٩٧ وقال : هذا حديث حسن غريب.

وقاله الامام البخاري : ٨ : ٢٠٧ عن عبد الله بن مسعود.

وقاله الامام الواحدي في أسباب النزول ١٩٨ — ١٩٩.

فمن هو سالم مولى أبي حذيفة؟...

سالم بن معقل مولى أبي حذيفة

هو سالم بن معقل مولى أبي حذيفة.

من أهل فارس التي أنجبت «بوداسف» الذي أحدث مذهب الصابئة القائلين بأن الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات.

والتي أنجبت «بختنصر» الذي وطىء الشام وفتح بيت المقدس وسبى بني اسرائيل.

والتي أنجبت «زرادشت» الذي وضع لهم كتاب الحكمة ويسمى «بستاه» وشرحه بتفسير سماه «زندا».

والتي أنجبت «اردشير» الذي وصى ابنه «سابور» قبل موته بقوله:

«يا بني: إن الدين والملك أخوان ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه.

فالدين أس الملك، والملك حارسه وما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع».

هذه البلاد صاحبة الحكمة والأقوال الصائبة في كل شئون الحياة عجزت بهذه العقول عن الوصول الى خالق الأرض والسماء، الذي يحيي ويميت وتصورت إلهها في النار التي تقاد بأيديهم ويشتعل لهيبها بارادتهم. أين ذهبت هذه العقول؟..

وكيف هداها تفكيرها إلى أن النار التي يمكن أن تخمد وتتلاشى بقليل من الماء هي الالهة التي تملك الأرض والسماء وتمسك السماء أن تقع على الأرض...

هل عاش سالم في تلك البلاد التي حوت الكثير من المتناقضات؟..

هل استمتع بخرير مائها وتدفق أنهارها وجمال مناخها؟

هل تجول سالم في بساتينها الفواحة وحدائقها المثمرة؟..

هل ساقته قدماه الى معابدها المتأججة بالنار الملتهبة؟..

التأريخ لا يتحدث عن ذلك ويتجاهل طفولته بالكامل وليس هناك بصيص من نور يلقى على طفولته أو يتناول شيئاً من شبابه.

وكل الذي يبدأ التاريخ به حياة سالم أنه عبد بثينة بنت يعار الأنصارية كانت من المهاجرات الأول ومن فضلاء النساء الصحابيات.

وزوجها: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ــ كان من فضلاء الصحابة من المهاجرين الأولين جمع الله له الشرف والفضل، صلّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعاً وكان اسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. هاجر مع امرأته الى أرض الحبشة ثم قدم على الرسول ﷺ وهو بمكة فأقام بها حتى هاجر الى المدينة، وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية والمشاهد كلها وقتل يوم اليمامة شهيداً.

وعندما اعتقت زوجته سالماً والاه أبو حذيفة وتبناه فكان ينسب اليه ويقال سالم ابن أبي حذيفة حتى نزلت.

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

ويشب سالم في بيت أبي حذيفة ويخط شاربه ويبلغ مبلغ الرجال وهو يختلط بزوجه وأهله وأصبح أبو حذيفة لا يستريح إليه.

وتذهب الزوجة الى رسول الله ﷺ وتقول : يا رسول الله إن سالماً قد بلغ ما يبلغ الرجال. وعقل ما عقلوا وإنه يدخل علينا وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً.

فقال لها النبي ﷺ أرضعيه تحرمي عليه ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة».

فقالت : وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟..

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

« قد علمت أنه رجل كبير ».

فرجعت فقالت : إني قد أرضعته فذهب الذي في نفس ابي حذيفة. وتتسامع زوجات النبي ﷺ بما فعلته زوجة أبي حذيفة مع سالم من تحريم الرضاعة. فيرفض أن يدخل عليهن أحدٌ بتلك الرضاعة وقلن لعائشة : والله ما نرى هذه إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة.

فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا».

ويعيش سالم في بيت أبي حذيفة حتى جاء أمر من الله لرسوله بالهجرة وتتابع المسلمون خلف نبيهم في اللحاق به في يثرب.

وهاجر سالم الى المدينة مع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ومعهم نفر من الصحابة ، وكان سالم يؤمهم في الصلاة لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — كثير الثناء عليه حتى قال بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي : لو كان سالماً مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته.

وفي المدينة آخى رسول الله ﷺ بين سالم وبين معاذ بن ماعض بن قيس بن خلدة بن عامر الأنصاري شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة.

وتابع سالم حياته في المدينة بجوار الرسول ﷺ لقد كان سالم في استقباله عندما وطئت أقدام ناقته أعتاب المدينة ، وشارك سالم أهل المدينة فرحتهم بقدوم الرسول ﷺ.

وتحلقوا حوله يحدثهم حديث الهجرة، وأنه خرج من بيته فوجدَ كفار قريش يحيطون به من كل جانب في أيديهم السيوف، وفي قلوبهم الحقد، فأخذ قبضة من تراب فألقاها عليهم فأخذ الله أبصارهم. وخرج عليهم لا يراه أحد منهم وسلط الله عليهم النوم فناموا فلم يوقظهم إلا مس الشمس.

قال سالم: يا رسول الله ماذا فعلت قريش عندما رأت على رؤوس رجالها التراب وهم يغطون في نوم عميق وقد أنقذك الله من أيديهم؟..

قال أبو بكر: دعوا رسول الله يستريح من مشقة الطريق وأحدثكم أنا حديث الهجرة لقد فجعت قريش عندما علمت أن محمداً فرَّ منها وجعلت لمن يأتي به دية مائة ناقة. فتبعنا سراقة بن مالك.

وأوشك أن يلحق بنا ونحن في أرض صلبة فقلت يا رسول الله: أدركنا الطلب؟.. فقال الرسول ﷺ لا تحزن إن الله معنا.

ودعا رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه الى بطنها وثار من تحتها مثل الدخان.

فقال سراقه: ادع لي يا محمد ليخلصني الله ولك عليَّ أن أرد عنك الطلب؟.. فدعا له فتخلص مما هو فيه.

فعاد سراقة ليتبعهم فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى.

فقال يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك عليّ فادع لي ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب. فدعا له فخلص وقرب من النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله خذ سهماً من كنانتي وإن إبلي بمكان كذا فخذ منها ما أحببت. فقال الرسول ﷺ: لا حاجة لي في ابلك؟.

فلما أراد أن يعود عنه قال له رسول الله ﷺ.

«كيف بك يا سراقة إذا سورت بسواري كسرى؟..

قال : كسرى بن هرمز؟.

قال الرسول ﷺ : نعم.

ثم سرنا تحت رعاية الله وعنايته حتى دخلنا المدينة.

وانصرف المسلمون بعد ذلك حتى يأتوا مبكرين لبناء مسجد الرسول ﷺ . لقد أرسل الرسول عليه السلاح إلى ملإ من بني النجار فجاؤوا فقال : يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا.

قالوا : لا. والله لا نطلب ثمنه إلّا إلى الله.

قال سالم : فكان فيه ما أقول كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب ، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقطع وبقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت.

قال سالم : فصفوا النخل قبلةً وجعلوا جانبه حجارة فكانوا يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم وهم يقولون :

اللهم انه لا خير إلا خير الآخره

فـانصر الأنصـار والمهـاجره

ومن هذا التاريخ أصبح هذا المسجد مكاناً للمسلمين يؤمهم رسول الله ﷺ في الصلاة ، ويجتمعون معه للتشاور في أمر الدعوة والتحالف على الخير ، والتعاون على البر ، والجميع سواسية كأسنان المشط عمر بن الخطاب وبلال بن رباح اخوان.

وقريش وباهلة اكفاء.

الكل من آدام وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلّا بالتقوى أو عمل صالح. وأراد سالم أن يتزوج ليكون له بيت وأهل. وشاور أبو حذيفة في ذلك فأشار عليه أن يتزوج ابنة أخيه فاطمة ابنة الوليد بن عتبة وكانت من المهاجرات الأول ، وهي أيضاً من أفضل نساء قريش.

وعلم الرسول ﷺ والصحابة بما عزم عليه سالم، فشاركوه فرحته وحضروا وليمته ودعا له الرسول ﷺ أن يصلح له زوجته ويبارك له فيها.

وكانت هذه الزوجة نعم المعين لزوجها في أداء ما كلفه الله به من عبادات وأيضاً في الضرب في فجاج الأرض بحثاً عن الرزق الحلال. فكان يعمل سالم بيده ويعود آخر اليوم وقد تورمت يداه من كثرة العمل.

وتقول له وهي ممسكة بيده ألا ترفق بيدك وجسمك وتدخرهما للجهاد في سبيل الله؟..

ويقول سالم: إن العمل في أي صورة من صوره عبادة — وهذه اليد المتورمة من كثرة العمل يد يحبها الله ورسوله.

وهاتان اليدان إذا دعا داعي الجهاد ستكونان سيفين باترين لجندلة الكفر ورفع راية التوحيد وتسمعين عنهما ما يسرك.

ويملأ الاشراق والبهجة وجه هذه الزوجة المؤمنة وتدعو لزوجها أن يوفقه الله للعمل لنصرة الدين والشهادة في سبيله ليكون مثواه في الجنة عند مليك مقتدر.

وتأتي مرحلة المواجهة مع أعداء الله، ويشارك سالم في دحر عصابة الكفر في غزوة بدر، وفي إبطال كيدهم في غزوة أحد، وفي حفر الخندق مع جماعة المسلمين في غزوة الأحزاب. ولم يتخلف سالم عن مشهد من المشاهد شهده رسول الله ﷺ وكان فقيهاً في دينه عالماً بكتاب ربه قارئاً له.

عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنه — قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة.

من ابن أم عبد «عبد الله بن مسعود» وبدأ به.

ومن أبي بن كعب.

ومن سالم مولى أبي حذيفة.

ومن معاذ بن جبل».

ثم ماذا؟.. مات الرسول ﷺ كما مات الأنبياء والرسل قبله. وسمعت جزيرة العرب بوفاته فارتدت على أعقابها وامتنعت عن أداء الزكاة ودفع ما كانت تقدمه للرسول ﷺ.

واستطاع الخليفة أبو بكر أن يجيش الجيوش ويعد الكتائب حتى يعيد هؤلاء الشاردين إلى ساحة الإيمان، وكانت أعتى الأماكن «اليمامة» التي يقودها مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة. وكان معه أكثر من أربعين ألف مقاتل. فسار إليه خالد ابن الوليد ومعه مجموعة من الصحابة الذين شاركوا في غزوة بدر ولما علم مسيلمة بمسيرهم قال شرحبيل بن مسلمة:

«يا بني حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة، فإن انهزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير خطيبات فقاتلوا عن أحسابكم، وامنعوا نساءكم.

وأعد خالد عسكره. وجعل راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة.

فقالوا له: نخشى عليك من نفسك.

فقال سالم: بئس حامل القرآن أنا إذاً.

والتقى الجمعان وتقاتلوا قتالاً شديداً وتساقط القتلى وأوشك المسلمون أن يدال عليهم.

فقال ثابت بن قيس: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين. اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء — يعني أهل اليمامة — وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء — يعني المسلمين وقاتل حتى قتل.

وقال زيد بن الخطاب: والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فاكلمه بحجتي. غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدماً. ففعلوا فردوا عصابة الكفر حتى أعادوهم الى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عساكرهم.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال وحمل عليهم فأصابه سهم

غائر. فأخذت الراية منه. ثم قال خالد بن الوليد امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى.

وقاتلوا قتالاً شديداً فتراجع أهل اليمامة الى حديقتهم واغلقوا دونهم الأبواب فتقدم البراء بن مالك والقى بنفسه عليهم وفتح باب الحديقة وانداح المسلمون فيه يعملون فيهم القتل والضرب حتى أثخنوهم وألقى وحش حربته وقتل بها مسيلمة الكذاب.

وتقدم عبد الله بن عمر — رضي الله عنه — الى سالم مولى أبي حذيفة وهو يمسك بيده سهماً مغروساً في صدره فساعده حتى انتزعه. وقال له: أتبغي شربة ماء أسعفك بها.

فأشار سالم بيده: أني لا أريد.

وسأل عبد الله كيف حال المسلمين.

فقال له: الحمد لله تم النصر وقتل الله عدوه مسيلمة الكذاب.

فقال سالم: الحمد لله وتمتم ببعض كلمات ثم فاضت روحه الى بارئها. رحمه الله وجعل الجنة مثواه.

أسباب نزول الآية

روى الترمذي وغيره عن ابن عباس :

أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء ، وأخذتني شهوتي فحرمت عليّ اللحم ، فأنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير من طريق الموفى عن ابن عباس : أن رجالاً من الصحابة منهم : عثمان بن مظعون حرموا النساء واللحم على أنفسهم وأخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم لكي تنقطع الشهوة عنهم ، ويتفرغوا للعبادة ، فنزلت .

وأخرج نحو ذلك من مرسل عكرمة وأبي قلابة ومجاهد وأبي مالك والنخعي والسدي وغيرهم .

وفي رواية السدي : أنهم كانوا عشرة . منهم : ابن مظعون وعلي بن ابي طالب ، وفي رواية عكرمة منهم :

ابن مظعون وعلي وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالم مولى أبي حذيفة .

وفي رواية مجاهد : منهم ابن مظعون ، وعبد الله بن عمر وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود ، وعثمان بن مظعون ، والمقداد بن الأسود ، وسالم مولى أبي حذيفة توافقوا أن يجبوا

أنفسهم ، ويعتزلوا النساء ولا يأكلوا لحماً ولا دسماً ، ويلبسوا المسوح ، ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتاً وأن يسيحوا في الأرض كهيئة الرهبان ، فنزلت . وروى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله ، وهو عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفه انتظاراً له فقال لامرأته : حبست ضيفي من أجلي ، هو حرام عليّ ، فقالت امرأته : هو علي حرام ، فقال الضيف : هو عليّ حرام . فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا باسم الله ، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم ، ثم أنزل الله ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ .

تذييل...

قتل سالم مولى أبي حذيفة في موقعة اليمامة.

تلك الموقعة التي أشعل لهيبها رجل ادعى النبوة، وزعم أن الوحي يأتيه من السماء وهذا الدعي الكذاب، وجد الكثير من الأتباع والأنصار، الذين صدقوا فريته وآمنوا بأضاليله.

وكان يمكن أن ينتشر إفكه في أنحاء البسيطة وتتحول حياة الناس أمام هذا الى كذبة كبيرة لا يستطيعون الفكاك منها.

حدث هذا في حياة فرعون.

وتكرر نفس الفعل مع الذي حاجَّ ابراهيم، وتوالت صوره وأشكاله في حياة كل الطغاة والمتجبرين الذين عرفتهم البسيطة وتركوا بصماتهم الملطخة بالدماء على جبهة البشرية.

والعلاج لمثل هؤلاء الأدعياء أن نحتكم وإياهم الى السيف، فهو القادر على اظهار كذبهم، وكشف سحرهم.

ولا بد في هذه الحالة أن يسقط شهداء، وتراق الدماء، وتصهر النفوس في أتون المعركة.

فالشهداء دائماً في كل معركة هم الطريق الى ابراز الحقيقة.

والدماء التي تراق في سبيل الله هي المظهر المزيل الذي يغسل ظهر الأرض من الكفر والفسوق والعصيان.

لقد قتل في معركة اليمامة: زيد بن الخطاب — رضي الله عنه — وقتل ثابت بن قيس، الذي دل بعد موته على سيفه ودرعه.

وقتل الطفيل بن عمرو الداعية الى الله تعالى، وقتل سالم مولى أبي حذيفة الذي قال عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — بعد طعنه: لوكان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته.

وكان هؤلاء الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيل الله هم المد الاسلامي الكبير الذي حمل راية الجهاد وانداح بها في أربعة أركان الأرض.

كان هؤلاء الشهداء القوة الضاربة التي سار على دربها رفقاء السلاح والأبناء حتى وقف أحدهم على شاطىء البحر المحيط وقال كلمته المشهورة «والله لو أعلم أن خلف هذا البحر قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بمحمد لخضت لهم بهذا الفرس».

القوة الضاربة التي توغلت في مجاهل أفريقيا، وأعلنت فيها اسم الله الأكبر. القوة الضاربة: التي وصلت الى السند والهند وإلى صقليا، وقبرص، وكروسيكا موطن نابليون على مشارف فرنسا.

والآن وفي هذا العصر — عصر القرن العشرين — ما أكثر الأدعياء، أدعياء الدجل والشعوذة، أدعياء السياسة والحكم، أدعياء الربح الرخيص وتجارة الشعوب، حتى أصبحت الحياة غابة متشابكة الأغصان، مشرعة الأشواك السامة القاتلة.

غابة افتقدت قانون الغابة، فأصبح لكلٍ رأي يجب أن يفرضه على الآخرين بقوة السلاح.

وأصبح لكل طامع قوة نووية فتاكة، يسطو بها على الآخرين، ويروع بها الآمنين، وينتزع لقمة الخبز من أفواه الجائعين.

وأحرى بأبناء المسلمين اليوم أن تكون لهم معركة أخرى كمعركة اليمامة يحطمون فيها أتباع الكفر، وعبدة الطاغوت، ويزيلون من على وجه البسيطة التسلط وأذنابه.

عندها تصبح الأرضِ خالصة لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

فمتى يتم ذلك يا أبناء الإسلام؟..

نرجو أن يكون ذلك قريباً ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من شاء والله على كل شيء قدير.

النضر بن الحارث

صاحب الأحاجي والأساطير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ
نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ
ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾



[سورة الأنفال الآيات رقم ٣١ : ٣٣]

أقوال العُلَماء في نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير وكتّاب السيَر والتاريخ :
نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث.

قال ذلك الإمام ابن كثير في تفسيره جـ ٢ ص ٣٠٤ .
وقال الإمام القرطبي في تفسيره جـ ٧ ص ٣٩٧ .
وقاله صاحب الدر المنثور جـ ٣ ص ١٨١ .
وقال ذلك أيضاً صاحب سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢٠ .
وقاله الإمام الواحدي في كتابه أسباب نزول القرآن ص ١٣٥ .

فمن هو النضر بن الحارث؟...

النضر بن الحارث
صَاحِبُ الأحاجِي والأساطير

أحد الذين ناوأوا الدعوة الإسلامية في مبدأ ظهورها، ووقفوا لأتباعها بالمرصاد، فطمس الله على قلبه فلم يهتد إلى الحق، وأعمى بصيرته فلم يكتشف النور الجديد الذي ملأ الكون من حوله.

وكان أحد أغنياء مكة ووجهائها، فاستغل ماله وجاهه في التنكيل بأتباع محمد ﷺ ومحاولة فتنتهم عن دينهم.

فأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وفوجئت قريش بالخطة الجديدة التي يتبعها محمد معها، فملأ الغيظ قلبها.. أن تتفلت من بين أيديها هذه الفئة المؤمنة، فاجتمعوا للتشاور في أمر محمد وصحبه، واتخاذ وسيلة فعالة لصد هذه الدعوة التي تنتشر يوماً بعد يوم.

إن وفود العرب يأتون إلى محمد بغية الوقوف على حقيقته.. وما يكادون يلتقون به حتى يتحولوا إلى خلق جديد لا يربطهم بماضيهم رباط، ولا يجمعهم مع الأصنام جامع.

إن قبائل العرب تهجر أصنامها ولا تدين بالولاء لهم، إذن ماذا يبقى لهم من جاه أو سلطان؟...

إن هذا الأمر لا ينبغي السكوت عليه...

عندها أرسلوا عبد الله بن أمية ليحضر لهم محمداً.. حتى يضعوا معه حداً لمثل هذه الأمور.

وجاء الرسول ﷺ وعرضوا عليه دنياهم البسيطة، وجاههم المحدود، وأموالهم التي لا تساوي عند الله شيئاً.. نظير أن يترك هذا الدين الجديد، الذي سفه أحلامهم، وسخر من آلهتهم وفرق جماعتهم.

ولكن الرسول ﷺ ما كان في مقدوره أن يتخلّى عن رسالة ربه، أو أن يعصى له أمراً. وكيف يكون ذلك والله سبحانه وتعالى يقول له: ﴿ فاصدع بما تؤمَر واعرض عن المشركين ﴾[1].

وقام عنهم رسول الله ﷺ حزيناً أسيفاً، لأن الله سبحانه وتعالى لم يهد قومه.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش.. إن محمداً قد أبى إلّا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا. وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله.. أو كما قال: فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فاسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: والله ما نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد[2].

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف. ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو. وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلته إلى الشام. فكان إذا صلّى — صلّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده.

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٩٤.

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٨.

وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم؟..

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل.. لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهمَّ بي أن يأكلني.

فلما قال لهم ذلك ، قام النضر بن الحارث وقال : يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر.. لا والله ما هو بساحر.. لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدَهم . وقلتم : كاهن.. لا والله ما هو بكاهن.. قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر.. لا والله ما هو بشاعر.. قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها.. هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون.. لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه.. يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم(١) .

فلما قال لهم ذلك بعثوه ومعه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة وقالوا لهما : اسألوهم عن محمد ، وصفا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا منه شيء ، هو علم الأنبياء .

وأخذا طريقهما إلى المدينة ، يسرعان إليها بغية أن يجدا عند هؤلاء القوم طلبتهم أو تفسيراً لما جاء به محمد ﷺ.. وهناك في حي اليهود الذي كان يعرَف بهما ، ألقيا رحلهما.. وأخذا يضعان بين أيدي اليهود حقيقة محمد.. يصفان لهم أمره ويخبراهم ببعض قوله.. ويصوران لهم حياته.. ثم قالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئنا لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٩.

نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم .. فإنه قد كان لهم حديث عجيب .. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ . وسلوه عن الروح ما هي ؟ .. فإن أخبركم بذلك فاتبعوه ، فإنه نبي .. وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

وعاد النضر بن الحارث وصاحبه عقبة بن أبي معيط .. وفي نادي مكة حطا رحلها ونادى مناديهم : يا معشر قريش .. هلموا إلينا .

فلما اجتمع الناس إليهم قال النضر بن الحارث : يا معشر قريش .. قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ .. قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ المشارق والمغارب ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ ..

قال : فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن . فانصرفوا عنه ، أي لم يقل إن شاء الله .

فمكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه .

وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاء جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف .. فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

ويقال إن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً .

فقال له جبريل: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾[1].

ثم نزل قول الله تعالى، بعد أن أجاب عن أسئلتهم التي سألوها: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾[2].

فهل آمنت قريش بعد أن أجاب الرسول عن أسئلتها؟..

هل عاد لها صوابها، ورجعت إلى رشدها وصدقت بمحمد؟..

وهل اقتنع النضر بن الحارث بعد أن سمع الإجابة من رسول الله ﷺ؟..

إن اليهود قالوا له بالمدينة: إن أجاب محمد على هذه الأسئلة فهو نبي...

وقد أجاب عنها ووضحها لهم.. فعلام الجحود والتسلط؟.. ولكن لا عجب، إنه الكفر الذي يعمي ويصمّ... الكفر الذي يعبّر عنه قولهم.. كما حكاه القرآن:

﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[3].

وهو قول غريب يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقاً.

إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة تأخذها العزة بالإثم، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه.

وبمثل هذا العناد كان المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله ﷺ ولكن عندما فشل هذا العناد فكروا ودبروا ومكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين.

(١) سورة مريم آية رقم ٦٤.
(٢) سورة الكهف آية رقم ٢٢.
(٣) سورة الأنفال آية رقم ٣٢.

لقد دعت قريش إلى اجتماع عاجل في دار الندوة، وأخذوا يتشاورون ويتجادلون، فقال النضر بن الحارث: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فاجمعوا فيه رأياً.

فتشاوروا قليلاً ثم قال أمية بن خلف: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير والنابغة ومَن مضى منهم حتى يصيبه ما أصابهم.

قال إبليس، وكان حاضراً في هذه الجلسة: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعونه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم.. ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره فتشاوروا عليه.

ثم قال عقبة بن أبي معيط: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وإلفتنا كما كانت.

قال إبليس: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟.. والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل ما أراد.. دبروا فيه رأياً غير هذا..

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟..

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً فتى جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالدية فأعطيناها لهم.

قال إبليس : القول ما قال الرجل.. هذا الرأي لا أرى غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون عليه[1].

ولكن خاب تدبيرهم وبطل كيدهم وخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم ملتفون بمنزله يريدون القضاء عليه، ووضع على رؤوسهم التراب، وهاجر إلى يثرب مدينة الأنصار وموطن الرجال الذي قال فيهم رسول الله ﷺ : «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار».

ونزل قول الله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[2].

ولكن قريشاً لم تكتف بإخراج الرسول من بلده.. والتنكيل بأهله وأتباعه، بل أعدت جيشها الجرار للقضاء على الرسول ﷺ وأتباعه، يحمل ألويتها ثلاثة من بني عبد الدار هم النضر بن الحارث ولواء مع عزيز ابن عمير والثالث مع طلحة بن ابي طلحة.

ودارت رحي المعركة، وقاتل أبطال الإسلام قتالاً مريراً وأنزل الله ملائكته لتشد من أزرهم.. ونُصروا نصراً مؤزراً.. ودارت الدائرة على حزب الكفر وأهله.

فأين النضر بن الحارث في هذه الموقعة؟... هل تناوشته السيوف وقطعته إرباً كما فعلت مع عدو الله أبي جهل وصاحبه أمية بن خلف؟...

إنه لم يحدث ذلك... لقد أعد الله له عذاباً أليماً وأبقاه ليرى الدائرة وهي تدور على قومه حتى يستقر في قلبه أن ما يقوله محمد ﷺ ليس من أساطير الأولين، وليس من قول البشر، وما في مقدورهم لو استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٩٤ ـــ ٩٥.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٠.

نقول بأن النضر بن الحارث لم يقتَل ولكنه وقع أسيراً في أيدي المسلمين.

وعاد الرسول وجيشه الظافر إلى المدينة حتى إذا نزلوا في موقع يقال له «الصفراء» أصدر الرسول ﷺ أمره بقتل النضر بن الحارث فنفذ فيه أمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

أسباب نزول الآيات

قال الإمام ابن كثير عند تفسير الآيات : يخبر الله تعالى عن كفر قريش وعتوّهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون «قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا» وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلّا فقد تحدوا غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً ، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومَن تبعهم على باطلهم .. وقيل إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث كما نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم ، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلّم من أخبار ملوكهم : رستم ، واسفنديار . ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصاً .. أنا أو محمد؟...

ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرَب رقبته صبراً بين يديه ، ففُعل ذلك ولله الحمد.

وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه كما قال بن جرير.

قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وصعيمة ابن عدي والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر فلما أُمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله .. أسيري .

فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول. وأمر رسول الله ﷺ بقتله. فقال المقداد: . يا رسول الله.. أسيري.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم أغن المقداد من فضلك.

فقال المقداد: هذا الذي أردت.

قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[1].

﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾[2].

وأيضاً: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[3].

قال ذلك الإمام البخاري عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة.

وقال عطاء: ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجلّ. والله أعلم[4].

(١) سورة الأنفال آية رقم ٣١.
(٢) سورة الفرقان آية رقم ٥.
(٣) سورة الأنفال آية رقم ٣٢.
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٠٤.

تذييل...

وقفت قريش في وجه الدعوة الجديدة، وحاولوا بكل الأسلحة التي عرفتها البشرية في ذلك الوقت أن يمنعوا مد النور الغامر والضياء الباهر ففشلوا...

عندها تناولوا القرآن بالكيد والدس والمهاترة الرخيصة التي يلجأ إليها أصحاب السياسة والسلطة في كل عصر ومصر...

قالوا بأن القرآن أساطير الأولين.. قالوا ذلك لأنهم وجدوه يخاطب الفطرة مباشرة بالحق الذي تعرفه في أعماقها فتهتز وتستجيب، ويواجه القلوب بسلطانه القاهر، فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك.

وهنا كان يلجأ أصحاب الأمر والنهي في قريش إلى مثل هذه المناورات، وهم يعلمون أنها مناورات.. ولكنهم كانوا يبحثون في القرآن عن شيء يشبه الأساطير المعهودة في أساطير الأمم ليموهوا به على جماهير العرب الذين من أجلهم تطلق هذه المناورات، للاحتفاظ بهم في حظيرة العبودية للعبيد.

... وهذا ما يحدث الآن، وفي عصرنا الراهن.. لقد كان الهدف قديماً صرف الناس عن القرآن وعن كلمة لا إله إلّا الله، فقالوا عليه بأنه أساطير. وأتوا بوزير إعلامهم — كما نقول الآن — الذي تجول في بعض البلاد وقالوا له: قل لهم مثل أساطير محمد.. حدثهم عن الأوهام والخرافات.

فعلوا ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون في وصفهم القرآن بهذا ، وكاذبون على أنفسهم عندما تقوَّلوا هذه الأقاويل ، وكاذبون على المجتمع الذي يعيشون فيه ، وينتمون إليه.

وكانوا يفعلون ذلك لأنهم وجدوا أن الذين كانوا ينطقون بالشهادة ، كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ، ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد النطق بكلمة التوحيد ، وهذا هو الذي كان يزعج الملأ من قريش.

على أن الذي انتهى إليه الأمر في مكة ، أن هذه الأساليب لم تعش طويلاً ، وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين ، وأن القرآن بسلطانه القاهر الذي يحمله من عند الله ، وبالحق العميق الذي تصطلح عليه الفطرة سريعاً قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات ، فلم يقف له منها شيء ، وراح الملأ من قريش في ذعر يقولون : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[1] .

هذا ما حدث قديماً ، فماذا فعلت وسائل التوجيه في عالمنا المعاصر بالنسبة للقرآن؟...

هل في استطاعة هذه الوسائل وما لديها من حيَل وأساليب أن تقول عليه بأنه أساطير الأولين؟...

إن قالوا ذلك فلن يصدقهم أحد ، ولن يستمع إليهم إنسان.

أيدَّعون عليه — في القرن العشرين — بأنه ليس من عند الله وأنه من كلام البشر؟...

إن فعلوا ذلك كذبهم الواقع المشاهد ، وهذه التحديات التي خاضها القرآن على مدار التاريخ الطويل. والتي لم يثبت لها بشر من البشر أو جن من المردة...

(١) سورة فصلت آية رقم ٢٦.

إذن ماذا يفعلون؟.. إنهم لم تعدمهم الحيلة.. فلجأوا إلى أخبث الحيَل وأمكر السبل.. وعكفوا على القرآن وحولوه بواسطة البله من أتباعهم الى نوع من الطرب الذي يشبه الغناء، الذي يرضي السذج من الناس، وأخذت أبواق إذاعاتهم ومرئياتهم تذيعه مرتلاً منغماً، وأوحوا إلى الآخرين أن يجعلوه تمائم للرقى وأحجبة لعلاج المرضى، ووسيلة لجلب الخير، وطرد الشياطين، وتسلية في الجنائز وفي أماكن الموتى والقبور.

هذا ما حدث معهم بالنسبة للقرآن الكريم.. ونتساءل لماذا لم يطبق القرآن في حياة الناس؟.. ولماذا لا تلجأ إليه الحكومات في البلاد الإسلامية، ليكون دستوراً لهم ينظم شئونهم الاجتماعية، ويرشدهم إلى حيَل الأساليب السياسية حتى لا تخدعهم، وينقذهم — بما فيه من توجيه وإرشاد — إلى أحسن السبل لعلاج الأزمات الاقتصادية؟...

لماذا يبعدون القرآن عن الحياة العامة؟...

ولماذا لا يكون القرآن مصدراً من مصادر التوجيه للمسلمين في كل حياتهم؟...

الحقيقة إن تطبيق القرآن يرعبهم، كما أرعب قبلهم كفار قريش...

إنهم على علم كامل أن تطبيق الشريعة الإسلامية تقذف بهم خارج الحكم، وتسلب منهم الجاه والسلطان.

إنها معركة الحكم، ومعركة السلطة، قديماً وحديثاً.. فدعهم في غيهم سادرين.

والقرآن بما فيه من نبع فياض لا يزال يعمل — يعمل في تربية النفوس وفي تنظيم الحياة الخاصة لكثير من المسلمين.. وسيأتي في القريب العاجل — بمشيئة الله — النصر الكبير والفتح المبين.. عندما يصبح كتاب الله دستور الدساتير للأمم المسلمة قاطبة، ومادة التوجيه في العالم بأسره... يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

ثبت بالمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الشعب — مصر.

٣. **أسباب نزول القرآن للواحدي**: تحقيق الاستاذ أحمد صقر.

٤. **تفسير القرآن العظيم**: للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير، دار الأندلس — بيروت.

٥. **تفسير الطبري**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف — مصر.

٦. **الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م.

٧. **الدر المنثور**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المكتبة الاسلامية — طهران.

٨. **في ظلال القرآن**: سيد قطب، دار احياء التراث العربي: بيروت ١٣٨٦ هـ.

٩. **تفسير القرآن العظيم**: لأبي الفداء اسماعيل بن كثير.

١٠. **تفسير الدر المنثور**: للإمام السيوطي.

١١. **تفسير الجلالين**: جلال الدين السيوطي وزميله.

١٢. **أسباب نزول القرآن**: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي.

١٣. **فتح الباري بشرح البخاري**: للحافظ أبي الفضل العسقلاني: المعروف بابن حجر.

١٤. **صحيح الإمام مسلم، بشرح النووي**: المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩ م.

١٥. **مسند الإمام أحمد**: شرح أحمد محمد شاكر: دار المعارف بمصر، ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م.

١٦. **صحيح الترمذي، بشرح ابن العربي**: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣١ م.
١٧. **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**: أ. ي. ونستك، تعريب محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة بريل في مدينة لندن ١٩٦٢ م.
١٨. **الجامع الصغير**: للإمام السيوطي، مطبعة البابي الحلبي ــ القاهرة.
١٩. **كشف الخفا ومزيل الألباس**: اسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة التراث الاسلامي ــ حلب.
٢٠. **تهذيب التهذيب**: لابن حجر العسقلاني، دار صادر ــ بيروت.
٢١. **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، دار صادر ــ بيروت ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م.
٢٢. تاريخ الرسل والملوك: لأبي جعفر محمد الطبري، دار القلم الحديث ــ بيروت.
٢٣. **البداية والنهاية**: الحافظ ابن كثير، مكتبة بيروت ــ ومكتبة النصر ــ الرياض.
٢٤. **الطبقات الكبرى**: ابن سعد، صيدا ــ دار بيروت ١٣٧٧ هـ.
٢٥. **سيرة النبي لابن هشام**: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية ــ القاهرة.
٢٦. **الروض الأنف**: عبد الرحمن السهيلي، دار الكتب الحديثة ــ القاهرة.
٢٧. **مروج الذهب**: للمسعودي، دار الأندلس ــ بيروت ــ مكتبة نهضة مصر.
٢٨. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: لابن عبد البر، دار الأندلس ــ بيروت ــ مكتبة نهضة مصر.
٢٩. **أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر**: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار الفكر بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٣ م.
٣٠. **خلفاء الرسول**: خالد محمد خالد. دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م.
٣١. **العبقريات**: لعباس محمود العقاد.
٣٢. **علي بن أبي طالب ــ بقية النبوة ــ وخاتم الخلافة**: للاستاذ عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت.
٣٣. **هذا هو الطريق**: د. عبد الرحمن عميرة، دار التراث مصر ــ ١٩٧٣ م.
٣٤. **مع الإلحاد وجهاً لوجه**: د. عبد الرحمن عميرة، دار الحلبي ــ القاهرة.

٣٥. **أشهر مشاهير الاسلام**: رفيق العظم.
٣٦. **الاعلام**: للزركلي.
٣٧. **الأغاني**: للأصفهاني.
٣٨. **تاريخ الخلفاء**: للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، مصر — ١٣٠٥ هـ.
٣٩. **تفسير الخازن والبغوي**: المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل والبغوي المسمى معالم التنزيل، دار الفكر — بيروت — لبنان.
٤٠. **تلبيس ابليس**: لابن الجوزي، مصر — ١٣٤٧ هـ.
٤١. **الروض الأنف**: للإمام السهيلي.
٤٢. **الرياض النضرة في مناقب العشرة**: للمحب الطبري... مصر.
٤٣. **سنن الترمذي**: حققه وصححه عبد الرحمن عثمان، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي، صاحب المكتبة السلفية: المدينة المنورة.
٤٤. **سنن الحافظ أبي عبد الله بن يزيد القزويني «ابن ماجه»**، حققه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م — دار إحياء التراث العربي.
٤٥. **تراث الانسانية**: مجموعة من العلماء، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة.

فهرس موضوعات الجزء الثامن

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٤٦٢٩

I.S.B.N. 977 - 01 - 7504 - 8



◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

الثمن ٧ جنيهات مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

